مكتبة
t.me/soramnqraa

آفي شلايم

العَوالم الثَّلاثة

مذكَّرات يهودي - عربي

ترجمة: علي عبدالأمير صالح

منشورات تكوين | مرايا
TAKWEEN PUBLISHING

العَوالم الثَّلاثة

مذكّرات يهودي - عربي

الكاتب: آفي شلايم
عنوان الكتاب: العَوالم الثَّلاثة: مذكّرات يهودي - عربي
ترجمة: علي عبدالأمير صالح

العنوان باللغة الأصلية: Three Worlds: Memoirs of an Arab-Jew
الكاتب: Avi Shlaim

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله
تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-17-9
الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024
2000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

© Avi Shlaim, The Translation of Three worlds: Memoirs of an Arab- Jew is published by the Takween publishing by arrangement with oneworld publications.

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة
تلفون: 40 04 81 98 965 +
بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي
تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com
takweenkw
takween_publishing
TakweenPH
www.takweenkw.com

آفي شلايم

مكتبة
t.me/soramnqraa

العَوالم الثَّلاثة

مذكّرات يهودي - عربي

ترجمة

علي عبدالأمير صالح

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
مرايا

إهداء

إلى النِّساء اللَّواتي رافقنني في الرِّحلة:
موزلي، عايدة، داليا وڤيلما.

المحتويات

شكر وتقدير للطبعة العربية ٩

تقديم ١٣

المقدِّمة ٢١

الفصل الأول: **اليهود – العرب** ٢٥

الفصل الثاني: **اختراعُ العراق** ٤٧

الفصل الثالث: **الجذور العراقية** ٧١

الفصل الرابع: **قصة سعيدة** ٨٥

الفصل الخامس: **الارتباط البريطاني** ١٠١

الفصل السادس: **مدينتي بغداد** ١٣٧

الفصل السابع: **قنبلة بغداد** ١٧١

الفصل الثامن: **وداعًا بغداد** ٢٣١

الفصل التاسع: **أرضُ الميعاد** ٢٥٣

الفصل العاشر: **في مهبِّ الريح** ٣١١

الفصل الحادي عشر: لندن ٣٥٧

الفصل الثاني عشر: الصحوات ٣٩٣

الفصل الثالث عشر: الخاتمة ٤٢١

الهوامش ٤٤٧

Bibliography ٤٥٥

شكر وعرفان ٤٦١

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

شكر وتقدير للطبعة العربية

مكتبة
t.me/soramnqraa

يسعدني أن أقدّم نفسي وكتابي المعنون بـ «العوالم الثلاثة: مذكرات يهودي - عربي» إلى القارئ العربي. تدورُ أحداث هذا الكتاب حولَ تجربة اليهودي العربي. يُعرف اليهودي العربي بأنّه فردٌ يحمل هوية مزدوجة: يهودية وعربية، عاشَ وتأثرَ بثقافة البلد العربي الذي ولدَ وترعرع فيه. تعدّ تجربتي الشخصية في بغداد مثالًا حيًا على هذا التنوع الثقافي الغني الذي باتَ مهددًا بالاندثار. في عام ١٩٥٠، عندما غادرتُ وعائلتي بغداد، كان هناك حوالي ١٣٥,٠٠٠ يهوديّ يعيشون في العراق. اليوم، هناك ثلاثة فقط. كان هدفي من كتابة هذا الكتاب هو سردُ قصةٍ عائلية ومن خلالها سردُ القصة الأكبر للمجتمع اليهودي في العراق. حاولت تصوير وإحياء حضارة يهودية عربية فريدة في الشرق الأدنى في القرن العشرين، حضارة جرفتها الرياح الباردة للقومية، سواء كانت القومية العربية أو القومية اليهودية أو الصهيونية.

أثارت الطبعة الإنجليزية الأصلية من الكتاب اهتمامًا كبيرًا في العالم العربي. انعكس هذا الاهتمام في مقالات الصحف، ووسائل التواصل الاجتماعي، والمناقشات، والمناظرات، والمقابلات التلفزيونية، ولا سيما

مقابلتي التلفزيونية مع علي الظفيري على قناة الجزيرة. لا يعزى النجاح الكبير الذي حققه هذا الكتاب إلى أي مميزات أدبية خاصة، وإنما إلى طرائق جديدة في السرد قدّمها للقارئ العربي، أثارت فضوله وجعلته يكتشف جوانب جديدة من ثقافته. أذكر جيدًا أيام طفولتي، لم يكن التعايش بين المسلمين واليهود فكرة مجردة، بل حقيقة يومية يعايشها. غيّرت الصهيونية الواقع وخلقت انقسامًا عميقًا بين العرب واليهود في المنطقة. تبع ذلك إنشاء دولة إسرائيل في العام ١٩٤٨، مما أدى إلى نزوح جماعي لليهود من الأراضي العربية إلى إسرائيل. تغير المشهد الإنساني والجغرافي للشرق الأوسط على نحوٍ ملموس وإلى الأسوأ. وصارَ لدى جيل العرب المولودين بعد عام ١٩٤٨ فهمًا محدودًا لنوع مختلف تمامًا من الشرق الأوسط المتنوع والتعددي والسلمي الذي كنا أنا وعائلتي محظوظين بما فيه الكفاية بأن كنّا جزءًا منه. آمل أن يمنحهم هذا الكتاب لمحة عن الواقع الاجتماعي للمنطقة قبل ظهور دولة إسرائيل.

أثناء إعداد هذه الطبعة العربية، تلقيت دعمًا من عدة أشخاص يسعدني أن أشكرهم. أولًا وقبل كلّ شيء، السيد محمد العتّابي، المدير العام لمنشورات تكوين، الذي أشرف على كلّ مرحلةٍ من مراحل إنتاج هذا الكتاب من البداية إلى النهاية. كما أنني ممتن للدكتور سنان أنطوان على وضعهِ مقدمة الكتاب القيِّمة والمفيدة. كما أنني مدين للسيد علي عبد الأمير صالح الذي بذل وقتًا وجهدًا كبيرين في ترجمة الكتاب من الإنجليزية إلى العربية. كما قام أيضًا بإضافة العديد من الملاحظات المفيدة حول الأشخاص والأحداث التي قد لا تكون مألوفة للقارئ العربي.

ساهمت صديقتان مساهمةً كبيرة في صقل وتحسين ترجمة النسخة العربية من الكتاب؛ الدكتورة أمل الجبوري، الشاعرة والمؤرخة العراقية التي تقيم الآن في لندن. صدر آخر ديوان لها بعنوان «هاجر قبل الاحتلال، هاجر بعد الاحتلال»، تتناول قصائده العراق القديم قبل الغزو الأمريكي البريطاني عام ٢٠٠٣، وهي قصائد مؤثرة تجسّد حزنًا عميقًا على العراق القديم. الدكتورة الجبوري باحثة ذات قدرات كبيرة وعمق فكري. قدمت أطروحة الدكتوراه في مدرسة الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن بعنوان «بوتقة الذاكرة: الهوية اليهودية العراقية والمواطنة في منظور من الصراع (١٩٥١-٢٠٢٢)». كنت الممتحن الخارجي لأطروحتها، وكانت هذه بداية صداقة جميلة بيننا. كانت خبرة الدكتورة أمل ومعرفتها العميقة وملاحظاتها الثاقبة حول المجتمع اليهودي العراقي مهمة في ضمان دقة ومصداقية الترجمة العربية. أنا مدين لها بامتنان عميق لمساهمتها.

أنا مدين أيضًا لشهد دعباس بالكثير. شهد فتاةٌ فلسطينية من طولكرم في الضفة الغربية. حصلت على درجة الدكتوراه في اللغويات من جامعة أكسفورد. قبل مجيئها إلى أكسفورد، قادت شهد فريقًا بحثيًا أنتج أول معجم رقمي ضخم وشامل لتوثيق اللهجات الفلسطينية المحكية: «مَكْنُونة». على عكس القاموس التقليدي، فإن «مَكْنُونة» هو مشروع حيّ، نابض، ديناميكي يضع اللهجة الفلسطينية في سياقها التاريخي والسياسي والاجتماعي والفكري المناسب. كما يساهم بقوة في الحفاظ على الإرث اللغوي المميز والهوية الثقافية للشعب الفلسطيني. يمتاز المعجم بالعديد من المزايا: فهو مورد مفتوح المصدر ومتاح مجانًا

للعموم. وهو مشروع تعاوني، بل قد يكون مشروعًا ديمقراطيًا، يمكن للقراء المساهمة فيه بتحرير المراجع الموجودة أو إضافة مراجع جديدة، ما يجعل المعجم حوارًا مستمرًا بين المؤلفين ومتحدثي اللهجة الفلسطينية في جميع أنحاء العالم. خلال فترة دراستها في أكسفورد، عملت شهد مساعدةً بحثية لي. وقد ساعدتني أثناء عملي على كتابي وقامت بمراجعة وتدقيق وتحسين مسودات متتالية للترجمة العربية للكتاب. كما راجعت الترجمة سطرًا بسطر وأجرت العديد من التعديلات والتحسينات اللغوية والأسلوبية التي لا حصر لها، والتي حسنت كثيرًا من جودة الترجمة. جدير بالذكر أنها راجعت النص كاملًا لا يقل عن أربع مرات واستمرت في تنقيحه وصقله في كلّ مرة ليكون أقرب ما يمكن إلى النص الأصلي باللغة الإنجليزية. صبر شهد وتفانيها في عملها لا حدود لهما، وحرفيتها في العمل مثالية. أنا مدين لشهد بدين كبير، أخشى ألا أتمكن من سداده يومًا.

آفي شلايم

أكسفورد

١٦/ ٩/ ٢٠٢٤

تقديم

كيف تحولت مقولة وهوية «العربي اليهودي» من حقيقة واقعة، متّسقة مع ذاتها ومحيطها، لا جدال فيها، ولا على تاريخها العريق، إلى ما يظنّه الكثير اليوم طرفيْ نقيض، لا يجوز الجمع بينهما، بل قد يبدو مستحيلًا؟

في ١٢ أيلول ١٩٤٥، السنة التي ولد فيها كاتب هذه المذكّرات في بغداد، قدمت مجموعة من اليهود العراقيين الشيوعيين، طلبًا إلى وزارة الداخلية لتأسيس «عصبة مكافحة الصهيونية في العراق» وكانت أوّل منظّمة لمكافحة الصهيونية في المنطقة. وضمّت: يهودا صدّيق، ويوسف هارون زلخة، ومسرور صالح قطّان، وإبراهيم ناجي، ويعقوب إسحق، ومير يعقوب كوهين، ويوسف زلوف. وما دفع مؤسسيها إلى المبادرة بتنظيم صفوفهم والبدء بالتوعية والنضال ضد الصهيونية هو إدراكهم الأخطار الكارثية المحدقة، لا بفلسطين وحدها فحسب، بل الأخطار التي تهدد وجود ومصير اليهود العراقيين وغيرهم في المنطقة، وما سيترتب من تبعات إذا تغلغلت الصهيونية وحققت أهدافها، فمعظم يهود العراق كانوا يرون أنفسهم عراقيين أولاً، كما يؤكد المؤلف، وكانوا

يخشون عواقب إنشاء دولة يهودية. أصدرت العصبة الكراسات والكتب وعقدت الكثير من الاجتماعات والمؤتمرات وانضم إليها اليهود من مختلف أنحاء العراق وأصدرت صحيفة «العصبة». في ٢٨ حزيران ١٩٤٦ نظم حزب التحرّر الوطني وعصبة مكافحة الصهيونية مظاهرة احتجاجًا على الظلم في فلسطين. اعتدت الشرطة على المظاهرة فجرحت كثيرين وقتلت خمسة متظاهرين، من بينهم أحد أعضاء العصبة، شاؤول طويق (١٩٢٨-١٩٤٦) الذي كان طالبًا، وهو أول شهيد شيوعي في العراق. صدرت أحكام بالسجن ضد أعضاء العصبة وقرار بحظرها.

يذكر شلايم أنه حين سأل والدته إن كان لديهم أصدقاء صهاينة، أجابته بحزم: «الصهيونية شيء أشكينازي، لا صلة له بنا.» كان الهدف الأساسي للصهيونية على أرض فلسطين واضح المعالم وبُحّت الأصوات التي حذّرت من الكارثة التي حلّت في ١٩٤٨. حولت الصهيونية معظم الفلسطينيين إلى لاجئين واقتلعهم من أرضهم، لكنها، كما يذكر المؤلف أيضًا، حولت اليهود العرب بين ليلة وضحاها إلى أجانب وغرباء في بلادهم وماهت، أو كادت تماهي بين اليهودي/ـة والصهيوني/ـة. وفي العراق تحديدًا، بعد أن فشلت الحركة الصهيونية في استمالة يهود العراق وإغرائهم بالهجرة إلى فلسطين -باستثناء أعداد ضئيلة- لجأت إلى أساليب إرهابية. فزرع عملاء الموساد في العراق القنابل وهاجموا المصالح والشركات التي كان يملكها اليهود العراقيون وأحد المعابد، لبثّ الرعب بينهم في ١٩٥٠-١٩٥١. ظلّ اليهود العراقيون عقودًا يحمّلون الصهاينة مسؤولية هذه الجرائم التي يوثقها شلايم بما لا يقبل الشك

في فصلٍ أفرده لها في هذا الكتاب بعنوان «قنبلة بغداد». وتواطأ النظام الملكي الرجعي في العراق آنذاك في سنّ قوانين تضيّق الخناق على اليهود العراقيين وتشرّع وترسّخ التفرقة ضدهم لدفعهم إلى الهجرة، في عهد نوري السعيد (١٨٨٨-١٩٥٨)، الذي لا يفوّت الليبراليون العراقيون اليوم فرصة لتمجيده كرمز لنزاهة وانفتاح ووطنية العهد الملكي ورجاله وسياساته، ولكن يتطلب كل هذا إغفال سجل حافل بالجرائم، لا تسقط آثارها بالتقادم ولا بفداحة جرائم العهود التي تليها. وتلعب منصّات معروفة في منظومة الإعلام العربي السائد دورًا خبيثًا في تنزيه الملكيّات العراقية والمصريّة وشيطنة الأنظمة الجمهورية.

إن الصهيونية أيديولوجية أوربية المنشأ والأفق ومركزها وبؤرتها الجمعية اليهودية الأوربية حصرًا. ولم يكن اليهود العرب، وغير الأوربيين عمومًا، على خارطتها، أو على سلم أولوياتها أصلًا، حتى إن استقدامهم فيما بعد إلى فلسطين كان أداتيًّا بحتًا وللحاجة إلى رأسمال بشري. وكان هناك امتعاضٌ وتردّدٌ في الجدالات التي تنضح عنصرية بين النخب الصهيونية الأشكنازية من عواقب استقدام يهود شرقيين يرون على أنّهم سيجلبون معهم التخلّف والأمراض. يظل الجرح الأعمق في ذاكرة اليهود العراقيين الجمعية، بعد تهجيرهم، هو قيام السلطات في إسرائيل برشهم بالمبيدات بعد هبوط الطائرات التي كانت تقلهم من العراق.

كان آڤي شلايم، مؤلف هذا الكتاب المهمّ، طفلًا في الخامسة من عمره، حين هاجرت عائلته إلى فلسطين. ولم يكن اسمه «آڤي»، آنذاك،

بل «أبراهام». لقد دفع اليهود العراقيون والعرب والشرقيون عمومًا، أثمانًا باهظة بعد نزوحهم إلى إسرائيل. فإضافة إلى خسارة وطنهم وبيوتهم وممتلكاتهم، كان عليهم أن يتأقلموا مع مجتمع عنصري تحكمه تراتبية تتربع على قمتها الثقافة الأوربية التي تزدري ثقافتهم وعاداتهم وطقوسهم. كانت ضريبة الاندماج والانتماء هي الانسلاخ الثقافي المؤلم، الذي يبدأ بتغيير الأسماء، ويتطلّب فقدان الذاكرة أو طمسها وإسكات أصواتها، وتمثّل قيم المجتمع الجديد. التمثّل الذي قد يصل أحيانًا إلى كره الذات والشعور بالعار والتنصل من ماضٍ يتعارض مع السردية الصهيونية الأوربية التي تُهيكل الأسطورة القومية وإنكاره. فلم تكن هذه البلاد المسروقة «فردوسًا موعودًا» لليهود العرب والشرقيين، كما هي للأوربيين الهاربين من محرقة، ومن غربٍ ظَلَّ يكرههم ويلاحقهم بشراسة وصدّر عنصريته إلى بلادنا وثقافتنا التي يُسقِط عليها اليوم عنصريته المتجذّرة. أجبر معظم اليهود العراقيين على ترك «جنّة مال الله» وراءهم. ولم يسمح لهم بأن يحملوا معهم من تلك الجنة إلا الحقائب. لكنهم حملوا ذاكرتهم وتاريخهم وهناك من حافظ عليه وحماه مما قد يشوهه أو يطمسه.

آفي شلايم هو من المؤرخين الجدد الذين ظهروا في إسرائيل ومن أهم وألمع مؤرخي الشرق الأوسط عمومًا وفي سجلّه العديد من الدراسات الرصينة والمتميّزة، من بينها على سبيل المثال: «تواطؤ عبر نهر الأردن: الملك عبد الله، والحركة الصهيونية، وتقسيم فلسطين» (١٩٨٨) و«إسرائيل وفلسطين: إعادة تقييم، ومراجعة، وتفنيد» (٢٠١٠). في

«ثلاثة عوالم» الذي بين أيدينا، يعود هذا المؤرخ البارع الذي أمضى عمرًا ينقّب في الأراشيف والوثائق، يشكّك في السرديّات السائدة، يعود إلى بغداد، ليصطحب الطفل الذي كانه، وأفراد عائلته، ويقتفي خطاهم في خروجهم القسري الأليم من المدينة التي عاشوا فيها حياة مترفة وهانئة. يستعيد شلايم الماضي الشخصي والعائلي بدقة وحرص المؤرخ، ويضعه في سياق تاريخي واجتماعي أوسع لا يغفل تأثير الانحدار الطبقي، سلبًا وإيجابًا. لكن ما يميّز هذه المذكّرات هي الحساسية والمكاشفة التي لا تهادن، سواء فيما يخص الصعوبات التي واجهتها العائلة، أو تلك التي واجهها الكاتب في طفولته، وعلاقته المعقدة بأبيه الذي آثر الصمت ولم يُشفَ من غربته واقتلاعه. لا يخفي شلايم تأثره في شبابه بشتّى الضغوط المجتمعية والسياسية وانجذابه المؤقت لليمين الصهيوني، ويستعيد التحولات التي طرأت على قناعاته وخياراته السياسية التي انتهى بها الأمر على الضفة الأخرى من الصهيونية والأساطير المؤسِّسة لإسرائيل، لم يتردد في تصنيفها كمشروع استيطاني استعماري ودولة نظام تفرقة عنصرية. استعاد شلايم هويته وكينونته عربيًّا يهوديًّا، يفتخر بجذوره وبثقافة غنية وماضٍ عراقيٍّ تُمدِّنا إشراقاته بنور قد يضيء السبيل والمسرى.

صدر هذا الكتاب بالإنجليزية قبل أشهر من الحرب الأخيرة على غزة. ويصدر اليوم بترجمة عربية بعد أن أزهقت آلة الحرب الصهيونية أرواح عشرات الآلاف من الفلسطينيين ودمّرت مقومات الحياة في غزّة. ولم يكن مفاجئًا أن يؤكد شلايم في أكثر من محفل ومناسبة أنها ليست حربًا بين حماس وإسرائيل، بل حربًا كبرى يشنها الاستعمار

الاستيطاني الصهيوني، المدعوم من قبل الإمبريالية الأمريكية، ضد الشعب الفلسطيني. ويؤكد على أن الواجب الأخلاقي يحتم عليه أن يندد بالإبادة ويقف مع الفلسطينيين ويتضامن معهم في نضالهم من أجل الكرامة والحرية والاستقلال.

سنان أنطون

نيويورك في ١٧ حزيران ٢٠٢٤

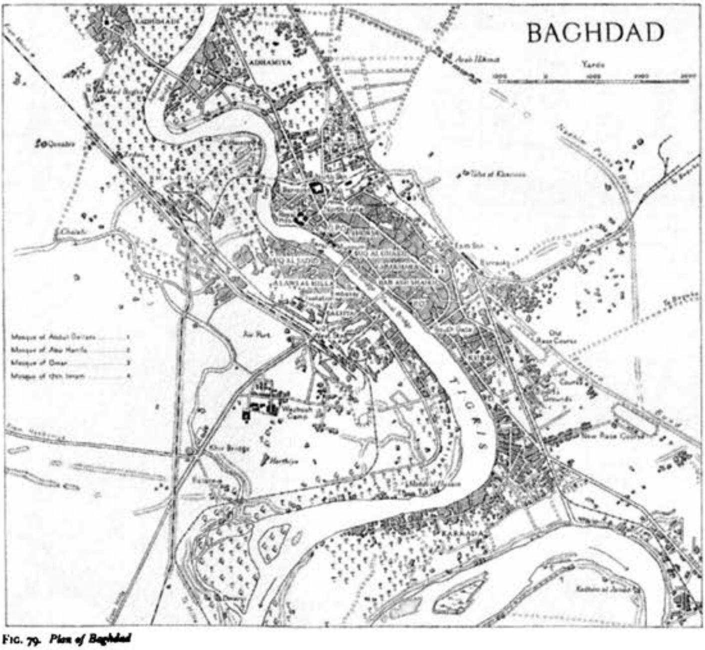

FIG. 79. *Plan of Baghdad*

خريطةُ بغداد في العام ١٩٤٤.

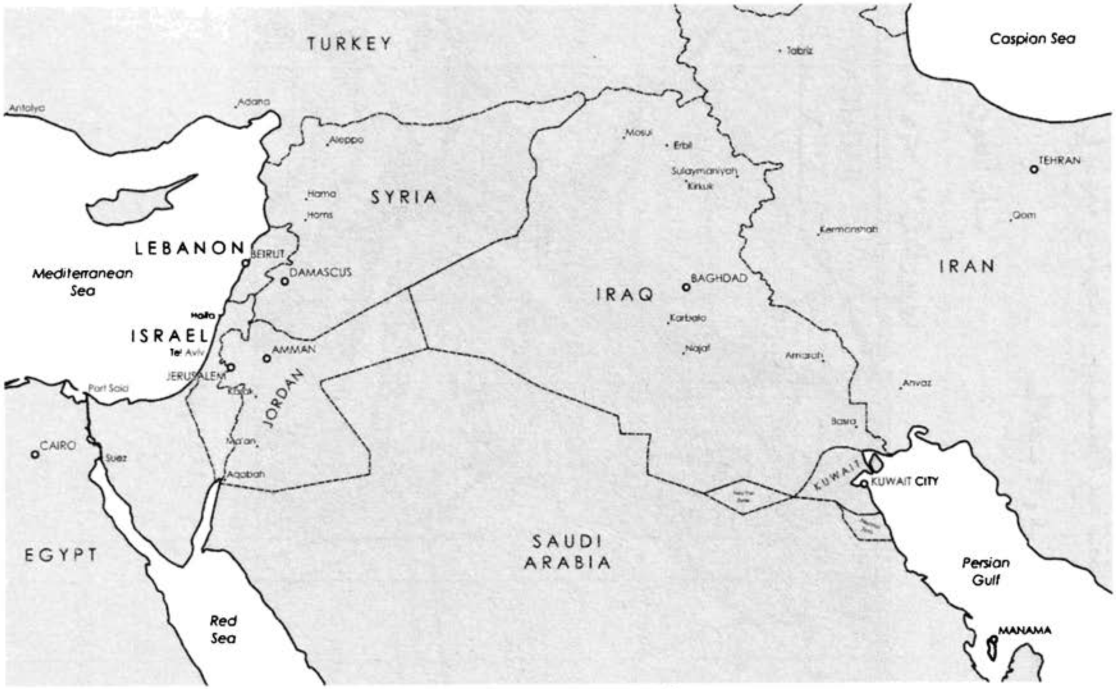

خريطةُ الشرق الأوسط قبل عام ١٩٦٧

المقدِّمة

في يوم صيفيٍّ قائظ، اقترب مني أبي بينما كنتُ أقضي وقتي مع أصدقائي خارج عمارتنا السَّكنية في مدينة رَمات گان الإسرائيلية، شرق تل أبيب. كنا أنا وأصدقائي نرتدي سراويل قصيرة وصنادل، في حين ارتدى والدي بدلةً رسمية من ثلاثة قطع، وقميصًا أبيضَ وربطة عنق. خاطبني باللغة العربية، وهي لغة أجنبية في إسرائيل، وكان عليّ الردّ باللغة العربية أيضًا. غمرني الخجلُ واحمرّت وجنتاي. كانت إجاباتي على أسئلة والدي مشوشة ومقتضبة، أي بالكادِ مسموعة. أردتُ أن أقول له إنه في حين كان من المقبول التحدث باللغة العربية داخل البيت، فإن عليه أن يتحدث معي باللغة العبرية عندما يجدني برفقة الآخرين. لكن أمام أقراني، لم يسعني قول أيِّ شيء. حتى في وقت لاحق في المنزل، لم أستطع التعبير عن هذه المخاوف. كنتُ أتمنى فقط أن تنْشقَّ الأرضُ وتبتلعَني. عدم قدرتي على التواصل مع أبي خلقَ فجوةً في علاقتنا لم تلتئم تمامًا طيلة حياته. إبَّان سنوات طفولتي لم أفكر قطُّ كم كانت هذه الواقعة مُهينةً حتمًا بالنسبة إليه.

كان ذلك في منتصف خمسينيات القرن العشرين، يومَ كنتُ في سن العاشرة تقريبًا. وُلدتُ في بغداد عام ١٩٤٥ لأسرة يهودية، قبل ثلاثة

أعوام من ولادة دولة إسرائيل. انتقلت أسرتي من بغداد إلى إسرائيل في العام ١٩٥٠ حين كنتُ في الخامسة. في البيت كنا نتكلَّم بالعربية؛ أما لغة دولة إسرائيل الوليدة، التي تأسست حديثًا، فهي العبرية، وهي لغةٌ أعيد إحياؤها وتحديثها لتناسب العصر الحديث، حيث استُمدت من جذورها العبرية التوراتيَّة. تعلمناها أنا وشقيقتاي بسرعةٍ شديدة في المدرسة وتحدثنا بها مع أصدقائنا وفيما بيننا كذلك. في حين ظلّ والدي، الذي كان في منتصف خمسينياته، يسعى جاهدًا من أجل تعلُّم لغةٍ صعبة للغاية.

لذا كان طبيعيًا تمامًا أن يخاطبني بالعربية - إنَّما بالنسبة إليَّ كان هذا أمرًا شديدَ الإحراج، على نحوٍ مُوجِع تقريبًا. أسَّسَ اليهود القادمون من أوروبا إسرائيل، وتباهت بنفسها كونها جزءًا من الغرب، ممَّا كان يُسمى وقتها عمومًا بـ«العالَم الحُر». كانت ترى نفسَها، وتقدِّم نفسها لبقية أنحاء العالَم، على أنها جزيرةَ الديمقراطية في بحرٍ من الحُكم الاستبدادي. كنا يهودًا من بلد عربي لا يزال -رسميًا- في حربٍ مع إسرائيل. كان اليهود الأوروبيون يميلون إلى ازدرائنا اجتماعيًّا وثقافيًّا ويعتبروننا أدنى منزلةً منهم. كما أنهم يحتقرون اللُّغة العربية وما يعتبرونه أصواتها الحَلْقية الغريبة. لم تكن العربيةُ لغةَ «العدو» فحسب، بل كان يُنظَر إليها على أنها لغةٌ قبيحةٌ وبدائيةٌ.

عندما كنت صبياً صغيراً سريعَ التأثر، تبنَّيتُ وترسَّختْ في داخلي قناعات وتحيزات بيئتي الجديدة. أردتُ أن أدير ظهري لإرثي العربي، ولثقافة وتقاليد الشَّتات، وأن أتحوَّل إلى «إسرائيلي جديد» يتكلَّم اللغة

العِبرية. لم ينسجم جيدًا التحدُّث باللغة العربية مع الهُويَّة الجديدة التي تبنيتُها. على ما يبدو هذه الحادثة العَرَضية الصَّغيرة تُجَسِّد الاضطراب العاطفي المزعج الذي عذَّبني خلال سنوات طفولتي في إسرائيل. في حين أنها لم تكن ببساطةٍ مسألةَ لغة.

فالتحوُّل من العَربية إلى العِبرية لم يكن إلَّا بُعدًا واحدًا من التغيير الجوهري الذي خضعنا له: أنا وأبي وأمّي وشقيقتاي، عقبَ وصولنا إلى إسرائيل.

«مَعبد مائير تويغ» في بغداد.

الفصل الأول

اليهود - العرب

لو تعيَّن عليَّ أن أحدِّد عاملًا رئيسًا، واحدًا، شكَّل علاقتي المبكرة مع المجتمع الإسرائيلي، سيكون عُقْدَة النَّقْص. كنتُ صَبيًّا عراقيًّا في بلاد الأوروبيين. غالبًا، ويا للعجب، لم ينجمْ عن هذا الأمر سلوكًا متمرِّدًا في سنواتي المبكرة. على العكس، بدا الوضع الراهن هو النظام الطبيعي للأشياء: تقبَّلتُ دونَ ريبٍ التَّسلسل الهَرمي الاجتماعي الذي وضعَ اليهود الأوروبيين على القمَّة؛ ويهود البلدان العربية والإفريقية في القاع. كما لم أكن أؤمن بأن لدي أي قدرات أو مواهبَ خاصة لم يميزها المجتمع الإسرائيلي. لم يكن لديَّ ذلك الشعور الجارف بالظلم الذي من شأنه أن يدفعَ بعضَ الأطفال المهمشين إلى إثبات أنفسهم. رأيتُ نفسي صبيًّا اعتياديًّا أمامه بعض العوائق والتحديدات، وما من دليلٍ يُبشِّر بمستقبلٍ زاهر. كنتُ كسولًا، خاملًا، مُنسلخًا عن بيئتي، ولكن، في الوقت نفسه، مستسلمًا لقدَري. كان هاجس تحسين مكانتي عبر بذلِ جهودي الخاصة بعيداً، تمامًا، عن طريقة تفكيري.

يومذاك، لم أدركْ أنَّ كوني عراقيًّا في إسرائيل له حَسَنات بالإضافة

إلى السيئات. الحَسَنة الرئيسة بالنسبة إليَّ، في حياتي المتأخرة، هي قدرتي على تجاوز القوالب القومية الجاهزة وتبنّي وجهة نظر متوازنة أكثر، إنْ لم تكن مستقلَّة، حيال الصراع العربي - الإسرائيلي. هذا الصراع ليس صراعًا اعتياديًّا. إنَّه من أشد الصّراعات مرارةً واستطرادًا وتعقيدًا في العصر الحديث، كما أنه يُولّد مشاعرَ جياشةً وتعصبًا لدى الجانبين.

تتبنَّى المدارس ووسائل الإعلام الإسرائيلية، حتى يومنا هذا، نسخةً مُحرّفةً عن الصراع، لا ترتكبُ فيها إسرائيل أيَّ خطأ؛ والعرب لا يقومونَ بأيِّ شيءٍ صائبٍ. بالمثل، تنشرُ المدارس ووسائل الإعلام العربية صورةً بالأبيض والأسود، تنظر بها إلى الفلسطينيين باعتبارهم الضحايا الأبرياء، واليهود -وهو مصطلحٌ يُستعمَل عادةً بديلاً عن مصطلح الإسرائيليين- باعتبارهم أنذالًا وأنانيين، قُساةً وعديمي الضمير ... وأشرارًا على نحو لا مثيل له.

يؤمنُ كِلا الطرفين بعدالة قضيتِه بحماسةٍ واضحة، ويتشبّث كلاهما بسرديَّةٍ ضيّقة للتَّاريخ وهي، شأنها شأن معظم السرديَّات القومية، عادةً ما تكون مُبَسَّطةً، انتقائيَّةً، صالحةً في عين نفسِها وتفكرُ في مصلحتِها الذاتية.

نشأتُ في بيئة عربية، وشهدتُ على إمكانية التعايش السلمي بين العرب واليهود. كان باستطاعتي ألَّا أرى العرب أعداءً فحسب، بل بشراً يستحقون التقدير والكرامة. لذا فقد ساعدتني أصولي العِراقية حينَ كبرتُ في إظهارِ وجهةَ نظرٍ أكثر دقّة، تقومُ على التعاطف مع كافّة الأطراف المتورِّطة في هذا الصراع التَّراجيدي.

فيما يتصل بهذا الموضوع لم أكن مثالياً. عددٌ لا يُستهان به من اليهود العِراقيين الذين انتقلوا إلى إسرائيل أصبحوا مُزدرين للعرب، قوميين يمينيين. تغزَّلتُ في شَبابي بالأفكار اليمينية، كما سأذكر لاحقًا. لا أتخيَّل كيف يُحتمل أن أتطورَ سياسيًّا وأيديولوجيًّا لو أنني أقمتُ في إسرائيل. مهما يكن من أمر، كانت المرحلة اليمينية من حياتي قصيرة الأجل. البُعد عن إسرائيل ولَّد لديَّ موقفًا مستقلًّا وتأمليًّا أكثر تجاه المجتمع الإسرائيلي. الأعوام التي قضيتُها كطالب جامعي في إنجلترا، عقب حربِ حزيران/ يونيو من عام ١٩٦٧، مكَّنتني من رؤية ما وراء الحقائق البسيطة واكتساب نظرات انتقادية أكثر عن القومية عمومًا، وفهْم متمرِّس أكثر للمكوِّنات المختلفة التي تشكِّل الصّراع العربي -الإسرائيلي. اتَّضَحَ لي، تدريجيًّا، أنَّ النَّزعة الوطنية- القومية تكمن في جوهر معظم الصِّراعات الدَّولية. المشكلةُ مع النَّزعة الوطنية، كما كتبت مارلين مونرو في مذكراتها المصورة، أنها تمنعُنا من التفكير(١).

هذا الكتاب هو قصةٌ شخصيَّة ليهودي - عراقي في مقتبل العمر يرويها مؤرخٌ محترف. يروي (أي الكتاب) حياتي المبكِّرة حتى سن الثامنة عشرة، في العراق، إسرائيل وإنجلترا، إنما من منظورِ باحثٍ في الصِّراع العربي - الإسرائيلي. أشارت ڤرجينيا وولف إلى أنَّ مذكراتٍ كثيرة مُنِيت

---

(١) في السياق الغربي، غالبا ما يحمل مصطلح «nationalism» -«الوطنيَّة\النَّزعة الوطنيَّة» دلالة سلبية، حيث ترتبط تاريخيا بالنازية. أما في الثقافة العربية، بما في ذلك العراق، فإنها تدل على الولاء.

Jewish nationalism: تُعرف بالقومية اليهودية، والمعروفة أيضًا بالصهيونية والتي تهدف إلى إعادة تجميع اليهود وإنشاء وطن قومي وتاريخي لهم. [المترجم].

بالفشل لأنها «تتجاهلُ الشَّخص الذي حصلَت له الأشياء». هنا الغلام الصَّغير سريعُ التأثر والمراهق المرتبك يحتلّان مركز القصة، لكنَّ خلفية الدراما يملؤها الباحثُ النَّاضج. تُستخدَم تجربتي الشَّخصية لتصوير وإضاءة قصة أكبر بكثير، قصة النزوح الجماعي لليهود من العراق عقبَ تأسيس دولة إسرائيل في العام ١٩٤٨. والنتيجة نبذُةٌ متعلِّقة بالسِّيرة الذاتية، قصة أسرةٍ آملُ أن تقدِّم لمحةً عن العالَم الغني والضّائع للطَّائفة اليهودية - العراقية.

أنوي أن أستعيدَ وأُحيي ثانيةً الحضارة اليهودية الفريدة في الشرق الأدنى التي تلاشت في النصف الأول من القرن العشرين بفعل رياح القومية عديمة الرحمة. إنّ العدسة غير المتحيِّزة للتحليل الأكاديمي لا تكفي هنا، لهذا أوغلتُ في تاريخٍ حميمٍ أكثر: تاريخ أسرتي.

كنا أسرةً يهودية - عراقية من الطَّبقة الوسطى العُليا، نزحت من العراق بفعل الضغوط المُشتَركة للنَّزعتين الوطنيتين والقوميتين العربية واليهودية بسبب دفع الكراهية العراقية للأجانب وجذب الدولة اليهودية الوليدة وقتذاك. كنا جزءًا من هجرة يهود العراق الجماعية إلى إسرائيل في العام ١٩٥٠. تُعزى مغادرتنا لوطننا إلى قوى خارجة تمامًا عن سيطرتنا، بل حتى عن إدراكنا. بدأ هذا الكتابُ كمحاولةٍ لفهمِ طفولتي ولجمعِ شتات تاريخ عائلتي. وانتهى كسرديَّةٍ تتعلَّق بدراما أسرةٍ خلال حقبةٍ زمنية عاصفة بشكلٍ استثنائي من تاريخ الشَّرق الأوسط.

لا تختلف حكايتنا كعائلة عن حكايات طائفة بأكملها، طائفة اقتُلعت من ديارها التي شعرت فيها بأنها في كنفِ بيتها، إلى ديارٍ جديدةٍ

وغريبة فَرضت عليها أساليبَ تكيُّفٍ قاسية. وُضعت قصةُ أسرتنا في السِّياق الأوسع الذي أطَّرها: تاريخ الطَّائفة اليهودية في العراق. تدور القصة حول الحياة المستقرة والراضية تقريبًا التي عشناها جنبًا إلى جنب مع المسلمين في العراق؛ كربِ ووجعِ التشرُّد؛ مشاكلِ التكيُّف مع الحياة الجديدة في «أرض الميعاد»؛ أدائي المدرسي الضَّعيف في إسرائيل الذي دفع والداي لإرسالي للدِّراسة في إنجلترا؛ والأعوام الثلاثة الكئيبة تقريبًا التي أمضيتُها في لندن؛ تلك الأعوام تعادلُ «منفى» ثانيًا.

ما يجعلُ حكايتنا ذات أهمية أوسع هو أننا كنا ننتمي إلى فرعٍ من الطَّائفة اليهودية العالمية التي أصبحت منقرضة تقريبًا. كنا يهودًا - عربًا، عشنا في بغداد واندمجنا بما فيه الكفاية بالمجتمع العراقي. تكلمنا العربية في البيت، وطقوسنا الاجتماعية طقوسٌ عربية، وأسلوبُ حياتنا أسلوبٌ عربيٌّ، مطبخنا وأسلوب طهونا كان أسلوبًا شرق أوسطيّ رائع، وكانت موسيقى والديّ مزيجًا جذَّابًا من الموسيقى العربية واليهودية.

ماذا أعني بمصطلح يهود - عرب؟ لا أعني العرب بوصفهم تمييزًا قوميًا بمعنى حركة القومية العربية، وهي أيديولوجية قومية فتيَّة كحال الصهيونية. أستعمل المصطلح باعتباره مُختصرًا لوصف إرثٍ ثقافيٍّ ولغوي في آنٍ معاً.

تعود جذور شجرة أسرتي، بقدر معرفتي، إلى سبي اليهود من يهودا إلى بابل قبل ٢٥٠٠ عامٍ. يصفُ المزمور ١٣٧ توقَ الشَّعب اليهودي خلال فترة السبي البابلي للعودة إلى صهيون (وهو من الأسماء التوراتية للقدس وكذلك لبلاد إسرائيل ككل): «عَلَى أَنْهَارِ بَابِلَ هُنَاكَ جَلَسْنَا،

بَكَيْنَا أَيْضًا عِنْدَمَا تَذَكَّرْنَا صِهْيَوْنَ». بالنسبة لأسرتي، على أية حال، تحملُ صهيون إغراءً محدودًا. لقد غرسنا جذورًا عميقةً بين نهريْ بابل وما من سببٍ يدعونا لأن نرغب في اقتلاع تلك الجذور.

كنا عراقيين صودفَ أن يكونَ دينُهم يهوديًّا وبناءً على ذلك كنا أقليَّة، كغيرنا من الإيزيديين، والكاثوليك الكلدان، والآشوريين، والأرمن، والشركس، والتركمان والأقليَّات العِراقية الأخرى. يمكنُ وصف العلاقات بين هذه الطوائف المتنوِّعة قبل عصر النزعة الوطنية -القومية -رغم التوترات التي لا مَفرَّ منها- بالحوارِ بدلًا من «صِدام الحضارات». عُرِفت بغداد بكونها «مدينة السلام» والعراق بكونه بلادَ التعددية والتعايش. نحن في الطَّائفة اليهودية لدينا قاسمٌ مشترك، لسانيًّا وثقافيًّا، مع مواطنينا العراقيين أكبر بكثير من مواطنينا الأوروبيين الذين يشاركوننا ديننا. لم نشعر بأي تآلف مع الحركة الصِّهيونية، ولم نشعر بأي حافز داخلي يحثّنا على التخلّي عن وطننا والذهابِ للعيشِ في إسرائيل.

في ناحية واحدة، على أية حال، لم نكن أسرة يهودية – عراقية مثالية: من جهة أمي كُنا رعايا الإمبراطورية البريطانية العظمى. غادرَ والد جدِّ أمِّي العراقَ شابًّا إلى بومباي، حيث حقَّق نجاحاً وأصبح من رعايا بريطانيا. رجعَ إلى العراق كي يتقاعد ويبني كنيسًا سُمِّيَ باسمه. كان جدُّ أمي من رعايا بريطانيا بالولادة انتقل من بومباي إلى العراق مع والديه حين كان في سن السادسة عشرة. عمل لاحقًا مترجماً لصالح القنصلية البريطانية في بغداد. جنَّدَ الجيشُ البريطانيُّ اثنين من أبنائه الذكور الثلاثة خلال الحرب العالمية الثانية، وخدما بصفة ضابطين في سِلك الاستخبارات. عاشت

الأسرة كلها في العراق، وهي دولة أسَّستها الإمبراطورية البريطانية، بعد الحرب العالمية الأولى، على بقايا الإمبراطورية العثمانية. وفي الختام أُرغِمت الأسرة على مغادرة البلد، لأنه، من بين أسبابٍ أخرى، ومن خلال تسهيل الاستيلاء الصِّهيوني على فلسطين، ساعدت بريطانيا في تأجيج عداء المسلمين ضد اليهود في كافة أنحاء العالَم الإسلامي. أما أسرة أبي فكانت كلُّها من اليهود العراقيين.

كانتا جَدَتَاي لأبي وأمي، اللتان جاءتا معنا إلى إسرائيل، تشعران بحنينٍ كبيرٍ إلى العراق القديم، وكانتا دائمًا تشيران إليه باسم «جنَّة مال الله»: جنة عدْن. بالنسبة إليهما كان العراقُ هو الوطن المحبوب؛ بينما إسرائيل هي المنفى. شعورهما الحقيقيُّ يُمكن وصفه على عكس ما وردَ في المزمور ١٣٧، ليكونَ: «عَلَى أَنْهَارِ [صِهْيَوْنَ] هُنَاكَ جَلَسْنَا، بَكَيْنَا أَيْضًا عِنْدَمَا تَذَكَّرْنَا [بَابِلَ]». أشارَت معضلتهما الشخصية إلى مفارقةٍ جوهريَّة في قلب الصهيونية التي أكدت على الارتباط التاريخي للشَّعب اليهودي بوطن أسلافه في الشَّرق الأوسط، ولكنها أسفرت عن قيام دولة اتّجهت ثقافيا وجيوسياسيًا على نحوٍ يكاد يكون حصريًا ومتطابقًا مع الغرب. رأت إسرائيل نفسها، وكذلك اعتبرها أعداؤها، امتدادًا للاستعمار الأوروبي في الشَّرق الأوسط، أي أنها «في» الشرق الأوسط غير أنها «غير عائدة» له. في هذه الدولة ذات التوجه الأوروبي، كان مستحيلًا على أشخاصٍ مثل جدتيَّ أن تشعرا كما لو أنهما في بيتيهما.

كانت أمي، التي فارقت الحياة في إسرائيل عام ٢٠٢١ عن عمرٍ يناهزُ السادسة والتسعين، تتحدث عادةً عن صديقاتٍ حميمات وأصدقاء مقربين

كثر للأسرة من المسلمين تعوَّدوا أن يأتوا إلى بيتنا في بغداد. وفي أحد الأيام، حين تجاوزتْ سنَّ التسعين، سألتُها ما إذا كان لدينا أيُّ أصدقاء صَهاينة. نظرت إليّ نظرة توحي بأنّ هذا سؤال غريب، ثم قالت بثقة: «لا! الصهيونية شيء أشكنازيّ. لا علاقة لها بنا!» كان هذا في جوهره رأي كبار أسرتنا في الصهيونية قبل أن نُقذف بقوَّة إلى إسرائيل، وريثها السياسي الرئيسي. كانت صهيون بلدًا، صغيرًا، نائيًا لا نعرف عنه إلا الشيء القليل. هجرتنا إلى صهيون كانت هجرةً اضطراريةً، وليست خيارًا أيديولوجيًّا. وليس من باب المبالغة إذا ما قلتُ إننا جُندنا إلزاميًّا في خضمِّ المشروع الصهيوني. علاوةً على ذلك، تُوصف الهجرة إلى إسرائيل في أحيانٍ كثيرة بكونها «عَليا» أو «Aliyah»: الصُّعود. في حالتنا كان الانتقال «يريدة» أو «Yerida» بلا ريب؛ أي هبوطٌ على السلَّم الاجتماعي والاقتصادي. لم نفقد أملاكنا ومقتنياتنا فحسب؛ بل فقدنا أيضاً شعورنا القوي بالهُويَّة باعتبارنا يهودًا عراقيين فخورين بأنفسهم بما أننا نُفينا إلى هوامش المجتمع الإسرائيلي.

عبر مسيرتي المهنية اللَّاحقة بإنجلترا، بصفتي متخصِّصًا في العلاقات الدولية للشرق الأوسط، وبصفتي مثقَّفًا شعبيًّا، اتخذتُ موقفًا مُعارِضًا من سرديتين مُهيمنتين: فرضية «صِدام الحضارات» لصموئيل هتنتغتون، والسَّردية الصهيونية المتعلقة باليهود في البلدان العربية. السّردية السّابقة تستبعِد ضمنيًا إمكانية هويَّة يهودية - عربية. أما السردية الصِّهيونية فتؤكد بإيراد الحجج أنَّ معاداة السّامية متأصلةٌ في الدين الإسلامي، وأنَّ الإسلام ظلمَ لليهود بصورةٍ لا ترحم، وأنَّ العداءَ لليهود مستوطنٌ في سائر البلدان العربية، وأنَّ يهود هذه البلدان واجهوا تهديد الإبادة في محَرَقةٍ

أخرى؛ وأنَّ دولة إسرائيل الوليدة جاءت بجُرأةٍ كي تنقذَهم وتقدِّمَ لهم ملاذًا آمنًا. السَّردية الصهيونية تؤكد فضلًا عن ذلك أنّ معاداة السّامية لدى العرب تعدّ عائقًا غير قابل للتحريك أمام التسوية السِّلمية للصِّراع بين إسرائيل وجيرانها العرب. في هذه القراءة، تُعزى هجرة اليهود، من البلدان العربية إلى إسرائيل، في المقام الأول إلى المضايقة والتحيز اللَّذين واجهاهما بصورة مزعومة في بلدانهم الأصلية؛ وأنَّ مواقفهم السياسية المتشددة آنَ أصبحوا في إسرائيل تُعزى إلى تجارب معيشتهم بين العرب. في الأعوام الأخيرة فقط، على أية حال، بدأتُ أفكّر مليًا كم ساعدتني تجربتي الشَّخصية في خلقِ رؤيتي العالمية وقادتني (أيْ تجربتي) إلى تحدِّي «صِدام الحضارات» بالإضافة إلى السرديَّة الصهيونية.

كان موضوع «صِدام الحضارات» لصموئيل هتنتغتون من العبارات الطنَّانة مطلعَ تسعينيات القرن العشرين. آمنَ بروفيسور جامعة هارڤارد أنه بعد انتهاء الحرب الباردة وانهيار الاتحاد السوفيتي، سيعود العالَم إلى وضعه الطبيعي، الذي يتميز بالصِّراع الثقافي. يرى البروفيسور أنّ الاختلافات الأهم بين البشر لم تعد اختلافاتٍ سياسية أو أيديولوجية بل ثقافية. البشر منقسمون على طول الخطوط الثقافية - غربيون، مسلمون، هندوس، وهلمَّ جرًّا. قُدِّمت الثقافة الإسلامية باعتبارها معادية جوهريًا للغرب. قيل إنَّ الناس في العالَم الإسلامي يرفضون قيمَ الغرب. زعمَ هتنتغتون أنَّ ارتباطهم الجوهري بدينهم وليس بدولتهم القومية. ودينهم متعارضٌ مع المُثُل العليا الغربية اللِّيبرالية مثل الفردانية، والتعددية، والحرية والدِّيمقراطية.

كان لـ «صِدام الحضارات» الذي ضَعُفَ به الوثوق الآن، على نطاقٍ واسع، تأثيرٌ كبير على مقاربة بعض المؤرخين الصَّهاينة للنِّزاع العربي - الإسرائيلي. درسَ هؤلاء المؤرخون النِّزاع بكونه متأصِّلًا في العقيدة الإسلامية وبكراهية اليهود. وفيما هم يقلِّدون هتنتغتون، يعطون الأهمية للبُعد الديني والروحي للنزاع[١]. ما يشترك فيه هتنتغتون وهؤلاء المؤرخون الصهاينة هو عقلية مُستشرِقٍ. إنهم يتاجرون بالأفكار الشائعة المتعلقة بـالشرق. يفسِّرون عداء الإسلام للغرب، وامتدادًا له عداء العرب لإسرائيل، بوصفه النتاج المحتوم لدينهم وثقافتهم وليس لظروفهم التاريخية الخاصة. يُزعَم أن الصِّدام قائمٌ بين الحضارة اليهودية والحضارتين المسيحية والإسلامية. إنَّ نظرةً جوهريَّةً إلى مسألة ماذا يعني أن يكون المرءُ مسلمًا تؤدي إلى وصف مختزِل لنهج تعامل إسلامي مع العالَم الخارجي عمومًا ومع اليهود على وجه الخصوص. أيّ تحليلٍ من هذا النوع هو تحليلٌ لا تاريخي ميؤوس منه. إنَّه يُقوِّض تنوّع العالَم الإسلامي ويحوِّله إلى صخرةٍ منفردة واحدة غاضبة وجاهلة، ويخفق في أن يضع في الحسبان المَظالم الواقعية جدًا، وليست المتخيَّلة، التي يمتلكها المسلمون تجاه القوى الغربية وإسرائيل.

هذه الرؤية العالمية ذات التوجه الأوروبي مُفرَطة التبسيط لها شبيهٌ في الرؤية العالمية لبعض الناشطين الإسلاميين المتطرفين. يؤكد النَّاشطون الإسلاميون أنَّ قصة العرب واليهود هي قصة الصِّدام الجوهري للدين والثقافة. وبحسب قولهم، لم يكن اليهود جزءًا من نسيج المجتمع العربي، بل دُخلاء، عنصرًا معاديًا، وحتى طابورًا خامسًا في «دار الإسلام».

ينظرون إلى دولة إسرائيل على أنها كيانٌ غير شرعي، زرعته القوى الاستعمارية في وسطهم بهدف تقسيمهم وإضعافهم. وكلاهما، الصَّهاينة والإسلاميُّون، يستخدمون بالتالي تاريخ العلاقات بين المسلمين واليهود بانتقائية لخدمة أجنداتهم العلمانية والدِّينية الخاصة. كلتا المجموعتين تحثَّانِ على إساءة الظنِّ بالعدو وتدعوانِ إلى تعبئةٍ مستمرة للكفاح من أجل التفوق والهيمنة.

لا تتوافق قصَّة أسرتي مع السرديَّة الصِّهيونية ولا حتى مع السَّردية الإسلامية للتَّجربة اليهودية في ظلِّ الحكم الإسلامي. إنها تتعارض، في مستوًى أعمق، مع فذلكات «صِدام الحضارات» التي تدعم كلتا السَّرديتين. قصة أسرتي، بناءً على ذلك، ليست فقط مثيرة للاهتمام بحدّ ذاتها؛ بل تحتوي على تضميناتٍ ممكنةٍ من أجل فهمِ سياق تاريخ الشَّرق الأوسط الحديث. وبصورةٍ أخص، إنَّها تفيدُ باعتبارها تصحيحيةً للسردية الصهيونية التي تنظر إلى العرب واليهود كما لو أنهم عاجزون بالفطرة عن التعايش بسلام؛ وشاءت الأقدار أن يعيشوا في صراع وخلاف دائمَيْن.

الصِّهيونية حركةٌ أوروبية تعود للقرن التاسع عشر، قدمت حلًّا على شكل دولة يهودية في فلسطين لليهود الذي عانوا من التمييز في المعاملة والمضايقة في أوروبا. في العراق، من جانبٍ آخر، كان هنالك عُرفٌ قديم من التَّسامح الديني وتاريخٌ طويل من الانسجام النِّسبي بين شرائح المجتمع المختلفة. لم يكن اليهود مستجدين أو غرباء في العراق، ولم يكونوا متطفِّلين بالطبع. يعود تاريخ الصِّلة اليهودية ببابل إلى زمن

إبراهيم الذي هاجر من أور (٢٧٠ كم جنوب مدينة بابل) إلى بلاد كنعان. عاش اليهود في بابل منذ عام ٥٨٦ ق. م. حين دمّر الملك نبوخذ نصر مملكتهم في القدس، وساقهم إلى المنفى. بعد مضي قرون، أصبحت بابل المركز الروحي للشَّتات اليهودي ومقرّ أكاديمياته الدِّينية المميزة جدًّا، وسورة نهارديا، وسورة وپومبيديتا (فلوجة الحديثة). هناك جُمِع التَّلمود البابلي، ودُوِّن قانون الـ«الهلاخا»[1].

وهكذا استقر اليهود بثباتٍ في بابل قبل مدةٍ طويلة من ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي. بعد أن أصبحَ العراق دولة ذات أغلبية مسلمة، بقيَ اليهود باعتبارهم جزءًا متمِّمًا للمجتمع العراقي. في زمن الحرب العالمية الأولى، شكّل اليهود ثلث سكان بغداد التي كانت تُوصَف عادةً بكونها مدينةً يهودية. بعد الحرب، استمرَّ اليهود في أداءِ دورٍ بارزٍ في الحياة الاجتماعية، والاقتصادية، والأدبية، والفكرية والثقافية لمملكة العراق. هذا البروز على وجه الدِّقة هو الذي غذَّى عداء المسلمين تجاههم في عصر النَّزعة الوطنية - القومية والطَّائفية المتنامية.

في ظلّ الإمبراطورية العثمانية حازَ اليهود وضعَ أقليةٍ مُصانةٍ لها حقوق والتزامات الأقليات الأخرى نفسها. من النقاط المضيئة في تاريخ الإمبراطورية العثمانية أنها منحت استقلالية كبيرة لأقلياتها. وعلى الرغم من أنّ الإسلام كان الدين الرسمي للإمبراطورية، لم تُفرضِ الشريعة الإسلامية على الطوائف غير المسلمة. ازدهرَ اليهود في ظلّ هذا النظام التعدُّدي واستفادوا أيضًا من «التَّنظيمات»، وهي الإصلاحات

(١) الهالاخا: كلمة عِبرية تعني المذهب. [المترجم].

التي أُقِرَّتْ في أواخر القرن التاسع عشر. كان لهم ممثلون في البرلمان العثماني، وأدّوا دورًا بارزًا في تدبير الأمور المالية، وامتدت صناعة وتجارة الإمبراطورية من خليج عدن إلى الحافة الشرقية لأوروبا. في مملكة العراق الحديثة، التي تكونت من ثلاثة أقاليم عراقية عقب انهيار الإمبراطورية العثمانية، ظلَّ اليهود يتمتعون بحقوق الأقليات الأخرى نفسها.

في أوروبا، بالمقارنة، كان اليهودُ أقلِّيةً يُنظر إليهم قبل كلّ شيء على أنَّهم «الآخر» وبناءً على ذلك أصبحوا مشكلة. امتلكتْ أوروبا ما يُشار إليها عادةً بوصفها «المسألة اليهودية». «الحلّ الأخير» النَّازي لهذه المسألة أفضى إلى إبادة ستة ملايين يهودي أوروبي. على خلاف أوروبا، لم يكن لدى الشرق الأوسط «مسألة يهودية» - معاداة السامية مرضٌ أوروبي انتقلتْ عدواه إلى الشَّرق الأدنى. تُرجِمَ الأدب المعادي للساميَّة من اللغات الأوروبية لأنه محدود باللغة العربية. ووفقًا للمصطلحات السياسية، كما أشار إدوارد سعيد، باتت «المسألة اليهودية» في أوروبا القرن التاسع عشر هي القضية الفلسطينية في القرن العشرين.

لم يعشْ يهود العراق في أحياء خاصة بهم، ولم يتعرضوا للقمع العنيف أو للمضايقة أو للإبادة الجماعية التي شوَّهت التاريخ الأوروبي. ليستْ مصادفةً أن يسمِّيَ المؤرخ البريطاني مارك مازور تاريخه للقرن العشرين الخاص بأوروبا «القارة المظلمة». استغرقت أوروبا زمنًا أطول بكثير من العرب كي تتقبَّل اليهود في بلدانهم بوصفهم مواطنين مساوين لهم. في العراق، كانت هنالك ضغوط ومتاعب ومذبحة منظمة مُشينة ضدَّ اليهود في حزيران/ يونيو من عام ١٩٤١. على أية حال، كانت

الصُّورة إجمالًا صورةَ التَّسامح الديني، والكونية، والتَّعايش السِّلمي والتفاعل المُثمِر. يمكنُ أن يكون وضعُ يهود الإسلام مثيرًا للنِّزاع في بعض الأحيان بلا شكّ. لكنَّه شيءٌ مُلتبس ومُربِك، في آنٍ معًا، أن نُراكمَ هذه المواضيع مجتمعةً تحت مظلة «المسألة اليهودية».

لم ترحلْ أسرتي من العراق إلى إسرائيل بسبب صراع الثقافات أو التعصب الديني. لم يُدمّر عالمنا لأننا لم نكن قادرين على الانسجام مع جيراننا المسلمين. كان دافع نزوحنا دافعًا سياسيًا، وليس دينيًا أو ثقافيًا. أصبحنا متورطين في الصِّراع بين الصِّهيونية والقومية العربية، وهما أيديولوجيتان علمانيَّتان متنافستان. كما وقعنا في فخِّ نيران النزاع بين اليهود والعرب على فلسطين. هذا النِّزاع نشأ بعد الحرب العالمية الأولى واشتدَّ في أعقاب الحرب العالمية الثانية. في العام ١٩٤٨ شارك الجيش العراقيُّ في حربِ العرب ضدّ دولة إسرائيل التي أُعلِن قيامُها حديثًا. ونتيجةً لهزيمة العرب، كانت هنالك انتكاسةً ضدَّ اليهود في سائر بلدان العالَم العربي، والصِّهيونية أحد الأسباب الرئيسة لهذه الانتكاسة. إذ مَنحتْ اليهودَ قاعدةً إقليمية لأول مرة منذ ألفيْ عام. هذا الأمر سهَّل على الإسلاميين المتشدِّدين والقوميين العرب مطابقة اليهود في بلدانهم مع العدو الصِّهيوني البغيض وأن يدعوا إلى إخراجهم. ما كان عمودًا من أعمدة المجتمع العراقي أُعتُبِرَ طابورًا خامسًا شريرًا.

كانت الأولوية القصوى في رأي الصَّهاينة، طوال الوقت، جلبَ أكبر عدد ممكنٍ من يهود العالم كي يبنوا دولة خاصة بهم، وهدفُهم قيامُ دولةٍ يهودية مستقلة تنتشر بقدر المستطاع على أكبر جزء من فلسطين،

دولة تضمُّ داخل حدودها أكثرية يهودية وأقليَّةً عربية. مثَّلتْ الصهيونية إلغاءً للشَّتات. حتى اندلاع الحرب العالمية الثانية تركَّزت أنشطة الصهاينة بشكلٍ رئيس على المراكز السُّكانية الأوروبية التي تحتوي على عدد غفير من اليهود. أما يهود الشَّرق الأوسط فكانوا يُعدون «مادةً إنسانية» أدنى درجة لا يمكنهم سوى تقديم مساهمةٍ محدودة في عملية بناء الدولة. أدّت المحرقة النازية إلى تغيير اتجاه المواقف الصهيونية في هذا الصدد، إذ من خلال إبادة المخزون الإنساني الرئيس لمشروعِها، أُرغِمَ قادة الحركة الصهيونية على تحويل انتباههم إلى الشرق. بمعنًى آخر، نتيجةً للمحرقة النازية، أصبح يهود الشرق الأوسط لأول مرة عنصرًا حيويًا في المشروع الصهيوني المتعلق ببناء دولة مُستدامة ذات أغلبية يهودية في فلسطين.

في غضون الحرب العربية - الإسرائيلية ١٩٤٨، غادر أكثر من ٧٠٠ ألف عربي أو طُرِدوا من منازلهم الواقعة في فلسطين. يُطلق الفلسطينيون على هذه السنة المشؤومة اسم «النكبة» أو الكارثة. أما بالعِبرية فتدعى «حرب الاستقلال». بالنسبة للصهاينة فإنَّ سنة ١٩٤٨ ليست نصرًا عسكريًا فحسب بل مَعلمًا تاريخيًا، إحرازَ كيان الدولة والسيادة، اللحظة التي كُتِب فيها اليهود مجددًا في تاريخ العالَم. وبالنتيجة، بحوزتنا سرديتان قوميتان مختلفتان جذريًا عن العام ١٩٤٨؛ إحداهما تركز على طردِ السكان المحليين واغتصاب الصهاينة المعتدين لممتلكاتهم. أما السرديَّة الأخرى فتؤكد على حقِّ اليهود بتقرير المصير القومي في وطن أسلافهم. كلتاهما تزعمانِ بتفوقهما الأخلاقي. ممَّا لا جدالَ فيه أنَّ خلقَ إسرائيل ألحقَ جَورًا هائلًا بالسُّكان المحليين. الفلسطينيون هم ضحايا المشروع الصهيوني

الرئيسيون. أصبحَ أكثر من نصفهم لاجئين وأُزِيل اسمُ فلسطين من الخريطة. لكنَّ هناك صنفًا آخرَ من الضحايا، أقل شهرةً ويُتحدَّثُ عنهم أقل بكثير: إنهم يهود البلدان العربية. التياران التوأمان: القومية العربية والصهيونية، منعا اليهود والمسلمين من الاستمرار في التعايش بسلامٍ في العالَم العربي بعد ولادة إسرائيل.

تتناول مذكراتي الصنف الثاني من ضحايا الحركة الصِّهيونية كما انعكس (أي الصنف) في تاريخ أسرتي. أكرر، نحن يهودٌ - عرب. ما من طريقة أفضل كي نعرِّفَ بها هُويتنا قبل تهجيرنا. ومع ذلك مصطلح يهودي - عربي مُثيرٌ للجدل بقوة داخل إسرائيل. بوسعك وصف نفسكَ بحُرية بأنَّك: يهوديٌّ - فرنسيٌّ، يهوديٌّ - روسيٌّ، يهوديٌّ - رومانيٌّ، أو حتى يهوديٌّ - ألمانيٌّ، على الرغم من الاقتران المُروِّع بين ألمانيا والمحرقة النازية. لكنكَ إذا وصفتَ بأنك يهوديٌّ - عربيٌّ، كما أفعل، فسوف تواجه المعارضة حالًا. الواصلة[1] ضرورية. نقاد مصطلح يهودي - عربي ينظرون إليه بوصفه هويتين منفصلتين مُربِكتين ومُدمَجتين. بينما أرى الواصلة توِّحد: بوسع العربي أيضًا أن يكون يهوديًا، واليهودي بوسعه أيضًا أن يكون عربيًا.

بعضُ الإسرائيليين يسخرونمن مفهوم يهودي - عربي باعتباره استحالةً وجودية. يُنعتُ اليهود والعرب، عادةً، باعتبارهم شخصياتٍ مُتناقضةً، حبيسة صراع أبديٍّ. في الجانب العربي، يشترك المتشددون أيضًا في هذه الرؤية الصريحة، ثنائية القطب. يُقال لنا المرة تلوَ الأخرى

(١) الواصلة: الخط القصير بين جزئي الكلمة المركبة (-). [المترجم].

إنَّ هنالك صراع ثقافات، وهوَّةً لا يُمكن جسْرُها بين المسلمين واليهود. باتَ موضوع «صِدام الحضارات» يتخذ موقفًا دفاعيًا قويًا، وراح يزوِّد بالذخيرة الرافضين على جانبيْ الخط الفاصل العربي - الإسرائيلي.

تُشير قصة أسرتي في العراق -وقصة أُسر كثيرة منسية مثل أسرتي- إلى صورةٍ مختلفة بشكل مُثير. قصة ترجع إلى عهدٍ خاص بشرق أوسطٍ أكثر تعدديةً يمتازُ بتسامحٍ ديني أكبر وثقافة سياسية من الاحترام المُتبادَل والتَّعاون بين الأقليات العِرقية المختلفة. إنَّها رسالة تذكير فعَّالة تتعلَّق بالهُويات الشرق أوسطية التي كانت مزدهرة يومًا وثُبِّطَت ثمَّ قُمِعت كي تتكيَّفَ مع الأجندات السياسية الوطنية - القومية. قصتي أنا تكشف جذورَ خيبة أملي بالصِّهيونية، وكيف جعلتني تجربتي مرتابًا بالخطاب الصِّهيوني، ولماذا، بعد مضي سنوات طويلة، كما ساعدت في أن تحوِّلَني إلى مؤرخ إسرائيليٍّ من المراجعين ضمن مجموعة صغيرة جرت العادة على تسميتهم «المؤرخون الجُدد».

بهذا المعنى، تعدّ مذكراتي مسارًا تنقيحيًا، ووثيقةً متخطِّية، وتاريخًا بديلًا، وتحدٍّ للسرديَّة الصِّهيونية المقبولة على نطاق واسع والمتعلقة بيهود البلدان العربية الذين أصبحوا يُسَموْن جميعًا بعد التهجير الجماعيِّ إلى إسرائيل خمسينياتِ القرن العشرين بمزراحيم[١]. أجادل أنَّ تاريخ المزراحيم[٢] قد شُوِّه عمدًا خدمةً للدعاية الصِّهيونية. يُقسم هذا التاريخ إلى جزئين: قبل العام ١٩٥٠ في الإمبراطورية العثمانية والدول التي خَلَّفتها، وبعد العام ١٩٥٠ في إسرائيل. قبل العام ١٩٥٠، كان التاريخ

(١) مزراحيم: كلمة عبرية تعني يهود شمال إفريقيا والشرق الأوسط. [المترجم].

اليهودي - العربي جزءًا لا يتجزأ من تاريخ الشرق الأوسط ككل. من المستحيل أن نفهمَ هذا التاريخ من دون السياق الإقليمي. بعد العام ١٩٥٠ يُصبح التاريخ اليهودي - العربي، أو التاريخ المزراحي، جزءًا من تاريخ إسرائيل وعلى هذا النحو انفصل تمامًا عن محيطه الإقليمي الأوسع. الصهاينة مهتمون فقط، وبقلقٍ شديد، بالمرحلة الأولى من التاريخ اليهودي - العربي؛ غير عابئين غالبًا بالمرحلة الثانية. الاهتمام بالمرحلة الأولى لم يحفزه البحث عن الحقيقة بل حاجة الدعاية إلى وصف اليهود بكونهم ضحايا التعسف العربي المستوطِن، وهو وصفٌ اُستخدِم آنئذ لتبرير المعاملة الإسرائيلية الوحشية للفلسطينيين. وهكذا تاريخٌ غنيٌّ، رائع، ومُتعدِّد الأبعاد اُختصِر بالبحث عن ذخيرةٍ تطيل أمدَ الحرب الجارية ضد الفلسطينيين.

بلغَ هذا الاتجاه ذروته مع تلفيق سرديَّة «النكبة اليهودية». وفقًا لهذه السردية، النزوح الإجباري لـ٨٥٠ ألفَ يهوديٍّ من البلدان العربية بعد حرب عام ١٩٤٨ يعادل كارثة، «النَّكبة اليهودية» أو على الأقل مساوٍ للنكبة الفلسطينية، إن لم يكن مدمرًا في عواقبه أكثر منها. سُمِّيت بشكلٍ متباين، «التَّهجير المنسي»، «التَّهجير الإجباري»، أو «التَّهجير الثنائي»، هدفُ هذه السردية هو خلقُ تماثلٍ مزيَّفٍ بين مصيري كلتا الجماعتين. هذه السردية ليست تاريخًا؛ إنها دعاية المنتصرين. التاريخ الصادق يجب أن يقرَّ بالدور الذي لعبته سائر الحكومات المَعنية في هذه المأساة التي صنعها الإنسان. الاختلاف الرئيسُ أنَّ القوات المسلحة «الإسرائيلية» طهَّرتْ معظم اللَّاجئين الفلسطينيين عِرقيًا، بينما مَنحتْ

الحكومات العربية اليهود - العرب خيارَ المغادرة أو البقاء؛ مع استثناءات قليلة.

كتابي هو سجلٌّ شخصيٌّ عن ماضٍ معقد ومقالة ذات حجَّة سياسية. إنه انتقادٌ للصِّهيونية من منظور قلَّما يُسمَع خارج إسرائيل. العوالم الثلاثة الواردة في عنوان الكتاب هي بغداد، حيث عشتُ حتى سن الخامسة؛ رَمات گان، من سن الخامسة حتى الخامسة عشرة؛ ولندن، من سن الخامسة عشرة حتى الثَّمانين. خلفية القصة هي حقبةٌ زمنية زلزالية في التاريخ اليهودي عايَشَت انتشار الدعاية النَّازية في العراق، والإبادة النازية لليهود الأوروبيين، وتقسيم فلسطين، وولادة دولة إسرائيل، وأصل مشكلة اللَّاجئين الفلسطينيين، والهجرة الجماعية لليهود من العراق والبلدان العربية الأخرى إلى إسرائيل، والتَّوتر في العلاقات بين الأشكيناز والسفارديم[1] في الأعوام المبكرة من قيام الدولة، وهو توترٌ لا يزال -في بعض النواحي- مستمرًّا حتى يومنا هذا.

يكمن جرح معاداة السامية في صميم السّرد الرئيس لضحايا اليهود على مستوى العالم. هذا التاريخ اليهودي الذي يُصوَّر كسلسلةٍ لا تنتهي من التحرش والتمييز والاضطهاد والملاحقة، وصولًا إلى المحرقة النازية أو الهولوكوست.... أي ما سمَّاه المؤرخ اليهودي - الأميركي، سالو بارون، باستخفاف «الفهم الكئيب للتاريخ اليهودي». التاريخ الحقيقي لليهود في أوروبا، برأي سالو، يساوي أكثر من مجرد معاناةٍ تراجيدية. لكن حتى إذا سلَّم المرء جدلاً بأنَّ الفهم الكئيب يصفُ التاريخ اليهودي

(١) السفارديم: هم يهود شبه الجزيرة الإيبيرية (إسبانيا والبرتغال). [المترجم].

الأوروبي، فإنه لا يُنصِف تاريخ اليهود في الشَّرق الأدنى. إن استذكار عهد الكونية والتَّعايش الذي تنعَّمَ به بعض اليهود، على غِرار أسرتي، في البلدان العربية قبل عام ١٩٤٨ يُعطينا بارقةَ أملٍ. وسط الحطام الكئيب للشَّرق الأوسط المعاصر، إنَّه أفضل نموذج نملكه من أجل مستقبل أفضل.

نزهة مع الملك فيصل الأول وغيرترود بِل.

الفصل الثاني

اختراعُ العراق

كان لصعود وسقوط الإمبراطوريات، خلال القرن العشرين، عواقبُ بعيدة المدى على الحياة اليهودية في الشَّرق الأوسط. شكَّل الاستعمار البريطاني سياسةَ العراق الحديث وحسمَ مصائر اليهود العراقيين، بمَن فيهم أسرتي. تمتَّعَ اليهود، في ظلّ الإمبراطورية العثمانية التي حكمَت المنطقة طوال القرون الخمسة الفائتة، بالوضع القانوني لأهل الذمَّة، «أناس مُصانون». خضعوا لأكثرية ذات أحكامٍ تمييزية، بما فيها الجزية السنوية، لكنَّهم، بالمقابل، حصلوا على حماية الحكومة المركزية. كان النظام العثماني استبداديًا، ومتداعيًا، ومتبلدًا وفاسدًا، لكنه امتلك ميزةً واحدة تشفع له، وهي الاستقلالية التي منحها لمختلف أقلياته الدينية والعرقية كي تدير شؤونها بنفسها. كانت الإمبراطورية مسلمة، لكنها ضمنت قانونًا الاستقلالية الدينية والثقافية لسائرِ أقلياتها. وفقًا لنظام المِلّل، سُمح لكلّ طائفة دينية بأن تحكم نفسها وفقًا لقوانينها الخاصة: قوانين الشريعة الإسلامية، أو القانون الكنسيّ المسيحي، أو الهالاخاه اليهودية.

أنهتْ الحرب العالمية الأولى، على نحوٍ مباغتٍ، الحكم العثماني في المنطقة. من خلال دخولها الحرب إلى جانب ألمانيا في عام ١٩١٤، وقَّعتْ الإمبراطورية العثمانية شهادةَ وفاتها. كان الحسين، شريفُ مكَّةَ، وهو سليلٌ مباشر للنبي محمد ونقيب بني هاشم، حارسَ الأمكنة الإسلامية المقدسة، وحليفَ بريطانيا الرئيسَ في الشَّرق الأدنى خلال الحرب. في مفاوضات سِرية خلال العام ١٩١٥، وعدت بريطانيا بدعم تأسيس مملكة عربية مستقلة يترأسها الشريف المبجل إذا شنَّ ثورةً عربيةً ضد السَّادة العثمانيين الكبار. ارتكبَ شريف مكة عملًا محرَّمًا إذْ تحالفَ مع الكفار ضدَ أقرانهِ المسلمين. أوفى بجانبه من الصفقة عبر توكيلِ ابنه، الأمير فيصل، بقيادة الثورة العربية، وبالتعاون عن كثبٍ مع تي. إي. لورنس، الشَّهير باسم «لورنس العرب». لكنَّ حلفاءه البريطانيين لم ينووا الوفاء بتعهداتهم. فرضتْ بريطانيا وفرنسا سلامَ المنتصرين، وقطَّعتا الشَّرق الأوسط إلى مناطق نفوذ.

فكَّكت الحرب العالمية الأولى إمبراطوريتين: الإمبراطورية النمساوية - الهنغارية والإمبراطورية العثمانية. الدول التابعة للإمبراطورية الأولى أصبحت دولًا مستقلَّة بينما الدول التابعة للإمبراطورية الثانية حُرِمت من الاستقلال ووُضعت تحت الحُكم الاستعماري الأوروبي بوسيلةٍ مبتكرة حديثًا تدعى «الانتدابات»؛ فكافأت عُصبة الأمم فرنسا بانتدابين على سوريا ولبنان في حين تلقَّت بريطانيا انتدابين على العراق وفلسطين. بُررت الانتدابات بأنَّ العرب لم يكونوا قادرين على حُكم أنفسهم وغير مستعدِّين للديمقراطية. نظريًا، كانت الفكرة تهيئة البلد،

أي بلدٍ، للاستقلال ومن ثمَّ يُسلِّمونه السُّلطة. عَمليًا، كانت الانتدابات غطاءً لتمكين القوى الاستعمارية الجشعة من السَّعي لتحقيق مصالحها السياسية والتجارية.

احتاجتْ بريطانيا إلى عراقٍ مستقر وصديق بسبب مخزونه الضخم من النَّفط والطرق التجارية الجذابة التي يوفرها هذا البلد إلى الهند. غير أنَّ الاحتلال البريطاني أثار الأحقادَ بين العشائر والأغلبية المسلمة الشيعية. بحلول العام ١٩٢٠، أشعلَ ذلك ثورةً وطنية شاملة، لم يكن بالمستطاع إخمادها إلَّا باستخدام عددٍ كبير من القوات كلَّفت الخزانة البريطانية ثمنًا باهظًا. قال الكولونيل تي. إي. لورنس لحكومته إن «العرب ثاروا ضد الأتراك في الحرب لا لأن الحكومة التركية كانت سيئةً بشكل واضح بل لأنهم أرادوا الاستقلال. لم يُعرِّضوا حيواتهم للخطر في المعركة كي يُغيِّروا سادتهم ويُصبحوا رعايا بريطانيين... بل كي يصبحوا أسيادًا».

لورنس وغيرترود بِل، ممثلة المكتب الاستعماري في العراق، اقترحا بديلًا للحُكم المباشر: استخدام النفوذ البريطاني بطريقة غير مباشرة من خلال نُخبة عربية سياسية تابعة -وبالتالي مُخلصة - أي «مملكة غير رسمية». بالإضافة إلى كونهما نصيريْن مُقنعيْن لهذا الاقتراح، فقد كانا (أي لورنس وبِل) مُعجبين أشدَّ الإعجاب بالأمير فيصل. في البداية قابلتْ بِل فيصلَ في مؤتمر باريس للسلام عام ١٩١٩، وفي الحال أعجبها كثيرًا مظهرُه وشكلُه الجميل، وفطنته وصدقه الجليُّ وروح الدعابة لديه. ظنَّ بعضهم أنها وقعت في حبِّه. الحقيقة أنَّ فيصل لم يكن عراقيًّا بل نودي به من الحجاز في شمال شبه الجزيرة العربية، وأحدثتْ هذه المناداة

مشكلةً صغيرة. على أية حال، كان وزير المستعمرات، ونستون تشرشل، مقتنعًا بأنَّ فيصلَ أعطى أملًا بـ«أفضل وأرخص حلٍّ».

قيادة الأمير فيصل للثورة العربية جعلته يظفر بأتباع قوميين أساسيين. في آذار/ مارس من عام ١٩٢٠، أعلنَ البرلمان الوطني السوري المملكةَ العربية السُّورية. كانت هذه دولةً نصَّبت نفسها بنفسها، غير معتَرَف بها، بدأت بصفتها «حكومة دستورية عربية... مستقلة تمامًا وبكلِّ معنى الكلمة». كان من المزمع أن تضم الدولة الجديدة سوريا، لبنان، فلسطين وأجزاءً من شمالِ بلاد ما بين النهرين. اُنتخب فيصل ملكًا وأُعلِنَ رئيسًا للدولة. عرَّفَ الدستور منصبهُ باعتباره مَلِكًا دستوريًّا في حكومة ذات نظامٍ ديمقراطي. في الشَّهر التالي، على أية حال، منحت عصبة الأمم فرنسا انتدابًا على سوريا ولبنان معًا في حين عُهِد إلى بريطانيا بانتدابين على العراق وفلسطين.

كان الفرنسيون جائرين في تعاملهم مع أندادهم السياسيين في مناطق نفوذهم بما أنَّ البريطانيين كانوا في منطقتهم. لم يقِمْ الفرنسيون صداقةً مع النَّزعة القومية العربية، إذ كانوا ينظرون إلى الثورة العربية على أنها إمبريالية بريطانية بغطاء رأس عربي وإلى فيصل بوصفه ذريعة غير مباشرة للسياسة البريطانية المُراوِغة التي تهدف لتقويض منزلة فرنسا في الشرق. كشفت تصرفات بريطانيا خلال الأزمة السورية عن تكتيك مألوف للدول العظمى في مواجهة الضغوط، إذْ لجأت إلى تقديم تنازلات على حساب حليفٍ أقل نفوذًا لصالح الحفاظ على تحالفها الاستراتيجي مع دولة عظمى أخرى. لا فرنسا ولا بريطانيا

كانتا صديقتين للديمقراطية. أطلقت فرنسا على بريطانيا لقبَ «إنجلترا الغادرة»، «Albion»، وهو اسمٌ مستعار تستحقه بجدارة. ولم تكن فرنسا، على أية حال، أقلَّ غدرًا. بلغَ الخصام ثلاثي الأطراف ذروته في تموز/ يوليو من عام ١٩٢٠، حين انطلقت القوات الفرنسية باتجاه دمشق، وأبعدت فيصل إلى المنفى، واستولت على حكومة البلاد. هكذا أُسست دولة سوريا الحديثة بنظامٍ جمهوري خاضعٍ للسَّيطرة الفرنسية، وعلى بقايا حلمٍ بمملكةٍ عربية متحدة ومستقلة يقودها الهاشميون. هذه الحادثة دحضت الادعاء الاستعماري الذي يخدم مصالحه الذاتية الضيقة بأنَّ العرب لم يكونوا مستعدين للديمقراطية: أسَّسَ العربُ نظامًا ديمقراطيًا فيه ملكية دستورية، إلا أنّ القوى الاستعمارية سرقته منهم[١].

بعد أن نفى الفرنسيون فيصلَ من دمشق، رجعَ إلى سوق العمل المَلَكي وهيَّأ له البريطانيون عرشًا في بلاد ما بين النهرين، الذي سُمِّيَ مجددًا يومذاك: العراق. وجبَ الإعدادُ بعنايةٍ لاعتلاء فيصل العرش، في عام ١٩٢١، لأنَّه كان أجنبيًّا من دون قاعدةٍ أو سلطة محليتينِ. وما زاد الأمر سوءًا، إنَّه كان سُنيًّا في بلدٍ ذي أغلبية شيعية محرومة من الحقوق - كان الشيعة يشكُّون بأن البريطانيين يرعون فيصل كي يحصِّنوا الحكمَ السُّنِّي أكثرَ. رفضَ جميع العراقيين تقريبًا فيصل، بمَن فيهم الأكراد، لكنَّ هذا لم يردع صُنَّاع المُلك البريطانيون. لا بدّ في أول الأمر من إزالة الأشياء غير الضَّرورية كي يكونوا مستعدين للعمل. نقيبُ بغداد، الذي كان في سن الثمانين، اُستبعد بحجة أنه كان طاعناً في السنّ. أبعد البريطانيون سيد طالب باشا، وهو قائد وطني بارز من إقليم البصرة، استنادًا إلى تهمٍ مُلَفَّقة.

كانت جريمته أنَّه يتطلَّع لإنشاء حكم محليٍّ لبلاده. وكي يدعموا فيصلَ باعتباره ملكَ الدولة المُختَرَعة حديثًا، نظَّمَ مؤيدوه البريطانيون استفتاءً عامًا من سؤال واحد وزوَّروا النتيجة، زاعمين أنَّ ٩٦٪ من العراقيين صوَّتوا لفيصل كي يكون مَلِكهم. انتخابات كثيرة أخرى سوف تُزوَّر في العالَم العربي في العقود التالية، غير أنَّ الإمبرياليين البريطانيين يمتلكون التفوَّق المشكوك فيه بأنهم أول من زوّر الانتخابات.

كان تتويج فيصل، في ٢٣ آب/ أغسطس من عام ١٩٢١، مسألةً بريطانية إلى حدٍّ كبير، نظَّمته غيرترود بِل مرتديةً نجمتها، نجمة قائدة نظام الإمبراطورية البريطانية (CBE)، وأشرطة الحروب الثلاثة. كما صمَّمت بِل العلَم، شعار النبالة ومن ثمّ النشيد الوطني. توَّجَ الملكَ فيصل المندوبُ السامي البريطاني للعراق، اللِّواء سير بيرسي زكريا كوكس، GCMG GCIE KCSI KBE DL، الذي يلقبه العرب كوكوس. أعلن سير بيرسي، ببذلة بيضاء اللون وبكل أشرطته ونجومه، من منصة نُصِبت في باحة سراي بغداد بأن ٩٦٪ من سكان بلاد ما بين النهرين انتخبوا فيصل ملكًا - عاش الملك! جلس المسؤولون الاستعماريون البريطانيون، والوزراء العراقيون والوفود المحلية قُبالة المنصة في مجاميع. رُفِع العَلَم الوطني على سارية العَلَم، وعزفت الفرقة الموسيقية «حفظ الله الملك» - لم يكن لدى العراقيين، آنذاك، نشيدٌ وطني. أطلقتْ بعدها المدفعيةُ إحدى وعشرينَ إطلاقةَ تحيةٍ[٢].

تُظهِر صورةٌ فوتوغرافية للتتويج فيصل وقوراً ولكن متوترًا، يجلسُ على عرشٍ خشبي كبير وخلفه على المنصة مجموعة من الموظفين

البريطانيين طوال القامة نوعًا ما. لم يكن هناك حشوداً مبتهجة تحضرُ تنصيبَ فيصل كما في دمشق السنة الفائتة. كان الاختلاف صارخًا: في دمشق كان فيصل الملك المنتخب بصورة ديمقراطية؛ في بغداد كان واجهةً هزيلة وشفافة للحكم الأجنبي. وزير المستعمرات ونستون تشرشل رأى فيصل تابعًا، مُشيرًا بفظاظة إلى أنّ الشخص الذي يدفع ثمن شيء ما هو مَن يتحكم بطريقة عمله.

لم يختَرْ البريطانيون الحاكم الأول للعراق بعناية وحسب، بل أعدُّوا النظام السياسي للدولة الجديدة بطريقةٍ تُخفي دورهم المُهيمن. بما أنَّ فيصل لم يكن عراقيًا، تعيّن على البريطانيين أن يجدوا محلَّ إقامة مؤقتًا مناسبًا له. وقعتْ هذه المهمة على عاتق غيرترود بِل، التي مُنحت تسميةً جديدة باعتبارها الوزيرة الشرقية في المفوضية السامية البريطانية ببغداد. بأسلوبها غير القابل للتقليد، أبحرت بِل على طول نهر دجلة في قاربٍ، باحثةً عن منزل ملائم للملك. من العروض على قائمتها القصيرة، اختار فيصل قصر شعشوع، وهو قصر كبير شيَّده على ضفة النهر تاجر شاي يهودي ثري اسمه شاؤول شعشوع. اشتُهر مقرُّ الإقامة الفخم، بأنه أجمل ڤيلا في بغداد، أُستُؤجِرتْ من صاحبها إلى حينِ تشييدِ قصر مَلَكي لائق. استقرَّ الملك الجديد في قصر شعشوع، بوصفه المستأجر المُقِر بالجميل لليهودي المحليِّ، واضطلع بواجباته المَلَكية. ساعدته السيدة بِل في تأثيث القصر، وأنشأت البروتوكول للبلاط الملكي وعيَّنت وصيفاتٍ لَمِلكته. خلال هذه المرحلة الحاسمة من تاريخ البلاد، عملت بِل بإصرارٍ على مساعدة الملك المبتدئ في سائر القضايا، كبيرها وصغيرها. في رسالةٍ

إلى أبيها، علَّقت بِل بطريقة نصف مازحةً، «لن أنخرطَ في خلق ملوك جُدد ثانيةً؛ إنه إرهاقٌ كبير للغاية...»[٣].

من الآن فصاعدًا سيتولَّى البريطانيون قيادة العراق بتعاونٍ مُحكَم مع الحكم المَلَكي الهاشمي وحُكم أقليَّة مؤلفة من سياسيين مؤيدين لبريطانيا على رأسهم نوري السَّعيد. وسيُهمَّش أيّ شخصٍ لا يخدم مصالحهم الإمبريالية. كان نوري ضابطًا في الجيش العثماني، لكنَّه تنحَّى جانبًا وقاتل جنبًا إلى جنب مع الأمير فيصل خلالَ الثورة العربية ضد العثمانيين في الحرب العالمية الأولى. تعيَّن على نوري أن يخدم أربع عشرة دورةً رئيسًا للوزراء؛ قبل أن يلقى نهايته الرهيبة في ثورة تموز/ يوليو ١٩٥٨.

كان لغيرترود بِل، التي اعتادتْ ركوب الخيل مع نوري على ضفاف نهر دجلة، أصدقاءٌ مقرَّبون كثيرون من بين النخبة السياسية العراقية؛ ولها تأثيرٌ كبير جدًا في تشكيل مصائر البلاد. في الأعوام المبكرة من عهد فيصل، كان يُشار إليها غالبًا بكونها «ملكة العراق غير المتوَّجة». في ظلّ هذا النظام البريطاني - الهاشمي كانت هنالك واجهةٌ برلمانية تتسمُ بالأبَّهة إنَّما لا توجد ديمقراطية ولا وسائل سلمية من أجل إحداث تغييرٍ سياسي. وبناءً على ذلك، منذ البداية، كانت العاطفة المناوئة للبريطانيين جليةً في السياسة العراقية. كان خطأ بريطانيا الجوهري هو نصب هرم مقلوب رأسًا على عقب، ومنح النخبة السُنيَّة احتكارًا للسُّلطة، وتهميش الأغلبية الشِّيعية. هذه الدولة بريطانية الصُّنع، فاقمت مشاكل العراق البنيوية المتأصِّلة ولم تجلب الحرية ولا السِّلم ولا السعادة إلى شعبها.

كان ترسيم حدود العراق قرارًا تعسفيًا اعتباطيًا بما يتناسب تمامًا مع المصالح السياسية والاستراتيجية والتجارية لبريطانيا. هذه الحدود لم تُقِم وزنًا للتقسيمات في داخل العراق في موازاة الخطوط اللغوية أو الدينية. المجموعات الرئيسة هم الأكراد في الشمال الشرقي، والسُّنَّة في المنطقة الوسطى حول بغداد وفي الشمال الغربي، والشيعة في الجنوب. فضلًا عن ذلك، كانت هنالك أقليات صغيرة عديدة، من بينها: الآشوريون، والأرمن، والتركمان واليهود. في الأصل، كان من المُزمَع أن يتألف العراق من إقليمين عثمانيين: البصرة وبغداد، ولكن أضيف لاحقًا إقليم الموصل الحاوي على النفط إلى العراق، وبذلك تحطَّمت الآمال الكردية، التي تأسَّست على «معاهدة سيڤر» الموقعة في عام ١٩٢٠، التي نصَّت على إقامة دولة كردية تتمتَّع بحكم ذاتي. المنطق وراء هذا المشروع لخّصه بذكاء أحد المراقبين: «العراق خلقه تشرشل الذي كان يملك الفكرة المجنونة المتعلقة بربط بئري نفطٍ بينهما مسافةٌ واسعة، كركوك والبصرة، من خلال توحيد ثلاثة مكوِّنات متباعدة: الأكراد، السُّنَّة والشِّيعة»[٤].

كانت الأقاليم الثَّلاثة مختلفةً أشدَّ الاختلاف، ولم يحدث سابقًا أنْ حُكِمت سويةً. إنَّ ترقيعها سويةً بواسطة أمرٍ إمبرياليٍّ أكَّدَ أنَّ الحكومة الجديدة كانت متشظيةً وممزقةً منذ البداية. كما نقول بالعربية، إنَّ الشيء الذي يبدأ أعوجًا، يظلُّ أعوجًا. في حالة العراق خطوط الصَّدَع الأصلية للحكومة بقيت في مكانها و، بالأحرى، أصبحتْ أكثر وضوحاً بمرور الوقت. استاءَ الأكرادُ من بريطانيا لأنَّها أَخلَفت وعدَها بشأن الاستقلال، واستاء منها الشيعة لأنَّها همَّشتهم والسُّنَّة لأنَّها كبحت تطلُّعاتهم الوطنية.

أصبحَ الجيش، الذي درَّبته بريطانيا وجهَّزته بالأسلحة والعتاد، أرضَ المعارضةِ الوطنيةِ الخصبةَ للسادة الكبار من البريطانيين والأفراد المحليين الخاضعين لحمايتها.

إنَّ السبب الرئيس للاستياء خلال عهد الانتداب هو التطبيق البريطاني لمبدأ «فرِّقْ تَسُدْ» بين أقسام السكان الرئيسة الثلاثة: الأكراد، والسنَّة والشيعة. كان السنَّة هم الأصغر بين المجموعات الثلاث، غير أنهم كانوا يملكون حصة الأسد من السُّلطة، والحُظوة والرِّعاية – خلال عهد الانتداب، كذلك سيطر السنّة على إدارة الدوائر الحكومية ومؤسسات الدولة، يساعدهم مستشاروهم البريطانيون. ثمة سببٌ آخر للإحباط بالنسبة للوطنيين العراقيين ألا وهو السياسة البريطانية المتعلقة بمنح معاملة تفضيلية للأقليات العِرقية والدينية، لا سيما للمسيحيين واليهود. هذه الأقليات كانت مفضلَّةً لأنه من المُستبعد أن تنجذبَ إلى القضايا الوطنية مقارنةً ببقية السكان. كما أنَّ البريطانيين فضلوا الآشوريين المُقيمين على الحدود مع سوريا، وشيوخ القبائل البدوية في الأرياف.

من بين سائر الطوائف اليهودية في الإمبراطورية العثمانية، كانت الطائفة المقيمة في بلاد ما بيَن النهرين هي الأكثر اندماجًا في المجتمع المحليِّ، وأكثرها تعرُّبًا في ثقافتها وأكثرها نجاحًا وازدهارًا. حين خلق البريطانيون المملكة العراقية، وجدوا طائفةً يهودية نشطة يقودها حاخام رئيس ولجانٌ من علية القوم؛ والتجار الذين سيطروا على قسمٍ كبير من تجارة الاستيراد والتصدير من ذوي الارتباطات الوثيقة مع بومباي وكلكتا في الهند، ومصرفيون و(صرَّافون) أو مُقرِضو المال بفائدة ممَّن

كانوا يوفرون قسمًا كبيرًا من الموارد المالية كي تستمرَّ عجلاتُ التجارة بالدَّوران. مع أنَّ اليهودَ لم يشكِّلوا سوى ٢٪ من سكَّان العراق، لكنَّهم سيطروا على ٧٥٪ من وارداته. ضمت غرفة تجارة بغداد في العام ١٩٣٥ تسعة يهود، وأربعة مسلمين واثنين من البريطانيين[٥]. باختصار، كان اليهودُ العمودَ الفقري للاقتصاد العراقي.

أول وزير مالية عراقي هو يهودي عالمي، السيد ساسون حسقيل (١٨٦٠ - ١٩٣٢)، المعروف أكثر بلقبه التشريفي العثماني، ساسون أفندي[١] وهو سليل أسرة يهودية أرستقراطية عريقة جدًّا ذات ثروة كبيرة، تلقَّى تعليمه الابتدائي في (مدرسة الأليانس «الإسرائيلية» The Alliance israélite universelle) في بغداد، وتعليمه العالي بالاقتصاد والقانون في القسطنطينية، وڤيينا ولندن. كان يجيد تسع لغات: الإنجليزية، والعربية، والتركية، والفارسية، والعِبرية، والفرنسية، والألمانية، واليونانية واللَّاتينية. تولى عبر مسيرته المهنية المبكرة منصبَ نائبٍ في البرلمان العثماني، وبعدها في العام ١٩٢٥ أُنتخب نائبًا في أول برلمان عراقي، وأُعيد انتخابه حتى وفاته، وبهذا اكتسب اللَّقب غير الرسمي «أب البرلمان». وبصفته وزيرًا، أنشأ الهياكل والقوانين المالية والمتعلِّقة بالميزانية الخاصَّة في المملكة. اعتبرته غير ترود بِل أكفأ وزيرٍ في الحكومة، وأكثرهم حبًّا للغير وأكثرهم تبصُّرًا. كان حسقيل معارضًا للاستيلاء الصِّهيوني على فلسطين ولهدف تحويل فلسطين إلى دولة يهودية، متنبئًا بأن إقامة دولة يهودية في فلسطين سيخلق مشكلةً يهودية في بقية بلدان الإمبراطورية العثمانية السَّابقة.

(١) مُنِحَ أيضًا لقب السير Sir [المترجم].

أُسرٌ يهودية قليلة، بغضِّ النظر عن أسرة ساسون، كانت تنتمي إلى الطَّبقة الأرستقراطية القديمة للمملكة الجديدة. تنتمي أسرتي إلى الطبقة الوسطى العليا من اليهود الأثرياء. التحقت أمي بمدرسةٍ يهودية للبنات في بغداد وصادقت ابنتيْ ساسون أفندي، هيلدا وراشيل، تزوجت الأخيرة لاحقًا من أحد أقارب أمي. أشارت أمي إلى أن إصرار ساسون أفندي على سداد بريطانيا عائدات نفط العراق بالعملات الذهبية بدلًا من الروبية الهندية يدلّ على حكمة هذا الرجل. دعمته أمي كمثالٍ ممتاز على المساهمة التي قامت بها الطَّائفة اليهودية في بناء الدولة العراقية.

لم تضم الطبقة الوسطى اليهودية التجار والخبراء الماليين وحسب، بل أعضاء المهن الحرة مثل الأطباء، المحامين، الأكاديميين والصحفيين. وتحتهم طبقة كبيرة من يهود الطبقة الوسطى الدُّنيا، وفي أدنى التسلسل الهرمي الاجتماعي هنالك اليهود الفقراء، أقام عددٌ غفير منهم في محلَّة أبو سيفين. يمكن أن تجد اليهود، مثلهم مثل بقية المجتمع العراقي، في أغلب المهن الحِرَفية مثل السبَّاكين، الكهربائيين، النجارين، الإسكافيين، الخياطين والحلَّاقين. كما أنّ صنع المجوهرات من الذهب والفضة كان تخصُّصًا يهوديًّا. في شمال البلاد كان هنالك بعض الفلاحين اليهود، لكنَّهم شكلوا جزءًا صغيرًا جدًّا من مجموع السكان اليهود. بعض المهن، كـ تلك التي تُنتج الطعام المباح أكله في الشريعة اليهودية «كوشر»، اقتصر زبائنها على اليهود. في معظم المجالات الأخرى، على أية حال، كان التفاعل بين اليهود والمسلمين ميِّزةً طبيعية من ميِّزات الحياة اليومية.

بغداد، التي عادت إلى سابق عهدها كعاصمة بعد قرون من الحُكم العثماني، كانت بوتقةً انصهر فيها المسلمون من السنة والشيعة، والمسيحيون واليهود، متحدثين جميعًا اللغة العربية. مثَّلَ اليهودُ أكبرَ مجموعةٍ تملك سجلًّا مستمرًّا من العيش في وادي الرَّافدين. امتدت ذريتهم للماضي السَّحيق وصولًا إلى الأزمنة البابلية، سابقةً ظهور الإسلام بألفِ عام. كانوا متفوقين في كلِّ جانبٍ من جوانب المجهود الوطني، وأدّوا دورًا بارزًا في تطور الصِّحة العراقية، والتعليم العراقي وأنظمة النقل العراقية. كان تأثيرهم واضحًا في كلِّ فرعٍ من فروع الثقافة العراقية، من الأدب والموسيقى إلى الصَّحافة والإعلام. كما انّ البنوك -باستثناء تلك التي تملكها الحكومة- وسائر الأسواق الكبيرة تُغلَقُ يومَ السبت وفي الأيام اليهودية المقدسة الأخرى.

بعد سقوط العثمانيين، رحَّب اليهود بوصول البريطانيين، معتقدين أن بريطانيا سوف تجلبُ الأمان والاستقرار للبلد العنيد، وتوسِّع الفرص التجارية وتدعم الحقوق نفسها التي تمتع بها اليهود في بقية بلدان الإمبراطورية البريطانية. على الرغم من أنهم كانوا يفضلون الحُكم البريطاني المباشر، حشدَ اليهود صفوفهم بسرعة خلف الملك فيصل، وساهموا في مشروع بناء الدولة الجديدة[٦]. بعد مدة قصيرة من اعتلاء فيصل العرش، نظّمت الطَّائفة اليهودية - العراقية استقبالًا ضخمًا إجلالًا وتقديرًا له. أُقيم الاستقبال في الكنيس الكبير بحضور كثير من وجهاء المدينة. قبَّل فيصل كتاب التوراة الذي أُحضِر إليه من «تابوت العهد»(١)،

(١) تابوت العهد: صندوق يحمل ألواحًا منقوشة بالوصايا العشر التي تلقاها النبي موسى على جبل سيناء. [المُترجم].

وفي كلمته شكر اليهود الذين وصفهم بأنهم «الرُّوح الحيَّة لسُكان العراق»[٧].

في عشرينيات القرن العشرين طوَّر اليهود العراقيون ما كان يُشار إليه باعتباره «مَنحًى عراقيًّا»، والذي يعني العيش كمواطنين متساوين وأداء دورٍ فعال في تطور العراق من أجل منفعة سائر ساكنيه[٨]. إن تعيين السيِّد ساسون حسقيل في مركزٍ من المراكز الحكومية العليا قوَّى هذا التوجه.

لم يخذل فيصل رعاياه اليهود. كان ملكًا متنورًا آمن بصدق بالحقوق المتساوية لجميع رعاياه وفي محاولة صهر سائر الشرائح المختلفة من السكان في أمة عراقية موحدة. في أحاديثه كان فيصل يؤكد مرارًا بأنه لا يوجد اختلاف بين المسلمين والمسيحيين واليهود: إنهم عراقيون جميعًا وكلُّهم ينتمون إلى العِرق السامي. ربّاه والده على احترامِ اليهود الذين أُشير لهم في القرآن باعتبارهم «أهل الكتاب». شجّعتْ غيرترود بِل فيصل على التواصل مع رعاياه اليهود، وزيارة مدارسهم وكُنُسِهم، والإشادة علانية بالدور الذي لعبوه في مشروع بناء الوطن. وفي الوقت نفسه، شجّعت اليهود على اللجوء إلى فيصل لحمايتهم ورفاههم.

دستور العام ١٩٢٤ احتفظَ بمبدأ المساواة أمام القانون بصرف النظر عن الدِّين والعِرق واحتوى على معايير من شأنها أن تمكِّن الأقليَّات من الحفاظ على استقلالها الديني والثقافي. كان اليهود قد ضمنوا التمثيل في كِلا المجلسين التشريعيين للبرلمان بحسب نسبتهم السُّكانية. أُتيحَ لهم تَقَلُّد مناصب رفيعة المستوى في المراكز الوظيفية العليا في الخدمة

المدنية التي تتوافق مع تعليمهم ومؤهلاتهم المهنية ومهاراتهم الإدارية. في الأعم الأغلب، على أية حال، تجنّب اليهود البارزون الانخراط في النزعة المؤيدة للقومية العربية، وهي أيديولوجية تناصر قضية توحيد الدُّول العربية. وهنالك عدة أسباب لذلك. أولًا، كانوا ينتمون إلى أقلية غير مسلمة ومن هنا فهم لا ينسجمون بسهولة مع العاطفة الراديكالية المؤيدة للعرب، والمناوئة للبريطانيين. ثانيًا، على الرغم من أنهم انخرطوا في السياسة الحزبية، بشكل رئيس في الجناح اليساري والجانب اللّيبرالي، كانوا يفضلون البقاء بعيدًا عن الحركات الجماهيرية والنِّضال السياسي على صعيد المنطقة.

مهما يكن من أمر، بروز اليهود في الاقتصاد والوظائف الحكومية يُلقي ظلًّا على العلاقات بين المسلمين واليهود. سبّب النجاح في المجال المالي والمجالات الأخرى الغيرةَ التي يُمكن ترجمتها إلى عداءٍ فعَّال. اعتبر بعضَ المسلمين اليهودَ خونة للتطلُّعات الوطنية للشعب العراقي. بعضهم الآخر، بخاصة في أقصى اليمين المُتطرِّف من السياسة العراقية، ذهبوا إلى أبعد من ذلك من خلال اتهام اليهود بوصفهم عملاء الإمبريالية البريطانية. أدركَ اليهود جيدًا موقعهم الحسَّاس للغاية، لكنَّهم شعروا بقلَّة أو انعدام بدائلهم السياسية. بقدر تعلُّق الأمر بهم، لم يكن البريطانيون حكَّامَ العراق القديرين فقط؛ بل أنصارَ الأقليات وممثِّلي الثقافة الغربية[٩].

جلبَتْ نهاية الانتداب البريطاني في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٣٢ استقلالًا رسميًا، لكنْ، مع تغييرات طفيفة فقط في الطريقة التي يُدار فيها البلد. على غرار الوطنيين، خابَ أمل الملك فيصل باتفاقٍ لم يُحدِث حكمًا

ذاتيًا حقيقيًّا. إنَّما نظرًا لأنَّ الفرنسيين طردوه من عرشه في دمشق، كان حذراً من إثارةِ مواجهة مع أسياده البريطانيين، وفضّل أن يتقدَّم خطوةً إثر خطوة نحو هدف الاستقلال الحقيقي. في الوقت الرَّاهن، واصل فعلُ الموازنة الدَّقيقة بين البريطانيين والوطنيين العراقيين الأكثر تطرفًا. غير أن أَجَلَه انتهى. ففي الثامن من أيلول/ سبتمبر ١٩٣٣، توفي الملك فيصل بصورة غير متوقعة بل وغامضة أثناء خضوعهِ لفحصٍ طبي شاملٍ في عيادة طبية في (بِرن) بسويسرا. لم يكن عمره سوى خمسين عامًا. السبب الرسمي للوفاة: نوبة قلبية. لم تُشرَّح جثته؛ وسرعان ما حُنِّطَ جثمانه وأُعيد جوًا إلى بغداد. أُثيرت تساؤلات كثيرة حول موت فيصل المفاجئ، لا سيما أن الأطباء السويسريين أكدوا أنه كان معافى ولم يعانِ من علَّةٍ حين وصل. بلَّغت ممرضته الشَّخصية عن علامات تسمُّم بالزرنيخ قبل موته. مع أن أمي لم تكن تبلغ يوم وفاة الملك سوى تسعة أعوام، غير أنها تتذكر بكاء الناس في الشَّوارع وإنشادهم أغنيةً تلعنُ سويسرا. كثيرٌ من العراقيين من ذلك الجيل، بمَن فيهم أمي، حسبوا أن البريطانيين هم الذين أمروا سِرًّا بتسميم الملك ذي الشعبية العالية لأنه لم يعد يخدم مصالحهم.

كانت وفاةُ الملك فيصل حدثًا مهمًا وتراجيديًّا في تاريخ العراق، يشير إلى نهايةِ عهدٍ ليبراليٍّ ومتعدِّد دينيًّا. شيئًا فشيئًا، سيطرَ نوري السعيد الاستبدادي للغاية، والمؤيد المخلص للبريطانيين، على السياسة العراقية. كان نوري شخصيةً ماكرة، يُشار إليه مرارًا باسم «الثَّعلب العجوز». جسَّدَ النزعة المحافظة المتأصلة للطبقة الحاكمة العراقية. هكذا كانت سيطرة نوري بحيث أن الأعوام الخمسة والعشرين اللاحقة من تاريخ

العراق يُشار إليها عادةً باسم «عَهَد نوري». خلال العقد الأول من المملكة، كان نوري حليفًا قويًا لليهود، لكنَّ موقفه تغيّر عقب الحرب العالمية الثانية، جزئيًّا بسبب انخراط اليهود في الحزب الشّيوعي العراقي، وجزئيًا بسبب العدوان الصِّهيوني على فلسطين.

خلفَ فيصل ابنه الوحيد، غازي الذي كان في الحادية والعشرين من عمره حين اعتلى العرش. كان يكره البريطانيين بسبب خداعهم لجدِّه حسين، شريف مكة، وخداعِهم للعرب من خلال إصدارهم وعد بلفور. على خلاف أبيه الخبير بالحياة والناس، كان غازي شابًا قليلَ الخبرة وغير متزنٍ، وغير ناضج، ومنغمسًا في الملذات، واظبَ على سعيه خلفَ اللَّذة والرياضة؛ مهملًا لواجباته العامة. كان يحمل بعض الآراء غير المدروسة لكنَّها تعبِّر بقوة عن تأييده للعرب، وانشغلَ على نحو ضيق بالأيديولوجية النازية وبمفهوم النقاء العِرقي. تحدثت أمي عن غازي بأنه جسّدَ خيبةَ أملٍ كبيرة مقارنةً بأبيه، وبأنه نذلٌ اختلط بصُحبة سيئة، لا سيما النازيين والحاج أمين الحسيني، قائد الحركة الوطنية الفلسطينية. إبَّان عهد غازي قصير الأمد، أصبحَ الوطنيون يتكلمون بمزيد من الصَّراحة والحزم عن السياسة العراقية.

بعد صعود الحزب النازي إلى السلطة في العام ١٩٣٣، كثفت الدعاية الألمانية نشاطها في العراق. تطلّع الألمان إلى نفط العراق وعملت ماكينة دعايتهم بمهارة لتأجيج المشاعر المناوئة لبريطانيا وللصهيونية. انتشرَ الإعجاب بألمانيا في أنحاء البلاد؛ وحلّت الألمانية محلَّ الفرنسية بوصفها اللُّغة الثانية بعد الإنجليزية في بعض المدارس. كما شجّعت وزارة التربية

والتعليم تشكيل «الفتوة»، وهو لواء شِبه عسكري تشكَّل وفقًا لنموذج «شبيبة هتلر»، الذي لجأ إلى مضايقة اليهود في شوارع بغداد.

خلّفت النزعة العسكرية النازية انطباعًا قويًا لدى أفراد الجيل الأصغر سنًا ممن يتطلَّعون إلى إنشاء حركة نازية في العراق. العداء تجاه اليهود، مهما كانت مصادره، وجدَ لهُ تبريرًا أيديولوجيًا جديدًا وسامًا. السفير الألماني، الدكتور فريتز غروبا، الذي يتكلم العربية، عقد صداقاتٍ كثيرة مع السياسيين المحليين والصحفيين. اشترى جريدةً يمتلكها شخصٌ مسيحي، اسمها «العالَم العربي»، ونشرَ على حلقاتٍ نسخةً عربية من سيرة أدولف هتلر الذَّاتية، «كِفاحي». صادقَ غازي السَّفيرَ غروبا. وجدَ الوطنيون العلمانيون والمتدينون، الذين همشهم البريطانيون سابقًا، وجدوا الآنَ في غروبا حليفًا ودودًا[١٠]، وبتشجيع منه عبَّر الجيش بالكلمات وبصورة حادة أكثر من أي وقت مضى عن عواطفه المناهضة لليهود والمناهضة للإمبريالية، وبدأ يتدخل في الميدان السياسي ضد الحكومات المدنية التي لم يعتبرها وطنيةً بما يكفي. في عام ١٩٣٦، وبدعم ضمني من الوصي، أطاحَ بالحكومة المدنية أربعة ضباط جيش يلقبون بـ «المربع الذهبي». كان هذا أوَّل انقلابٍ عسكري في تاريخ العرب المعاصر.

أثناء وجود غازي في السلطة، أسفرَ الخوف من الأجانب في وسائل الإعلام وفي الأوساط الحكومية وفي البلاد عمومًا، عن نقلةٍ نوعية ألغتِ المنزلة الخاصة والامتيازات التي كَفَلها والدُه للأقليّات. في العصر الجديد من الانتصار السُّنِّي، شُوِّهت سمعة الأقليات. تعاملَ الجيش العراقي بخشونة مع الآشوريين، وبلغ هذا التعامل ذروته بمذبحةٍ قوامها مئات

المدنيين الأبرياء في العام ١٩٣٣. تبنَّت الحكومة المركزية في بغداد سياسة القبضة الحديدية ضد المتمردين الأكراد، والتي اشتملت على وحشية هائلة واستخدام القوة الجوية من أجل قصف المراكز المدنية بالقنابل. مع أن وضع اليهود لا يشبه وضع الأقليات الأخرى، فقد واجهوا قيودًا متزايدة وتمييزًا. فرض غازي ضريبةً على اليهود كلما غادروا البلاد. وهدفَ هذا التدبير إلى تمزيق حلقة الوصل بين يهود العراق وبقية أنحاء العالَم، لا سيما في فلسطين. أما التدابير الأخرى فكانت ترمي إلى الحدِّ من تأثير الطَّائفة اليهودية في البلد. مئات من اليهود سُرِّحوا من الخدمة المدنية بحجة الإصلاح وتخفيضات الميزانية وأُدخلتْ الحصص غير الرسمية بغية تحديد عدد الشُّبَّان اليهود المنتظمين في المدارس والكليات التَّابعة للدولة. في حقيقة الأمر تولَّت الحكومة زِمام القيادة في نشر معاداة السَّامية بالأسلوب الأوروبي وتشريع تدابيرَ معادية لليهود. واجه الملك غازي منيته قبل الأوان في العام ١٩٣٩، عندما اصطدمت السيارة الرياضية التي كان يقودها بشجرةٍ في مَلعب «قصر الزهور». في ذلك الحين تبنّى كثيرٌ من العراقيين الرأي القائل بأن نوري السعيد حرَّض على مقتل غازي بأمرٍ من البريطانيين، وغذّت السفارة الألمانية شائعاتٍ مفادها أنَّ الاستخبارات البريطانية متورِّطة في حادثة قتل الملك المزعومة، ولكنْ ما من دليلٍ مُقنِع يدعمُ نظرية المؤامرة تلك. تنفَّس اليهودُ الصعداء بصوتٍ مسموعٍ. نوديَ بفيصل بن غازي ملكًا على الفور، ومُنح لقبُ فيصل الثاني ولكن، بما أنه كان طفلًا في الرَّابعة من عمره، كان عليه أن يحكم تحت ظلِّ مجلس وصاية على العرش يترأسه خاله المؤيد للبريطانيين، الأمير عبدالإله.

عبد الإله هو ابن علي، ملك الحجاز والشقيق الأكبر لفيصل الأول. كان عبد الإله أميرًا خَجولًا، يفتقر إلى الثِّقة بالنفس، ولا يجيد الإفصاح عن آرائه ومشاعره، ضعيفًا وغير حاسم. وهو أطول من أقاربه وأشقر أكثر، ويُعتقد أنه ورث هذه الصفة من جدَّته القوقازية. كان يهوى الخيول والأرياف، واكتسب شغفًا قويًا بالفِلاحة. كان عبدالإله فخورًا بالدور الذي اضطلعت به أسرتُه في قيادة الثورة العربية أثناء الحرب العالمية الأولى وقد حفزته رغبةٌ حقيقية في عمل الخير من أجل بلاده، غير أنه ببساطة لم يكن مؤهَّلًا لهذه المهمة. كانت مهاراته السياسية محدودة، حيث افتقر إلى الشَّخصية الساحرة التي تقود الجماهير مما جعله موضع سخرية البريطانيين.

استمرت الدِّعاية الألمانية في أداء دور رئيس في نشر مشاعرَ مناهضة لليهود في العراق، لا سيما بين الشَّباب، خلال (عهد الوصاية على العرش). ثمة عامل خارجي آخر، أثَّر على نحوٍ متزايد في وضع الطَّائفة اليهودية في العراق، ألا وهو الكفاح الصِّهيوني من أجل إنشاء دولة يهودية في إسرائيل. إنَّ الحركة الصهيونية حركةٌ استعمارية - استيطانية لها جذورُها في أوروبا أواخر القرن التاسع عشر، نشأت كردٍّ فعل على مشكلة معاداة السَّامية في أوروبا. مع أن الصِّهيونية تمرُّدٌ على المعاملة الأوروبية لليهود، كان قادتها يحتكمون إلى المصلحة الشخصية مع القِوى الأوروبية الكبرى. تيودور هرتزل، يهودي فييني مندمج في المجتمع النمساوي وأبو الصهيونية السياسية، قطع هذا الوعد عام ١٨٩٦: «من أجل أوروبا سنعمل هناك بصفتنا طليعة الحضارة ضدَّ البرابرة». مدفوعينَ بالشك، قرَّرَ حاخامات

ڤيينا أن يتحرّوا أفكار هرتزل وبعثوا ممثِّليْنِ اثنين إلى فلسطين. أسفرت هذه المهمة الاستطلاعية عن برقيةٍ من فلسطين كتبَ فيها الحاخامان: «العروس جميلة، لكنَّها متزوجة من رجلٍ آخر».

كي تشقَّ الحركة الصِّهيونية طريقها في العالم القاسي للسياسة الدولية، وكي تتغلَّبَ على المقاومة المتوقعة والمحتومة لعرب فلسطين، تحالفت مع بريطانيا العظمى في الحرب العالمية الأولى. أول نصرٍ دبلوماسي لها هو وعد بلفور في الثاني من تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩١٧، والذي تعهد بدعم بريطاني بغية إنشاء وطنٍ قومي لليهود في فلسطين. كانَ هذا الإعلان وثيقةً استعمارية قديمة. في ذلك الزمن، كان العرب يشكلون ٩٠٪ من سكان فلسطين؛ ويشكِّل اليهود ١٠٪ ويمتلكون ٢٪ فقط من الأرض. وعلى الرغم من ذلك دعم البريطانيون الحقوق القومية لليهود؛ وفقط الحقوق الدينية والمدنية للأغلبية العربية. ولرشّ الملح على الجرح، لم يكتفِ وعد بلفور بتجاهل حقوق الفلسطينيين، بل وصفهم بطريقة تنتقص منهم وتقلل من شأنهم، «الطَّوائف غير اليهودية في فلسطين»، مما زاد الطين بلة. لم تمتلك بريطانيا حقًّا قانونيًّا، سياسيًّا أو أخلاقيًّا في أن تُسلِّم أرضَ شعبٍ ما إلى آخر، لكنَّ انتدابها على فلسطين من قِبل عصبة الأمم، أمَّنَ لها السلطة كي تفعل ذلك. بدأ الصهاينةُ، بدعمٍ من سلطة الانتداب، الاستيلاء المنظَّم على فلسطين. كان جوهر سياسة الانتداب هو رفض المؤسسات النيابية طالما أنَّ هنالك أغلبيَّة عربية. والفكرة من هذا هي تأخير ضمان الاستقلال إلى أن تكون هنالك أغلبية يهودية قادرة على إدارة البلاد أسوةً بالأوروبيين. مع أن هذا لم يُعترَف به قطُّ، لكنَّ الوطن القومي للشعب اليهودي في البلد

قد تحقق على حسابِ السكان العرب المحليين. ما من حيز يُمكن خلقه في فلسطين لأمَّة ثانية إلَّا بطرد وإزاحة الأمة الأولى.

كانت الظروف التي أدت إلى ظهور الصهيونية في أوروبا غائبةً إلى حدٍّ كبير في الشرق. وجدتْ فكرة النَّزعة القومية في قلب الصِّهيونية الأوروبية موالين لها بين صفوف اليهود في البلدان العربية. في العراق لم تكن الصِّهيونية نتاجًا محلِّيًا، بل أيديولوجيةً أجنبية نشرها الجواسيس القادمون من فلسطين. بعض هؤلاء الجواسيس كانوا يهودًا أشكينازيين وبعضهم الآخر يهودًا عراقيين هاجروا إلى فلسطين بأعدادٍ صغيرة في الحقبة الزمنية الفاصلة بين الحربين العالميتين الأولى والثانية. على الرغم من أن الجواسيس حظوا باستقبالٍ حسنٍ من قبل الموظفين البريطانيين والعراقيين رفيعي المستوى، كان اليهود العراقيون غير مبالين إلى حدٍّ كبير وحتى عدائيين. وحين مُنحت اللجنة الصهيونية رخصةً بالعمل، قابل وفدٌ من القادة اليهود المفوض السَّامي كي يعبروا عن معارضتهم. عجزَ الصهاينةُ عن استدرار الدَّعم من أي قائد يهودي محليٍّ مؤثِّر[١١].

في إحدى الذكريات السَّنوية لوعد بلفور، كتبَ سير أرنولد ويلسون، الذي عمل مندوباً مدنيّاً في بغداد بين عامي ١٩١٨ - ١٩٢٠، إلى المكتب الاستعماري عن نقاش أجراه مع أفرادٍ من الطَّائفة اليهودية - العراقية وقتذاك:

> «أشاروا (أي يهود العراق) إلى أنَّ فلسطين بلدٌ فقير والقدس مدينةٌ سيئة لا تصلح للسُّكنى. بلادُ ما بين النهرين جنةٌ، مقارنةً بفلسطين. إنَّها جنة عدْن، -قال أحدهم- من هذه البلاد انطلقَ

آدمُ. أنعموا علينا بحكومةٍ جيدة، ولَسوف نجعل هذه البلاد تزدهر. بالنسبة إلينا فإنَّ بلادَ ما بين النَّهرين هي الوطن، الوطن القومي الذي سيكون يهودُ بومباي وبلاد فارس وتركيا سُعداء بالمجيء إليهِ. هنا يجب أن تكونَ الحرية والفرصة المواتية. ربما ثمَّة حرية في فلسطين؛ إنَّما لن تكون هناك فرصةٌ مواتية»[١٢].

مثَّلتْ الآراء التي نُقلِت إلى المندوب المدني الطَّائفة اليهودية عمومًا. انجذبتْ أقليةٌ صغيرةٌ، تتألف بشكلٍ رئيسٍ من اليهود الأرثودوكس، إلى فكرة الذهاب للسكن في موطن الأجداد اليهودي. في حين رأت الأغلبية في العراق موطنهم وفي الثقافة العربية ثقافتهم، مع أنَّ اليهودية ديانتُهم. كانوا ملتزمين بالعراق ورأوا فكرة الدولة اليهودية في فلسطين غير واقعية ومزعجةً على حدٍّ سواء.

شكَّلت هذه البيئة السياسية شديدة التعقيد، بتياراتها المتعارضة من المحافِظَة(١) العراقية، والاستعمار البريطاني، والقومية العربية، والصهيونية، ومناوأة الصهيونية من قِبَل اليهود - العراقيين، حياةَ أُسرتي في بغداد حتى حلول العام ١٩٥٠. في تلك المرحلة، اتخذتْ هذه التيارات شكلَ أمواج مدٍّ وجزْر، ودمرت تمامًا العالَمَ الذي عرفناه وأقحمتنا في دولة إسرائيل الجديدة. الآنَ، حين أنظر إلى الوراء، لا يسعني استيعاب التأثير العميق لكلمات وعد بلفور السَّبع والسِّتين، وكيف أنَّها قَلَبت حياة ومصائر أُسرتي على مدى عقودٍ لاحقة.

---

(١) المحافظَة: النُّزوع إلى الإبقاء على ما هو قائم؛ أي مقاومة التجديد أو التغيير. [المُترجم].

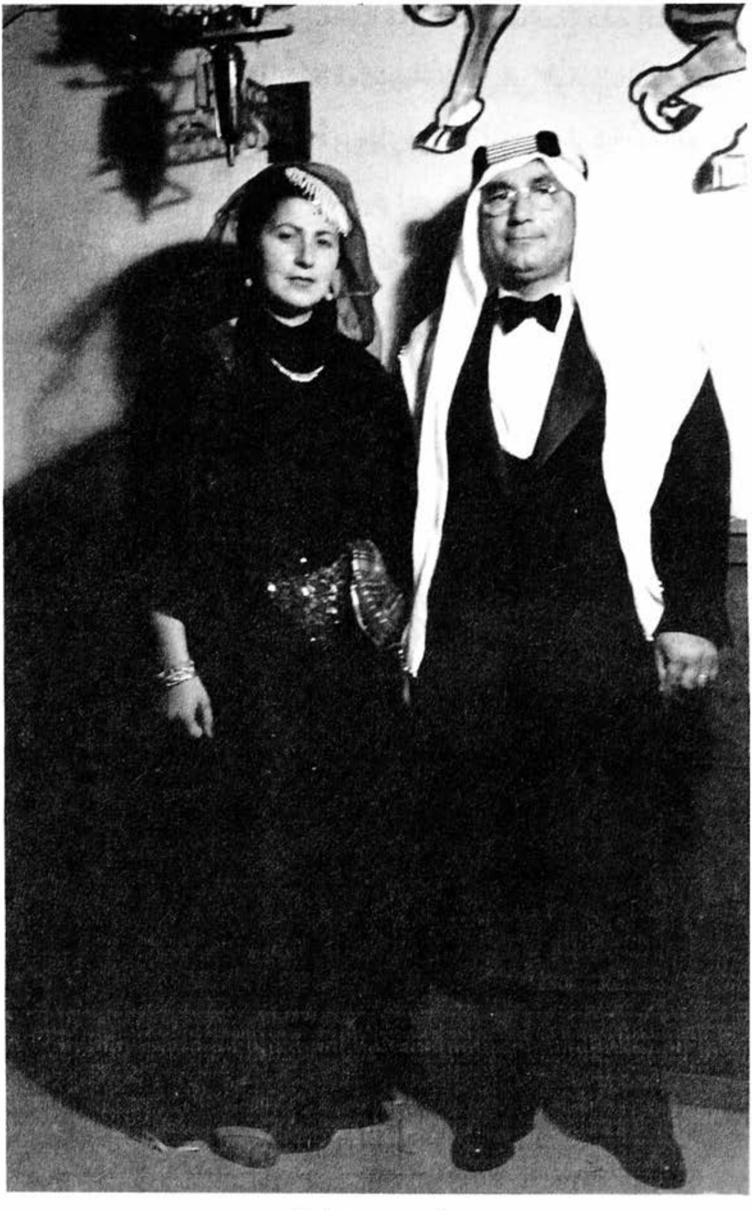

يوسف وسعيدة شلايم.

الفصل الثالث

الجذور العراقية

امتلكَ والدايّ إحساسًا قويًّا بالانتماء، وارتباطًا عاطفيًّا عميقًا بالعراق. كان لهما أسرتان ممتدتان، وأصدقاء كثيرون، وشبكة علاقات قوية، وثروة، ومكانة اجتماعية راقية. بدتْ فكرةُ مغادرة البلاد إلى الأبد غير واردةٍ قبل ولادة إسرائيل والحرب العربية - الإسرائيلية الأولى.

مع أنَّ والديَّ مواطنانِ عراقيَّانِ، وكلاهما جاءا من أسرة يهودية، فقد شكَّلا ثنائيًّا غريبَ الأطوار. ليسا متوافقين تمامًا، باعتبار أنهما زُوِّجا بطريقة تقليديةٍ في بغداد عام ١٩٤٢. كان فارق العمر بينهما ثلاثةً وعشرين عامًا: أبي في سن الحادية والأربعين بينما لم تتجاوزْ أمي السَّابعة عشرة آنَ زواجِهما. الزيجات التقليدية المنظمة هي النظام المُتبَع بين اليهود العراقيين في تلكم الأيام غير أنَّ هذا الزواج تحديدًا لم يكن تمامًا جزءًا من النظام المُتبَع؛ حيث أجبَرت أسرة أمي ابنتهم على الزواج من رجلٍ في سنِّ أبيها. بمجرَّد تشكُّل الارتباط الرسمي، بذلَ كلا الجانبين أقصى جهوده كي يجعلَه ناجحًا. كانَ أبي رجلًا عطوفًا، لطيفًا وكريمًا. وأمي سيدة مرنة وواقعية، تغتنم الفرص بسرعة وتميل دومًا إلى

النظر إلى الجانب المُشرِق من الحياة. وبما أنَّ أبي ثريٌّ جدًا، كانت تمتلك تعويضات مادية كبيرة مقابل التضحية بالحُرية التي كانت مرغمةً على تقديمها. علاوة على ذلك، أنجبت العروس الشَّابة ثلاثة أطفال بتتابع سَريع، واستنزفَ ذلك حصَّةً كبيرةً من وقتِها وطاقتِها دونَ التفريط بأسلوب حياتها المُترَف.

ولد أبي في بغداد عام ١٩٠١. إنَّه يهودي عراقي. اسمه يوسِف شلايم. (يوسِف) هو بديلٌ يهودي مختلف لكلمة (يوسُف) العربية و(جوزيف) الإنجليزية. (شلايم) ربما هو اسم ألماني يرجع إلى بضعة أجيال للوراء. وفقًا لقصةٍ سمعتُها من أمي، لم أتثبَّت من صحتها، جدُّ أبي طبيب يهودي - ألماني شاب ذهب لمساعدة يهود بغداد كي يتغلبوا على المشكلات النَّاجمة عن وباءٍ في مرحلة ما من القرن التاسع عشر. قيل إنَّ الوباء أصاب بشكل رئيس فقراء اليهود في منطقة «أبو سيفين» المزدحمة ببغداد. عالج الطبيب أثناء عمله، فتاةً يهودية محلية، وقع في غرامها، تزوج منها واستقرَّ. بحسب هذه القصة، سافر الطبيب إلى بغداد مع اثنين آخرين من المتطوعين اليهود كانا قد أكملا منذ عهدٍ قريب تدريبهما الطبي، لكنَّه وحده الذي مكثَ فيها. عاد الآخران إلى ألمانيا بعد أن أنهيا مهمتهما الطبية الإنسانية. نحن لا نعرف الاسم الأول للطبيب الذي مكث، ولا نعرف التهجية الألمانية المضبوطة للَقبِهِ قد يكون شلَيم أو شلاييم. أجرى أحد طلبتي الألمان، كانَ طالب دراسات عليا، بحثًا عن سائر هذه التهجئات لكنَّه لم يُسفر عن نتيجة. قادني هذا الأمر إلى أن أتساءل ما إذا كانتْ القصة كلُّها بلا أساس. لم يذكر أبي جِدًّا ألمانيًا قطُّ. وحين ألححتُ على أمي كي تفصح

عن مصدر القصة، اعترفتْ أنَّ المصدر لم يكن أبي بل أحد أقاربهِ. مع الأسف، أحلتُ جدي الألماني من جهة الأب إلى حيّز التكهنات.

جدِّي لأبي يهوديٌّ عراقيٌّ، اسمه أبراهام، وسُميتُ على اسمه أبراهام، أو آبي اختصارًا. لدى أبراهام أربعة أشقاء وشقيقة واحدة. تزوج من لولو بيتچاتي، التي لم تعرف القراءة والكتابة، وهو ما لم يكن مستغربًا على الإطلاق في عراق تلكم الأيام مع أنَّ نسبة الأُمية بين اليهود كانت أقل إلى حدٍّ كبير من تلك السائدة بين المسلمين. كان أبراهام رجلٌ متوسط الثراء يملك أرضًا في قرية «الدورة» الزِّراعية بضواحي بغداد، ويعيش من مبلغ إيجارِها. استخدمَ مستأجرو أرضه، الفلاحون، طرائق بدائية لزراعة الأرض، مقابل ثلثيْ المحصول وتسديد الثلث الباقي لأبراهام نقدًا أو على شكل سِلع. ضمن هذا الأمر مورداً منتظمًا لأبراهام وأسرته من زيت الزيتون، ومنتجات الألبان، والشمَّام، والبطيخ الأحمر والفواكه والخضروات الأخرى.

لأبراهام ثلاثة أبناء وابنتان: يوسِف (أبي، الابن الأكبر)، عزرا، إسحاق، روزا ورَجينا. تعوَّد أن يمتطي حصانه متَّجهًا إلى «الدورة» كي يجمعَ بدلات الإيجار من الفلاحين الذين يستأجرون أراضيه، مطوِّقًا خصره بحزام ذي حقيبة صغيرة يضع فيها المال. في واحدة من جولاته، في العام ١٩١٤، قتله اللصوص -وفارق الحياة فورًا- وسرقوا النقود كلَّها. تركَ أبراهام وراءه أرملةً وخمسة أيتام صغار السن من دون مصدر دخل منتظم. تعيَّن في تلك المرحلة على أبي يوسِف، كونه الابن الأكبر سنًّا بعد فقدان المُعيل، أن يترك المدرسة ويعملَ كي يُعيلَ عائلته.

لا أتذكر مناسبةً واحدة تكلَّم فيها أبي عن الماضي، سواء لي أو لأي شخص آخر. ولا توجد بحوزتي أيُّ سجلات مكتوبة تساعدني كي أجمع أجزاء قصته. كم تمنيتُ أن أحاوره من أجل هذه المذكرات، أو أن أتفحَّص الحقائق والتواريخ وأحصل على وجهة نظره في حياته وزمنه. لكنَّه فارق الحياة إثر نوبةٍ قلبية في الثالث من كانون الأول/ ديسمبر من عام ١٩٧٠، حين كنتُ في الخامسة والعشرين من عمري، ولم يترك وراءه أي وثائقَ أو سجلّات حينها. في ذلك الوقت، كنت قد عُيِّنتُ للتّو محاضِرًا مؤقتًا في قسم العلاقات الدولية بجامعة ريدنج. شقيقتي الكبرى ليديا وأبناء وبنات عمتنا، أبناء رَجينا، قاموا بالترتيبات من أجل الجنازة. أخبرتني ليديا، التي غُيِّر اسمها إلى داليا بعد وصولنا إسرائيل، بوفاة أبينا بواسطة رسالة بالبريد الجوي وصلتني بعد مرور أسبوع. فَعَلَتْ ذلك عمداً كي توفر عليَّ -بصفتي ابنه- عناءَ الطيران عائدًا إلى إسرائيل والالتزام بالحداد عليه مدة سبعة أيام، وتقبُّل تعازي الآخرين، وهو طقس يهودي معروف يُسمى «شيڤا». كانت نوايا داليا طيبة، غير أنَّ أفعالها فاقمت وجع الفقدان عوضَ أن تقلله. كان ينبغي لي أن أتغلَّب على الفقدان بمفردي، من دون أي دعم. حزني اشتد بسبب شعوري أني لم أعرف أبي كما ينبغي. بما أنني حُرِمتُ أن أُعبّر عن حزني عليه بالطريقة اللائقة، كنتُ أمرُ بحالة من الكآبة الخفيفة كل عامٍ حينما تقترب ذكرى رحيله، واستمر ذلك لسنواتٍ طويلة بعد وفاته.

كانت أمي مصدري الرئيس للمعلومات عن هذه الفترة المبكرة من حياة والدي، وتضمنت روايتها العديد من الثغرات وليس فقط بعض

التناقضات الداخلية. بحسب قولها، لم يكن والدي تلميذًا مجتهدًا في المدرسة، ويرجع ذلك جزئيًا إلى معاناته من ضعفٍ في النَّظر لم يشخّص مبكرًا في الطفولة ولم يتنبَّه له والداه. بعد مقتل والده، لم يعد المدرسون في المدرسة يهتمون به، وقالوا إن الصبي ليس له أب وأمه جاهلة. لذلك، لم يحزنوا كثيرًا حين تركَ الشاب يوسف المدرسة.

في سن الرابعة عشرة، انخرط والدي شيئًا فشيئًا في مجال الأعمال التجارية الذي تحول تدريجيًا إلى مسيرة ناجحة ومربحة للغاية. كان له شريك يهودي في مثلِ عمره تقريبًا، اسمه شواع عُبيد. كانا يشتريان ويبيعان أدوات ومواد البناء: الإسمنت، وخلاطات الإسمنت، وقضبان الحديد، والأبواب، والطابوق، والآجرُّ، وتجهيزات الحَمَّام وأطقم المطبخ. عملا بجدٍ ومثابرة، طوَّرا مهنتهما، واغتنما كلَّ فرصة واتتهما؛ ونجحا. وسرعان ما اكتظّ متجرهما الصغير ولم يعد يستوعب حجم البضائع المتزايد، فاستأجرا خانًا كبيرًا. عند نهاية الحرب العالمية الأولى، في العام ١٩١٨، عرض الجيش البريطاني للبيع في السوق المفتوح كل أنواع المواد الفائضة عن الحاجة بما فيها الحديد الخردة، والماكينات، والأدوات، والرافعات، وخزانات الماء ومعدات الإنشاء. ابتاعَ أبي وشريكه المعدات بأثمانٍ زهيدة وجنيا أرباحًا طائلة. توسعت مهنتهما بثبات. وفي الوقت المناسب، أصبحا أيضًا وكيلين بالعمولة، للشركات الأوروبية المنخرطة في الإنشاء، في بغداد. اختارتهما الشركة البريطانية «توِيفورد»، المتخصصة بأطقم الحمام، وكيلينِ لها في العراق. وكذلك الشَّركات الألمانية والشركات الأوروبية الأخرى استخدمتهما أيضًا كي يصدرا بضائعهما، واستمر الشريكان الشابان في تحقيق النجاح.

من خلال جعل المنتجات البريطانية والأوروبية رفيعة المستوى متوفرة للبيع في «الخان» العائد لهما، كسبَ أبي وشريكه دائرة واسعة من الزبائن اشتملتْ على شخصيات عامة ذات منزلة عالية، ووزراء. الملك فيصل الأول كان زبونهما الأكثر شهرة؛ حيث طلبَ مساعدوه تجهيزات منهما لأجل بناء «قصر الزهور». كان هذا محلّ الإقامة الدائم الذي بناه فيصل الأول له ولأسرته بعد إقامته المؤقتة في «قصر شعشوع» وكان هذا المكان الذي توفي فيه الملك غازي. يشتري وزراء الحكومة قطع أراضٍ ويشيدون عليها فيلاتٍ مترفةً لأُسرهم. كانوا يطلبون من أبي أن يزودهم بالمواد لبناء بيوتهم، على حسابهم ووفق تسهيلات الدَيْن التي مدد مواعيدها سخيةٌ إلى حدّ كبير وفي كثير من الأحيان، كان الوزراء يفشلون في تسديد المال المدينين به أو يسددون جزءًا من الدفعات فقط، لكنَّ أبي لم يكن يصرُّ على ذلك.

إنَّ التجهيز بالسلع من دون الإصرار على دفع الأثمان هو شكلٌ من أشكال الرشوة. في العراق إبان تلك الأعوام بين الحربين العالميتين، كانت هذه الممارسةُ شائعةً، استنادًا إلى تفاهمٍ ضمني مفاده «تحكُّ ظهري وأحكُّ ظهركَ». يتحمل الوزراء مسؤولية دفع التكاليف لكنهم ينتظرون الوقت المناسب لفعل ذلك، وهذا الأمر جعلهم يميلون إلى استخدام منصبهم الرسمي كي يعيدوا المعروف حين تكون هنالك فرصةٌ مواتية. إعادة المعروف يُمكن أن تتخذ شكل شراء تجهيزات لوزارتهم بأثمان مُضخَّمة، وإصدار إجازات استيراد أو ضمان الإعفاء من فئاتٍ ضريبية معينة. بحسب ما ذكرته أمي، لجأ تجار يهود كثيرون إلى هذا النوع البارع

أو غير البارع جدًّا من رشوة الوزراء المسلمين والموظفين الحكوميين رفيعي المستوى.

انتهتْ الشراكة المثمرة بين أبي وشواع عُبيد، لا بسبب التغييرات الحاصلة في المناخ الاقتصادي أو السياسي بل نتيجة مشاكل عائلية. كان لعُبيد ابن تبيَّن أنّه شخص وقح، من رذائله الكثيرة شرب الخمر والمقامرة وارتياد بيوت الدعارة. في نهاية المطاف، بدا من المؤكد انتقال سلوكيات الابن من البيت إلى العمل. في النهاية مضى الشريكان كلٌّ في حال سبيله من خلال اتفاق مشترك ومن دون ضغائن. انتهت شراكة العمل لكنَّ الصداقة استمرت. وكما يقول الفرنسيون دومًا: Tout casse *sauf l'amitié* – «كلُّ شيءٍ يتحطَّمُ إلَّا الصَّداقة».

بمفرده، واصلَ أبي إحراز النجاح. ففي العام ١٩٣٩، شيَّد لنفسه بيتًا كبيرًا، حسن التجهيز، أنيقًا على نحوٍ أخَّاذ. صممه له صديقٌ مهندس معماري مغترب ألماني الجنسية. كان البيت قرب «جمعية الشبان المسيحيين» و«أورزدي – باك»، المخزن الراقي الشهير الذي يملكه شخص يهودي، وقبالة «كنيس مئير طويق» في محلة البتاوين المزدهرة، التي تمتد في غير نظام عبر مركز بغداد. موقع البيت ليس بعيدًا عن نهر دجلة الذي يجري عبر منتصف المدينة مضفيًا على جمال بغداد المعماري عددًا من الجسور عتيقة الطراز. للبيت ثلاثة طوابق، ونحو عشر غرف، وثلاثة حمامات مترفة وحديقة كبيرة ذات مرجٍ جزّ بعناية، وأحواضٌ للزهور المُورِقة وأشجار نخيلٍ باسقة.

مع قربِ اكتمال بناء المنزل، اكتسب والدي شهرة كواحد من أبرز

العزاب المؤهلين للزواج في الطَّائفة اليهودية ببغداد. كان في أواخر الثلاثينيّات من عمره، جمع ثروة طائلة، وبنى علاقات واسعة، والآن يفتخر بامتلاكه فيلا أحلامه. هذا كله جعله هدفًا لوسطاء الزيجات اليهود الذين أمطروه بسيلٍ من اقتراحات الزواج من شاباتٍ زعموا بأنهن عرائس مناسبات له. رفض أبي بأدبٍ، على أية حال، العروض كلَّها وانتظر فرصته المناسبة. في النهاية، ودون مساعدة وسطاء الزواج، وقعت عيناه على أمي وتزوجا في العام ١٩٤٢. اختارها لكنها لم تختره، فقد أرغمتها أسرتها على هذا الزواج. انتقلت العروس غير الراضية إلى البيت الكبير وأصبحَ هذا بيت العائلة إلى أن أُجبرنا على مغادرة العراق عام ١٩٥٠.

اتَّخذ استكشافي لجذور أسرتي تحوُّلًا دراميًا في العام ٢٠١٤ حينَ اكتشفتُ أنَّ لنا ارتباطًا بالمحرقة النَّازية. واحدة من أقاربنا البعيدين، لم أعلم بوجودها، تولت زمام المبادرة واتصلت بي. كانت القريبة هي كيرين إفرات إيليميليتش، اسمها بالولادة شلايم، حفيدة حسقيل، عمِّ أبي. ذات يوم، في أيار/ مايو ٢٠١٤، تركت لي كيرين رسالةً على هاتف مركز الشرق الأوسط في كلية سان أنتوني، بجامعة أكسفورد. عدتُ واتصلتُ بها ودار بيننا حواران طويلان كي نقارن الملاحظات المتعلقة بأسلافنا المشتركين. من خلال حواراتنا، تكوَّن لدي الانطباع بأن كيرين يهودية وَرِعة ومواطنة إسرائيلية لديها متسع من الوقت وكانت مُتلهِّفةً لمعرفة أكبر قدرٍ ممكنٍ عن تاريخ أسرتها. سمعتْ عني من بعض أقاربنا وقرَّرتْ الاتصال بي لاكتشاف المزيد. كانت مفتونةً على نحو استثنائي

بالأصل الألماني لأسرتنا. أخبرتها بالشيء القليل الذي أعرفه عن الطبيب اليهودي - الألماني المزعوم وعبَّرتُ عن خيبة أملي لأنِّي لم أتمكن من الحصول على أي تفاصيل أو تواريخ.

في الواقع، أخبرتني كيرين، كما تبيَّن لاحقًا، بأكثر مما استطعت إخبارها إياه. أوحى لها بحثها أنَّ ثمة عائلة يهودية كبيرة تحمل اسم شلايم في ألمانيا، وهي أسرة واسعة الانتشار، فروعها ليست في العراق فحسب بل في إيران، والهند، وتشيكوسلوفاكيا، وفي البلدان الأوروبية الأخرى. والد كيرين، منصور، زارَ المقبرة اليهودية في براغ وحدَّد موقع قبور بعض أفراد الأسرة. حملَ أحد شواهِد القبور نجمة داود، كباقي الشواهد الأخرى، ونُقش عليه اسم جوزيف شلايم وتاريخ ميلاده في العام ١٩١٣. بجوار قبر جوزيف، يوجد قبر امرأة اسمها إلكا، من المحتمل أن تكون زوجته. لجوزيف أربعة أولاد، أُدرجوا في قائمةٍ أسفل شاهد قبره، اثنان في كل جانب. اسمان منهما هوغو ورودولف. كل ابن له تاريخ ولادة مختلف غير أن تاريخ وفاتهم جميعًا هو العام ١٩٤٤. هذا الشيء أوحى لكيرين أنَّ الأسرة كلها هلكت في المحرقة النازية. مضت إلى القدس بغية زيارة ياد ڤاشيم، نصب ضحايا المحرقة النازية التذكاري الرسمي في إسرائيل. وجدت أسماء أقاربها في السجلّات؛ دون أيّ تفاصيلُ أخرى.

التقطَ والدُ كيرين صورًا فوتوغرافية لبلاطة الضريح بهاتفه المحمول ووعدتني بأن ترسلها لي بواسطة البريد الإلكتروني، لكنَّها لم تفعل. ولم تفلح كلُّ محاولاتي اللَّاحقة للاتصال بها: لم ترد على رسائلي الإلكترونية ولم تُجِب على رسائل هاتفي النقال. فكّرت ملياً في أسباب انقطاع الاتصال. من بين

الاحتمالات أنني لم أمنحها اهتمامًا إضافيًا لكنَّ رسالةً إلكترونية موجزة كانت تكفي، في حينها، لتقول هذا. وثمّة تفسير آخر مقبول ظاهريًا وهو أنني أزعجتُها بشكلٍ من الأشكال على الأرجح. لم تقرأ كيرين أيًّا من كتبي على الرغم من توفر اثنين منها بطبعاتٍ عِبرية. حين سألتني على الهاتف المحمول عن عملي، شرحتُ لها أني مؤرخ إسرائيلي تنقيحي، واحدٌ ممَن يُدعَوْن «المؤرخون الجُدد»، وأنني أتحدَّى الروايات الصِّهيونية الرسمية المتعلقة بأسباب الصراع العربي - الإسرائيلي وسياقه. ربما بدا ذلك تصرفًا أحمقًا، لكنني أرسلت بريداً إلكترونيًا يحتوي على مقالةٍ من ضمن المقالات القليلة جدًا التي نشرتها باللغة العبرية، وتتحدث حول «التاريخ الجديد والحرب العربية الإسرائيلية الأولى».

في العام ٢٠١٧ وجهت السفارة الفلسطينية في براغ دعوةً لي كي أتحدث في مؤتمرٍ ينظمونه بغرض لفتِ الانتباه إلى الذكرى المئوية لـ«وعد بلفور». بعثَ منظم المؤتمر، بطلبٍ مني، استفساري حول الأشخاص الذين يحملون اسم عائلتي في المقبرة اليهودية إلى سوزانا. لم تعثرْ الأخيرة على الأسماء في قاعدة البيانات؛ وطلبت مزيداً من المعلومات. في ١٣ تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ٢٠١٧، أرسلتُ إليها ملاحظةً تضم سائر المعلومات التي تلقيتُها من كيرين. تلتْ ذلك أسئلةٌ أخرى: أيّ مقبرة هذه؟ هل تلك الواقعة في البلدة القديمة، أم أنها تلك الكائنة في ڤينوهرادي؟ هل أنا متيقن أنها مقبرة يهودية؟ هل بحوزتي أسماء الأولاد الأربعة؟ هل أنا متأكد مئة بالمئة أن العام هو ١٩٤٤؟ وبما أنني عاجز عن الردّ على هذه الأسئلة، وصل البحث عن موقع دفن أجدادي الألمان إلى طريقٍ مسدود.

من عواقب هذا البحث المُحبِط بعضَ الشيء أنه دفعني إلى التفكير في موقفي من المحرقة النازية. إلى أن قابلت كيرين بالمصادفة، لم يختلف شعوري المتعلق بالمحرقة النازية عن شعور السواد الأعظم من الناس: الرعب المطلق من مجرد التفكير في إمكانية حدوث هذه الأفعال البربرية، ناهيك عن كونها أُرتِكبت في المنطقة الحيوية من أوروبا المسيحية في منتصف القرن العشرين. كانت المحرقة النازية الظاهرة الأشد ترويعًا في تاريخ أوروبا الحديثة، لكنَّها حتى تلك اللحظة لم تكن جزءًا من تاريخي الشخصي. كان يهود الشَّرق محميين إلى حدٍّ كبير، بمصادفة الجغرافيا، من رُعب المحرقة النازية.

إنَّ اكتشافَ احتمالية أن يكون خمسة أفراد من أسرتي، بين ستة ملايين يهودي أبادهم النازيون، لم يغيرْ شيئًا في الخطة بخطوطها العريضة؛ لكنَّها احتماليةٌ أثَّرتْ في أسلوب تفكيري حيال هذا الفصل الفاجع من تاريخ شعبي. ومن المؤثرات الفورية أنها جعلتني أدرك، عند تقصّي سلوك إسرائيل في حرب العام ١٩٤٨ على نحو صارمٍ، أنَّني لم أقرّ إقرارًا كافيًا بالحقيقة التي مفادها أنَّ هذه الحرب جرت بعد ثلاثة أعوام فقط من المحرقة النازية. وقد قلّلت من تقدير الرغبة اليهودية الملحة في إيجاد ملاذ آمن في أعقاب تلك المأساة الإنسانية.

كان الفلسطينيون بلا ريب ضحايا في حرب عام ١٩٤٨: فقدوا وطنهم و٧٥٠ ألفًا منهم أصبحوا لاجئين. على الرغم من ذلك، ووفقاً لصياغة إدوارد سعيد المناسبة والبليغة، كانوا «ضحايا الضَّحايا»، وكلّ من المنتصرين والمغلوبين كانوا مترابطين كـ«مجتمعين يتشاركان المعاناة».

سوف تمضي بضعة أعوام قبل أن أحوِّل انتباهي إلى ضحايا آخرين للمشروع الصهيوني - يهود البلدان العربية.

التأثير الآخر لاكتشاف ارتباطي الشخصي بالمحرقة النازية، جعلَني أنتقد إسرائيل أكثر وبتناقضٍ واضح. لقد استعملَ أصدقاءُ إسرائيل المحرقةَ النازية مرارًا كي يشرحوا هاجسها فيما يتعلق بالأمان وكي يبرروا معاملتهم القاسية للفلسطينيين. على الجانب الآخر، شجبَ نُقَّاد إسرائيل، الأكثر تطرفًا، معاملتها للفلسطينيين بكونها ليست أفضل من معاملة ألمانيا النازية لليهود. مقارناتٌ من هذا القبيل متكلِّفة: على الرغم من سائر آثامها، فإن إسرائيل لم تنخرطْ في إبادةٍ جماعية. غير أنه ليس مبررًا أن نستخدم المحرقة النازية باعتبارها ابتزازًا أخلاقيًا لقمع الانتقادات المشروعة المُوجَهة إلى معاملة إسرائيل للفلسطينيين. إنَّ تجريد «الآخر» من صفاته الإنسانية من المؤكد أن يؤدي إلى عواقب وخيمة أيًّا كان هذا «الآخر». ثمَّةَ عواقب رهيبة تفاقمت بلا شكّ مع تجريد إسرائيل المنظَّم للشعب الفلسطيني من صفاته الإنسانية؛ إذْ هيَّأ (أي التجريد) الأرضية لظلمهم ومعاملتهم الوحشية.

تبرزُ المحرقة النازية كنموذج أصلي للجريمةِ ضد الإنسانية. بناءً على ذلك، بالنسبة إليَّ كيهودي وإسرائيلي، فإنَّ المحرقة النازية علَّمتنا أن نقاوم تجريد أيِّ شعب من صفاته الإنسانية، بمَن فيهم «ضحايا الضحايا» الفلسطينيون، لأنَّ تجريد الشعب، أيَّ شعب، من صفاته الإنسانية سيؤدِّي بسهولة، كما حصل في أوروبا أربعينيات القرن العشرين، إلى جرائم ضد الإنسانية.

مسعودة «سعيدة»، اسم أسرتها قبل زواجها «عُبادية».

الفصل الرابع

قصة سعيدة

مكتبة
t.me/soramnqraa

وُلدت أمِّي في بغداد بتاريخ ٣١ تموز/ يوليو من عام ١٩٢٤. حصل أبوها على الجنسية البريطانية بحكم مولده في بومباي، وامتدت جنسيته إلى زوجته وأولاده الأربعة. اسم أمي قبل الزواج مسعودة عُباديَّة، وسعيدة (يعني الفرح). حين انتقلنا إلى إسرائيل في العام ١٩٥٠، بدلت اسمها إلى عايدة. توفيت في العام ٢٠٢١ عن عمر بلغ السادسة والتسعين في رَمات گان، مركز إقامتنا في إسرائيل. كان بحوزتها جوازا سفر: أحدهما بريطاني، والآخر أميركي. مع إنها أقامت في إسرائيل أغلب سنوات حياتها، لم تحصل على الجنسية الإسرائيلية. تعوَّدت أمي أن تُخبر أي فرد يستمع إليها بأن تاريخ ميلادها في جواز سفرها البريطاني خاطئ. بحسب قولها، رشا والدُها مستخدمَ القنصلية البريطانية بست زجاجات ويسكي كي يسجلَها بعمر أكبر بثلاثة أعوام. كان ذلك أمرًا غامضًا بالنسبة لها، فما الفائدة التي قد يجنيها والدها من ذلك؟

كالعادة، كانت أمي راوية مُسلِّية – لكن لم تكن دائمًا دقيقة في سردها لقصصها. حاشا لي أن أتذمَّر: كانت ذاكرة أمي مذهلة، ولطالما شكلت

حكاياتها أساس مساعيّ لفهم ماضي عائلتنا. في هذا الفصل والفصل التالي سأبدأ بسرد قصة سعيدة كما سمعتُها منها على مرِّ الأعوام، بدقة قدر استطاعتي. حياة أمي تجسِّد التجربة الغنية لما يعني أن تكون يهوديًا – عربيًا قبل وبعد قيام إسرائيل.

ينحدر جدّ سعيدة من جهة الأم، حسقيل سلطون، من عائلة ثريَّة من مُلَّاك الأراضي. ورث عن والده ثروة صغيرة تمثَّلت في أربعين مفتاحًا لأربعين منزلًا. أخبرَ الأبُ حسقيلَ أن أسرتهم، على مدى سبعة أجيال قادمة، ستكون قادرةً على العيش من بدلات إيجار هذه البيوت وحدها، دون القيام بأيِّ عمل آخر. لسوء الحظ، لم يتوقُّع الأب أنَّ ابنه الأكبر سنًا ووريثَه سيُدمنُ بالمقامرة.

رتَّبَ الآباء، في تلكم الأيام، سائرَ زيجات الطَّائفة اليهودية تقريبًا، بمساعدة وسيط زواج عادةً. كانت الطائفة اليهودية متزمتةً إلى حدّ ما، إذ لم تسمح باختلاط البنات مع الرجال وأيضا مع الصبيان. على الرغم من هذه القوانين، كان هنالك على الدوام خطرٌ من الهفوات واللقاءات غير المتوقعة. شعرت أُمُّ حسقيل بالقلق من أن يختار ابنها شريكة حياة لا تستوفي معايير العائلة الرفيعة. لذا، لم تترك الأمر للصدفة ورتَّبت له خطبةَ ابنة خاله اليتيمة، حبيبة، التي كانت في سن الثانية عشرة فقط، مع أنَّ الزواج الحقيقي لم يحصل إلَّا بعد مُضي أربعة أو خمسة أعوام لاحقة.

بدأتْ عادة المقامرة عند حسقيل عقب وفاة أبيه. تعوَّد أن يلعب الورق خلال الأمسيات في بيته الفخم مع أفراد من عائلات مسلمة بارزة في بغداد مثل أسرة الباچه چي، وأسرة الحيدري. أحبّه أصدقاؤه

لأن جيوبه تظلّ مليئة بالمال. من جهته، كان حسقيل يتظاهر كثيرًا بالخسارة لكسب ودّ ضيوفه. يبدو أن كونه يهوديًا برفقة مسلمين من الطبقة الراقية عزَّز فطرته السخيَّة. كلَّما نضبت نقوده، يبيعُ بيتًا. وفي الختام لم يبقَ ما يبيعه. وصارَ مُجبرًا على كسب عيشه فأصبح «صرَّافًا»، أي مُقرِض أموال بفائدة. على الرغم من تراجع ثرواته، حافظ حسقيل على نمط حياته الباذخ وشخصيته المنفتحة.

أمَّا جدُّ سعيدة لأبيها، إسحاق شالوم يوسِف عُباديَّة (Isaac Shalom Yusef Obadiah)، فقد وُلد في بغداد ومضى يومَ كان رجلًا في مقتبل شبابه إلى الهند واستقرَّ في بومباي موطنِ طائفة يهودية كبيرةٍ، أغلب أعضائها وفدوا من العراق. كان شائعًا بالنسبة للتُّجار اليهود البغداديين أن يذهبوا إلى الشَّرق بحثًا عن أسواقٍ جديدة وفرص جديدة. في بومباي احتفظوا بلهجتهم العربية - اليهودية، أقاموا كُنُسهم ومؤسساتهم المشتركة، ومالوا إلى الزواج في نطاق طائفتهم. من أشهر الأسر اليهودية - العراقية وأكثرها ثراءً في بومباي هي أسرة ساسون. انتقلوا من بغداد إلى بومباي في القرن الثامن عشر وأصبحوا معروفين بـ«أسرة روتشيلد الشرق»(١). وفي حين كان أبناء أسرة روتشيلد مصرفيين، فإنَّ أبناء أسرة ساسون كانوا تجَّارًا وصنَّاعًا عالميين، يحكمون إمبراطوريةً تجارية تمتد عبر شنغهاي، وهونغ كونغ، وإنجلترا وكثير من البلدان الأخرى[١].

(١) عائلة روتشيلد: عائلة يهودية ثرية أصلها من فرانكفورت في ألمانيا، تأسست على يد ماير أمشيل روتشيلد (١٧٤٤-١٨١٢)، وهو مستشار مالي. [المترجم]

التحق إسحاق بالعمل مع أسرة ساسون، انسجم معهم وتزوج ابنة أخ رئيسه، داود ساسون. لكن الزوجة كما تبين تاليًا، وكما عبَّرت أمي، «لم تكن سويةً تمامًا». بعد أن أنجبت طفلها سرعان ما غلبها اكتئاب ما بعد الولادة. وبينما كانت تغسل الرضيع تحت الصنبور، لقي حتفه غرقًا دون قصد. نقلتها عائلتها وهي بحالة يُرثى لها إلى مستشفى الأمراض العقلية، حيث فارقت الحياة بطريقةٍ مفجعةٍ في ريعان شبابها.

زار إسحاقُ بغداد في العام ١٨٨٠ بحثًا عن زوجة ثانية. في تلك الآونة كان قد أصبح ناجحًا إلى حدٍّ كبير، مما جعل وسطاء الزواج يباشرون بالعمل. عرضوا عليه مجموعةٌ من الشابات الجميلات، ولكن لم تَلفت انتباهه أيٌّ منهن حتى قام بزيارة عائلة ماني، ووجدَ الجدة وابنتها وحفيدتها مسعودة، يخبزن الكعك المُحشو بالتَّمر «المخبوز - الكليچة». انهمكتْ مسعودةُ، التي كانت في سن السادسة أو السابعة عشرة يومئذ، في العمل بمِرقاق العجين. كانت غايةً في الجمال، ذات شعر داكن وعينين خضراوين. احمرَّتْ وجنتاها من حرارة الفرن. وقع إسحاق في هواها من أول نظرة. وفي الحال، عرض أن يتزوجَ من مسعودة، وأن يصحبها معه إلى الهند، وأن يكافئ أفراد أسرتها لأنهم سمحوا لها بالذهاب معه. التفتت الجدة إلى مسعودة وسألتها ما إذا كانت ترغب بالذهاب إلى الهند. وبلا تردد، أجابت مسعودة «نعم، نعم!» وبختها الجدة بقسوة لأنها وافقت بسهولةٍ شديدة على التخلي عنهم، لكنَّ الصفقة حُسِمت في الحال، مما أدخل السرور إلى قلب وسيط الزواج. أشقاء مسعودة الثلاثة، يهودا، موشي ومِناشي، لم يشهدوا الحدث السَّعيد. بما كان ذلك في

صالحه، فقد تبين له فيما بعد، كما وصفته سعيدة، أنهم «بُدناء، وكسولين، وحاقدين ولا فائدة تُرجى منهم».

كان هنالك خمسة وخمسين كنيسًا في بغداد حينها، لذا لم يكن ثمَّة نقص في الأمكنة التي يمكن للمرء أن يصلِّي فيها، غير أن إسحاق كان متحفِّزًا للتبرُّع شخصيًّا إلى طائفته، لذا اشترى منزل الحاخام أهارون سموحة وحوَّله إلى موقع لكنيس. سُمي الكنيس باسم «نيڤي شالوم»، واحة السلام. اسمه الأكثر شيوعًا هو «سلات سحاق شالوم»، كنيس إسحاق شالوم. يقع في محلة القشل[1]، قرب الشورجة وسط بغداد. وعلى غرار أغلب الكُنُس الأخرى في بغداد، أُريدَ له ألَّا يكونَ كنيسًا فقط، بل أيضًا مركزًا للطَّائفة ومدرسة لتعليم العِبرية للأطفال اليهود. تعهد إسحاق بمنح خمسينَ روبيةً سنويًا من دخل الكنيس إلى ييشيڤا عزرا قرب البصرة، وييشيڤا تعني أكاديمية متخصصة بالدراسة المتقدمة للنصوص اليهودية.

بحسب سعيدة، فقد دوَّن جدُّها في صك الملكية الذي أودعه في الـ(طابو)، التسجيل العقاري، بأن يعود الكنيس ليهود بغداد طالما أنهم يستخدمونه مكانًا للعبادة، إلا أن الملكية تعود لذريته من بعده. بما أنه لا يمكن التحقق من صحة هذا الادعاء، استبعدت فكرة أننا الورثة الشرعيون لِلكية عقارية كبيرة في بغداد. أما والدتي، فلم تكن لتتخلى بسهولة عما تعتبره حقها المطلق والقطعي في الملكية. أكاد أجزمُ أنها أخبرتني قصة الكنيس والبلاغ المزعوم المتعلق بصكّ الملكية ألفَ مرّة. علاوةً على ذلك، أصرت عليَّ لأنني الشخص الوحيد من الأسرة

(١) جمع قشلة.

المقيم في بريطانيا ولأني بروفيسور محترم في جامعة أكسفورد، لذا فإنَّ من واجبي تحريك دعوى قضائية قانونية كي نستعيدَ كنيسنا. ازداد الضغط عليّ للقيام بخطوة فعلية حتى استسلمت أخيرًا - لأكتشف أنه بما أن العراق كان في حالة حرب مع إسرائيل منذ عام ١٩٤٨، فإن الدولة العراقية لن تنظر في أي مطالبة قانونية من شخصٍ مقيم في إسرائيل.

بعد زيارته لبغداد في ١٨٨٠، رجع إسحاق شالوم يوسف عُبادية إلى الهند ومعه زوجته الشابة مسعودة. في بومباي واصل نجاحه. امتهنَ التجارة في تصدير البضائع من الهند إلى العراق، واستمتعا هو وزوجته الثانية بأسلوب الحياة المُترَف في ڤيلا ضخمة، مع عربة يجرها حصان وحاشية من الخدم الهنود. تعودا أن يقضيا العطلة في «پوني»، وهو منتجع عطلات يتمتع بمناخ بارد بالقرب من بومباي، مع أفراد آخرين من عائلة ساسون، مصطحبين معهم المطرب وعازف الكمان، ناهوم الكمنجاتي.

دخَّنت مسعودة «النارگيلة»، وهو شيء غير مألوف بالنسبة للنساء في تلكم الأيام. كانت تملك نارگيلة فخمة مصنوعة من الذهب ومزينة بزخارف مترفة. في يوم من الأيام اختفت النارگيلة. أُستدعي رجال الشرطة؛ جعلوا الخدم كلُّهم يصطفون في رتل، وحين لم يقرّ أحدٌ منهم بالسرقة، أمروهم بأن يقرفصوا ويقفوا مرارًا من دون توقف. كان ذلك ضربًا من التعذيب. استمروا إلى أن انهارت خادمةٌ عجوز من الإعياء واعترفت بأنها سرقت النارگيلة وخبأتها في سطح الدار. فرضت الشرطة عليها حكمًا بالسجن لفترة قصيرة كعقوبة تعسُّفية وتحذير قاسٍ للخدم الآخرين. لطالما اختبأت القسوة تحت مظاهر البذخ في بومباي.

لإسحاق ومسعودة أربعة أولاد ذكور: مائير، عبدالله، سلمان وجوزيف. أكبر الأولاد سنًا هو مائير، والد مسعودة وجدي. وُلد في بومباي في ١٦ أيلول/ سبتمبر ١٨٨٢. اسمه الكامل مائير إسحاق شالوم عُبادية. بعد أن جمع ثروته وعاش في الهند لأكثر من خمسين عامًا، اتخذ إسحاق قرارًا ببيع تجارته وتحويل أصوله إلى نقدٍ ليقفل عائدًا إلى بغداد كي يتقاعد. كانت زوجته متلهِّفة على وجه الخصوص للعودة واللحاق بأسرتها. حين توفي إسحاق، ورثَ أولاده الأربعة ثروته الهائلة. كونه الابن الأكبر، أدار مائير الميراثَ. وصفت أمي الأبناء الذكور بأنهم عاجزون، وكسولون، ناهيك عن أنهم نَهِمون. طوال سنوات ليست بالقليلة، عاش مائير وأشقاؤه حياة الرفاهية في منزل العائلة الكبير، لديهم قارب يرسو عند ضفة النهر، يتناولون طعامًا جيدًا ويستهلكون كميات كبيرة من العرق، وهو شراب مشرقي مُسكِر مقطَّر ينتمي إلى مشروبات من عائلة اليانسون ونسبة الكحول فيه تتراوح بين ٤٠ – ٦٣ ٪. كما أقاموا حفلات أحياها مُغنون مشهورون وأنفقوا المال بتبذيرٍ. وبحسب إحدى الروايات المشكوك في صحَّتها، قضى الأشقَّاء أيامهم مستلقين على أراجيح مُعلَّقة على أشجار الحديقة، وبين الحين والآخر يأتي خادم إليهم حاملًا زجاجة عرقٍ كي يملأ كؤوسهم مجددًا.

خلال هذه المرحلة الهانئة من حياته، قابل مائير موزلي حسقيل سلطون وتزوجها على مضضٍ نوعًا ما. كان أعزبًا مرغوبًا فيه، ومؤهَّلًا للزواج، وحسن التعليم، وثريًا. ولا شكّ أن معظم الآباء اليهود سيبتهجون في حالِ صاهَرهم. قدَّم وسطاء الزواج إليه شاباتٍ كثيرات،

ولكنْ لم تُلبّ أيٌّ منهنَّ شروطه الصعبة. وذات يوم قدَّموا له موزلي، فتاة طويلة القامة ذات شعر أسود مجعد، لم يكن جمالها آسرًا، لكنها ذكية، نابضة بالحيوية ومرحة. أبلغوه أنَّ موزلي من أسرةٍ صالحة وستكون زوجةً وأمًّا مخلصة. كان مائير قد جاء توًا من زورقه حيث استمتع بالغناء والعزف على الأكورديون وارتشاف العرق. وبحكم أنه ثملٌ، لم يحكم على موزلي بمعاييره العالية المعتادة. وبالمصادفة، كان يعرف والدها، حسقيل سلطون - وهو ما يُعد نعمة عظيمة. كان حسقيل، كما أشرنا سابقًا، شخصيةً دمثة وسلسة. تعوّد مائير أن يسميه «مي بالي وعش إيخلِف». إذا تُرجمت بشكل تقريبي، تعني: «لا تقلق، لا بأس، لا يهم». حينَ قُدِّمت له موزلي، انبرى قائلًا: «أوه، إنها ابنة مي بالي وعش إيخلِف!» حَسِب أن موزلي ستكون ذات طبيعة حلوة ومهذبة على غرار أبيها واقتنع بأن يكون خطيبها.

أدرك مائير في الحال أنه ارتكب خطأً فادحًا. كانت خطيبته صعبة المراس ومحبّة للجدل. أخبرَ الحاخام أنه غيَّر رأيه ويريد أن يلغي الخطوبة. أُصيب الحاخام بالذُعر: في بغداد آنذاك، الخطوبة تستلزم وثيقةً موقعة، مشابهة لعقد الزواج. حكمَ بأنه إذا أراد مائير أن يلغي الخطوبة، فإن عليه أن يدفع إلى أسرة موزلي ٥٠٠ قطعة نقدية من الذهب، كما فُصِّل في الوثيقة، كي يعوضهم عن الخزي. وعلى مضض، أخرج مائير خمس مئة عملة نقدية من الذهب، أعطاها إلى خاله، ميناشي ماني، وطلب منه أن يسلِّمها باليد إلى الحاخام مع لعنة.

بينما هو يمشي بمحاذاة النهر متجهًا صوب بيت الحاخام، مرَّ ميناشي برجلٍ في زورق النهر، يصيح «دينار واحد إلى البصرة! دينار

واحد إلى البصرة!» فكر ميناشي: «هل أبني بيتًا أم أدمِّره؟ هذا المال ليس من أجل الزواج بل من أجل الطلاق». وبدلًا من أن يسلِّم النقود مع لعنة، ابتاع تذكرةً إلى البصرة حيث ذهب بالزورق إلى الهند وغاب عن الأنظار. لم يكن بحوزة مائير ٥٠٠ قطعة نقدية أخرى من الذهب كي يوفرها، لذا مضى مباشرةً وتزوج من موزلي. عقب ولادة ثلاثة أبناء ذكور بتتابع سريع، خلال خمسة عشر عامًا من الزواج، أنجبت موزلي طفلةً سمياها مسعودة.

في مرحلةٍ ما، بعد زواج مائير، أمسك به شقيقه، عبدالله، وسأله «أين حصتي من ميراث أبي؟» ردَّ عليه مائير بأنه أنفق معظمَها في تنشئته وشقيقيه الآخرين. رفض عبدالله هذا التفسير وأخذ مائير إلى المحكمة. حكم القاضي في صالح عبد الله. وبما أنه أفلس في ذلك الوقت، فقد جاء المأمورون لمصادرة محتويات المنزل، بما فيها ماكينة خياطة موزلي. لقد أغاظها هذا الشيء. اعترضت على قرار القاضي، وأخبرته بأن ماكينة الخياطة هدية الزواج من والديها. لم يُحرِّك القاضي ساكنًا. كان يهوديًا واسمه الأول شاؤول. لم تخاطبه موزلي بـ«فضيلتكم» بل بـ«شاؤول الأسود» وصاحت قائلةً: «ألا تملك زوجتكَ ماكينة خياطة؟!»

بعد أن جُرِّد من بقايا ميراثه وبضائعه الدنيوية، تعيّن على مائير أن يجد عملًا. كانت ميزته في اللغات: كان يتكلم العربية، والإنجليزية، والفرنسية، والتركية والفارسية. انتقل مع أبويه من بومباي إلى بغداد حين كان في سن السادسة عشرة تقريبًا، وفي بغداد انتظم في مدرسة أليانس للبنين، التي كانت يومئذ تعلِّم اللُّغات الرئيسة للإمبراطورية

العثمانية. كان مائير يتكلم العربية بلكنة هندية، لكنَّ تمكُّنه من الإنجليزية كان شيئًا مثيرًا للإعجاب. استأجروه مترجماً في القنصلية البريطانية ببغداد. ولاحقاً، استقال مائير من وظيفته هناك وعمل محاسباً في إحدى وزارات الحكومة العراقية.

أدت الموجة الوطنيَّة والقوميَّة التي اجتاحت العراق منذ ثلاثينيات القرن الماضي إلى إنهاء مسيرته المهنيَّة. قيل لمائير إنه إذا أراد الاحتفاظ بوظيفته، فعليه التخلي عن جنسيته البريطانية. كان ذلك يتطلب منه اتخاذ قرارًا مؤلمًا. في أول الأمر، مالَ مائير إلى التمسك بوظيفته والتخلِّي عن جواز سفره. غير أنه قرَّر الاحتفاظ بجواز سفره حين فكر ملياً. ترك الخدمة المدنية ولم يندم على شيء. على العكس، أقام حفلة كي يحتفي بتحديه للسلطات القائمة وبنجاحه في الاحتفاظ بجواز سفره البريطاني، وهو موضوع يبعث على الفخر والاعتزاز. عَرَض الوثيقة بجوار كعكة الاحتفال، وتناول كمياتٍ وافرة من العرق وأنشد أغنيات إنجليزية بينما كان يعزف على الأكورديون.

لم يبقَ مائير عاطلًا عن العمل مدةً طويلة. انضمَّ إلى شقيقه الأصغر منه سنًا جوزيف، وهو تاجر بضائع يعمل في الاستيراد والتصدير. كانت له ارتباطات مع تجَّار في آسيا وإفريقيا وتعوَّد أن يشتري منهم بضائع متنوعة مثل الشاي، والقهوة، والسكر والتوابل. كانت بحوزة جوزيف لائحةً بالأسعار، وكانَ زبائنهُ العراقيونَ يَطلبونَ البضاعةَ ويدفعونَ ثمنها عندَ الاستلام. نجح الشقيقان، وابتاعا فيلتين جديدتين لأسرتيهما.

تَذَكَّرتْ سَعيدة طفولَتَها في بغدادٍ بحنينٍ كبيرٍ. كانت تعتبر نفسها طفلةً سعيدة الحظ ومُدلَّلة في أسرتها. ولأنها الفتاة الوحيدة، باتت محطَّ اهتمام شديد. فقد أحبها والدها كثيرًا وكان يحنو عليها دومًا. كان لها ثلاثة أشقاء أكبر منها بسنوات كثيرة وسبعة أخوال بعضهم يسافرون في رحلات عمل ويجلبون لها الحلوى وسائر الألعاب والملابس العصرية. كما شجعوها على ممارسة أي فعالية من فعاليات وقت الفراغ كانت تُحبها. في طفولتها، كانت تغطس في الماء في كلِّ فرصة - وهذا هو أصل ولعها بالسباحة. في سن الخامسة، بدأت تتلقى دروس السباحة على يد معلم سبق وأن درَّبَ أشقاءها. كانت ميولها للمغامرة في مياه دجلة تزداد يومًا بعد يوم، تقفز عن الجسور وتؤدي حركات بهلوانية وتشارك في المسابقات. وفوق هذا كله، انهمكت في ركوب الخيل والرقص.

على خلاف الرجال في الأسرة، لم تُظهِر موزلي قدرًا كبيرًا من العاطفة الجسدية تجاه ابنتها. كانت حنونة، لكنها لم تكن تعبر عن عواطفها علنًا ومن غير تحفظ. ولم تكن طاهية جيدة أيضًا. كانت وجبات الطعام التي تطهوها بسيطة إلى حدٍ ما؛ كان الطعام الأساسي هو الدجاج والرز. حين تقدِّم الدجاج، تُعطي الصدر والأفخاذ للرجال والأجنحة لسعيدة الصغيرة. ولَمَّا كانت سعيدة تحتج بشكل خفيف على هذا التمييز، تُجيبها أمها بأنها فتاة وليست صبيًا لذا فهي تحتاج إلى الأجنحة كي تطير بعيدًا عن البيت، كي تتزوجَ وتربي أفراد أسرتها.

تلقَّت سعيدة تعليمها في مدرسة لورا قدوري للبنات ببغداد - مدرسة «أليانس» الأكثر شهرةً. أليانس هو الاسم المختصر لـ«Alliance

Israélite Universelle»، وهي منظمة يهودية مقرُّها باريس، أسسها أثرياءُ اليهود الفرنسيون في العام ١٨٦٠، كي يجلبوا أنوار الغرب إلى إخوانهم في الدين الساكنين في الشرق. سعتْ هذه المنظمة إلى دمجِ التراث بالحداثة وإلى التفوق في مجال الدراسات العمومية واليهودية معًا. كان شعار المنظمة هو النصيحة الحاخامية القائلة «جميع اليهود مسؤولون بعضهم عن بعضٍ». ركَّزتْ مدارسها على اللغات الأوروبية، بخاصة الفرنسية، والعلوم الحديثة. لغة التلقين الأساسية هي الفرنسية، اللغة التي يُدرَّس بها التاريخ، والجغرافيا، والرياضيات والعلوم.

استخدمتْ الأليانس التعليم العلماني أداةً للحراك الاجتماعي. كانت لها «مهمة تثقيفية» واضحة: انتشال اليهود مما يعتبره بعضهم التخلف في البلدان العربية. في عام ١٨٦٤، فُتحت أول مدرسة أليانس للبنين في بغداد. وفي العام ١٨٩٣ فُتحت مدرسةٌ للبنات. كانت قيم المنظمة هي الانفتاح، التسامح والمساواة في الفرص، وهكذا لم تكن تستثني غير اليهود. وحين ذاع صيت الأليانس، شرع عددٌ قليل من المسلمين والمسيحيين بإرسال أبناءهم للالتحاق في مدارسها. في هذه البيئة العالمية، ذات الطابع الغربي، تلقَّت سعيدة تعليمها الابتدائي والثانوي. ومن ذكرياتها المبكرة زيارةُ الملك فيصل الأول صحبة الحاخام الرئيس وقادة للطَّائفة اليهودية الآخرين إلى مدرسة لورا قدوري. أصرَّ فيصل على زيارة كلِّ مدرسة يهودية في بغداد في سعيه إلى احتضان الأقليات وتشكيل أمة عراقية موحدة.

في ذاكرة سعيدة، كانت الأليانس مدرسة مبهجة وتقدمية ذات

معايير واضحة وعالية في اللغات: معلمو الفرنسية جاءوا من باريس، معلمو الإنجليزية جاءوا من لندن، وبعض معلمي العربية جاءوا من بيروت، أهم المراكز الثقافية في العالَم العربي. لم تتفوق سعيدة في دروسها، على أية حال. كانت مهتمةً أكثر بالأنشطة الرياضية، والرقص، والنوادي، والحفلات، واللَّهو. تركت المدرسة وهي في ربيعها السابع عشر بدرجات متفاوتة من الكفاءة في أربع لغات. لأنها تلقت تعليمها بالفرنسية، كانت تتحدث الفرنسية بطلاقة، دون أي أثر للهجتها الأصلية. وفي العقد التاسع من عمرها، كانت تتفاخر بأن تشرح قاعدة أرخميدس بالفرنسية.

كانت الـ«Alliance Israélite Universelle»، في حالة خصام مع الحركة الصهيونية التي ظهرت في أوروبا نهاية القرن التاسع عشر. طلبتْ الصهيونية بأن يغادر اليهود أوطانهم وينضموا إلى مشروع بناء دولة يهودية مستقلة في الشرق الأوسط. بينما سعتْ الأليانس، من الناحية الأخرى، إلى الحفاظ على الطَّوائف اليهودية باعتبارهم أعضاءً متمِّمين لمجتمعاتهم الخاصة. ونتيجةً لذلك، وجدتْ الحركتانِ نفسيهما في صراع عنيف على كسب ولاء الطَّوائف اليهودية في العالَمَين العربي والإسلامي[٢].

لم تكن سعيدة، خلال نشأتها، تعي معركة الأيديولوجيات التي كانت تمزق شيئًا فشيئًا الطَّائفة اليهودية العالمية. شجَّعتْ مدرستها الوطنية العراقية شأنها شأن أي مدرسة أخرى، حيث كانت جميع الفتيات ينشدن أنشودة الشكر لطيبة فيصل الأول كونه «أفضل ملك في العالَم». في العام ١٩٣٣، حين توفي فيصل في ظروف غامضة، بكينَ

كلهن، هي وزميلاتها في الصف، ودعونَ إلى إحراق بِيرن عن بكرة أبيها وتدمير سويسرا!

غرست مدرسة الأليانس للذكور في الأذهان قيمًا مشابهة، واستولى خريجوها على الفرص المهنية التي قدَّمها الانتداب البريطاني ودولته التي خلفته، وانتهى بهم المطاف موظفين مدنيين، ومدراء، ومحاسبين. أصبحَ اثنان من أشقاء سعيدة ضابطين في سلك استخبارات الجيش البريطاني. مع تصاعد النزعة القومية العراقية، كانت هناك بوادر تحرك جماهيري تلوح في الأفق، تمهد الطريق لثورة محتملة. ما من أحد تنبَّأ كم ستكون هذه الثورة حاسمةً بالنسبة لمستقبل اليهود العرب.

«سعيدة» في ميدان ترافالغار.

الفصل الخامس
الارتباط البريطاني

في العام ١٩٤١، كانت سعيدة في ربيعها السادس عشر. احتدمتْ الحرب في أوروبا، واقتربَ رعبُها من بغداد، ولم يعد العالم محميًّا من مخاطرها. وفي حين بلغَ كره الأجانب ذروته في جميع أنحاء البلاد، وجدَ المواطنون البريطانيون واليهود أنفسهم في مواجهة مخاطر جديدة - وكانت سعيدة بريطانية ويهودية في آنٍ معًا. في غمار النَّزعة القومية العراقية الجديدة، استعدّ رشيد عالي الكيلاني لتولّي زمام السلطة مجددًا. كان مناوئًا للبريطانيين، ومؤيدًا للعرب، ومناصِرًا للنازيين، أمِلَ أن يساعد انتصار دول المحور العراقَ على نيلِ استقلالهِ الكامل. ضغط عليه الوصيُّ، عبد الإله، كي يستقيلَ بوصفه رئيسًا للوزراء في كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٤١، بعد أن رفضَ قطع صِلاته بموسوليني إيطاليا. لم يكن رشيد عالي ليقبلَ بهذه الهزيمة من دون احتجاج.

ساند رشيد علي بقوة ضباطُ الجيشِ الأربعُ المشهورون بـ«المربع الذهبي»؛ إذْ عارضوا الحُكم الملكي والسياسيين الذين فرضتهم بريطانيا بدءًا من العام ١٩٢١ فصاعدًا. ولمَّا عزت ألمانيا النازية دعايتها في العراق،

تداخلتْ العاطفة المناهضة للبريطانيين مع معاداة السامية. بالنسبة لـ«المربع الذهبي»، كان البريطانيون مُستعمِرين أجانب - واليهودُ عملاءهم الإمبرياليين. العراق جزءٌ من أمَّة عربية أكبر؛ لا ينتمي إليها اليهود.

انتشرتْ الدعاية المناهضة لليهود أيضًا عبرَ مجموعة من اللَّاجئين الفلسطينيين تزعَّمهم المفتي العام، الحاج أمين الحسيني، قائد الحركة الوطنية الفلسطينية، الذي تشاجرَ مع البريطانيين بسبب رعايتهم لوطنٍ قومي للشعب اليهودي في فلسطين. وصل الحاج أمين إلى العراق في العام ١٩٣٩، وشرع يُندد باليهود العراقيين بزعم تعاونهم مع كل من البريطانيين والصهيونيّين معًا. لم يكن ليميز بين الصهيونية، وهي حركة استعمارية استيطانية، واليهودية؛ وهي عقيدة دينية. كان يتكلّم عن يهود العراق بوصفهم «عدوًّا داخليًّا». عادَتْ صُحفُ اليمينِ المتطرفِ وسياسيون مُحرضون إلى تداولِ رسالةِ الحاجِ أمينِ وترويجِها. بناءً على ذلك، كانت معاداة السامية التي تزداد بشكل جليٍّ، في بغداد، استيرادًا أجنبيًّا أكثر مما هي نتاجٌ محليٌّ عراقي.

فاقمت الاستقالة الإجبارية للحكومة الوطنية عدم الثقة بالبريطانيين وبالعائلة المَلَكية. أعدَّ رشيد عالي، ومعه أعضاء المربع الذهبي، خططًا لاغتيال عبد الإله والاستيلاء على السلطة. في ٣١ آذار/ مارس، اكتشف عبد الإله المؤامرة؛ فهربَ هو وبقية أفراد الأُسرة المَلَكية إلى الأردن، التي كان يحكمها فرعٌ آخر من العائلة الهاشمية. وفي اليوم التالي، نفذ ضبَّاط المربع الذهبي انقلابهم. بعد مُضي يومين، اُستُبدلت حكومة الوصي ليصبحَ رشيد عالي رئيسًا للوزراء مرةً أخرى. من أوائل ما أمرتْ به

«حكومة الدفاع الوطني» إرسالُ قوة مدفعية عراقية لمواجهةِ قاعدة القوة الجوية المَلَكية البريطانية (RAF) قربَ بحيرة الحبانية؛ والمباشرة بحصارها.

آثرَ المارشال أرشيبالد وافل، قائد القوات البريطانية في الشرق الأوسط، والسير كيناهان كورنواليس، السفير البريطاني في العراق، التفاوض مع المتمرِّدينَ، غير أن ونستون تشرشل رأى في ذلك استرضاءً، وفرَضَ سلطته عليهما. كان بالنسبة للإمبراطورية المحاصَرة الرهان باهظًا. لقد اعتمدَ أسطول البحر المتوسط كليًا على النفط العراقي المُرسَل من حقول الموصل إلى مصافي حيفا عبر خط أنابيب يبلغ طوله ٦٠٠ ميلٍ. ووفقًا لمجلة «تايم»، كان خط الأنابيب هذا يُعدّ «شريان التجارة الرئيسي للإمبراطورية البريطانية»[١].

كان العراق كذلك جسرًا بريًا مهمًا بين مصر والهند. أمر تشرشل باتخاذ عمل عسكري حاسم خشية وجود موطئ قدم للنازيين في الشرق الأوسط وفقدان السيطرة على حقول النفط العراقيةِّ. وصلتْ، بعد صدور أوامره، فرقةٌ من جيش هندي إلى البصرة في حين أُرسِلت قوات الجيش العربي التي يقودها البريطانيون «Habforce» عبرَ ألف كيلومتر من الصحراء قادمةً من الأردن. التقت القوتان في بغداد في وضع كمّاشة. أكملتْ بريطانيا، بحلول نهاية شهر أيار/ مايو من عام ١٩٤١، إعادة احتلالها للبلاد في ما يساوي إبطال الاستقلال الذي كان العراق قد حصل عليه سابقًا، اسميًا على الأقل، في العام ١٩٣٢. أطلقَ البريطانيون على فعلهم مصطلح «حرب الثلاثين يومًا». هدفَ التدخل العسكري

إحداثَ تغيير في النظام. في ٢٩ أيار/ مايو، هربَ رشيد عالي، والحاج الحسيني، وأربعون من مؤيديهم الفزِعينَ إلى إيران، ومن هناك فروا إلى أوروبا التي احتلتها ألمانيا، تاركينَ وراءهم فراغًا جديًا في السلطة. استشهدَ مهرِّجٌ، في وزارة الخارجية البريطانية، بقصة أطفال عراقية قديمة، ولقَّبهم فورًا بـ«علي بابا والأربعين حرامي». في ٣١ أيار/ مايو، ناقشَ كورنواليس الهدنة مع القوات العراقية.

خلال الفترة الانتقالية القصيرة -بين استقالة وزارة وتشكيل أخرى- التي أعقبت ذلك، وقعت كارثةٌ عنيفة بهيئة مذبحة مُدبَّرة طالت الطَّائفة اليهودية في بغداد، عُرِفتْ فيما بعدُ باسمها العربي «الفرهود». تعني هذه الكلمة حرفيًا «اختراق القانون والنظام». يتحمَّل كورنواليس الحصة الأكبر من هذه الكارثة في العاصمة العراقية، وهو رجلٌ ضخم البُنية، يزيدُ طول قامته على ستة أقدام، متحفِّظ، ومتعجرف، ومراوغ نوعًا ما. بعد أن وصلت القوات البريطانية إلى بغداد، وُضِعَت تحت سيطرته بدلًا من قادتهم العسكريين، وكان السفير مُهادِنًا.

في صبيحة الأول من حزيران/ يونيو، رجع الوصي إلى بغداد، واضطلع بمهمة تشكيل حكومة موالية. قبل ذلك بيومين، وصل الـ«Habforce»، الرتل الذي زوَّدته بريطانيا بالآليات من الأردن، إلى ضواحي المدينة، على بُعد خمسة كيلومترات تقريبًا من المركز. كورنواليس أمر الـ«Habforce» بالبقاء في مكانه، وأن لا يعبر نهر دجلة، وأن لا يدخل المدينة. قوة الجيش الهندي، في الطريق من البصرة، تلقت أمرًا من كورنواليس بأن توقف تقدمها وأن تُعسكر على بُعد ثلاثة عشر كيلومترًا

من بغداد في الجانب الغربي من دجلة. السبب وراء هذه الأوامر الغريبة هي رغبة كورنواليس في تفادي الانطباع بأن الوصي عادَ إلى السلطة بسبب التدخل العسكري البريطاني. جادلَ بشأن وجود الحِراب البريطانية في بغداد، وبأنَّها ستهين كرامة حليفهم[٢]. مع ذلك كانت تلك هي الحقيقة القاسية: من المستحيل أن يكون بمقدور الوصي غير الشعبي، الذي كان يُعَّد أضحوكة بريطانية، العودة إلى السلطة من دون دعم تلك الحِراب البريطانية.

كان إبعاد الجيش عن التدخل في الأمور الداخلية خطًا فادحًا قادَ إلى الفوضى بسبب عدم وجود رجال شرطة في الشوارع لحفظ الأمن والسلم. علاوةً على ذلك، سمحتْ الهدنةُ، التي وقَّعها كورنواليس، للجيش العراقي بالدخول إلى العاصمة طالما أنه بقي في الجانب الشَّرقي لنهر دجلة، الذي اشتمل على مركز المدينة، الأسواق، المركز التجاري والأحياء السكنية التي يُقيم فيها الغالبية العظمى من اليهود. هكذا استسلمَ المدنيون لرحمة وحنان المهزومين، الذين كانوا لا يزالون مسلحين، وغاضبينَ يسعون للانتقام. كان اليهود هدفًا واضحًا لأنهم فُهِموا على أنهم أصدقاء البريطانيين. كما يعبِّر إيلي قدوري، الباحث اليهودي - العراقي - البريطاني بصورةٍ بليغة: «هكذا، بوصفهم مؤيدين للبريطانيين، ذُبح يهودُ بغداد ونُهبوا»[٣].

غذَّى سوء الفهم الشكوك بأن اليهود غير مخلصين لبلدانهم. شاهدَ جنود عراقيون، حيث كانوا يعبرون «جسر الخرّ» [**المقصود، على الأرجح: جسر الشهداء أو الأحرار حاليًّا**]، إلى الجانب الغربي من بغداد، مجموعةً

صغيرة من اليهود بملابس احتفالية، يسيرون في الاتجاه المعاكس. بما أنَّ اليومَ كانَ الأحد، لا السبت اليهودي، ظنَّ الجنود أن اليهود ارتدوا أحسن ثيابهم كي يرحِّبوا بعودة الوصي. كان ذلك الأحد أول أيام العيد اليهودي المقدس «شاڤوت»؛ علامة نهاية موسم حصاد الحنطة، والإحياء السَّنوي لذكرى إعطاء الله التوراة لبني إسرائيل حيث تجمَّعوا فوق جبل سيناء. يرتدي اليهود من أجل المأدبة أبهى ثيابهم، معظمها ثيابٌ بيضاء، ويحتفلون في الشوارع خلال مسيرهم إلى الكنيس. هاجم الجنود اليهود، وقتلوا واحدًا منهم وجرحوا ستة عشر آخرين، وأشعلوا شرارة موجةٍ من الشغب. احتفالٌ بريء بعيد يهودي أصبح شرارة لمذبحةٍ بربرية. رعاعٌ غاضبون مسلحون بالسكاكين، والعِصي، والفؤوس هاجموا بعنف اليهود في الحافلات، وفي الشَّوارع، وفي بيوتهم داخل الأحياء السكنية اليهودية وكذلك في الأحياء السكنية المختلطة. في المساء، أوقفَ غوغاء مسعورون حافلةً مكتظة باليهود وجروا ركابها خارجًا، ذبحوهم وشوَّهوهم.

ليلًا، هاجمَ جنود ومدنيون وشبان مُسلَّحون مزيدًا من البيوت اليهودية. قتلوا، واغتصبوا، ونهبوا، وأضرموا النيران في البيوت. شهدَ اليوم التالي مزيدًا من النهب وإحراق المباني مع وصول أشخاص من خارج المدينة. معظم القادمين الجُدد من قاطني الأحياء الفقيرة على الجانب الآخر من نهر دجلة وبدو استقروا في أطراف المدينة. بينما أظهر اليوم الأول أعمالًا وحشية ضد اليهود، أظهر اليوم الثاني فلاحين ومُعدَمين من جاءوا ليسرقوا؛ وهكذا توجهوا صوب المناطق اليهودية الغنية.

خلال يومين من الفوضى، قُتِل ١٧٩ يهوديًّا وجُرِح مئات سواهم. دُفن الأموات في قبر جماعي وأُخِذ الجرحى إلى المستشفيات؛ نُهب ٤٨٦ مخزنًا و٩١١ بيتًا. قُدِّر الضرر ببضعة ملايين من الجنيهات البريطانية وقتذاك. لم يُقمَع الشغب حتى مساء اليوم التالي - قُمع بسرعةٍ شديدة ما أن أعطى الوصيُّ الأمرَ بإطلاق النار على اللُّصوص. التأخير في إصدار الأمر كان سببه في الظاهر خوفه من معاداة القوات المسلحة العراقية المناهضة للبريطانيين بعنفٍ؛ منتظرًا وصول القوات الآشورية من كركوك التي لم تلوثها الدعاية النازية وكانت مواليةً له. حصدت العملية أرواحَ نحو ١٠٠ غير يهودي، معظمهم من اللصوص غير المسلحين[٤].

هزَّ «الفرهود» سائر الطَّائفة اليهودية - العراقية حتى النخاع. جسَّد، في رأي بعضهم، تحطيم الجنة اليهودية العراقية. كان هذا الاعتداء الوحشي على اليهود غير متوقع ولا سابق له بكل معنى الكلمة. لم يكن هنالك هجومٌ آخر على الطَّائفة اليهودية في القرون القريبة. كان على النقيض من تعاليم القرآن وانتهك قوانين الشريعة في ما يتعلق بمعاملة أهل الذمَّة أو «الأقليات المَحمية». الآنَ، بات «المنحى العراقي»، الذي تأصَّلت جذوره منذ عشرينيات القرن العشرين، باعثًا على التساؤل. أُثيرت شكوكٌ جادة حول إمكانية التعايش اليهودي - الإسلامي في وطنهم المشترك. وكان قادة الطَّائفة مُرغَمين على الانخراط في بحثٍ نزيهٍ عن الذات.

في البداية، بدا أن حلم الاندماج في المجتمع العراقي قد حطَّمته، بلا أمل في التعافي، أحداثُ الأول والثاني من حزيران/ يونيو. لكن،

بعد أن تلاشت الصدمة الأولية، استعادَ أغلب القادة -الحاخام الرئيس والمجلس المُنتخَب المؤلف من ستين عضوًا- الأملَ بأن الحياة يُمكن لها أن تعود إلى سابق عهدها. منعوا كثيرًا من أعضاء طائفتهم ممَّن أرادوا الهجرة مباشرةً في أعقاب «الفرهود»، وشددوا على أهمية إعادة الاندماج. توصَّلَ القادةُ، بعد وقتٍ غير طويل من الحدث، إلى رؤية «الفرهود» باعتباره انحرافًا، نتيجة الظروف الخاصة في الفترة الانتقالية بين زوال النظام الفاشي واستبداله بنظامٍ آخرَ أكثر اعتدالا[٥]. قوَّى الازدهارُ، الذي عززه اقتصادُ الحرب، الإيمانَ بإمكانية مستقبل أفضل.

بينما كان الجيل الأكبر سنًا يميل إلى اتِّباع قادتهم، بدا الجيل الأصغر سنًا أكثر تشكُّكًا بكثيرٍ. بالنسبة إليهم، لم يكن «الفرهود» واقعةً عَرَضية؛ بل دليلًا على العَداوة الإسلامية غير القابلة للتغيير. انقسمَ المتمردون إلى مجموعتين رئيستين: مؤيِّدو الصِّهيونية ومؤيدو الشُّيوعية. كلتا المجموعتين خذلتهما بريطانيا العظمى، بشكل كبير، يومَ وقفَ الجيش البريطاني عند بوابات بغداد حين كان المدنيون الأبرياء يُنهَبون ويُقتَلون. وكلتا المجموعتين تقاسمتا الافتراض بأنَّ الحياة في العراق بالنسبة لليهود، وفق ما كان يتشكل حينئذٍ، أصبحتْ لا تُطاق. بالنسبة للصهاينة، الحل الوحيد ليهود العراق هو أن ينضموا إلى الحركة الصهيونية ويهاجروا نحو فلسطين. بينما كان الشيوعيون يعتقدون بوجوب إجراء إصلاح جذري في النظام ليكونوا قادرين على العيش في العراق بوصفهم مواطنين متساوين في الحقوق. لقد اعتقدوا أنَّ انتصار الشُّيوعية في العراق سيضعُ حدًّا للتمييز بين جميع الأقليات، بما فيها الأقلية اليهودية.

مع أنَّ سعيدة لم تكن سوى مراهِقة وقتها، فإنَّ لها ذكرياتٍ حيةً عن «الفرهود». تُسلِّطُ قصَّتُها بعضَ الضوء على السياسة المعقدة الكامنة وراء المأساة الرَّهيبة التي تكشَّفتْ أمام عينيها. بما أن «الفرهود» يُمكن أن يتخذ أهميةً كبيرةً في الذَّاكرة الجَمعية لليهود العراقيين، وبما أنه كانت هنالك تفسيراتٌ متضاربة لهذه الأحداث، تستحقُّ ذكرياتُها أن تُروى ببعض التفصيل. بالإضافة إلى ذلك، تقريبًا، جميع روايات «الفرهود» المتوافرة لدينا سردها رجال. لم تشأ الطَّائفة اليهودية أن تسجل تجربةَ النساء، بخاصة أولئك النسوة اللائي تعرَّضنَ للاغتصاب، وقلَّما حُكيتْ قصصهنَّ. قدمتْ سعيدة، وأمها، منظورًا أنثويًّا نادرًا.

ثمَّة سؤالٌ حاسم يكمن في قلب السردية الحاضرة: هل يرى اليهود العراقيون «الفرهود» كتكملةً لتاريخ طويل وسوداوي، مشابهٍ لتاريخ يهود أوروبا، بدءًا من العصور الوسطى حتى المَحرقة النازية؟ يزعمُ بعض المُعلِّقين أنَّ معاداة السَّامية التي أظهرها المسلمون في العام ١٩٤١، لم تكن إلَّا حلقةً أخرى في سلسلة طويلة من الكراهية والاضطهاد، إنَّها معادلٌ عربيٌّ لـ«ليلة الزجاج المكسور»(١) في ألمانيا النَّازية. عاينَ مارك كوهين، وهو بروفيسور في جامعة برنستون وخبير بارز في العلاقات بين المسلمين واليهود، المذكرات اليهودية - العراقية وثيقةَ الصلة بتلك المرحلة واستنتجَ أن مؤلفيها لم يتشاركوا وجهة النظر نفسها. بالنسبة

(١) ليلة الزجاج المكسور أو ليلة الكريستال: يُقصد بها الموجة العنيفة للمذابح المرتكبة ضد اليهود والتي حدثت في ٩-١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر من عام ١٩٣٨، في سائر ألمانيا النازية وبعض البلدان التي كانت قد احتلتها حديثًا. وردت بالألمانية في النص الإنكليزي Kristallnacht. [المُترجم].

إليهم، لم يكن «الفرهود» واقعةً معادية للسامية بل حصيلة العوامل السياسية الخارجية المعقدة. لقد مثَّلَ بنظرهم حلقةً أخرى في سلسلة طويلة من الكراهية والاضطهاد، بل بدايةَ فصلٍ جديد من تاريخهم[٦].

ارتبطتْ شهادة سعيدة المباشِرة(١) بهذا الجدال. إنها تلامس جوانبَ متنوعة من «الفرهود» بالإضافة إلى معاداة السامية. أبرزتْ روايتُها العواطف المناوئة للبريطانيين التي سادتْ المجتمع العراقي يومذاك، العواطف التي ساعدت على إشعال فتيل ثورة رشيد عالي الگيلاني الوطنية وعاقبتها الدموية. يمكن القول إن تجربة سعيدة تقدم دليلًا صغيرًا يدعم وجهتي نظر كل من مارك كوهين وأوريت باشكين معًا بأن الفرهود لم يكن مجرد مظهر لعداء المسلمين العميق وواسع النطاق تجاه اليهود، بل كان ظاهرة أكثر تعقيدًا[٧].

حينَ أمسك رشيد عالي زمام السُّلطة، أحد الأفعال الأخيرة للحكومة المَلَكية المُنسحِبة هي أن تُصدِر إعلانًا تدعو فيه سائر المواطنين الأجانب بأن يبحثوا عن الحماية في أقرب سفارة أجنبية. ابتاعَ والدا سعيدة، منذ عهدٍ قريب، قصرًا كبيرًا وجميلًا في حيِّ الكرادة على الضفة الشرقية من نهر دجلة. في الجهة المقابلة من المنزل، ثمَّة حديقةٌ واسعة غنَّاء، فيها زهور النرجس البري، والقطيفة، والأقحوان، والخطميُّ، المنثور ومجموعة من أشجار النخيل. لم يكن أيٌّ من أشقائها قد تزوج بعدُ، وأقاموا كلُّهم في بيت الأسرة. لم يبالِ الوالدان بدعوة الحكومة المُنسحبة. كانا غير راغبين في التخلِّي عن بيتهما الجديد كما أحسَّا، لأنهما كبيران في السن، لم يكن من

---

(١) نعني بـ«المباشِرة» أنها مُستقاةٌ من مصدرها الأصلي. [المُترجم].

المرجَّح أن يُصابا بأذًى. فضَّلَ الأشقاءُ الذهاب إلى السفارة البريطانية، إلَّا أنها كانت بعيدةٌ في الجانب الغربي من النهر، في حين تقع السفارة الأميركية في جانبهم. قرروا الذهاب إلى السفارة الأميركية بدلًا من ذلك. طلبَ الوالدان من الأشقاء أن يصطحبوا شقيقتهم المراهِقة معهم، خشيةَ أن تتعرَّضَ للاعتداء إذا ما مكثت في البيت. لذا، مضى جميع الأبناء الأربعة إلى السفارة الأميركية، ومكثوا هناك طوال شهرٍ كامل إلى أن خمدت الأزمة.

ثمة سببٌ خاصٌّ لقلق الأبوين على أمان ابنتهما ألا وهو أنه في الكرادة، ليس بعيدًا عن بيتهما، توجد الأكاديمية العسكرية المَلَكية، وهي مدرسة للطلاب العسكريين. تستغرقُ فترة التدريب فيها ستة شهور، في نهايتها يحصل المتخرجون على رتبة نائب ضابط. التدريب اليومي للطلاب العسكريين، تحت إشراف رقيب أول ذي مظهر وحشي، وشارب أشبه بمقود دراجة هوائية، يمرُّ بالمتدربينَ من أمام بيت جديَّ. سرعان ما لفتَ أنظار الطلاب العسكريين وجودَ فتاة جميلة في سن الدراسة تقطن البيت. حين يقتربون، يصرخ الرقيب الأول آمرًا إياهم بأن يديروا رؤوسهم كلُّها إلى جهة اليسار، غير أنَّ الطلابَ يديرون أعينهم إلى اليمين آملين أن يلمحوها.

على الرغم من أن خلع العائلة المالكة عن العرش أعقبته فترةٌ من القلق والتوتر الشديدين، فقد تمكنت سعيدة من قضاء وقت ممتع في السفارة. في هذا السن الصغير، كانت تملك براعةً تُحسَد عليها في الاستفادة القصوى من أي موقف جديد. أظهر المضيفون الأمريكيون، من السفير إلى أصغر موظف، لضيوفهم غير المدعوين أعلى درجات

الكياسة والتقدير والاحترام. اشتملَ الضيوف على عدد من اليهود العراقيين، غير أن الأغلبية كانوا مواطنين أميركيين لديهم مهن في بغداد أو يعملون لصالح شركات النفط. خصَّصت السفارة مبنًى للنساء وآخر للرجال. كان الطعام كافيًا، إلا إن بعض السلع كانت غير كافية بسبب حالة الطوارئ. تمكن صاحب متجر كبير من ترتيب عمليات تسليم خاصة للمواد الغذائية. لم يتذمر أحد باستثناء شابة واحدة مُحِبة للطعام وظلت تطالب بالمزيد. ولمَّا سألوها لماذا هي محرومةٌ إلى هذا الحد، أجابت قائلةً: «أنا ساندي، ولست غاندي!». قُدِّمَ للضيوف عرضٌ في كلِّ مساء. ساعد إسحاق، شقيق سعيدة الأكبر منها سنًا، في تسلية الضيوف وكادر السفارة بأن وضع شاربًا مزيفًا وراح يقلِّد أدولف هتلر.

أحبَّ دبلوماسي أميركي شاب ووسيم، في منتصف عشرينياته، سعيدة. كان اسمه إلمور إيڤانس. في فترة ما بعد الظهر، حين يسترخي معظم الضيوف في حدائق السفارة، كان إلمور يُعطي دروسًا إنجليزية خاصة لسعيدة. انسجما معًا. أحبها، وأحبته، واستمتعا مع بعضهما البعض. بحسب وصف سعيدة، لقد تغازلا فقط، ولكنهما لم يتبادلا القبلات أبدًا. في يوم ما، خاطب إلمور طالبته المُنصِتة ذات الستة عشر ربيعًا: «يا إلهي، أريد أن أخبركِ بأجمل شيء في العالَم، إلا أني لا أستطيع لأنكِ لا زلتِ يافعة جدًا». يُحتمَل أنه عنى وقوعه في غرامها، ولو أنها كانت أكبر سنًا بعض الشيء، لطلب يدها للزواج.

لم يُسمحْ لوالدي سعيدة بالبقاء في البيت خلال حالة الطوارئ. أعلنت حكومة رشيد عالي أن سائر الأجانب سوف يُنقلون إلى مخيمات

سجن من أجل الأمن العام. لم يذكر الإعلان اليهودَ بشكل خاص، حيث ذكر فقط الأجانب عمومًا. بعد مُضي أيام معدودات جاء رجال الشرطة إلى البيت ليعتقلوا أبويْ سعيدة. اعترضت موزلي قائلةً إنها عراقية، وليست أجنبية. خاطبها الشرطي قائلًا: «عليكِ أن تخجلي من نفسكِ لأنكِ تزوجتِ من أجنبي، وليس أي أجنبي مسن، بل من رجل إنكليزي!» ردت عليه موزلي: «حسنًا إذن، خذْ زوجي الإنكليزي ودعني أعود إلى أسرتي العراقية». قال رجل الشرطة: «لن ينفعكِ هذا الكلام».

أُخذَ مائير، ومعه موزلي، إلى مخيمٍ حيث نُصِبت خيمٌ على عجل لإيواء المُحتَجزين الأجانب. اتَّسمتْ ظروف المخيم بالبساطة والاقتصاد في النفقات؛ إلَّا أنها لم تكُنْ مُذلَّةً. إذا ما وضعنا رعب القرن العشرين خلفنا، فإنَّ شبح المخيم يُعيد إلى الذهن أسوأ الانتهاكات لحقوق الإنسان. غير أن هذه المخيمات، مع أنها تركز على كونها «تضمُّ» الأجانب، لم تكن تُظهِر القسوة التي نألفُها اليومَ. كان المحتجزون يُطعمون، ويُسقون الماء ولم يخضعوا لأذى جسدي. لم يتعرضوا للمضايقة أو سوء المعاملة بأي شكل من الأشكال. حين تحتاج امرأةٌ ما الذهاب إلى دورة المياه، يجب أن يرافقها شرطي. مرافقة موزلي واجبٌ غير شائع لأنها كانت عنيفةً، مشاكسةً ومولعةً بالجدل. كل شرطي يحاول أن يتملَّص من هذا الواجب حين يأتي دوره، وكان هنالك مزاح لطيف بينهم بخصوص هذا الموضوع. في اللَّيل، يتم تعتيم المنطقة بشكل كلي كي يكون من الصعب على طياري القوة الجوية المَلَكية (RAF) أن يحددوا الأهداف

العراقية. قلَّما كانَ طيارو الـ(RAF) يرغبون بقصف أي مَدَني بالقنابل، ناهيك عن الرعايا البريطانيين، إلَّا أن روح موزلي المتمردة دفعتها على إنارة المصابيح، متعمدةً وبكل جرأة. وحين وبَّخها الشرطي بقسوة، قالت له إنها تريد أن تأتي الطائرات البريطانية كي تقتلهم جميعًا. وحين احتلَّ البريطانيون البلاد ثانيةً، أُطلِق سِراح الأجانب كلهم وسُمِح لهم بالعودة إلى بيوتهم.

غادرتْ سعيدة، وأشقاؤها كذلك، السفارة الأميركية في ٣١ أيار/ مايو وذهبوا إلى بيت خالهم هارون، شقيق موزلي، لأنه يقيم في باب الشرجي، التي كانت تُعد منطقةً سكنية أكثر أمانًا. سمعوا صراخ الضحايا وشاهدوا ألسنة النيران إلَّا إنهم لم يشهدوا الأعمال الفظيعة. في صباح اليوم التالي، أعادهم سائق الخال هارون إلى السِّفارة الأميركية حيث أقاموا هناك يومين آخرين؛ حتى قمعت الشرطة أعمال الشغب وأُستعيد النظام. عرفت سعيدة، بعد أن انقشعَ الغبار، أن لدى البريطانيين قواتٍ خارج بغداد؛ إلا إنهم لم يستخدموها. كانت طاحونة الإشاعة قد أوحت أنَّ الحافزَ السريَّ للبريطانيين هو أن يحولوا اليهود إلى أكباش فداء للإذلال الوطني الذي كانوا هم أنفسهم قد ألحقوه بالجيش والشَّعب العراقي. فيما بعد، تمحورت شكوك سعيدة على السير كيناهان كورنواليس. قالت لي إنَّ كورنواليس أراد أن يعطي الجماهير الغاضبة فرصةً كي ينفِّسوا عن مشاعرهم، لكنها اعتقدتْ بأنه ربما لم يتوقع حجم الموت والدمار الذي سيصيبُ اليهود نتيجةَ أوامره للجيش. على أقل تقدير، فكَّرتْ سعيدة، أن هذه الواقعة أظهرت قسوته وعدم اكتراثه بمصير اليهود.

روت سعيدة أن كثيرًا من المسلمين في المناطق السكنية المختلَطة بذلوا قصارى جهودهم لتقديم العون لجيرانهم وأصدقائهم اليهود في وقت الشدَّة. وقد توفرت الحماية إما عبر إدخال اليهود إلى بيوت المسلمين أو الوقوف خارج بيوت الجيران اليهود ومنع المُخلِّين بالأمن العام من الاعتداء عليهم. أضافتْ سعيدة أنّ الأمر تطلَّبَ قدرًا كبيرًا من الجرأة أن تقف عند باب بيت يهودي وتقولَ للغوغاء الغاضبين، «لا يمكنكم الدخول إلى هنا!» نكنّ كلّ الإجلال والتقدير لجرأة المسلمين خلال «الفرهود» في الشهادات العديدة، من مصادرها الأصلية، والتي أدلى بها الناجون اليهود. وقفت زوجة عقيد مسلم أمام باب بيتِ جارتها اليهودية ومعها بندقية زوجها الملقمة بالرصاص، مهددةً بإطلاق النار على أي شخص يقترب منهم.

التعليق الآخر الجدير بالملاحظة الذي أدلت به سعيدة يتعلق بالأشخاص الذين لم تكن دوافعهم كراهية اليهود، بل رأوا في حالة الفوضى السائدة فرصةً للنّهب والسّلب. صوَّرت هذا بقصة رجل يرتدي ثيابًا رثة يسكن في كوخ من دون ماءٍ جارٍ أو كهرباء. اختار مذياعًا باهظ الثمن من مخزن يملكه يهودي وأخذه إلى كوخه. وبما أنه لا يوجد مصدر طاقة كهربائية، بقي المذياع صامتًا. فغضب الرجل، وضرب المذياع بقوة وهتف قائلًا، «هيا، غنِّ! إنك تغني لليهود فلماذا لا تغني لنا؟!».

عقب استعادة النظام المَلَكي وتعيين حكومة مرنة، أصبح البريطانيون مرةً أخرى الحُكام المطلقين للبلاد. قرروا تشكيل الوزارات وطهَّروا الجيش ودرجات الخدمة المدنية العليا من أي شخص يُشَكُّ بميوله

النازية أو حمله لعواطفَ مناهضةٍ للبريطانيين. شكَّلتْ الحكومةُ العراقية الجديدة، في ظل نوري السعيد، لجنةَ تحقيق في أحداث الأول والثاني من حزيران/ يونيو ١٩٤١، ومنحتِ الضحايا والمتضرِّرينَ تعويضاتٍ. حُكِم بالإعدام على ثمانيةٍ من المهاجمين، بمَن فيهم ضباط جيش وشرطة. كان هذا جزءًا من سلسلة خطوات اتخذتها الحكومة كي تعزِّزَ ثقة اليهود، إلَّا إن الطَّائفة اليهودية ظلت خائفة. لم يثقوا برجال الشرطة وتوجسوا خيفةً من تكرار العنف. اندسَّ ضبَّاط وجنود الجيش في المناطق السكنية اليهودية، وواصلوا تحصيل النقود والتهديد بالعقوبة ضد كل فرد يُعطي معلومات للسلطات المحلية حول الجنود المشاركين في الأعمال الوحشية. تذكَّرت سعيدة الإحساس المفسِد لعدم الاستقرار والخطر المختبئين في أي مكان تمضي إليه. بدأتْ، هي وصديقاتها اليهوديات في المدرسة، بلبس العباءة، الغطاء الخارجي الأسود الفضفاض الذي يلبسنه النسوة المسلمات، لإخفاء هويتهن اليهودية. كما قلَّدنَ لكنة المسلمين العراقيين، خشيةَ أن تكشفهنَّ لهجتهنَّ.

لم تتمكن سعيدة من إجراء اختبارات الوطنيّة بسبب تأجيل موعدها جراء تداعيات الحرب القاسية. في السنة التالية، أجبرتها عائلتها على أن تترك المدرسة وتتزوج. ما حصل لأبي خلال «الفرهود» كان مبهمًا أكثر نوعًا ما بالنسبة إلي، إلى أن أخبرني ابن عمتي، فؤاد حمامة، أنَّ أبي كان محَميًا بشكل جيد خلال وبعد الحادثة من قِبل أصحابه المسلمين. في العام ١٩٥٠، وهو في سن الثانية عشرة، غادر فؤاد العراق بمفردهِ ذاهبًا إلى إسرائيل، وهناك منحه ضابط الهجرة اسمًا عِبريًا: هرتزل يوناتي.

«حمام» بالعربية؛ وبالعبرية يونا - يوناتي بالعبرية تعني «حمامتي». هرتزل هو اسم الحالم بالدولة اليهودية ويدلُّ على الفخر والاعتزاز بالصِّهيونية.

فؤاد هو ابن رَجينا، شقيقة يوسِف. أرسله أبواه بعد «الفرهود» كي يبقى مع خاله يوسِف لأن منطقتهم السكنية، الفقيرة واليهودية، تُعتبر غير آمنة. وفضلًا عن ذلك، كان شرطيان يحرسان بيت خاله، أحدهما في الشارع خارجًا والآخر على السطح. شرح فؤاد، كانتْ هذه الدرجة العالية غير المألوفة من الحماية بسبب صداقة أبي الحميمة مع قائد شرطة بغداد المسلم. تعوَّد الصديقان أن يلعبا الورق معًا ويخرجا إلى النوادي الليلية. كما قضيا وقتًا ممتعًا مع فرقةٍ من الراقصات الألمانيات، استدعى حضور عروضهن في الملاهي الحصول على رخصةٍ من قائد الشرطة المحلية. وبما أنَّ أبي لا يتكلم الألمانية أو الإنجليزية، لا بد أنَّ الحوار معهنَّ كان محدودًا بعض الشيء!

كيف كان شعور أبي بخصوص إعادة احتلال البريطانيين لبلاده؟ هذا شيءٌ مجهول. من الواضح أن الظروف أدت إلى تدهور عمله بشكل كبير. بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، ركز طاقاته على جمع أكبر قدر ممكن من الحديد المجلفن (حديد مغلف بطبقة من الزِّنك). أكسبه ذلك لقبَ «ملك الزنكو» - ملك الحديد المطلي بالزنك. كانت ثمة حاجةٌ ماسة، خلالَ الحرب، إلى هذه المادة، خاصة من قبل القوات البريطانية المتمركزة في العراق. كان هدف الأب الاحتكار كي يكون بمقدوره تحديد سعر المُنتَج كما يُريد. على أية حال، بعد أن احتل البريطانيون البلد مجددًا، فرضوا سيطرةً صارمة على الاقتصاد وتقنينًا شديدًا على مواد

إستراتيجية كثيرة، بما فيها كل صنوف الحديد والفولاذ. تدهور مخزن البيع بالجُملة الذي يملكه والدي في ظل النظام الجديد. استطاعَ فقط أن يبيعَ للقوات البريطانية وبالسِّعر الذي يحددونه - السعر القديم. تحطَّم حلمُه بأن يُصبح إمبراطور الحديد المُجلفن. الرجل الذي فرض كل تلك الشروط هو الحاكم الإداري المتغطرس، السير كناهان كورنواليس، الذي تعود أبي أن يشتمه، شأنه شأن أمي. وبما أنه من الصعب أن تلفظ اسمه، اختارا له تسميةً عربية: «كلب ابن الكلب».

كان أحد أفراد أسرتنا سعيدًا بالتعاون مع البريطانيين: شقيق سعيدة الأكبر سنًا إسحاق أو، إذا ما أعطيناه اسمه الكامل، إسحاق شالوم مائير عُبادية، وهو رجل أعمال حصل على وكالات شركات بريطانية من أجل توزيع سلعها في العراق. كما أدركتُ لاحقًا أنه لم يكن صادقًا. عملَ وكيلًا لشركة بريطانية كبرى في بغداد. امتلكتْ الشركة مبنًى كبيرًا في بغداد، كان إسحاق قد باعه إلى أحد أصدقائه اليهود بسعرٍ أقل بكثير من سعر السوق، وقبِلَ هو برشوةٍ ضخمة. عندما اكتشف رؤساء الشركة الصفقة الجانبية، طردوا وكيلهم المحلي الفاسد. بكل برود ودونَ حياء، اشترى إسحاق بتلك العوائد فيلا فاخرة في حيٍّ الكرادة بالقرب من نهر دجلة؛ وواصل صفقاته المشبوهة.

مثَّلَ بيع الويسكي الإسكتلندي، أحد خطوط عمل إسحاق المُثمِرة. احتاجَ، بعد اندلاع الحرب العالمية الثانية، إلى القيام برحلة نحو إسكتلندا لمقابلة مُجهِّزيه، الأمر الذي استلزمَ زيارةً إلى القنصلية البريطانية في بغداد من أجل الإجراءات. لا بد وأن أحد الموظفين قد أخبر القنصل بوجود

رجل عِراقي في حجرة الانتظار. هذا الرجل يتحدَّث الإنجليزية بطلاقة، ومن المحتمل أن يكون نافعًا لهم. ما كاد يمر وقتٌ طويل حتى نزل القنصل بنفسه وحاور خالي بإسهاب نوعًا ما. كانت الكثيرٌ من الأسئلة حول مؤهلاته ومهاراته اللغوية. في نهاية الحوار قال القنصل: «سيد عُبادية، نود أن نمنحكَ تفويضًا». «سيكون هذا شيئًا لطيفًا جدًّا»، أجاب خالي، معتقدًا أن القنصل قصد تفويضًا تجاريًّا. كان على طرف لسانه سؤال: «كم المبلغ؟» إلا إنه لم يتفوه به. ابتعد القنصل ورجع معه رزمة من الاستمارات المطبوعة، تحمل ترويسة (وزارة الحربية البريطانية). وبينما كان يملأ الاستمارات، تبادر شيئًا فشيئًا إلى ذهن خالي أن التفويض الذي أُعطي له هو أن يُصبح ضابطًا في الجيش البريطاني. تردَّد لحظةً، ثم قرر أن ينجز المهمة حتى النهاية. وهكذا أصبح ضابطًا برتبة ملازم في الجيش البريطاني. وما إن أصبح في الجيش، حتى اختاروه للعمل في سلك الاستخبارات من دون تدريب عسكري. لم تكن ثمة حاجة إلى التدريب لأن مهنته جوهريًّا كانت الترجمة، بخاصة للضباط البريطانيين الأعلى رتبة في الاجتماعات مع نظرائهم العراقيين الذين لا يتحدثون الإنجليزية.

وصل، ذات يومٍ، لواءٌ بريطاني إلى البلدة. وجبتْ مرافقته إلى سلسلةٍ من الاجتماعات مع ضباط عراقيين ذوي رُتب عالية، وكُلِّف إسحاق ليقوم بالترجمة له. في الطريق إلى الاجتماع الأول، أخذ إسحاق نَفَسًا عميقًا وخاطب الجنرال قائلًا: «اسمح لي بالإشارة إلى أمرٍ ما، سيدي، ففي هذا البلد لن يحترمك الناس إذا كان مساعدُك ضابطًا صغيرًا».

التفت إليه اللواء وقال له: «ملازم عُبادية، حين نرجع إلى القاعدة، اذهب إلى المكتب واختر لنفسكَ رتبة النقيب المؤقتة». بعد أن عاد الجنرال إلى إنجلترا، أُمر إسحاق بأن يعود إلى ملازم. أثار ضجةً وهدّد بالاستقالة من الجيش، وأخبرَ العقيد الذي يقود فوجِه أنه لا توجد عدالة في الجيش البريطاني، وأنَّ هنالك تمييزًا ضدّ الأجانب. تعاطف العقيد مع هذه الحُجَّة، وهو أيرلندي تدرَّجَ في رتبه العسكرية؛ وشجَّع إسحاق على أن يُخبر الآمر بما قاله له توًّا. فعل إسحاق ذلك وكانت النتيجة أن احتفظَ برتبة وشارة النقيب.

هكذا، حضر إسحاق زفاف سعيدة باللباس العسكري نقيبًا في الجيش البريطاني. فرضت الأسرة الزواج، نفسَه، على سعيدة. لم يكن عمرها يومئذٍ سوى سبعة عشر عامًا، طالبة مدرسة ذات حياة نشطة اجتماعيًّا ورياضيًّا، ولم تكن لديها رغبةٌ بالارتباط. رتَّبَ الأقاربُ أو المعارف معظمَ زيجات الطَّائفة اليهودية في بغداد، في تلكم الأيام. ولم يكن مُسْتَغْرَبًا أن تتزوج الشَّابات رجالًا أسنَّ منهنَّ بكثير، بخاصةٍ إذا كانوا أثرياء. لكن في هذه الحالة لم يكن الزواج مُرتَّبًا فقط، بل فرضته الأسرة على مراهقةٍ مترددة. جاءت المبادرة من الشَّخص الذي سيكون والدي، جوزيف شلايم، وهو رجل أعزب عمره ٤١ عامًا، رأى سعيدة في حفلة وأبهره جمالها، دون أن يعرف عمرها. كان يوسف شريكًا تجاريًا لبعض من أعمام سعيدة، ومن خلال أحدهم فُتح الموضوع الحسَّاس. تشاور العمُّ مع والديْ سعيدة، وأشقائها، والأعمام الآخرين، وكان الإجماع في صالح قبول العرض.

ثمَّة تحول مثير في القصة، وهو صداقة سعيدة مع شاب مسلم وسيم يُدعى نيازي، والخوف الذي راود أسرتها من جلب العار على العائلة بأكملها. كانا سعيدة ونيازي قد تقابلا في نادي الفروسية، وتبادلا الهمسات والأحاديث السرية الخافتة في زوايا النادي الخفية. روى شاهدُ عيان لوالديْ سعيدة تفاصيلَ المداعبة بين المُراهقيْنِ. اعتزمتْ الأسرة القضاء على صداقة سعيدة بالمسلم في المهد، وحماية شرف الأسرة عبر تزويجها. شراكةُ العمل ولعب الورق مع المسلمين شيء، والزواج بين أسرتين شيءٌ آخر. كان ذلك مُحرَّمًا تمامًا. والد سعيدة هو الفرد الوحيد من الأسرة الذي عبَّر عن تحفُّظاته بشأن الزواج المقترح، مجادلًا بأن الرجلَ الذي يتكلمون عنه جدٌّ كبيرِ السنِّ بالنسبة إليها. لكنَّ أباها كان قد فاقه في فارق الأعوام يومَ تزوج بأمِّها. أمَّا بالنسبة لأمها موزلي، التي كانت أكثر اهتمامًا بالمال، كانت ثروة الخاطب هي الاعتبار الطَّاغي. غمرتها السعادة لمجرد فكرة أن تتزوج ابنتها من رجل ثري يملك بيتًا فخمًا يثير حسد أبناء الطائفة. ثمة ميزة أخرى وهي أنّ الأبوين لن يتعين عليهما تقديم المهر المعتاد - كانت القيمة السائدة آنذاك بين عائلات من مستوى طبقتهم الاجتماعية والاقتصادية تُقدَّر بحوالي خمسة آلاف دينار عراقي. بسخريتها المعهودة هاجمت موزلي زوجها وطلبت أن تعرف: «كيف سنزوج الفتاة المسكينة بخلاف ذلك؟ بملايين أبيك؟».

لم يُسمحْ لسعيدة بإبداء رأيها في القضية؛ أخبروها ببساطة بأنها ستتزوج رجلًا لم تقابله من قبلُ. كلُّ احتجاجاتها كانت بلا طائل. في النهاية أضربت عن الطعام، حبستْ نفسها في غرفتها ورفضت النزول

كي تتناولَ وجبات الطعام. لكنها لم تمتنع عن الطعام تمامًا. كان شقيقها صالح قد عاد توًّا من رحلة عمل إلى الموصل وجلب معه أكياسًا تضم كل أنواع المُكسَّرات والفواكه المجفَّفة، احتفظَ بها في حجرته. كلَّما شعرت سعيدة بوخز الجوع، كانت تتسلل إلى غرفة صالح وتأخذ بعض الحلويات. انهارَ الإضرابُ عن الطعام بعد يومين.

الزواج يعني انتهاء دراسة سعيدة، وبالتالي لن تضطر للعودة إلى المدرسة لإجراء الامتحانات. شجَّع إسحاق شقيقتَه بأن تستسلم لضغوط بقية أفراد الأسرة. أخبرَها أنها إذا تزوَّجتْ من رجُل ثريٍّ، ستكون قادرةً على أن ترسل أولادها كي يتعلَّموا في إنجلترا. لا يُمكن أن تكون هذه الحجة مقنعةً جدًا في ذلك الحين، لكنها جاءت فيما بعد بنتائجَ معكوسة على إسحاق. حينَ أخفقتُ بالمدرسة في إسرائيل، عندما كان أبي عاطلًا عن العمل، ألحَّت سعيدة قائلةً إن شقيقَها تكفَّلَ بمسؤولية دراستي في إنجلترا.

لم تقابل سعيدة زوجَها، وجهًا لوجهٍ، حتى حلول حفلة خطوبتهما، أو ليلة الحِنَّة كما كانت تُسمى. كانت الحفلة مترفةً بطعام ومشروبات وافرة وتسلية ولم يُدَّخَرْ أيُّ مصروف. أُقيمَ الحفل في القصر الكبير الخاص بوالدي سعيدة في الكرَّادة، الذي اشتراه شقيقها إسحق بعائدات صفقته الجانبية المشبوهة. زُيِّنت طوابق البيت الثلاثة، والسَّطْحَان، والحديقة لخلق جو احتفالي. لائحةٌ من مئة ضيف وضيفة ضمَّت العائلات والسلالات العريقة للعروس والعريس. زميلات سعيدة بالمدرسة، صديقاتها ومعارفها، وعددٌ قليل من ضباط الجيش البريطاني دعاهم

إسحاق وصالح. من بين الضيوف، ثمَّة عددٌ من دبلوماسيي السفارة الأميركية الذين وهبوا العروس وأشقاءها ملاذًا آمنًا السنة الفائتة، خلال الحرب العراقية - الإنجليزية.

تَزيَّنت أصابع وكفًّا سعيدة بالحنَّاء، تلك الصبغة التي تبهت بعد أيام، ويُعتقد أنها تجلب الحظ السعيد. كما وُضِعت على يد كل ضيفة مسحة من الحنَّاء لتشاركنها فرحة الاحتفال. ودُعِيَت ثلاث مغنيات بغداديات شهيرات لإحياء الحفل وإمتاع الضيوف. إحداهن عفيفة إسكندر، وهي أرمنية مسيحية، عُدَّت واحدةً من أفضل المغنيات في التاريخ العراقي، ولُقِّبتْ بـ«الشحرورة العراقية»، يُشاع أنها كانت عشيقة أمين بغداد. والأخرى سليمة مراد، المعروفة شعبيًا بـ«سليمة باشا»، وهي مغنية يهودية ذاعت شهرتها ووصلت إلى أصقاع بعيدة. على الرغم من كونها يهودية، كانت المطربة الأكثر شعبيةً في العراق وقتئذٍ؛ وقد منحها نوري السعيد، الضابط العثماني السَّابق، لقبَ التشريف العثماني: «باشا».

غنَّت سليمة أغانٍ عربية حديثة بدلًا من «المقام» العراقي التقليدي، وسرعان ما أصبحت جزءًا أساسيًا من التراث الموسيقي العراقي. اندمجت سليمة جيدًا بالمجتمع العراقي بفضل زواجها من مطربٍ وممثل شهير آخر، ناظم الغزالي. كان مسلمًا، فاتَّخذت هي الخطوة النادرة والمثيرة للجدل: اعتنقتْ الإسلام. لم يكن ذلك ضروريًا بتاتًا لأن الإسلام يسمح للرجال أن يتزوَّجوا من النساء المنتميات إلى الأديان الإبراهيمية الأخرى - بينما يحظر على المرأة المسلمة رسميًا الزواج من رجل غير مسلم بصرف النظر عن ديانته. ويُسمح للرجل المسلم بالزواج من مسيحية أو يهودية،

إذْ يعتبرهما القرآن من «أهل الكتاب». لم تزرْ سليمة باشا إسرائيل، بل مكثتْ في العراق حتى وفاتها في العام ١٩٧٤.

تطلّب أمر إقناع الأسطورية سليمة بالغناء في هذا الحفل الخاص ثروة صغيرة وخاتمًا ثمينًا. وصلت في منتصف الليل من نادي الجواهري، حيث كانت تغنّي أغانيها كل ليلة، لكنها ما إن وصلت إلى الحفلة؛ مكثت حتى مطلعِ الفجر. صاحبها الشَّقيقان الكويتي اللّذان لحَّنا كثيرًا من أغانيها. كانا موسيقيان يهوديان، لا ينفصلان كما لو أنهما توأم سيامي، أتيا من الكويت كما يُوحي اسمهما. من الكويت انتقلا إلى البصرة، ومن البصرة إلى بغداد حيث أصبحا نجمين بارزين. كان داود يعزف على العود وصالح على الكمان. لقد لحنا أغانٍ مبتكرة لكنها متأصِّلة في التقاليد، ومن هنا اكتسبا شعبيتها الكبيرة. عزفا بانتظام في نادي الهلال، ثم وصلا إلى مستمعين أوسع بكثير عبر برنامجهما الإذاعي الأسبوعي من دار الإذاعة في بغداد. كان المقامُ موطنَ قوتهما، وهو شكل موسيقي فريد يُوجد في العراق فقط. تألَّفتْ فرقتهما من سبعة رجال، واحدٌ منهم، ضابط الإيقاع حسين عبد الله، وهو مسلم الديانة. لا تُذاع موسيقى حية من إذاعة بغداد أيامَ الصيام اليهودية، وهي «يوم كيبور - يوم الغفران» و«تيشا بآف - ذكرى خراب الهيكل».

ثمَّة نوعٌ آخر من المغنيات في الحفلة هو الدقَّاقة اليهودية (الجمع: دقاقات)، من «دقة»، التي تعني (قرع الطبل)[1]. الدقَّاقات فرقةٌ من النسوة، عادةً ذوات صلة إحداهن بالأخرى، وهن ينشدن الأغاني

(١) أو «الطَّقاقات» [المترجم].

ويعزفن على الطبول في حفلات الزفاف مقابل أجر متواضع، تُضاف إليه إكراميات الضيوف. تألَّفتْ الفرقة التي أحيت ليلة الحناء هذه من خمس نسوة كبيرات في السن إلى حد ما، جلسن على الأرض مع دفوفهن وغنَّين أغانٍ تراثية للزفاف حتى الصباح. كُنَّ غريبات الأطوار، منفتحات، وتمتعن بروح الدعابة، مما أضفى جوًا مرحًا للغاية. أغنيتهن «عفاكي»[1] تضمُّ أشعارًا توبخ بقسوة أم العروس على الحِيَل التي استخدمتها كي تظفرَ بعريس مرغوب فيه كهذا. هذه الأغنية لم تكن ملائمةً لهذه المناسبة الخاصة، ولكن لم يعترض أحد.

جلس الناس على الأرض حول الدقاقات وانضمُّوا إلى الغناء والتصفيق. كان القنصل الأميركي، واسمه الأول وليم، من أكثر المعجبين المتحمسين لهنَّ. هو أيضًا جلس على الأرض، ربما بعد احتساء كمية كبيرة من الشراب، وراح يصفق ويهتف لهن. ولكي يُبدي تقديره، أعطى سعيدة أرفعَ جائزة بوسعه أن يهبها إياها - ألا وهي تأشيرة دخول إلى الولايات المتحدة الأميركية. سألتهْ هل سيكون لديها خدمٌ هناك، وطُهاة، وسائق. ولَّما كان الجواب «لا»، رفضت العرض بأدب. استمرَّ المرحُ الصاخب طوال الليل.

أُقيمَ حفلُ الزفاف بعد ثلاثة أيام من ليلة الحِنَّة، في العشرين من أيار/ مايو عام ١٩٤٢. وقَّع العريس، قبل الزفاف، عقْدَ الزواج أو الخطوبة بحضورِ حاخام وشاهدين. حدَّد عقد القِران حقوق ومسؤوليات

---

(١) عفاكي: هنا تعني «أحسنتِ». يقول العراقيون باللَّهجة الدارجة «عَفية». أي بمعنى «أحسنتَ أو أحسنتِ صنيعًا». [المُترجم].

العريس تجاه العروس، كما حدد المبلغ النقدي الذي يتعين عليه دفعه لها في حالة الطلاق. أُقيمت حفلة الزفاف في القصر نفسه، على غرار حفلة ليلة الحِنَّة بالزخرفة ذاتها، لكنَّها مناسبة رسمية أعمُّ هدوءًا وأقلُّ صخبًا موسيقيًّا، وطقسٌ أعلى روحانيةً. مع ذلك كانت مناسبة لها سحرُها. يقودُ إسحاقُ شقيقته سعيدة إلى وسط الحديقة، مرتديةً فستانًا أبيضَ طويلًا، متهدِّلًا... إذْ كانَ والدها أكبرَ سنًّا من أن يحضرَ الحفلةَ. ارتدى يوسف بذلةَ سهرةٍ أنيقة. قادَ سعيدة إلى «الجُوبَة»، وهي مظلة تحملُها أربعة أعمدة؛ أدار الحاخام مراسم الزواج تحتها مع سائر الصلوات والبَرَكات التقليدية. وبعدها سلَّم الخطوبة للعروس. تتطلَّبُ المرحلة التالية من المراسم أن يكسر العريس كأسًا مغطاةً بالورق ويضعها على المنصة أمامه. إنَّها مناسبةٌ سعيدة، وبخلاف ذلك فهي تمثِّل طقسًا يتيحُ لحظةً للتأمل والذكرى. رتَّل العريس بالعبرية بعضًا من المزمور ١٣٧: **«إِنْ نَسِيتُكِ يَا أُورُشَلِيمُ، تَنْسَى يَمِينِي! لِيَلْتَصِقْ لِسَانِي بِحَنَكِي إِنْ لَمْ أَذْكُرْكِ، إِنْ لَمْ أُفَضِّلْ أُورُشَلِيمَ عَلَى أَعْظَمِ فَرَحِي!»**.

علتْ هتافاتٌ وتصفيقٌ حار لحظةَ كُسِرت الكأسُ. تبادل الضيوف القبلات وتعانقوا وظلوا يرددون «مَزال توف»، حظًا سعيدًا! أعقبَ الاحتفال عشاءُ بوفيه ومزيدٌ من المشروبات. بعد العشاء، خطف العريس عروسه وأخذها إلى بيته في منطقة «البتاوين» كي يُمضيا ليلة دخلتهما هناك.

شاركتني أمي ما وقع في ليلة الدخلة، لأولَ مرة، خلال نزهةٍ إلى حوض استحمامٍ في تموز/ يوليو من عام ٢٠١٩، يومَ احتفلنا بعيد ميلادها

الخامس والتسعين. قدمتْ معها من إسرائيل شقيقتي الكبرى داليا، المقيمة في تل أبيب. عانتْ أمي من بعض المشكلات في الحركة ولم تستطعْ المشي لمسافةٍ بعيدةٍ، لكنها رفضتْ عرض الكرسي المتحرك الذي اعتبرته مُخجلًا. إن جولةً على طول نهر آفون كانت شيئًا مثاليًا بالنسبة لها. لاحقًا، مضت زوجتي جوين، وداليا، في جولة حول الحمامات الرومانية بينما مضينا أنا وعايدة لشربِ الشاي وأكلِ الكعك في غرفة المضخات الأنيقة. كان عازف البيانو يعزف مقطوعات لـشوبان وشتراوس في الخلفية، مما أضفى على الأجواء رونقًا كلاسيكيًا عريقًا. في هذا السياق غير المرجح، كشفت أمي بتفاصيل مؤلمة عمّا يمكنني الآن فقط أن أعدَّه اعتداءًا جنسيًا، تعرَّضت له قبل ما يقرب نحو ثمانين عامًا. لقد تعوَّدتُ أن أمطِرَ أمي بوابلٍ من الأسئلةٍ، طوال الوقت الذي كنتُ أعمل فيه على هذه المذكرات. في هذه المناسبة، على أية حال، من دون أي تحفيز، بدأتْ قصةَ ليلة زفافها، مستهلّةً إياها بإخباري أن «هذا ليس من أجل الكتاب»، أي تعني أنه بيننا نحن الاثنين، وأن لا يُضَّم في مذكراتي. وتاليًا رفعتْ هذا المنع.

فتحنا، في عيد ميلاد أمي الحقيقي، زجاجةَ شمبانيا معتَّقة وجلسنا إلى عشاء عائلي في بيتنا بأكسفورد. انضمَّت إلينا -أنا وجوين وابنتها أماندا وابنتنا تَمار- شقيقتي الأصغر المقيمة في لندن، ڤيلما. دعوتُ أمي، بعد العشاء، كي تُعيد على مسامع النساء القصة التي روتها لي في الحوض. لم أكن قد قررتُ، بعدُ، ما إذا كان يتوجَّبُ عليَّ سرْدُ القصة ثانيةً في هذا الكتاب؛ لأنها تتضمَّنُ تفاصيلَ حميمةً إلى حدٍّ كبيرٍ وتنتهكُ خصوصية أمي. تعتقد غوين أنه من الضروري سرد القصة لأنها تكشف عن قسوة

المجتمع وفظاظته تجاه الشابات في ذلك الوقت، وتسلط الضوء على العواقب طويلة الأمد لتلك المعاملة. كما اعتقدت أنه إلى جانب تقديمها أدلة قوية على ممارسات ثقافية لا تحترم استقلال المرأة أو حقوقها، كان الأمر مثيرًا للاهتمام، بسبب تأثرها بسماع قصتها من نساء يحملن وجهة نظر مختلفة تمامًا.

أُجريتْ، كما يقضي العُرف، تحضيراتٌ متمهِّلةٌ من أجل فضِّ بكارة العروس المتزوجة حديثًا في ما سيكون بيت الزوجية. خارج الحجرة وقفت أُمُّ يوسف لولو، شقيقتُه روزا، وابنة أخته راشيل. كما كانت جدةُ سعيدة لأمِّها حاضرةً، وهي امرأةٌ مُبجَّلة، اسمها حبيبة، ومعها خادمة شابة. وفقًا لتقليد ذلك الوقت، أُبعِدت أُمُّ العروس. وثانيةً، وفقًا للتقليد، أُحضِرَ منديلٌ ملطَّخ بالدم وأُعطيَ لسائقٍ سيقود سيارته باتِّجاه منطقة الكرَّادة، ويبرزهُ لأُمِّ العروس كتأكيد على شرف الأسرة وأنه قد اجتاز الاختبار! توقَّع السائقُ إكراميةً كبيرةً، بما أنه كان حامل الأنباء السارَّة في مناسبةٍ مهمة. على أية حال، منحته موزلي مبلغًا زهيدًا عزتْهُ سعيدة إلى بُخلها المعهود. نامت جَدَّةُ سعيدة، في تلك الليلة، إلى جوارها على سطح المنزل. كانتْ مهمة الجَدَّة، ليلتها، حماية الفتاة خشية أن يَقْربَها الزوجُ ثانيةً.

روت أمي هذه القصة بهدوءٍ، وبأسلوبٍ واقعي، غير أنها قالت فعلًا لقد أُجبرتْ على هذا اللِّقاء الجنسي فجأةً ومن دون استعداد جسدي أو نفسي. لخَّصت التجربة كلَّها بكلمة واحدة - «فظيعة». أدَّتْ روايتها إلى مناقشة حيوية، ونوعٍ من تشريحِ الجثة بين بعض النسوة

الحاضرات. زوجتي جوين، وابنتي تمَار، وابنة أختي أماندا اشتركن في النقاش. كنَّ غاضباتٍ من جراء المعاملة الوحشية التي خضعت لها الفتاة المراهقة وسمَّيْنَها اغتصابًا. شَكَّكن في فكرة أن الجدَّة كانت هناك كي تحمي سعيدة، وناقشنَ بأنه طالما قد أجبرتها الأسرةُ أصلًا على الزواج وأخضعتها لهذه المحنة، فالحمايةُ من بعد كل ذلك ستبدو بلا معنًى. لم تتحدَّثْ سعيدة نفسها كثيرًا خلال المناقشة، لكنها في صبيحة اليوم التالي، على مائدة الفطور، كونها امتلكتْ وقتًا للاستذكار، فتحت الموضوع مجدَّدًا وبشكلٍ عفويٍّ، واصفةً التجربة التي أُرغمت على خوضها بأنَّها «جريمة». ككانت هذه أقوى كلمة استخدمتها أمي على الإطلاق للتعبير عن هذه الواقعة الأليمة، التي تعود إلى ما يقرب من ثمانين عامًا. في حوار هاتفي يوم ٢٤ نيسان/ أبريل من عام ٢٠٢١، قبل شهرين من وفاتها، أذنتْ لي بسردِ هذه الحادثة في مذكراتي، مع مزيد من التفاصيل الحميمة التي آثرتُ أن أستبعدَها.

رغم كون سعيدة أُرغمت على زواجٍ مُرتَّب، ورغم صدمة ليلة الزفاف، فإنَّها سرعان ما انصرفتْ إلى أسلوب حياتها الجديد كسيدةٍ مترفة. كان أبرز ما يميزها أنها إنسانة عمليَّة. بالإضافة إلى ذلك، كانت هنالك تعويضات مادية كبيرة في كونها متزوجة من رجل ثري. مكّن الزواج سعيدةَ من التخلي عن ضغوط الدراسة وبدء حياة جديدة كسيدة قصر في بيتها الجديد. من ناحيته، فعلَ يوسف كلَّ ما في وسعه، كي يُسهِّلَ الانتقال ويُدلِّلَ عروسته الشابة. كان بحسب رواية سعيدة، رجلًا محترمًا متكاملًا وزوجًا نموذجيًا: وديعًا، عطوفًا، ومتفهمًا. كما كان لطيفًا ولا

غبارَ على تصرفاته اللائقة التي أُعجبَتْ بها سعيدة كثيرًا، بحيث تعوَّدت أن تقول له: «أين نشأتَ - في قصر بَكنغهام؟» وزيادةً على كل شيء، كان يوسِف سخيًّا إلى حدٍّ كبير. مثالٌ صغير واحد أعطته سعيدة عن سخائه، هو أنه كان على الدوام يحفظ أمواله في جيب بنطلونه اليمين وكذلك في محفظة نقودهِ. هذا يعني أنه حين كان يخرج مع أصدقائه إلى المقهى أو المطعم، كان الأسرع في إظهار المال كي يدفع الفاتورة. ومثل سعيدة، كان يوسِف كائنًا اجتماعيًّا مُحبًّا للعِشرة يستمتعُ بمخالطة الناس، وبارتياد النوادي والرقص.

حرَّرتْ أسرةُ يوسف سعيدة من كافة المسؤوليات التي عادةً ما ترافق إدارة مؤسسة كبيرة. كانت شقيقته روزا المسؤولةَ عن إدارة المنزل، ومسؤولة عن مراقبة أفراد طاقم العمل المتنوع من الطهاة وعمال النظافة والبستانيين. تألفتْ الحياةُ الاجتماعية من دورة لا نهايةَ لها من الدعوات الدبلوماسية، والمناسبات الرسمية، والحفلات، وحفلات العشاء، وألعاب الورق مع الأصدقاء، وزيارات النوادي الاجتماعية. كان منزلنا دائمًا يضج بالنشاط، والترفيه، والسهرات، والمناسبات المختلفة. كان أبي يرحب بالضيوف بحرارة، ويبذل قصارى جهده ليجعلهم يشعرون بالراحة والترحيب التام في منزله. وفي هذا الشأن، كان يساعده أفرادٌ متنوعون من أسرته. إلى جانبِ المنزل الكبير كان هنالك مبنى إضافي ذو ثلاث غرف وحمَّام - يقطنه اثنان من أبناء أخته، أبناء شقيقته رجينا الذكور. أحدهم فؤاد الذي ذُكِر آنفًا، وُلد في العام ١٩٣٧، والآخر شقيقه الأكبر عزرا، المولود في العام ١٩٢٦. كلا الشَّقيقين انتقل إلى منزل أبي بعد «الفرهود»

لأنه كان أكثر أمانًا من البقاء في منطقتهم السكنية اليهودية الفقيرة. أبوهما، لياهو (إلياهو) حمامة، لديه مخزن في سوق الشُّورجة القديم، يبيع القهوة، والشَّاي، والمُكسَّرات من سائر الأنواع، والفواكه المجففة وتشكيلة هائلة من التوابل. عمل بانتظام على امداد العائلة بتلك السلع الشهية.

كان عزرا الأقرب إلى قلب والدي. كان شابًا مرهفَ الإحساس، وحسن السلوك ونافعًا، انتظم في «شمَش»، المدرسة الثانوية اليهوديَّة المحليَّة. استطاعَ أبي، الذي يحلو له تقديم كمياتٍ كبيرة من الأطعمة، القضمات[1] والمرطبات، الاعتمادَ على عزرا كي يساعدَه فيما يتعلق بالتحضيرات، ومصاحبة الضُّيوف خلال مدة زيارتهم. وفي يوم من الأيام وصل الضيوف، بينما كان عزرا على السطح مع واحد من أصدقائه، ولم ينزل كي يقدم العون المطلوب. وبَّخه أبي بقسوةٍ، بعد مغادرة الضيوف، وصفعَهُ على وجهه. أحسَّ عزرا بالأذى وانزعج إلى حدٍّ كبير. تمتمَ بشيءٍ ما مدافعًا عن نفسه بأن لديه امتحان في المدرسة اليوم التالي حيث كان هو وصديقه يراجعان المادة من أجل أداء الامتحان. جرتْ هذه الحادثة في العام ١٩٤٤، وبعدها مباشرةً غادر عزرا العراق بشكل غير مشروع ومضى إلى فلسطين بمساعدة الحركة الصِّهيونية السرية. ظنت والدتي أن الصفعة على وجه عزرا دفعته للتقرب من مبعوثي الصهيونية. في حقيقة الأمر، كما تهيأ لي أن أعرف تاليًا من ابن عمتي فؤاد، كان عزرا صهيونيًّا ملتزمًا وعضوًا قديمًا في حركتها السرية. نجحَ تمامًا، على أية حال، في

(١) كلمة Nibble تعني في العربية قضم أو أكل ببطء وبقضمات صغيرة. يمكن استخدامها للإشارة إلى تناول الطعام بطريقة خفيفة أو متقطعة، مثل «قضم قطعة من البسكويت». [المُترجم].

إخفاء أنشطته الصهيونية عن خاله. من المستبعد أن تكون تلكَ الصفعة على الوجه أكثرَ من عامل ثانوي في قراره بالرحيل، وبدء حياة جديدة في إسرائيل لاحقًا.

على أية حال، القصة لها نهاية حزينة. عند وصوله إلى فلسطين، غيَّر عزرا لقبه من حمامة إلى زيت، الذي يعني الزيتون باللغة العِبرية (والعربية). التحق بكيبوتز معوز خاييم حيث عمل قائد جرَّار، تزوج وتطوَّع للخدمة في الهاغانا، وهي القوة اليهودية شبه العسكرية قبل الاستقلال. وعند نشوب الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى في أيار/ مايو من عام ١٩٤٨، التحق بلواء غيفاتي، وقُتِلَ في معركةٍ ضدَّ الجيش المصري، مدافعًا عن كيبوتز نيتزانيم في النَقَب. كانت زوجته نيهاما حُبلى في وقتها. أخبر عزرا نيهاما، في آخر لقاء بينهما، أنه إذا لم يعد من الجبهة، وإذا ما أنجبتْ صبيًا، عليها أن تطلب من الصَّبي أن يثأرَ لدمهِ. أنجبت نيهاما بنتًا أسمتها «تيكفا» - أمل. أخبرتْ نيهاما فؤاد بشأن أمنية شقيقه الأخيرة. فؤاد، الذي استبدلَ اسم «هرتزل» باسمه عند وصوله إلى إسرائيل في العام ١٩٤٩. قال لي إنه أحس بأنه حقق أمنية شقيقه الأكبر بالانتقام من خلال القتال مع (IDF) (الجيش الإسرائيلي) ضد الجيش المصري في ثلاث حروب: حرب السويس ١٩٥٦، حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧ وحرب تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٧٣.

ذات يوم من أيام مراهقتي المبكرة، في إسرائيل، تفحَّصتُ بعنايةٍ ألبوم صور القتلى الإسرائيليين خلال حرب العام ١٩٤٨، استعرته من جاري الذي يسكن المنزل الملاصق لمنزلنا، وصادفتُ اسم عزرا زيت

«حمامة». كانت هناك صورة شخصية صغيرة وقريبة، وتاريخ الميلاد وتاريخ الوفاة، وتفصيل أو تفاصيل أخرى. أريت الصورة لوالدي، فتأثر بها تأثرًا واضحًا، بل وظهرَ عليه الاضطراب أيضًا. لقد هزَّتهُ صورة ابن شقيقته الميت، لم يقل شيئًا باستثناء أنه سألني أين وجدتُ الألبوم. وكوني أعرف ما أعرفه الآنَ عن ظروف مغادرة ابن عمتي من بيتنا في بغداد العام الذي سبق ولادتي، أتساءل ما إذا أحسَّ أبي بالذنب. لكنه، يومذاك، لم ينبسْ ببنتِ شفة؛ بدا مذهولًا ومنزعجًا فقط. بدا عاجزًا عن التعبير عن مشاعره بالكلمات في هذه المناسبة، كما هو الحال في مناسبات أخرى كثيرة.

كانت أمي أكثر انفتاحًا، وفصاحةً، وثرثرةً. أحد الأشياء القليلة المتوقعة منها، بصفتها امرأة متزوجة، هو أن تنجب الأطفال، وقد وضعت ثلاثة منهم في تتابع سريع. وُلدت شقيقتي ليديا في ١٤ شباط/ فبراير ١٩٤٤، ووُلدتُ أنا في ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٥ وولدتْ شقيقتي الصغرى ڤيلما في الأول من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨. سجَّلت ولادتي تغييرًا بين الأجيال في تاريخ الأسرة. كان جدي لأمي، مائير، يهزل على فراش احتضاره بالبيت في الكرادة، إذ جعله سرطان الكبد عاجزًا. أما ابنته سعيدة فكانت حاملًا بحفيده الثاني في شهرها التاسع. جاورتْ موزلي، وابنهما الأكبر سنًا إسحاق، سريرَهُ في الأسبوع الأخير من حياته. لم يُخبرا سعيدة بمرض أبيها المُهلِك لأنهما خافا من أن يؤثر هذا على صحتها ويُعرِّض الطفل الذي في بطنها للخطر.

في رسالة من ثلاث صفحات، كتبها إسحاق إلى شقيقه ألفريد، المقيم في طهران، يقدِّم تفاصيل كثيرة تتعلق بالظروف المحيطة بموت

أبيهما. بحسب هذه الرسالة، بدأ مائير يتذمر من ألمٍ في معدته قبل عامين من وفاته. أخذه الشقيق الأوسط صالح إلى المستشفى اليهودي، مائير إلياس. ظنَّ الطبيب في هذا المستشفى أن لدى مائير ديدان في معدته ووصفَ له ما كان يحسبُ أنه الدواء المناسب. تبين أن هذا هو التَّشخيص الخاطئ والعلاج ربما أفضى إلى وفاته. أُستدعي إسحاق من القاهرة حين تدهورت حالة مائير الصحيَّة، وحينَ رأى كم كان أبوه ضعيفًا وشاحبًا، لجأ إلى مديرية الجيش الطبية في بغداد طلبًا للمساعدة. أجابَ الدكتور سندرمان على مكالمته الهاتفية ورافقه إلى الكرَّادة كي يفحصَ المريض. كان تشخيص الدكتور سندرمان هو أنَّ المريض يعاني من سرطان الكبد وما من شيء يُمكن القيام به من أجل إنقاذه. وبما أنَّ مائير لم يكن قادرًا على تناول الطعام، كان المعتنون به يغطسون القطن الطبيّ في ماء الورد والسُكّر كي يبلل شفتيه. لفظَ أنفاسه في الساعة الرابعة من بعد ظهر يوم ٦ تشرين الثاني/ نوفمبر عام ١٩٤٥، يوم ختاني. رجعت موزلي إلى البيت بالسرعة الممكنة من طقس ختاني، ووضعت قطعةً من حلوى تركية في فم زوجها الذي يحتضر. ابتسمَ لها ابتسامةً خفيفة، أطلق زَفرةً ومات بسلام.

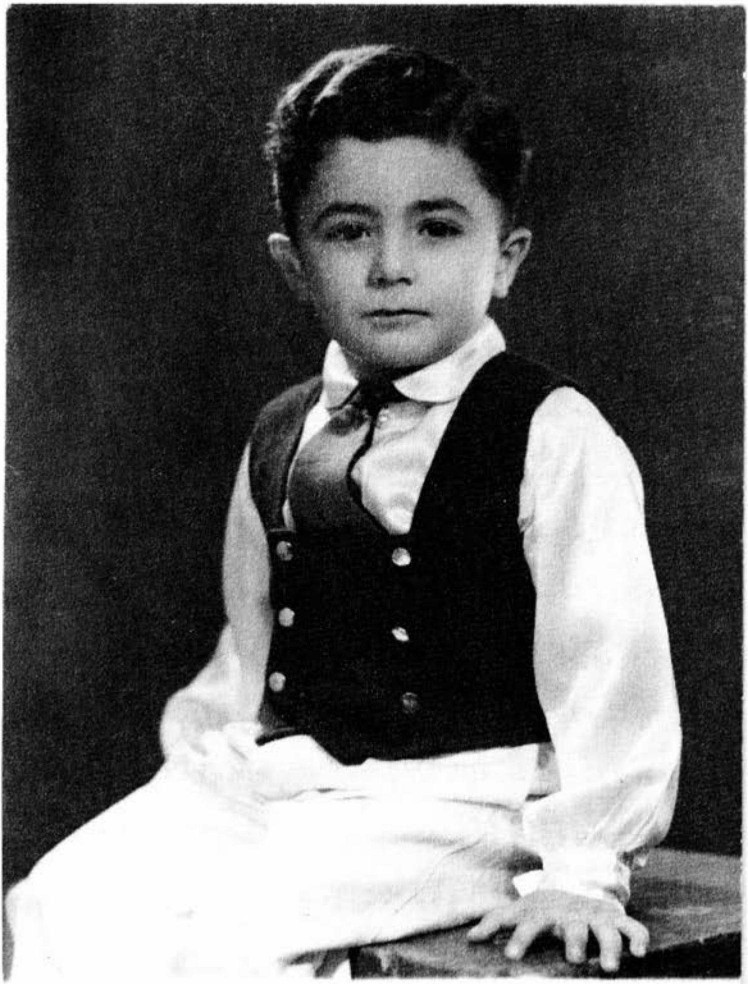

«آقي» بسن الرابعة في بغداد.

الفصل السادس

مدينتي بغداد

كنت في الثانية أو الثالثة من عمري وكانت المربية تعتني بي وقد جلستُ على سجادةٍ فارسية على سطح منزلنا محاطًا بألعابٍ من أنواع مختلفة من بينها مقصٌ بلاستيكي كبير وقبيح. قررت أن أجرب المقص على إبهام قدم مربيتي. بدا أنها تستمتع باللُّعبة إلى حدٍّ كبير وتضحكُ بصوتٍ هادر، مما شجَّعني على أن أضغط بقوة أكبر على المقص. كلَّما ضغطتُ أقوى عَلا صوتُ قهقهتها أكثر. تلك واحدة من أقدم ذكريات طفولتي وأكثرها حيويةً. مثّلت هذه الحادثة صورةً مصغرة لحياة عائلتي في بغداد، حيث عشنا حياة هادئة ومريحة، محاطين بالمربيات والخدم؛ وكنت محظوظًا ومُدللًا، وحتى سلوكي الشقي كان دائمًا ما يُقابل بالتساهل. كانت النتيجة النهائية طفولة سعيدة وهانئة خالية من الهموم.

وُلدتُ في بغداد يوم الحادي والثلاثين من تشرين الأول/ أكتوبر عام ١٩٤٥. مع شهيقي الأول، كان جدي مئير، في مكان آخر من بغداد، يلفظ أنفاسه الأخيرة. ما صورة المدينة التي تضمُّ أجيالًا كثيرةً جدًّا على غِرار أسرتي؟ كان لبغدادِنا ماضٍ ذائع الصيت. تأسست في القرن الثامن

الميلادي وأصبحت عاصمة الإمبراطورية العبَّاسية، مركز الخلافة العربية إبان «العصر الذهبي للإسلام» خلال القرنين التاسع والعاشر. تطورتْ في تلك المرحلة إلى مركز تجاري، ثقافي وفكري أساسي للعالَم العربي. في العام ١٥٣٤، استولتْ الإمبراطورية العثمانية على بغداد، ولم تعد عاصمةً للإمبراطورية، إذْ غطت عليها القسطنطينية يومذاك.

تدهورت المدينة ببطءٍ؛ خلال قرون الحُكم العثماني الخمسة. ومع تفكُّك الإمبراطورية العثمانية، وقعتْ بغدادُ تحت الانتداب البريطاني وأصبحت، في العام ١٩٣٢، عاصمةً للمملكة الهاشمية في العراق. استعادتْ شيئًا من أهميتها السابقة باعتبارها مركزًا مرموقًا للثقافة العربية. وهكذا كانت بغدادُ طفولتي مدينةً مختلفة أشدَّ الاختلاف عما كانت عليه إبَّان العهد العثماني. تطوَّرت بسرعة بعد الحرب العالمية الثانية، ومنحت الطبقات الوسطى العُليا أشكالًا حديثةً من الرَّفاهية والثَّقافة: دور السينما، والموسيقى الشعبية، وركوب الخيل، والتنس، وأشكالٌ أخرى من الألعاب الرياضية. وقبل كل شيء، كانت مدينةً حَضارية متعددة الأعراق، وموطنًا للأقليات المختلفة، تنتشر فيها المساجد، والكنائس والكُنُس. كانت لنا علاقات ودية مع جيراننا المسلمين والمسيحيين، ولم تُعِقْنا الاختلافات الدينية.

هذا لا يعني أن اليهودية لم تكن مكوِّنًا مهمًّا من هُويتنا الجمعية. في الواقع، كانت مكمِّلةً للطريقة التي نرى فيها أنفسنا، وللطريقة التي نتدبَّر فيها شؤونَ حياتنا اليومية. كنا علمانيين لا محالة، ولم نكن يهودًا تقليديين. لكن، على الرغم من أننا لم نكن متدينين، حافظنا على بيتٍ يتوافق مع

شروط الشريعة اليهودية. الدجاج الذي كنا نستهلكه يُذبح بواسطة «شوهيت»، جزار، وفقًا للطَّقس اليهودي في ذبح الحيوانات. في ليلة الجمعة، كنا نؤدي الـ«كدوش»، وهي صلاة ومُبارَكة يتلوها أبي كونه ربَّ الأسرة، مع النَّبيذ الحلو في كأس من الفضة، وعند وجبة الغذاء الرئيسة الاحتفالية التقليدية كي نبشِّر باقتراب السَّبت المقدس. كان كنيس مئير طويق في الجانب الآخر من الطريق إلى بيتنا. لم يواظب والدي على الصَّلاة هناك في كل سبت؛ ولم يحضر الطقوس الدينية باستثناء تلك التي تتخلَّل الاحتفالات والمناسبات الخاصة. كان التبرُّع بسخاء للصندوق الخيري من أجل الفقراء، الذي أدارهُ الكنيس، على رأس واجباته كأحد أعضائهِ. مثَّلتِ اليهوديةُ -بالنسبة لأُسرتنا- ثقافةً أكثر منها دينًا.

كنا أسرة ثرية ومرتاحة تنتمي للطبقة الوسطى العُليا. أقمنا في بيت كبير في ٤٤ شارع العَلَميْن، في حيِّ البتَّاوين المزدهر بمركز المدينة، في أطراف منطقة الباب الشرقي. بجوار البتَّاوين يقعُ حيُّ العلوية الذي يجاورهُ حيُّ الكرَّادة، حيث كان يسكن جدِّي لأمي. معظم المنازل في البتَّاوين كانت فيلات خاصة مُحاطة بالحدائق والبساتين. إنَّها منطقةٌ سَكنية مختلطة... ونسبة كبيرة من ساكنيها يهود. كان بيتنا هو البيت الذي شيَّده أبي لنفسه يومَ كان أعزبَ، بحسب ما ذكرته أمي، كما كان واحدًا من أرقى البيوت في بغداد كلها. بما أنه هو نفسه كان مستورِدًا ومجهِّزًا لموادِّ البناء، فقد كان في وضعٍ يؤهِّله لاختيار أفضل المقاولين. يوجد في الطابق الأرضي قاعة؛ وغرفة جلوس بها مدفأة حطبٍ أميركية الصُّنع، وأرائكُ من المخمل الأخضر، وكراس ذوات مساند،

وسجاجيد فارسية نفيسة؛ وغرفة طعام كبيرة. ويوجد سُلَّم يؤدي إلى غرفة نوم والديَّ وحمَّام فاخر بقرميدٍ أخضرَ مستوردٍ من إنجلترا. ثمَّة جناح آخر في المبنى تسكنه والدة أبي، وأخته، وابنة أخته، وبعض أفراد العائلة الآخرين ممن اعتادوا التنقل باستمرار. يحتوي البيت عمومًا ثلاثة حمَّامات وسبعة مراحيض.

ثمّة درج يؤدي إلى سطح مستوٍ محاط بجدار من الطوب يبلغ ارتفاعه مستوى الخصر. في فصل الصيف، عندما تبلغُ درجة الحرارة حدًا لا يُطاقُ، تجهّز الخادمات أسرَّة خاصة لنا على السطح كي يتسنَّى لنا النوم في الهواء الطلق، الذي يُبرده النسيم الآتي من دجلة. كان لأبويَّ سريرٌ مزدوج ذو عمود عند كل زاوية تنسدلُ عليه شبكة بيضاء «كُلَّة/ ناموسية» لتمنحهما بعضَ السرِّية ولتحميهِما من لسعاتِ البعوض ليلًا. أسِرَّتُنا، أنا وشقيقتاي، من دون تلك الشِّباك. حين يغدو الجو شديد الحرارة في السطح المفتوح، كان أبواي ينتقلان إلى شُرفة السطح الواقعة في الظل. امتلكتْ أمي وسادةً مفضلة من ريش البط جلبها لها جدها لأبيها من إحدى رحلاته إلى الصِّين. وبما أنهن يعرفن كم هي متعلِّقة بهذه الوسادة، كانت الخادمات ينقلنها إلى السرداب البارد كي تنام قيلولتها بعد الظهر ويعدْنها إلى السطح وقت المساء. منحنا النومُ على السطح شعورًا غريبًا بالعزلة والصِّلة الحميمة مع الطبيعة. يبقى الاستلقاء في سريري على السطح، والنظر عاليًا إلى القمر والنجوم، يمثل واحدًا من أقدم مشاهد ذكرياتي طفلًا. الآن وأنا أسترجع تلك الذكريات، أشعر بالحرج قليلًا، لا سيّما عندما أتذكر كم كنت طفلًا مدللًا ومحظوظًا.

كان والدي ربّ العائلة والمعيل، يُعامل دائمًا باحترام كبيرٍ من الجميع، كما هي العادة في المجتمع العربي. كان متوسط القامة، قويّ البنية وممتلئ الجسم، أصلع الرأس، ويضع نظارات مستديرة ذات إطار ذهبي وعدساتٍ سميكة. ضمَّتْ خزانة ثيابهِ بدلات من ثلاث قطع صنعها له خياط من قماش إنجليزي فاخر، يرتديها بانتظامٍ مع قميصٍ أبيضَ وربطة عنق متناسقة. أتذكر أنه كان رجلًا معسولَ اللسان، لطيفًا، حريصًا وسخيًّا. كانت لديه مسحة عنفٍ كذلك؛ رغم أنني لم أتعرضْ لها. عندما يفقد أعصابه فمن المُحتمل أن يضربَ شخصًا.

يُكنِّي معظم الناس والدي بـ«أبو آبي»، بدلًا من يوسِف. سيد شلايم كان اسمًا رسميًّا جدًّا، في حين أن يوسِف كان اسمًا شعبيًّا جدًّا، لذا بدا «أبو آبي» كأنما قد التمسَ موقفًا وَسَطًا، وفقًا للعُرف العربي. يُكنَّى الرجال من العرب عادةً بأسماء أكبر أبنائهم من الذكور. في الماضي كانوا يُكنَّونَ باسم الابنة الأكبر سنًّا فقط في حالة عدم وجود ابن ذكر. في السنوات الأخيرة، على أية حال، حدث تغيُّر من جيل لآخر: لقد صارَ في وسع الرجال أن يُكنَّوا باسم الأبنة الأكبر سنًّا حتى في حال وجود ابن ذكر أصغر منها سنًّا. هذا مثالٌ صغير إلا إنه قويٌّ للتمييز ضد النساء في المجتمع اليهودي - العربي خلال القرن الفائت، وهو موضوع سأعود إليه.

حمل تراث الأسماء في عائلتي تاريخًا عريقًا ومتنوعًا، بل ومربكًا في بعض الأحيان، وذلك يعود إلى خلفية هويتنا المزدوجة بوصفنا يهودًا - عربًا. كانت بعض الأسماء عراقيةً - عربية غير أنها لم تكن إسلامية حصرًا، مثل مسعودة، سعيدة، صالح، حبيبة، موزلي وفؤاد. بعض

الأسماء كانت يهوديةً بوضوح مثل مائير، ميناشي، إيلياهو، عزرا، شاؤول وحسقيل. بعض الأسماء، مثل اسميْ شقيقتيَّ، ليديا وڤيلما، واسم خالي ألفريد، كانت خليطًا نموذجيًا لأسرة يهودية - عراقية تلقَّتْ تعليمًا في «الأليانس».

كان اسمي أبراهام أو آبي اختصارًا. سُميتُ به تيمُّنًا بجدِّي لأبي، الرجل الذي قتله اللُّصوص. وثيقة سجلِّي المدني تُظهر اسمي إبراهيم - اللفظ العربي لأبراهام. تاريخ الولادة هو ٣١ تشرين الأول/ أكتوبر من عام ١٩٤٥. اسم الأب «يوسِف» واسم الأُمِّ «مسعودة» بلا لقب. تقول الوثيقة تحت كلمة الدين «موسويٌّ»، وتعني بذلك عضو ينتمي إلى دين موسى. لماذا لم تقل الوثيقة «يهودي» ببساطة! هذا شيءٌ غير واضح بالنسبة إلي. على الشهادة يوجد طابع يحمل صورة الملك القاصر، فيصل الثاني، الذي كان في سن العاشرة وقتئذٍ.

أنا الابن الأوسط، وُلدتُ بين شقيقتين: ليديا، التي تكبرني بثمانية عشر شهرًا، وڤيلما، التي تصغرني بثلاثة أعوام. كانت الأجواء في منزلنا هادئة ومريحة، واللُّعب متناثرة في كل مكان. أكثر لعبتين مفضلتين لدي كانتا حصانًا خشبيًا يمكنني امتطاؤه، ومجموعة قطار مزوّد بمحركٍ يدوي تعلمت كيفية تجميعها وتشغيلها. انسجمنا جيدًا، أنا وشقيقتاي، وحظِينا بحُسنِ رعاية أبوينا، والأقارب السَّاكنين معنا، والمربِّيات والخادمات. لم يكنْ والدي أبًا غائبًا. تعوَّد أن يأتي إلى البيت يوميًا لتناول الغداء ونوم القيلولة، لذا كنا نراه كثيرًا. أمَّا أمُّنا فكانت سيدةٌ مرفهة: لم يكن لديها مهنة ولا عمل منزلي روتيني، لذا كان باستطاعتها أن تكرِّسَ

معظم وقتها للمساعي السارَّة. في سن الرابعة والعشرين كان لديها ثلاثة أطفال صغار، إلَّا إنها حظيتْ بمساعَدةٍ كبيرة بقدر ما تشاء في للعناية بهم. كانت أُمًّا جميلة، مفعمة بالحيوية وحنونة، وكثيرة الهزل. كان فارق العمر بين والديَّ لافتًا، لكنَّهما كانا صالحيْنِ بطريقتيهما المختلفتين، وقد عمِلا معًا كفريقٍ؛ بشكلٍ حسنٍ.

بقية سكان المنزل الكبير كانوا جميعًا من أقارب والدي، يسكنون جناحًا منفصلًا. أمه لولو، التي نناديها «يُمَّا»[1]، تقوم بمعظم الطهي وكانت تمدُّ يد العون على الدوام كلَّما كانت هنالك حاجةٌ لذلك. أمضتْ معظم ساعات نهارها في المطبخ، تجهز الفطور، والغداء والعشاء. أمَّا ابنتها روزا، شقيقة أبي الأكبر منه سنًّا، فهي المسؤولة عن الشُّؤون المنزلية. كانتْ قصيرة القامة، وغليظة البُنية، وذات شعر أسود ثخين وثمة فَرق في الوسط، تلبس سودَ الثيابِ دومًا. لم أعرف بالمأساة الكامنة وراء لباسها داكن اللون إلا بعد أن كبرتُ. كانت روزا في ربيعها السابع عشر يومَ تزوجت من رجل يهودي ووضعت طفلةً، بعد مضي سنة واحدة. جُنِّد زوجها في الخدمة العسكرية من قِبل الإمبراطورية العثمانية عقبَ نشوب الحرب العالمية الأولى. في ذلك الزمن كان عراق الوقت الحاضر يتألف من ثلاثة أقاليم عثمانية: كركوك، وبغداد والبصرة. ربَّما كلمة «جُنِّد» خطأ في التسمية لأنَّ الأتراك لم يكن لديهم عملية تجنيدٍ مُنتظمة، بيروقراطية، على الأقل ليس في هذا الجزء المتهالك من إمبراطوريتهم.

(١) يُمَّا: كلمةٌ من اللَّهجة العراقية الدراجة، وتعني «أُمَّاه»، وبها ينادي كثير من العراقيين أُمَّهاتهم. [المُترجم].

كانت الإمبراطورية في حالة حرب وكما هو معتاد، كانت بحاجة إلى قوات برية، فكان مجندوها يظهرون فجأة ويختطفون الشبان حرفيًا من الشوارع حيثما يجدونهم. كانت الظروف في الجيش العثماني رهيبةً: الطعام غير كافٍ والملابس غير مناسبة لأحوال الشتاء القاسية. من سوء حظ زوج العمة روزا، كان ممن التقطوهم في واحدةٍ من تلكَ الغارات؛ ولم يسمعوا عنه بعد ذلك. طفلته الصغيرة، راشيل، بالكاد عرفته. لم تتسلم روزا من السلطات التركية أي أخبار تتعلق بمصيره، لذا لم يكن لها من سبيل لمعرفة ما إذا كان حيًّا أم ميتًا. لقد قُتل، على الأرجح، في الحرب؛ ولكن ما من إبلاغ رسمي يؤكد ذلك. هذا يعني، وفقًا للشريعة اليهودية، أن روزا لن يسعها الزواج ثانيةً. ظلَّتْ طوال ما تبقَّى من حياتها، ترتدي السَّواد حِدادًا على زوجِها الذي افترِضَ موته. لقد تعيَّنَ عليها أن تربِّي ابنتها كونها كانت أُمًّا وحيدةً.

كانَ جميع خدم المنزل يرجعون لروزا[1]. وضعتْ معايير رفيعة، ويمكن القول إنها قاسية أيضًا، ولها سمعة بينهم بأنها مُراقِبة صارمة، وأي عاملة تنظيف لم ترقَ إلى مستوى توقعاتها العالية، تتلقى توبيخًا ويُعاد تكليفها بالتنظيف مرة أخرى. كانت روزا أُمًّا مخلصة لراشيل، طفلتها الوحيدة. سكنت راشيل معنا، ذهبت إلى المدرسة، غير أنها هي أيضًا كانت تُستدعى لتقديم المساعدة، خاصةً كنادلة في أثناء وجبات العشاء والحفلات. على غرار والدتها، لم تكن راشيل جذابة تمامًا. ولسوء حظها، كان من المتوقع في تلك الأيام أن يُدفع مهرًا أعلى من المعتاد من

(١) يقصدُ أنَّ روزا هي الآمرة الناهية. [المُترجم].

قِبَل عائلتها لجذب زوج لها. كان وسطاء الزواج يتولون عادةً هذه المسألة. بوسع الأقارب أن يلعبوا دورًا رئيسًا في اختيار شريكٍ لابنتهم، كما اكتشفتْ أمي من تجربتها السيئة. وبما أن راشيل لم يكن لها أب، تولّى والدي رعايتها في الواقع، وتكفَّل بإعطائها مهرًا قدره ألف دينار عراقيّ. الدينار في ذلك الزمن يساوي تقريبًا جنيهًا إسترلينيًا، أي لم يكن مبلغًا زهيدًا. ربما كانت راشيل قادرةً على أن تجد زوجًا من دون مهرٍ، غير أن المهرَ لن يُسبب لها الضرر.

كانت معاملة أبي لشقيقه الأصغر، إسحاق، أقل سخاءً بشكل ملحوظ مقارنةً بمعاملته لابنةِ شقيقتهِ. كان لقب إسحاق هو إسحاق الأعمى -إسحاق الأعمى بسبب عينيه الصغيرتين وقصر بصره؛ سحاق هو اللفظ اليهودي- العراقي لـ«إسحاق» و«أعمي» تعني أعمى بالعربية. لم يكن إسحاق صاحب ذكاء شديد، وكان والدي يعتبره ذمَّةً. وعادةً ما يغدو عصبيًا معه، بل كانَ يصفعه على وجهه أحيانًا. ولكي يتفادى اللِّقاءات الموجعة، لا يأتي إسحاق إلى البيت إلَّا عندما يكون أبي في العمل. وحتى وقتها لا يأتي من المدخل الرئيسي، بل يدلف عبر المرأب إلى المطبخ، حيث أُمُّه لولو وشقيقتُه روزا كانتا تطعمانه.

لم يكن تقسيم العمل بين عُمَّالِنا وخَدَمنا دقيقًا تمامًا. أحد الرجال، روبِن، أمين مخزن أبي ويتولى مسؤولية التسوُّق للأسرة كلِّها. رغم أنهْ ليس لأسرتنا سوى خمسة أفواه كي تُطعمها، فإنَّ هنالك أيضًا الأُسرة الممتدة والكوادر. كانت روزا مسؤولة عن المطبخ، لذا هي التي تُعطي التعليمات لروبِن بشأن الأشياء التي يشتريها. في الساعة الخامسة أو السادسة صباح

كل يوم، يذهب روبِن إلى سوق الشورجة، أقدم أسواق بغداد، الواقع في قلب المدينة. كانت السلع الطازجة متوفرة بكثرة، بما فيها الفاكهة والخضار، والبيض، والدجاج، واللحم، والسمك، ومنتجات الألبان مثل الحليب، والزبدة، والقشدة الحامضة، واللبن الرائب، والجبن المالح وأنواع عديدة أخرى من الجبن. وحين ينتهي من عملية التسوُّق، يُحمِّل روبن مشترياته على عربةٍ يجرها حصان، التاكسي المحلي، ويتوجه صوبَ بيتنا في البتَّاوين، الذي يبعد نحو كيلو متر واحد عن السوق. وبعد أن يُسلِّم ما تسوقه، يذهب إلى المخزن كي يبدأ عمله اليوميَّ. تُشترى الأشياء كلها، وتُطهى وتُستهلك في اليوم نفسهِ؛ وتُرمى البقايا بعيدًا.

البستانيُّ، وهو مسلم اسمه عبد، لا يرجع لروزا بل مباشرةً يتعامل مع سيدة المنزل. السبت هو يوم استراحته الوحيد. قطعة الأرض الأصلية التي بُني عليها منزلنا كانت تضم حديقةً أكثر من كافية ومجموعة من الأشجار الباسقة. لم يكن بجوار المنزل سوى نخلة عجوزة واحدة، لكنها أنتجت محصولًا وفيرًا من التمور الطريَّة واللذيذة للغاية. كان أفراد الأسرة والأصدقاء يتلقون رُزمًا من ذلك التمر وكانوا يُشيرون عادةً إلى أنهم يتذوقونه أكثر من الشوكولاته. تعودتُ، وأنا طفلٌ، أن أشاهدَ عبد -بمزيجٍ من الإعجاب والقلق- وهو يتسلَّقُ النَّخلة لكي يقطفَ المُتَعَ الأسطورية.

بعد زواج والديّ، سنحت لهما الفرصة لشراء قطعة أرض إضافية أكبر بكثير بجوار منزلنا. مَنحَ أبي لأمي الخيارَ بين ملعب تنس أو حديقة. اختارت أن تكونَ حديقةً. بستانيُّ المناظر الطبيعية أظهر مخطَّطًا لفضاء

متناغم ذي مرجٍ أعشاب، وأحواض زهور، وبستان ذي أشجار برتقال، وتين، ومشمش، وخوخ. كانت النتيجة حديقة غاية في الجمال، يعتني بها عبد بمحبَّة. واحدة من ذكرياتي العشوائية عن بغداد كانت الاستيقاظ ليلًا، والمشي إلى الشرفة ورؤية عدد كبير من الضيوف جالسين على المرج في الأسفل حول طاولات كبيرة مستديرة ومُحمَّلة بالطعام والشراب، كان النُدُل يركضون ذهابًا وإيابًا مع الصواني وثمة فرقة موسيقية تعزف في الخلفيةِ.

تم الاستعانة بمربيات ذوات خبرة، قد تم اختيارهن بعناية فائقة، ليتولين مهمة العناية بالأطفال في حياتهم اليومية، بدءًا من الاستحمام وحتى الاطعام. كانت مارسيل هي المربية الرئيسة، وهي ابنة روبِن، أمين المخزن. كانا من أسرة يهودية - كردية فقيرة من الموصل شمالي العراق. كانت مارسيل شابة طويلة القامة، وشقراء وأنيقة. بعض العائلات اليهودية الغنية تشغِّل مربيات أرمنيات، تلازمهن شهرةٌ معينة: كن مِهنيات، يُطالبن بأجور مرتفعة، ومعروفات بأزيائهن النظامية البِيضاء. المُربِّيات الأرمنيات يتمتعن بسمعةٍ طيبة بين الطَّوائف كلِّها، غير أنهن مسيحيات. شعرَ اليهود الأثرياء بالحيرة بشأن تشغيل المسيحيات في بيوتهم، وكانوا يبحثون عن المربيات اليهوديات اللواتي يجئن عادةً من الموصل أو كركوك. أمي، التي كانت تهتم بالمكانة الاجتماعية كثيرًا، أرادت أن يكون لدينا مربية أرمنية؛ ورفض أبي ذلك. كان بوسعه تحمُّل أجور مربية أرمنية بسهولة، لكنَّه آثرَ المُربِّيات اليهوديات، ووجد مارسيل مثاليةً لهذه المهمة.

ذات يوم، وتحت أنظار مارسيل، هويتُ من كرسيَّ المرتفع[1] وارتطم رأسي بالأرضية الحجرية. كان القصد أن آكل الطعام غير أني فجأةً وقفتُ على الكرسي وانقلبتُ. سمع والداي صوت الارتطام القوي وصرخاتي المرتفعة فأسرعا إلى الغرفة مذعورينِ. استحوذَ الغضبُ على أبي وصفع مارسيل بقوة على وجهها، صائحًا «عَمية؟» - أأنتِ عمياء؟ «أنتِ واقفةٌ بجانبه. كيف تَدَعين شيئًا كهذا يحصل؟ أُخرجي من هنا! لا نُريدكِ في هذا البيت!». ثم خمد غضبه مَّا تبيَّنَ لأبي أن السقوط لم يُسبب لي أذًى خطيرًا. كانت أمي غاضبةً جدًا منه لأنه ضرب الفتاة المسكينة. وفي النهاية وافق على السَّماح لمارسيل بالبقاء غير أنها باتت تتصرف بحذر شديد والجو في البيت ظل متوترًا لبعض الوقت بعد الحادثة.

كانت طبيعة والدتي متفائلة بشكل كبير. أما تفسيرها للحادثة، بعد سنوات عديدة، فكان أن السقوط لم يسبب أي ضرر بل ربما كان له بعض الفائدة بفتح وتوسيع عقلي. ربما، ظنّت أنني بسبب تلك الحادثة أصبحت شديد الذكاء! كانت أمي مهووسة بفكرة تنمية ذكائي، فاعتقدت أنَّ قشورَ الفستق الغنية بالفيتامين ضروريةٌ لنموي العقلي وهي الحل السحري، لذلك كانت تغدقني بها بكميات كبيرة. شقيقاتي لم يحظين بنفس المعاملة، ربما لأنها كانت تعتقد أن الفتيات لا يحتجن إلى أن يكن ذكيات.

هذا التَّمييز عكسَ شكلًا أوسع من التمييز ضد النساء في المجتمع العربي المعاصر. بفجاجة مطلقة، كانت ولادة الذكور تُستقبل بفرح كبير

(١) يقصد كرسي مائدة مخصص للأطفال، ليتمكنوا من تناول الطعام مع الكبار. [المُترجم].

على أنها بشرى سارة، بينما كانت ولادة الإناث تُنظر إليها على أنها نقمة أو حتى لعنة. الصبيان يكبرون كي يُصبحوا رجالًا، يذهبون إلى العمل، يكسبون المال ويساعدون في إعالة الأسرة. الفتيات، من ناحية أخرى، شكّلن عبئًا ماليًا وقتذاك. كما يُمكن أن يكنَّ عبئًا اجتماعيًا، إذا ما أقمن علاقة جنسية قبل الزواج على سبيل المثال، فإنهن يجلبن العار للأسرة - في حين لا يفعل الصبيان ذلك. وبالنتيجة، من الشائع بالنسبة للأبوين أن يرغبا في تزويج البنات في أقرب فرصة مناسبةٍ. التوقع المألوف للفتيات أن يُكملن دراستهن، يتزوجنَ وينجبن الأطفال. لا شيءَ من هذا بالطبع يناقض الحقيقة التي مفادها أنَّ أسرتي، شأنها شأن معظم الأُسر الأخرى، تضمُّ في عِدادها نسوةً أقوياء جدًا. بعضهن كُنَّ، بصورةٍ مُحزِنة، الأشدَّ تمييزًا بين الجنسين.

إلى جانب هذه العادات العامة، كانت لظروف عائلتي خصوصيتها. كُنتُ الولد الوحيد في العائلة، ونلتُ من الاهتمام أكثر بكثير من نصيبي المُستحق. لم يكن والداي فقط من عاملاني مُعاملة تفضيلية، بل أيضًا جدتاي وعماتي والخدم، وبدرجة أقل، المُربيات. كنت محاطًا بالكثير من النساء اللواتي غمرنني بالحب والدلال طوال الوقت. شقيقتايَ أيضًا تلقتا الحب والحنان؛ إنما ليس بالدرجة نفسها مثلي. كان من غير الطبيعي ألا تشعرا بغصّة غيرةٍ عرضية بسبب المعاملة التفضيلية التي حظيت بها.

بعض الإشارات لم تكن دقيقةً جدًا. تعودتْ «يُمّا» أن تقول لليديا وفيلما: «أبي هو العسل وأنتما قشور البصل!». حينَ كبرتُ، فقط، بدأتُ ألمس التأثيرات الضَّارة بعمق، تلك التي سبَّبتها مواقفُ كهذه على

شقيقتيَّ في ما يتعلَّق بالثقة بالنفس واحترام الذات. دفاعي الوحيد أنني في ذلك الوقت لم أكن أدرك الطرق التي تعمل بها ديناميكية عائلتنا لصالحي أنا، وعلى حساب إلحاق الضرر بليديا وڤيلما على المدى الطويل.

عشتُ شعورًا دائمًا بالذنب، تجاه شقيقتيَّ، آنَ كتابةِ هذا الفصل، فرض عليَّ أن ألحَّ على أمي بشأنِ موضوع التحيُّز؛ هناك في بغداد. رفضتْ بشدة الإيحاء بأن شقيقتيَّ تملكان أي مبررٍ كي تحسَّا بالحُزنِ. في المقام الأول، قالتْ، ڤيلما كانت يافعة للغاية لتلاحظَ أيًّا من هذه الأشياء. ولم تشعرْ ليديا في ذلك الحين أنها لم تنلْ حقَّها. على العكس، كانت مدللةً، أثارتْ ضجَّةً قبلها وبعدها. وحدَها «يُمَّا» كانت تسميها «قشور البصل» حين تكون سيئة السُّلوك أو حين تضربني. احتجاجات ليديا على الطريقة التي تُعامَل بها بدأت فقط بعد رحيلنا إلى إسرائيل، بحسب ما أفادت أمي. ويُعزى السبب إلى التغيير، ففي إسرائيل لم يكن لدينا خدم ويُتوقع من ليديا أن تساعدَ في العمل المنزلي الروتيني.

أمي أيضًا كانت مُدللةً في بغداد. اليوم المثالي في حياتها كان يبدأ بفطور فاخر وثقيل يتألف من خبز مفرود، وبيض مسلوق جيدًا، وباذنجان مقلي، وطحينية «راشي»، وسَلَطة، وجبن، وللتحلية قيمر مع دبس التمر. عدد من صديقاتها يأتينَ إلى بيتنا، بعد الفطور، كي يلعبنَ الورق بينما يكون أزواجهنَّ في العمل. في نحو الساعة الحادية عشرة يأخذن استراحة قهوة تتكون من شيء أكثر بكثير من القهوة وحدها. إنَّها أشبه بما يسميه الأطفال الإنكليز باللغة العامية «إليڤنسيز». تُقدَّم للسيدات الفطائر المحشوَّة بالجبن، والخضار المقلية، وكروكيت الدجاج، والكيك. أمَّا الغداءُ فيقدَّمُ

لسائر أعضاء الأسرة في نحو الساعة الثانية ظهرًا، بعد عودة أبي من العمل. كان الغداء قضية جوهرية للغاية، حيثُ قُدِّمَتْ فيهِ تشكيلة كبيرة من أطباق السَّمك، اللَّحم والخضار غير أنَّ الطعام الأساسي هو الدجاج والأرز. هناك عادةً طبق واحد من الحلاوة الحامضة وشيء من حلوى البودنج. تُقُدَّمَ جميع أطباق الطعام على المائدة قبل بدء الوجبة كما جرت العادة في الشَّرق الأوسط. بعد الغداء، ينزل والدانا إلى السرداب البارد كي يناما القيلولة. زُوِّدَ السرداب بنوع بدائي من مكيفاتِ الهواء: وهي نباتات متسلقة على إطار خشبي خفيف تُرشُّ بالماء بين الفينة والأخرى. تحوّل النباتات الرياح الدافئة إلى نسيم بارد معتدل العبير. كان والديّ يخرجان من السرداب بعد ساعة أو ساعتين لتناول الشاي، والقهوة، والفواكه الطازجة مرة أخرى. لا يعود والدي إلى العمل بعد الظهر: عادة ما كان الموظفون الذين يعملون لديه هم من يقومون بكافة أعماله نيابة عنه.

صيفًا، تكون لنا نزهات عائلية متكررة على نهر دجلة، تنتهي في ساحل جزيرة كبيرة، «الجزرة»[١]، عند منعطف قريب من منطقة الكرَّادة. على الضفة الأخرى للنهر، تقع الغويرية منطقة شهيرة أخرى للسباحة والتنزه. على غرار كثير من أصدقائنا وأقاربنا الأثرياء، كنا ننصب خيمةً كبيرة هناك ونُبقيها طوال فصل الصيف. حتى الخال جوزيف، الذي كانت فيلته بالكرَّادة على ضفة النهر، ينصب بدوره خيمةً كبيرةً. كما يمتلك زورقَ تجذيف ويستخدم مُجذِّفًا «بَلَمچي»[٢]، وهو شيخٌ مسلم

(١) المقصود، على الأرجح: جزيرة أم الخنازير قُبالة الجادرية. [المُترجم].

(٢) بلمچي: يُسمى الزورق بالعراقية الدَّارجة بـ«البَلَمْ». والبلمچي هنا تعني سائق الزورق. [المُترجم].

يُدعى عامر، كان على أهبة الاستعداد دائمًا لنقل أي فرد من الأسرة الكبيرة إلى أي مكان يودون الذهاب إليه. اعتدنا أن نَصطحب أعمام أمي الآخرين وعائلاتهم في هذه الرحلات الترفيهية، وفي بعض الأحيان ينضم إلينا حسقيل شمبتوب، رئيس الطائفة اليهودية، الذي سأتطرق إليه لاحقًا حين أتطرق إلى هجرة اليهود من العراق. يسبح الكبار حول الجزيرة، ووالدتي، التي كانت من بين الأكثر نشاطًا بينهم، كانت تسبح نحو الجزيرة أيضًا بجوار المركب. في وسط النهر، كانت هناك جزيرة مغطاة بنباتات كثيفة، وكانت ملاذًا مثاليًا للترفيه للناس من جميع الأعمار ومستويات اللياقة البدنية. كنا، نحن الأطفال يومذاك، صغارًا كي نسبح في النهر، فكان يُسمح لنا بالتجذيف واللَّعب في المياه الضحلة.

النُّزهة هي أجمل ما في الأمر. أسلوب الطهي اليهودي - العراقي مشهور في جميع أنحاء الشرق الأوسط بسبب تنوعه وأطباقه ذات الطعم الممتاز. واحدة من وجباته المميزة جدًّا «السمك المسگوف»، السمك النهري المشوي على الطريقة العراقية. يشتري سائق زورقنا، عامر، سمكةَ شَبُّوط ضخمة حية، من صيَّاد سمك على ضفة النهر، ثم يربطها بالزورق، ويسحبها في الماء إلى الجزيرة. كان عامر يُوقد النَّار، ويُشْرِطُ السمكة بسكينته الحادة، ثم يضع عليها الملح، والكاري ذو الرائحة الفوَّاحة، والبصل والطماطم. بعد ذلك، يُثَبِّتُها على أسياخ بشكلٍ مُتوازٍ فوق جمرات النار. وعندما تنضجُ السمكة، يتناولها المتنزهون بأيديهم وهم جالسون على فرشٍ بجوار النهر. لم يكن هذا «السمك المسگوف» البدائي هو تُحفة الطبخ فحسب، بل كان لذة الطعام التي تُعززها رائحة الحطب.

بالنسبة للبالغين فالنُّزهة تعقبها غالبًا تسليةٌ من نوع آخر. يلتقي الكبار، بعد أن ينام أطفالهم، في واحدٍ من بيوتهم كي يلعبوا الورق. تنتظرهم وجبةُ طعام أخرى تأخذ شكل وليمة منتصف الليل. «البوكر» هي اللُّعبة الأكثر شعبية – وليس بالأمر الغريب بالنسبة إليهم أن يواصلوا ممارسة هذه اللعبة حتى الثانية أو الثالثة صباحًا. لم يهتم أحد مطلقًا في السَّائقين الذين يتعين عليهم أن ينتظروا إلى أن يكون سادتُهم مستعدين للعودةِ إلى بيوتهم. بعد أن فارقتْ أمي الحياة، وجدتُ في أوراقها يوميات بحجم الجيب، تعود للعام ١٩٤٧، فيها تدوينات واقعية قصيرة، كلُّها بالفرنسية، بحروفٍ صغيرة جدًّا وخطِّ يدٍ أنيقٍ جدًّا. إنه لشيءٌ لافت أن نرى كم مرة أُبرِزت ألعاب الورق في التقويم الاجتماعي المزدحم لأبويَّ. في اليوميات لم يُشَر إليه بوصفه «يوسِف» بل بوصفه «جوزيف» وكلُّ تدوين يسجل كم عدد الدنانير التي ربحها أو خسرها هو أو ربحتها أو خسرتها هي في اللعبة.

معظم أصدقاء أبي وصديقات أمي من اليهود، لكنهم أيضًا كان لديهم أصدقاء مقرَّبون وصديقات مقرَّبات من غير اليهود. أحدهم جمال بابان، المحامي والسياسي الكردي الذي شغل منصب وزير للعدل في عدد من التشكيلات الوزارية خلال أربعينيات القرن العشرين. تعوَّد هو وزوجته أن يأتيا إلى بيتنا كي يلعبا الورق وكانا، بالمثل، يدعوانِ أبويَّ إلى بيتهما. استمرتْ جلسات لعب الورق هذه حتى ساعات الصباح الأولى. يصرُّ جمال بابان حين يُضيِّفهما، على إعادةِ ضيوفه إلى بيوتهم بسيارته، كعلامة من علامات الاحترام والوعد الضمني بالحماية. بشكلٍ متفاخر

نوعًا ما، يُخرج مسدسه ويأخذه معه أثناء الرحلة كي يُظهِرَ استعداده لكلِّ الاحتمالات. اعتقدَ والداي أن المسدسَ غيرُ ضروري، وبابان يحمله للتَّأثير في الآخرين، لكنَّ هذا لا يقلِّل من الاحترام والمحبة التي يضمرانهما له. كانا يقولان إنَّ الصديق في وقت الضِّيق هو الصديق الحقيقي؛ وفي ساعة شدَّتِهما، كان بابان يودُّ أن يبرهن على أنه صديقٌ حقيقي. كانت تجمعها علاقة صداقة مع والدتي وكانت تأتي أحيانًا لتزورنا بصُحبة أولادها حين يخرج الزوجانِ إلى العمل.

الأندية مظهرٌ آخر من مظاهر حياتنا الاجتماعية. كانت هنالك سبعة أو ثمانية أندية يهودية في بغداد. كان المجتمع اليهودي تسلسليًا طبقيًا إلى حد ما، وثمّة نوادٍ مختلفة تلبي احتياجات الطبقات الاجتماعية المختلفة. النَّادي المميَّز جدًّا «الزَّوراء»؛ يليه «الرشيد». الثروة والمنزلة الاجتماعية هما المعياران الأهم في الحصول على العضوية. الثراءِ وحده لم يكن كافيًا؛ إذ رُفض بعضُ الأغنياء لسوءِ أخلاقهم. لكلِّ عضوٍ في النادي صوتٌ وبوسعه استخدام حقَّ النقض ضدَّ المتقدم الذي لا يروق له. حصل والداي على عضويةٍ في أرقى النوادي واستمتعا في ارتيادها. كان ناديهم المفضل «الزوراء»، حيثُ الأجواء ودية وترحيبية، ويقدمُ النُدل عشاء الشواء على العشب، وهم يرتدون زيًا موحدًا وأنيقًا. عندما لم يكن الضيوف يتناولون الطعام، كان بإمكانهم لعب الطاولة أو ألعاب الورق، أو مجرد التجوّل والدردشة مع الأصدقاء. كان الأطفال الصغار محل ترحيب كبير في النادي، وخصّصت منطقةٌ لهم. كانت المربيات يعتنين بالأطفال ويدفعن الرضع في عرباتهم. كانت رؤية المربِّيات الأرمنيات، بملابسهن البِيضاء الأنيقة؛ من المظاهر المألوفة.

بمعدل مرة في الأسبوع، كان يتم دعوة فرقة من الموسيقيين اليهود لتسلية أولئك الذين يرتادون النادي من أبناء الديانة اليهودية. ميَّزَ كثيرٌ من اليَهود أنفسهم كملحنين، وكُتَّاب أغانٍ، ومغنين، وعازفين على الآلات الموسيقية التقليدية. كانوا بارعين تحديدًا في «المقام»، وهو نظام مشروط يُستخدم في الموسيقى العربية الكلاسيكية؛ كلمة «مقام» بالعربية تعني المكان، الموضع أو الموقع. كما أن «المقام» هو جزء من الثقافة اليهودية -السفاردية- يستخدمه اليهود في طقوس صلواتهم الأسبوعية والأيام المقدسة في الكُنُس. برع اليهود في الموسيقى العربية التقليدية، ونتيجة لذلك كانوا مطلوبين بشدة في الأماكن اليهودية وغير اليهودية. عملت الموسيقى كجسر بين اليهود والمسلمين، متجاوزة هوياتهم المنفصلة ومؤكدة على الثقافة الإنسانية المشتركة[١].

كانت والدتي تعشق الموسيقى العربية الشعبية والسفر. رعتْ، منذ عمر مبكّرٍ، طموحًا بالسفر إلى الخارج واستكشاف العالَم. طُلب منهنَّ ذات مرة في المدرسة، هي وزميلاتها في الصف، أن يكتبن مقالةً يوجزنَ فيها ما يرغبنَ بفعلهِ حين يكبرن، وما هي أسباب اختيارهنَّ لذلك. كتبت سعيدة أنها تُريد أن تكون مضيفة طائرة أو بدلًا من ذلك تكون امرأة ثرية باستطاعتها أن تتحمل نفقات السفر دون عون من أحد. الثراءُ الذي نالته من زواجها من رجلٍ غنيٍّ مكّنها من السفر، دون قيودٍ أو مسؤولياتٍ رعايةٍ للأطفال، بفضلِ المُربياتِ اللاتي اعتنين بهم.

تصاحب سعيدة أُمَّها في الرحلات إلى خارج العراق. في إحدى رحلاتهن، توجهت الأم وابنتها إلى مصر، حيث قضتا عدة أيام في لفندق

سيسيل الشهير بالإسكندرية. ومن هناك بعثت سعيدة بطاقةً بريدية إلى أبي، مؤرخة في ١٢ آب/ أغسطس ١٩٤٧. بما أن البطاقة البريدية هي المراسلة الوحيدة التي أملكها بين والديّ، فقد يكون من الجدير اقتباسها كاملة:

«عزيزي يوسِف.

نحن الآن في الإسكندرية، مستمتعون جدًّا. لا يسعني أن أتخيَّل مكانًا أجمل أو أكثر إمتاعًا من هذا. نقيمُ في فندق سيسيل، وهو الفندق الذي كنا نقرأ عنه دومًا في الجرائد. جميع الوزراء يسكنون هنا. أعطونا غرفة جميلة جدًا، لا سيما الإطلالة. إنها مُذهلة: البحر في أحد الجانبين ومتنزه زغلول في الجانب الآخر. أنا راضيةٌ ومستمتعةٌ به جدًا. أسبح في البحر والشواطئ فائقة الجمال. البارحة ذهبنا إلى فندق (أوبيرش بلو) ومن ثم إلى عرضٍ يؤديه ممثلون مصريون».

كانت سعيدة في الثالثة والعشرين من عمرها، وكانت آية في الجمال. ذات مساء، ذهبَت ووالدتها إلى ملهى ليلي راقٍ يُسمى «سون سوسي». كان من المدهش رؤية الملك فاروق هناك أيضًا. كان لفاروق سمعة أنه زير النساء، ولديه سلسلة طويلة من العلاقات العاطفية المعروفة على نطاق واسع. (سوف يُطاح به لاحقًا في ثورة الضبَّاط الأحرار عام ١٩٥٢). اقترب أحد أفراد حاشية الملك في «سون سوسي» من سعيدة، وخاطبها بالفرنسية. قال إن شخصيةً مهمة تريد أن تلتقي بها لكن من الأفضل ألا يكون اللقاء في النادي. هل ترغب بالذهاب معهم

إلى القصر؟ ردَّت سعيدة بالفرنسية أنها ترغب بذلك لكنَّ زوجها على وشك أن يحضرَ لاصطحابهما. من ثم التفتت إلى أمها وقالت لها إنه يتعين عليهما أن تغادرا النادي على الفور. شعرت الأم بالاستغراب، خاصةً بعد شراء تذاكر باهظة الثمن واستقرارهما للتو لقضاء أمسية ممتعة، فسألتها عن سبب الاستعجال. خشية أن تعلمها بالحقيقة، ولأنها لا تريد أن تكشف لها بأن الملك الفاسق وقعت عيناه عليها، اختلقت سعيدة عذرًا بأنها تعاني من ألم حادّ في معدتها. استقلتا سيارة أجرة وعادتا إلى فندق سيسيل. في اليوم التالي، سافرتا جواً إلى القاهرة ومنها عادتا إلى بغداد. لقد نجت سعيدة بأعجوبة.

على الجبهة الجغرافية - السياسية الأكبر، كانت سنة ١٩٤٧ زاخرةً بالأحداث، وهي السَّنة التي وصل فيها الكفاح من أجل فلسطين مرحلةً حاسمة. خطوط المعركة كانت مرسومةً بوضوح بين الصهاينة وأنصارهم الدوليين من جهة والفلسطينيين وحلفائهم العرب من جهة أخرى. «الصهيونية المقاتِلة» كما كانت تُسمى غالبًا، من أقسى أنواع الصهيونية، وقد شُكِّلتْ أثناء الحرب العالمية الثانية، حيث باتَ التعهد بإنشاء دولة يهودية أعمق، وأكثر استماتة في ظل المحرقة النازية. كان وضعُ أقليَّةٍ في ظل الحُكم العربي أفضل قليلًا من الحُكم بالإعدام على الطَّائفة اليهودية في فلسطين، وللناجين ممَّا عُرفَ بـ«الحل النهائي» النَّازي. قرر القادة الصهاينة أن يمضوا قُدُمًا في إقامة الدولة من خلال الوسائل الدبلوماسية إن أمكن، ومن خلال القوة العسكرية إن كان ذلك ضروريًّا. بعد فشلها المتكرر في إيجاد حل سلمي للصراع بين اليهود والعرب في فلسطين، ألقت بريطانيا

بهذه القضية الشائكة على عاتق منظمة الأمم المتحدة الوليدة، خليفة عصبة الأمم. في شباط/ فبراير من عام ١٩٤٧ أعطت بريطانيا إشعارًا رسميًّا بنيَّتها إنهاء الانتداب في ١٥ أيار/ مايو ١٩٤٨، وفي ٢٩ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٤٧، صوَّتتْ الجمعية العمومية التابعة للأمم المتحدة لصالح تقسيم فلسطين المُنتدَبة إلى دولتين: إحداهما عربية، والأخرى يهودية.

أرسلَ المجلس العام للطَّائفة اليهودية - العراقية برقيةً إلى الأمم المتحدة يُعارض فيها حلَّ التقسيم وخلق دولة يهودية. كما هي الحال مع أسرتي، رأى أغلبية يهود العراق أنفسهم بوصفهم عراقيين أولًا ويهودًا ثانيًا؛ وكانوا يخشون من أن خلق دولةٍ يهودية سوف يقوِّض مكانتهم في العراق. لقد نُظِرَ لخطة التقسيم، في سائر أرجاء العالم العربي والإسلامي، باعتبارها ظُلمًا قاتلًا بحقِّ الفلسطينيين؛ واعتُبِرتْ الطَّوائف اليهودية المحلية مسؤولةً عن هذا الظلم ولو جزئيًّا. انهارَ التمييزُ بين اليهود والصهاينة بسرعةٍ، وهو شيءٌ حاسم جدًا بالنسبة للانسجام بين الأديان في العالم العربي.

رحَّبَ يهود فلسطين بقرار التقسيم الصادر عن الأمم المتحدة بالابتهاج والفرح؛ بينما رفضته الدول العربية، المنتظمة بشكل هشٍ في جامعة الدول العربية، باعتباره غيرَ عادل، وغيرَ قانونيٍّ وغيرَ عمليٍّ وأعلنتِ الحربَ بهدفِ إحباطه. انقسمت الحربُ من أجلِ فلسطين إلى مرحلتينِ: غير رسمية ورسمية. المرحلة غير الرسمية دارتْ بين الطَّائفتين في فلسطين واستمرت من الأول من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٧ حتى الرابع عشر من أيار/ مايو ١٩٤٨. انتهتْ بنصرٍ يهودي وإعلان قيام دولة

إسرائيل في منتصف الليل. هلك القسم الأعظم من المجتمع الفلسطيني، إبان المرحلة الأولى من الحرب، وانطلقت الموجة الأولى من اللاجئين. في صباح اليوم الذي أعقب قيام دولة إسرائيل، اجتاحت الجيوشُ النظامية التابعة لسبع دول عربية فلسطينَ، على أمل إحباط قرار التقسيم والحفاظ على فلسطين بأسرها في أيدي العرب. استمرّ القتالُ، في هذه المرحلة الرسمية من الحرب، لثلاث جولات حتى السابع من كانون الثاني/ يناير ١٩٤٩ وانتهى بنصرٍ يهوديٍّ وهزيمةٍ عربيةٍ شاملة.

خلالَ الحرب، مدَّدَ اليهود أرض دولتهم من الـ٥٥٪ المخصصة لهم من قبل راسمي الخرائط التابعين للأمم المتحدة إلى ٧٨٪ من مساحة فلسطين المُنتَدبة. كان الأردنُّ قد استولى على الضفة الغربية وألحقها بأراضيه؛ بينما خضعَ قطاعُ غزَّة للحكومة العسكرية المصرية. أصبحَ ٧٥٠ ألفًا من الفلسطينيين، أي أكثر من نصف السكان العرب، لاجئينَ ومُحِيَ اسمُ فلسطين من الخريطة. بالنسبة للإسرائيليين تلك كانت «حرب الاستقلال»؛ أما بالنسبة للفلسطينيين فهي «النكبة».

وقَّعتْ دول الطوق العربية المجاورة - سوريا، لبنان، والأردن ومصر- اتفاقياتِ هدنة مع إسرائيل حين أشرفت المواجهات على النهاية. سحبَ العراقُ جيشَه من جبهة فلسطين دون توقيع اتفاق هدنة وظلَّ رسميًا، نتيجةً لذلك، في حالة حرب مع إسرائيل منذ ذلك الحين. رفضَ توقيع اتفاق هدنة مع «دولة العصابة» هو أمرٌ يعتبرهُ القادةُ العراقيون وسامَ شرفٍ. كسبتِ العائلةُ المَلَكية العراقية هيبةً لا حدود لها بإرسال الجيش العراقي لإنقاذ الفلسطينيين. في الماضي كان يُنظر إليها

بوصفها دُمية بأيدي البريطانيين؛ الآنَ صار يُنظر إليها كونها تخدم قضية القومية العربية.

ثمة تأثيرٌ آخر لمشاركة العراق في الحرب من أجل فلسطين، ألا وهو تأجيج التوتر بين المسلمين واليهود في الداخل العراقي. سواء تعاطفوا أو لم يتعاطفوا مع الصهيونية، شَكَّك عامة الناس باليهود العراقيين على نطاق واسع؛ كونهم أنصارًا سريين لدولة إسرائيل. اكتسحتْ موجةٌ شعبيةٌ فعَّالة من العداء ضد إسرائيل واليهود في العالم العربي بأعقاب ضياع فلسطين، ولم يكن العراقُ استثناءً في هذا الشأن. جاب المتظاهرون شوارع بغداد، هاتفين «الموت لليهود». بدأت حملةٌ لجمع المال «لإنقاذ فلسطين من اليهود» ودَعَتْ الصحف لمقاطعة المتاجر اليهودية من أجل تحرير العراقيين من «العبودية الاقتصادية والهيمنة التي فرضتها الأقلية اليهودية». كما بيَّنَ وصول ثمانية آلاف لاجئ فلسطيني إلى العراق، في صيف العام ١٩٤٨، فداحةَ الثمنَ الإنساني لخسارة المعركة.

كان الاندحار في فلسطين إذلالًا قوميًّا أحسَّه العراقيون بعمق. كي يصرفوا الانتباه عن مسؤوليتهم المتعلقة بأداء العراق العسكري، بحث قادته عن كبش فداء، ووجدوا في اليهود المقيمين بينهم هدفًا مناسبًا. ببساطة، لم تتجاوب الحكومة مع الغضب الشعبيّ، بل استفزَّت بنشاطٍ الهستيريا الشعبية والشك ضد اليهود. قادتِ الحكومةُ حملة التحريض مستخدمةً النزعة القومية كأداة فجة، ولكن فعالة، معلنةً أن اليهودَ دخلاء، وخونةٌ وطابورٌ خامسٌ خطير. في هذه النقطة تحديدًا بدأت المضايقة الرسمية لليهود. مُرِّرَ قانونٌ في تموز/ يوليو من عام ١٩٤٨، يجرِّمُ

الصِّهيونية ويُعاقب عليها بالموت أو بالسجن مدةً لا تقلُّ عن سبعة أعوام. طُرِدَ الموظفون اليهود من وظائفهم الحكومية، وصُرِفَ المستخدمون اليهود من السكك الحديد، ودائرة البريد، وقسم البرقيات؛ ظاهريًا بغية منعهم من ممارسة أعمال «التخريب والخيانة». كما جُرِّدَ التُّجار اليهود من رُخَصِ الاستيراد والتصدير، ووضعتْ قيودٌ على حرية البنوك اليهودية في الاتجار بالعملة الأجنبية.

صعقتْ محاكمة شفيق عدس في أيلول/ سبتمبر ١٩٤٨ الطَّائفة اليهودية. كان عدس أغنى يهوديٍّ في العراق، ذا ارتباطات وثيقة مع شخصيات من أرفع المستويات، بمَن فيهم الوصي، عبد الإله. بعد مُحاكمة صورية استمرتْ لثلاثة أيام، أُدين عدس بتُهم كاذبة تتعلق ببيع أسلحة إلى إسرائيل، ودعم الحزب الشُّيوعي العراقي. ترأسَ القاضي عبد الله الناصري جلسةَ المحكمة العسكرية، وهو عضو في حزبِ الاستقلال الوطنيِّ، المناهض لليهود والمناصر للنازية. لم يحضر إلى المحكمة جمهورٌ موثوقٌ به، ولم يُسمح للشهود بالظهور، وحُرِم المُدعى عليه من حقه في الدفاع المناسب. حُكِم عليه بعقوبة الموت شنقًا ودفع غرامة مقدارها خمسة ملايين دينار عراقي؛ أما بقية أملاكه فقد استولت عليها وزارة الدفاع. أُدين عدس في وسائل الإعلام بشكل مختلف، واعتُبِرَ ثعبانًا، وخائنًا، وجاسوسًا، وصهيونيًّا، ويهوديًا. في رأي موشي غات، وهو باحث إسرائيلي متخصص بالإرث العراقي، «كان واضحًا أن محاكمة عدس مُفبرَكة، حيث كان هو كبش فداء هزيمة العراق في الحرب مع إسرائيل؛ ووسيلة الثأر من الطَّائفة اليهودية عبرَ الهجوم على واحدٍ من أبرز أفرادها[٢]». أطلقَ سقوط عدس أجراس الإنذار لدى الطَّائفة

اليهودية، خاصة أنه لم يكن صهيونيًّا. فإذا كان رجلٌ قويٌّ كهذا يُعاملُ بطريقة تعسُّفية كهذه، فما هي فرص حماية اليهود الذين لهم ارتباطاتٌ أضعف؟ بعضهم هربَ سرًّا إلى إيران، ومن هناك واصلوا رحلتهم صوب إسرائيل.

عانت عائلتي بشكل مباشر من تصاعد الغضب ضد اليهود على المستويين الشعبي والرسمي. مثَّلتْ الحرب من أجل فلسطين نقطة انعطاف رئيسية نحو الأسوأ فيما يتعلق بالعلاقات بين المسلمين واليهود. كما ترى والدتي أنّ ولادة إسرائيل نقطة محورية في أزمة يهود العراق. حين خُلِقت إسرائيل، إذا ما استعملتُ تعبيرها، «انقلبَ كلُّ شيءٍ رأسًا على عقب. هنا بدأت المشكلة. كان هنالك استفزاز واضطهاد. لقد عانينا كثيرًا». أُعلِنت الأحكام العُرفية، وفُرِضت رقابةٌ شديدة على وسائل الإعلام وأُلقيَ القبض على عددٍ مُرعِبٍ من اليهود. فتحَ الرقيبُ العسكريُّ رسائلَ كتبها يهودٌ بحثًا عن دليلٍ مُجرِّم. استدعت الشرطة بعض اليهود من أجل التحقيق مع أضعف دليل على وجود ارتباط ما بإسرائيل، وفي بعض الأحيان بلا أي دليل على الإطلاق. أصرَّت الشرطة على التُهم في المحاكم العسكرية ضد اليهود، كونهم يؤيدون الصهيونية، ولم تُحجِم عن فبركة الأدلَّة. في بعض الدعاوى، استخدمت الشرطة التهديد بالمحاكمة كوسيلةً لابتزاز المال. لقد أُدِينَ اليهود، في الدعاوى الأخرى التي وصلتْ إلى المرافعة في المحاكم، بالسجن لفترات زمنية متباينة بحسب مخالَفاتهم المزعومة. لا يوجد استئناف ضد قرار المحكمة العسكرية.

في واحدةٍ من المناسبات، بعد أن فتحَ الرقيب رسائلهم، استدعى مخفر الشرطة المحلية سعيدة وأمها موزلي بسبب الشك في تأييدهما للصِّهيونية. في الرسائل إلى شقيق سعيدة الأكبر منها سنًا والمقيم في لندن، إسحاق، أشارتا إلى (سالمِ صندوق)، وهو الاسم المشفَّر لدولة إسرائيل التي تأسست حديثًا. سالمِ صندوق شخص حقيقي، وهو أحد أقاربهم ممَّن غادروا العراق بطريقة غير مشروعة إلى إيران، ومنها مضى للإقامة في إسرائيل. فُرِّقتْ سعيدة، في مخفر الشرطة، عن أمِّها موزلي، إذْ أُخذِتْ أولًا لتقابل ضابط الشرطة. «مَن هو سالمِ صندوق؟» سألها. ارتجلت سعيدة في الحال وردّت بأنه رجل بدين يظل جائعًا طوال الوقت مهما أكل. عندما غادرت الحجرة، أُدخلت موزلي وتمكنت سعيدة من أن تهمس في أذنها كلمةً عن سالمِ صندوق. سأل الضابط موزلي السؤال نفسه، فأجابت بمبالغة، أن هذا كان رجلًا بدينًا جدًا يأكل كما الخنزير، ولا يشبع قطّ. على الرغم من تطابق الروايتين، أعيدت سعيدة إلى المخفر للمزيد من الاستجواب. هذه المرة استجمعت شجاعتها وخاطبت ضابط الشرطة قائلةً: «اُنظر هنا! نحن بريطانيون. لم نفعل شيئًا. فدعنا وشأننا». على ما يبدو أثمرَ التهديد الضمني بتدخُّل السلطات البريطانية في الموضوع. تعرض اليهود في الحياة اليومية لأذى طفيف بالإضافة إلى إصابات أكثر خطورة. بات الأشخاص الذين يكنون العداء لليهود أكثر جرأة في إظهار مشاعرهم المعادية علنًا. دلَّتْ بعض الحوادث الصغيرة على مزيد من التغيُّر في المُناخ العام. وفي خضم التغييرات التي شهدتها حولها في هذا الوقت، تذكرت أمي حادثة معينة على وجه الخصوص. ذهبَ سائقنا لجلبها من البيت كي يأخذها إلى خان أبي. حدثَ ذلك قبل

أيام العلامات المرورية والإشارات الضوئية، حيث يقف شرطيٌّ معه صفَّارة، عند مفترقات الطرقات، لتنظيم حركة المرور. في ذلك اليوم، أوقف الشرطي سائقنا وسأله عن سبب قيادته السيارة بسرعة. أجابه بأنه على عجلة من أمره كي يصل إلى سيده. حين سمع الشرطي هذا، شتم السائق وسيده بصوتٍ عال. بلا ريب خطرَ ببال أمي أن الشُّرَطيَّ ميَّز لكنتهما وعرفَ على الفور أنهما يهوديان، وإلَّا ما كان ليتجرَّأ على مخاطبتهما بهذا القدْر من العدوانية خلالَ الأوقات الطبيعية.

لم يكن لأبويَّ أصدقاء صهاينة في الواقع. هذا طبيعي وليس مستغربًا في بيئةٍ كانت فيها الصهيونية جريمة عقوبتها الموت. في إسرائيل، استعادت أمي بحنين ذكريات جميلة عن أصدقائنا المسلمين الرائعين الذين عشنا معهم في بغداد والأوقات السعيدة التي قضيناها معهم. ومن الصفات التي أشادت بها كانت إيثارهم الذي يتجلى في الكثير من أعمالهم، وولائهم الذي لا يتزعزع حتى عندما ناهض التيار الشعبي اليهود. ذات يوم سألتُها ما إذا كان لدينا أصدقاء صهاينة. باغتها سؤالي. أجابت مؤكِّدةً، «لا!»، «الصهيونية شيءٌ أشكينازي. لا صِلة له بنا!» وبينما كنتُ أصرُّ على أن اضطهاد طائفتنا في بغداد قد أدارته السُّلطات، اعترفتْ أمي أنَّ يهودًا كثيرين رحَّبوا بهزيمة العرب في فلسطين بقناعةٍ نادرًا ما أخفوها، بل ابتهجوا بهزيمتهم. أطلق العرب على إسرائيل اسمَ «الدَّولة المزعومة». إحدى الأغاني اليهودية التي حققت انتشارًا بعد هزيمة العرب في فلسطين تتحدث عن «سبع دول مهزومة من الدولة المزعومة».

قبل الهزيمة، كان مزاج الشارع العربي مبتهجًا، صاحبه خطاب مروِّع عن إلقاء اليهود في البحر. أظهرتْ رسوم كاريكاتورية سبعة جنود عرب بأجسام ضخمة، يمثلون الجيوش العربية النظامية السبعة التي شاركت في الحرب، وثمة حِراب في نهايات بنادقهم، يسوقون يهوديًّا، ضئيل الجسم بأنف معقوفٍ، من لوحِ غطسٍ إلى مياه البحر. كانت تلك الرسوم الكاريكاتورية عنصريةً، فجّةً في تخيلاتها، لكنها عكست الاقتناع السائد بأن الدولة اليهودية الوليدة لن يكون لها أملٌ في النجاح أمام القوة الموحَّدة للجيوش العربية. كانت الثقة المُفرَطة بالنفس ملموسةً، ليس في الشارع وحسب، بل في أعلى المناصب السياسية والعسكرية العراقية.

كانت جدتي موزلي تسكن فيلا في الكرَّادة قرب نهر دجلة. جارتها وصديقتُها امرأة مسلمة اسمها أُمُّ أحمد. كان أحمد ضابطًا برتبةٍ عالية في الجيش العراقي. ذات يوم، ذهبت موزلي كي تزور أُمَّ أحمد زيارة اجتماعيةً روتينية قصيرة. اجتمع أحمد وزملاؤه الضباط حول خريطة فلسطين، ودارت بينهم نقاشات ساخنة حولها. حدسي، وهو مجرد حدس، أنَّها الخريطة التي كانت قد جهزتها اللجنة العسكرية التابعة لجامعة الدول العربية للاجتياح المنسق لفلسطين عقب انقضاء أَجَل الانتداب البريطاني. لم تكن أُمُّ أحمد راضية عنهم. دفعتهم بمرفقِها بعيدًا عن الطريق، وأمسكت بالخريطة وطلبت منهم أن يخبروها: «أين هي الدولة المزعومة؟» أشار الضباط على الخريطة إلى المنطقة التي خصَّصتها الأمم المتحدة للدولة اليهودية. لم تحاول أُمُّ أحمد إخفاء ازدرائها للضباط الذين

كانوا يتناقشون ويتعذبون عذابًا شديدًا حول الاستراتيجيات البديلة في التعامل مع دولة إسرائيل الجنينية. «ألا تخجلون من أنفسكم؟» تساءلتْ، وبسرعةٍ أضافت قائلةً: «من ناحيتي، باستطاعتي أن ألتقطَ هذه الدولة المزعومة وأسحقها بين أسناني». استمعتْ جدتي إلى صديقتها بصمتٍ وذهول. لم تكن تشك في تخمين أُمِّ أحمد للتوازن العسكري، وكانت غارقةً في توقع الشر بما يتعلق بالمصير الذي كان ينتظر شقيقتها الأصغر غالا، وباقي أقاربها في فلسطين.

بعد مضي أعوام طويلة، حين أقمنا في إسرائيل، استعادت جدتي مرارًا هذا المَشهد بانتصار. سنويًّا، في ١٥ أيار/ مايو، يُجري الجيش الإسرائيلي استعراضًا عسكريًّا بمناسبة يوم الاستقلال. كان الاستعراض العسكري إظهارًا مروِّعًا للقوة العسكرية. وحدات المشاة تجوب الشوارع، ترافقها الدبابات وقطع المدفعية، بينما كان طيارو القوة الجوية يؤدون تمارين بهلوانية. اعتادت جدتي أن تشاهد هذا المنظر بإعجاب واضح. بحسب طريقة تفكيرها، هذه القوة العسكرية التي اكتسبها اليهود مؤخرًا منحت شيئًا من التعويض لعُقم اليهود في العراق. «أين أنتِ، أُمَّ أحمد؟» تهتف موزلي. «دعينا نراكِ وأنتِ تضعين هذه الدولة المزعومة بين أسنانكِ وتسحقينها».

كان ذلك استباقًا لما سيأتي لاحقًا. في ذلك الوقت شعرنا بأننا سريعو التأثر لأننا يهودٌ. ذات يوم، في تشرين الأول/ أكتوبر من عام ١٩٤٨، جاءت رسالة عبر صندوق البريد معنونةٌ إلى أبي. كانت هنالك جمجمة على المظروف، وتحتها عظمتان متصالبتان. قررت أمي أن تفتحها. كانت

تضمرُ تهديدًا أنه إذا لم يدفع أبي فديةً مقدارها عشرة آلاف دينار عراقيٍّ، سوف تخطف إحدى العصابات شقيقتي ليديا، وأعقبه تحذير: البيت مُراقَب، وسيُقتَل أي شخص يسعى لإبلاغ الشرطة. كان يوم سبت، وأبي جالس مع أخوالي في المقهى الكائن عند النهر. غادرت أمي البيت من باب خلفي، أخذت معها الرسالة، وذهبت مشيًا إلى المقهى. بعد أن أخبرت أبي بالقصة، وأرته الرسالة، ألحَّتْ عليه أن يدفع مبلغ الفدية.

كانت ردة فعل أبي الفورية رفْضَ الاستسلام للابتزاز. أشار إلى أنه في الماضي كان قد أدَّى خدماتٍ كثيرة لوزراء مختلفين، بمَن فيهم وزير الداخلية الحالي؛ الآن هو بحاجة إلى مساعدتهم وجاء دورهم كي يقدموا له خدمة. ذهب من المقهى إلى بيت الوزير، أخبره بما جرى وحصل على وعده المباشر بأن يتولى مسؤولية القضية. رافق خالي يعقوب أمي في عودتها إلى البيت ودخلا عبر الباب الخلفي. رنَّ الهاتف حال رجوعهما إلى البيت. جاء صوتُ رجلٍ عالٍ جدًّا، صوتٌ مدوٍّ. عُرف لاحقًا أنَّه قائد العصابة، ويعمل في مقسِّم الهاتف. رد الخال يعقوب على الهاتف وتظاهر بأنه الخادم. تردَّدَ صدى صوته في سائر أنحاء البيت: «قل لسيدكَ إنه إذا لم تُلبَّ مطالبي، سوف (أمسح) بيته»، كناية عن التهديد بإخفاء البيت. تعمَّدَ الخال يعقوب أن يبدو وكأنَّ الأمرَ قد اختلط عليه، نوعًا ما، فردَّ قائلًا: «لا ينبغي لك أن (تمسحَ) البيت، لقد مسحته للتوِّ». كرَّر المبتز تهديده بغضبٍ وأغلق سماعة الهاتف بقوة.

في وقتٍ لاحقٍ من اليوم نفسه، اتصل قائد العصابة ثانيةً، وهذه المرة أبي هو الذي ردَّ على المكالمة. حذَّره من أن يُخبر أحدًا، وأنه يتعين عليه

أن يقصد البنك كي يسحبَ عشرة آلاف دينار، وأن يضع المال في رزمة، وينتظر رجلًا يأتي إلى الباب في وقتٍ محدد كي يسأل عن «الأمانة»، أو الرزمة أو الوديعة. كان ينبغي له أن يُسلِّم الرزمة للرجل من دون أن يتفوَّه بكلمةٍ واحدة. في غضون ذلك، وبحسب تعليمات الوزير، كان قائد شرطة بغداد على علم بالقضية. أرسل فرقةً قوامُها عددٌ من رجال الشرطة كي يجابهوا المتصل: اثنان في داخل البيت، واثنان تخفيا كشحاذيْن في الشارع، وواحد اختبأ في أعلى شجرة عند مدخل البيت. جهَّز أبي رزمةً من بعض الأوراق النقدية الحقيقية من فئة عالية القيمة، غير أن أغلبَ الرزمة تألَّفتْ من قصاصات ورق جرائد كي تبدو ضخمة الحجم. في الساعة المعينة، جاء رجلٌ إلى الباب، قرع الجرس وطلب الرزمة. بمجرَّد أن سلَّمه أبي الرزمة انقضَّ عليه جميع رجال الشرطة. اعترض المتصل، في أول الأمر، معربًا عن براءته، ومُدَّعيًا أن رجلًا آخرَ أعطاه خمسة دنانير وطلب منه أن يأخذ الرزمة وهذا كل ما يعرفه. حينَ صفعه أبي صفعتين قويتين على وجهه، رفع الرجل يديه ملوِّحًا باستسلامِهِ وقال إنه سيعترف. اُقتِيدَ إلى مخفر الشرطة حيث اعترف هناك بأنه أحد أعضاء العصابة وأدلى بأسماء الأعضاء الآخرين. أُلقيَ القبضُ عليهم جميعًا.

كان اسم العصابة «عصابة الليل والهوا». استمتعت الصحف بهذه الدراما، وشبهتهم بـ«علي بابا والأربعون حرامي». كانت العصابة تضم بعض المجرمين العاديين، لكنَّ من بين قادتهم ابنَ أخ أحد الوزراء وموظفًا بمنصب مدير في مقسِّم الهاتف. استهدفت العصابة التجار اليهود لأنهم أثرياء وأهداف سهلة مقارنة بأثرياء المسلمين. نشرت الجرائد تقارير مثيرة عن المحاكمة بشكل يومي، مع صور للقُضاة والمتهمين وتعليقًا

متواصلاً. في ذلك الحين كان العراق تحت الأحكام العُرفية بسبب الحرب في فلسطين. كان القضاة ضباطًا في الجيش يرتدون الزي العسكري. أنزلوا عقوبات قاسية بحق جميع أعضاء العصابة: السجن من عامين إلى خمسة أعوام، كلُّها مع الأشغال الشاقة. قلقتْ أمي إلى أقصى حدٍّ خشيةَ أن يبحث هؤلاء المبتزون عن الثأر من عائلتنا بعد خروجهم من السجن. كانت خائفةً من أنْ ينفذوا تهديدهم بنسف المنزل، غير أن خوفها الأعظم هو أن يخطفوا أو يقتلوا أحد أولادها. إذا ما تحقَّق احتمال هذا الكابوس، فسوف يجعلها ذلك تفكِّرُ في مغادرة العراق، وإلى الأبد.

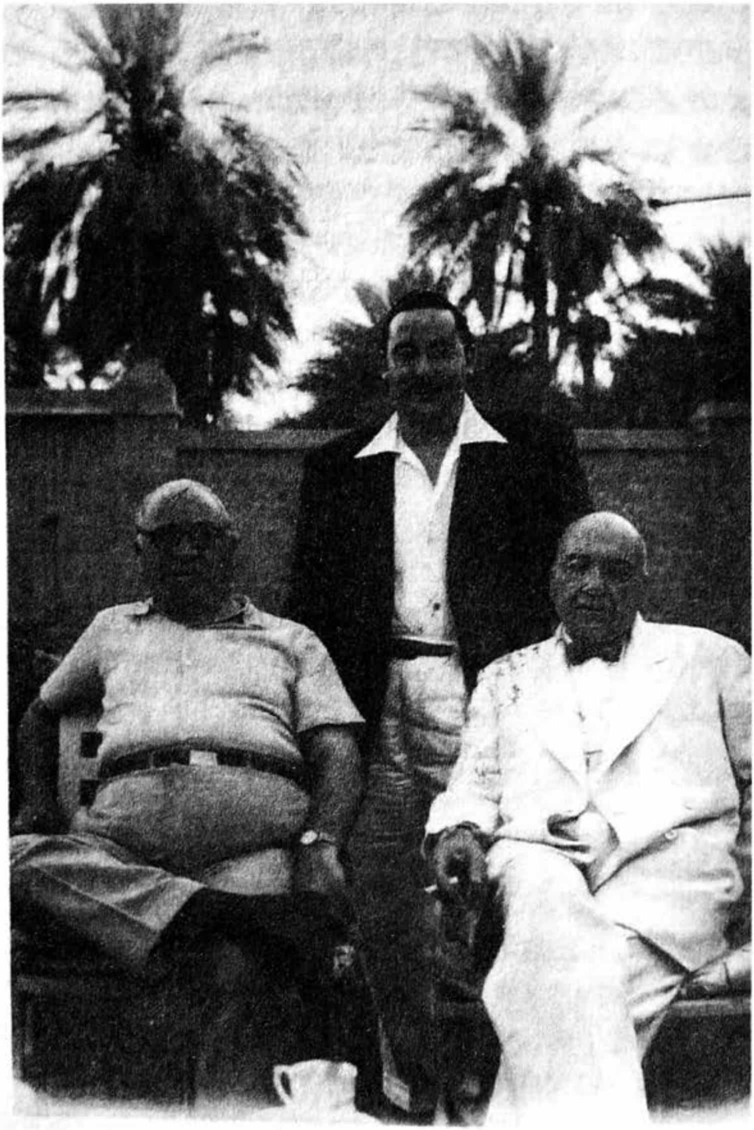

حسقيل شمبتوب (يمين) وتوفيق السويدي (يسار).

الفصل السابع

قنبلة بغداد

شهدتْ أعوام ١٩٥٠-١٩٥١ كارثة ضخمة ليهود العراق. في مدة تزيد قليلًا على العام، تركت الطَّائفة بأسرها تقريبًا وطنها القديم جدًا وراءها، وشقَّت طريقها إلى دولة إسرائيل اليافعة والفقيرة. كانت أسرتي من بين هؤلاء. تغيرت حياتنا بشكل جذري وانهار كل ما اعتدنا عليه من حياة مريحة، ولم أستطع فهم سبب هذا التغيير خلال طفولتي. حاولتُ، منذ ذلك الحين، فهْمَ ما جرى ولماذا.

كانت أسرتي جزءًا مما يُسمى بـ(الهجرة الكبرى إلى إسرائيل). هاجرَ ما يُقارب ١١٠ آلاف يهودي من العراق إلى إسرائيل في الفترة بين حزيران/ يونيو ١٩٥٠ وحزيران/ يونيو ١٩٥١. وصل عدد المهاجرين منذ تأسيس دولة إسرائيل في ١٩٤٨ وحتى نهاية ١٩٥٣ إلى قُرابة ١٢٥ ألفًا من العدد الكُلي الذي قاربَ الـ١٣٥ ألفَ يهوديٍّ عراقيٍّ. بضعة آلاف غادروا العراق إلى بلدان أخرى، ونحو ستة آلاف مكثوا في العراق. وصلَ الوجود اليهودي الذي يعود إلى ألفيْ عام ونصف، منذ تحطيم المعبد الأول والسَّبي البابلي، إلى نهايةٍ مفاجئة ومؤلمة. لقد تلاشى الشتات

الذي كان يمثل نموذجًا للتعايش بين المسلمين واليهود. تُقدَّر الأملاك اليهودية التي تُركت في العراق بمئتي مليون دينارٍ عراقيٍّ، ما يقارب مئتي مليون جنيه إنجليزي في ذلك الحين. بغضِّ النظر عن الملكية الخاصة، فإنَّ الطَّائفة اليهودية امتلكتْ إجمالًا نحو ٢٠٠ بناية، بما فيها ٥٠ كنيسًا، و٢٠ مدرسة، ومستشفيات، ومجمعات مكاتب، ومراكز عائدة للطَّائفة، ونواديَ ودورَ سينما. وهذا وجهٌ واحد من وجوه المأساة.

لقد خلّفتْ هجرتنا من وطننا ورحلةُ الهجرة إلى أرضٍ غريبةٍ شعورًا عميقًا بالاقتلاعِ من الجذور وندوبًا نفسيةً وعاطفيةً لا تُمحى، فقد واجهنا ثقافةً مختلفةً وقيمًا مغايرةً ولغةً أجنبيةً غريبةً. وقد وصف عدد من الكُتَّاب المحنة المؤلمة للتهجير. علَّق قريبي (من الدرجة البعيدة) إسحاق بار–موشيه (Itzhak Bar-Moshe) بمرارة في مذكراته التي تحمل عنوان «النزوح من العراق»، قائلًا: «غادرنا العراق بوصفنا يهودًا ووصلنا إلى إسرائيل بوصفنا عراقيين»[١].

تظل الظروف التي أحاطت بنزوح اليهود من العراق موضوعاً مثيراً للجدل والنقاش المستمر. ثمَّة سرديَّات متضاربة تتعلق بالأسباب. تحتوي سرديَّة أسرتي على طبقات إضافية من التجربة الحساسة. تصف السرديَّة الصهيونية الرسمية النزوحَ باعتباره عملًا إراديًّا سبَّبه العداء المحليُّ، مؤطِّرةً إياه بمزاعم حول بيئة معاداة السَّامية المتأصِّلة في الإسلام، والمضايقة التي تعرَّضَ لها اليهود عبر التاريخ من قبل الأنظمة العربية. وفقًا لهذه السرديَّة، «الفرهود» عام ١٩٤١ في بغداد مجرد حلقة واحدة في سلسلةٍ لا نهائية من الاضطهاد وسوء المعاملة، إذْ واجهَ يهودُ

العراق بعد الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى تهديدًا واضحًا بالإبادة؛ لتأتي الحركة الصهيونية من أجل إنقاذهم، ومنحهم حقِّ اللجوء في دولة إسرائيل حديثة التأسيس ليعيشوا بقية حياتهم بحرية وكرامة. هذه النسخة البطولية - المُحِبة للغير، التي تعطي الحركة الصهيونية دورًا باعتبارها منقذة اليهود العراقيين، انعكست في الاسم الرسمي للجسر الجوي: «عملية عزرا ونيحميا»، على اسم الرجلين المعروفين في «التناخ» بأنهما قادا اليهود إلى خارج منفاهم البابلي.

ثمة رواية بديلة، يُمكننا أن ندعوها السرديَّة ما بعد الصِّهيونية، تؤكد على أنَّ الغالبية العظمى من المهاجرين لم يرغبوا بمغادرة العراق؛ ولا صلة أيديولوجية لهم بالصهيونية؛ وأنهم ضحايا الأفعال الصهيونية التي كانت ترمي إلى تخويفهم كي يتخلَّوا عن وطنهم الأصلي. التهمة الأخطر، التي وُجِهت ضد الحركة الصهيونية وإسرائيل في هذا الارتباط هو أنهما قد حرَّضا فعلًا على تفجير أهداف يهودية ببغداد في محاولةٍ للحث على هروب جماعي لليهود العراقيين نحوَ إسرائيل. في هذا الفهم، الصهيونية، التي برزت بوصفها ردًّا على معاداة السامية في أوروبا أواخرَ القرن التاسع عشر، لجأتْ إلى العنف ضد اليهود في البلدان العربية من أجل تحقيق واحد من أهدافها الأخرى، وهو «تجميع المنفيين»، أو إحضار أكبر عدد ممكن من يهود الشتات إلى صهيون. مع أن بعض اليهود العراقيين آمنوا بالصِّهيونية ورأوا في إسرائيل وطنهم الحقيقي، فإنَّهم كانوا أقليَّةً بسيطةً جدًّا. قد يخمّن المرءُ أنه من بين العدد الكلي لليهود العراقيين الذي قاربَ الـ١٣٥ ألفَ يهوديٍّ عراقيٍّ، فإنَّ ما لا يزيد عن ألفين منهم قد انتسبوا للحركة الصِّهيونية، أي قُرابة ١،٥٪[٢].

وضعَ بعضُ الكتّاب، ممَّن تناولوا هذا الموضوع، الهجماتِ الإرهابية في بغداد تحت عنوان «الصِّهيونية الوحشية»[٣]. وأشار آخرون إلى أنَّ الحركة الصهيونية بدأتْ تؤدي دورًا في تقويضِ العلاقات بين المسلمين واليهود في البلدان العربية قبل ظهور دولة إسرائيل بوقتٍ طويل. تصر ماريون وولفسون، على سبيل المثال، في كتابها «أنبياء في بابل»، على هذه النقطة وتخبرنا باقتباس من السَّفير البريطاني في بغداد، السير فرانسيس همفريس. مع قرب نهاية العام ١٩٣٤، كتب السير فرانسيس أنه بينما كان اليهود قبل الحرب العالمية الأولى يتمتعون بمنزلةٍ واعدةٍ أكثر من أي أقلية أخرى في البلاد، «زرعت الصهيونية الشِّقاق بين اليهود والعرب، ونَمَت مرارةٌ بين الشَّعبين لم تكن موجودةً من قبلُ». يؤكِّد السير فرانسيس على الرأي القائل إنه «لا يوجد أي عداء طبيعي بين اليهود والعرب في العراق»[٤].

جسدتْ الهجمات التي استهدفت خمسةَ مواقع أهدافٍ يهوديةٍ في بغداد خلال عامي ١٩٥٠ و١٩٥١ مثالًا واضحًا على مدى تدهور العلاقات بين المسلمين واليهود منذ الثلاثينيات. حصلت الحادثة المميتة الوحيدة، والأكثر شهرة، في ١٤ كانون الثاني/ يناير ١٩٥١ حينَ قُذفَ بقنبلة يدوية في الفناء الأمامي لكنيس مسعودة شمبتوب، وأسفرت عن مقتل أربعة يهود وجرح عشرين آخرين. إن مسألة مَن هو الشخص الذي كان وراء إلقاء هذه القنابل لها أهمية حاسمة من أجل فهم أصول النزوح الحقيقية. دأبَ متحدثون باسم الصهيونية على إنكار أي تورُّط لهم في التفجيرات. عزوا الهجمات إما إلى الحكومة العراقية بحثًا عن

كبش فداء لهزيمة العرب في الحرب من أجل فلسطين بسبب مشاكل البلاد الداخلية، أو إلى عناصر يمينية مُتطرِّفة أرادتْ إبعاد اليهود إلى خارج البلاد. عمومًا، أشار إصبعُ اللوم إلى حزب الاستقلال المناصر للعرب، والمعروف بالخوف من الأجانب، والمناهض بشدة لليهود.

عينتْ الحكومة الإسرائيلية لجنتا تحقيقٍ للنَّظر في ملابسات القضية، واحدة في العام ١٩٥٢ وأُخرى في العام ١٩٦٠، وكلتاهما استنتجتا بصورةٍ صريحة عدم وجود تورُّط إسرائيلي بالمطلق. حاولَ عددٌ من اليهود العراقيين وباحثون إسرائيليون عراقيو المولد، البرهنة على العكس من ذلك، وأن الحركة الصهيونية السرية هي المسؤولة[٥]. لدعم ادِّعائهم هذا، اعتمدوا على شهادات متنوعة، وأدلَّة ظرفية، ومعلوماتٍ متفرقة؛ لكنَّهم عجزوا عن إظهار دليلٍ دامغٍ. جميع أقاربي في إسرائيل كانوا مقتنعين تمامًا، بدليل أو من دون دليل، أن الحركة الصهيونية السرية هندستْ لرحيلنا من العراق.

منذُ كنتُ في سن المراهقة المبكرة، فُتِنتُ بقصة القنابل. تعمَّق فضولي تاليًا، بعد أن أصبحتُ مؤرخًا متخصصًا بالصِّراع العربي - الإسرائيلي. وتعمقت دراستي لهذا الموضوع بشكل أكبر أثناء تأليف الكتاب. كنت في إجازة تفرُّغ علمي في إسرائيل بين عامي ١٩٨١-١٩٨٢، حيث أجريت بحثًا لما أصبح كتابي الأول عن الشرق الأوسط: «مؤامرة عبر الأردن: الملك عبد الله، الحركة الصهيونية، وتقسيم فلسطين». أمضيتُ معظم العام مع سجلات (أرشيف) دولة إسرائيل في القدس، أرتِّب ملفًا بعد آخر من الوثائق الرسمية الصادرة حديثًا. في يومٍ ما طلبتُ ملفًا، رأيتُه

في الفهرس، حملَ عنوان «العراق، ١٩٥٠». قيل لي إن هذا الملف لم تُرفع عنه السِّرية بعدُ؛ لذا لا يُمكن لي أن أراه. «أها!»، فكَّرتُ مع نفسي – هذا الملف يحتوي حتمًا دليلًا مُجرِّمًا وربما دامغًا. استنسختْ إسرائيل، من بريطانيا، قانونَ الثلاثين عامًا المتعلق بمراجعة الوثائق الرسمية ورفع السرِّية عنها، لذا توسَّلتُ أمينَ الأرشيف أن يُطبِّقَ القانون العام على هذا الملف الخاص. وعدني بمعاينة الأمر، غير أنَّه عادَ في اليوم التالي بالأنباء المُخيِّبة للآمال؛ إذْ لا يُمكن عرض هذا الملف لأنه يحتوي على بعض وثائق الموساد، جهاز الاستخبارات والمهام الخاصة التابع لإسرائيل.

ضاعفَ تفسير أمين الأرشيف شكوكي فقط. طلبت منه أن يراجع الملف وثيقةً وثيقةً، ويحجب وثائق الموساد ويعرض تلك العائدة لوزارة الخارجية. ومرةً أخرى، وعدني بأن يعاينَ الأمر، وبعد التشاور مع رؤسائه، أخبرني باستحالة القيام بذلك؛ فالملف بأكمله يحمل نفس التصنيف الأمني. طمأنني أمين الأرشيف، على أية حال، أنه قرأ الملف بنفسه وأنه لم يتضمن أيّ دليل إدانة. لم أجد أمامي أي خيار سوى القبول بهذا الجواب. أنا مؤرخ، ولستُ مُنظِّرَ مؤامراتٍ، لذا لا يمكنني أن أقذف بالمزاعم دون دليل موثوق يثبتها. من الناحية الأخرى، أعرف أيضًا لا يتركُ كلُّ نشاطٍ رسميٍّ أثرًا ورقيًّا وراءه. أجلتُ الحكمَ على هوية الجناة، ولكنْ ظلّ لديّ اهتمامٌ شديدٌ بهذه الملحمة.

ذات يوم، خلال زيارة لي إلى إسرائيل في عام ٢٠١٧، بمحض المصادفة تقريبًا، وجدتُ دليلًا ذا مصداقية يقترحُ أن «موساد الأليا بِت» (وحدة ييشوف التي قادت الهجرة غير الشرعية إلى فلسطين)، وكذلك

الحركة الصهيونية السِّرية في العراق كانتا وراء تفجيرات بغداد. مكَّنني هذا الدليل من رؤية قصة أسرتي باعتبارها جزءًا من القصة الأكبر بكثير، والمتعلقة بنزوح الطَّائفة اليهودية من العراق. كان قرار مغادرة العراق مؤلمًا للغاية بالنسبة لنا، كما كان الحال بالنسبة للعديد من العائلات اليهودية الأخرى. عشنا في العراق على مدى أجيال، لنا جذورٌ عميقة في البلاد، كنا مندمجين جيدًا من الناحية الاجتماعية، وكانت مهنة أبي ناجحة ولم تكن لنا رغبةٌ في أن نغيِّر هويتنا، أو جنسيتنا، أو أسلوب حياتنا. كان ذهابنا إلى إسرائيل مغامرةً خطيرة لم نكن على استعداد تام لها. من الناحية الأخرى، تدهورَ الوضع السياسي في العراق بسرعةٍ شديدة من دون دلائل يشير إلى تحسُّنٍ يلوحُ في الأفق. بدا استشرافُ المستقبل مُحبِطًا، بشكلٍ من الأشكال، بين ١٩٤٨ – ١٩٤٩، أكثر ممَّا كان عليه بعد «الفرهود» في العام ١٩٤١ والذي كانَ حادثًا منفردًا لم يتكرر، في حين أنَّ هذه المضايقات بدتْ طويلة الأمد ومُتعدِّدة الجوانب. في عام ١٩٤١ انقلبَت الغوغاء على اليهود؛ أمَّا الآن فالحكومة هي التي تفعل ذلك.

في هذا المناخ من الخوف، خاطرَ بضعةُ آلافٍ من اليهود بمغادرة العراق بصورة غير شرعية. ساعدتْ وشجعت بعضهم الحركة الصهيونية السرية. في عام ١٩٤٢، عقب «الفرهود»، بدأ الجواسيس الصهاينة بالوصول إلى العراق قادمين من فلسطين لتكوين اتصال مباشر مع اليهود المحليين، وتعليم اللغة العِبرية ونشر الرسالة الصهيونية. أمَّا مهامهم الأخرى فاقتضتْ تنظيم الفِرار غير الشرعي لليهود من العراق إلى فلسطين، عبر إيران، والتخطيط محلِّيًّا للدفاع عن النفس في حال حصول

مذبحة منظمة أخرى. هُرِّبتْ أسلحةٌ صغيرة إلى البلاد، وتلقَّى المجندون المحليون تدريبًا على استخدامها. سُمِّيتْ الحركة السرية «حتنوا» أو «الحركة»، بينما سُمِّيَ جناحُها العسكريُّ «حاشورا» أو «العمود». معظم المجندين شبانٌ يهودٌ من عائلاتٍ فقيرة. في الاجتماعات السرِّية، كانوا يمررون التناخ ومسدسًا من يدٍ إلى أخرى. هكذا كانوا يقسمون بالولاء لـ«الحركة». لم تكن لدى الصهاينة رغبةٌ في تحسين ظروف يهود العراق – أرادوا الإسراع في رحيلهم فقط. كان الهدف الحقيقي هو أن يجهزوا المجندين للهجرة الجماعية إلى فلسطين، وبما أنَّ السُّلطات لم تسمح بذلك، فلا بدَّ من تنفيذه سِرًّا. وفرت إيران طريقًا مناسبًا للهَرَب، رغم أنه طريقٌ حَرِجٌ ومحفوف بالمخاطر لأولئك اليهود الراغبين بمغادرة العراق، سواء تحت إشراف «الحركة» أو من دون مساعدة أحدٍ. على الرغم من كونها دولة مسلمة، فقد كانت إيران، في عهد الشاه، من أوائل الدول الإسلامية التي أقامت علاقات دبلوماسية مع إسرائيل، بعد تركيا مباشرة. سُمِحَ، بناءً على ذلك، بفتح مكتبٍ للوكالة اليهودية في طهران، ومعسكرٍ للمرور المؤقت؛ يُنقل منه اليهود جوًّا إلى إسرائيل.

قام اثنان من أبناء عمتي، أفراهام وفؤاد حمامة، بالرحلة السِّرية إلى إسرائيل عن طريق إيران. كانا ابنا شقيقة أبي رَجينا، التي لها ابنان آخران وأربع بنات. امتلكَ زوج رجينا لياهو (إلياهو) متجرًا في سوق الشورجة ببغداد. كانا أُميين. أُسرة فقيرة، على خلاف أخوالي الآخرين الذين كانوا كلهم تجارًا أثرياء من الطبقة الوسطى. عُدَّتِ الحياةُ غيرَ آمنةٍ في منطقة آل حمامة السكنية، بعد «الفرهود» لذا انتقل عزرا، الابن الأكبر سنًا،

وفؤاد، الابن الأصغر، إلى بيت أبي الذي -كما ذكرتُ في فصلٍ سابقٍ- يتمتعُ بحماية الشرطة. في عام ١٩٤٤، حينَ غادر عزرا البلاد بصورة غير مشروعة إلى فلسطين، شغلَ أفراهام، الابن الثاني، مكانه. كان أفراهام مراهقًا هادئًا، لطيفًا، حسن السلوك، ولكنْ انطوائي بعض الشيء. دونَ علم أبي، بقدر ما أستطيع القول، كانَ كلُّ أبناء شقيقته الثلاثة فاعلين في الحركة الصِّهيونية السرية.

وُلِدَ أفراهام في بغداد عام ١٩٢٨؛ انتظم في مدرسة شماش، وهي مدرسة ثانوية يهودية ذات سمعة علمية جيدة تدعمها (الجمعية اليهودية - الإنجليزية). جنَّدته الحركة الصهيونية السرية حين كان لا يزال طالبًا في المدرسة ورُقِّيَ، بعد تلقينٍ شامل، إلى جناحها العسكري، حاشورا. تمثّل عملُه في العثور على أمكنة ملائمة لإخفاء الأسلحة، من أجل المحافظة عليها وإصلاحها وتوزيعها على الناشطين الآخرين عند الضرورة. قامَ الجواسيس الصهاينة بمهام التدريب على استعمال الأسلحة؛ في البقاع النائية خارج العاصمة بغداد. حُدِّدَتْ مهمةُ أفراهام بإحضار الأسلحة من مخابئ مختلفةٍ في المدينة، وإعادتها حين تنتهي حصَّة التدريب. هل خبأَ أفراهام الأسلحةَ في بيتنا؟ هذا سؤال يثير الحيرة، ولا أملك إجابة عليه!

تسيبورا، عضوة في الحركة، أخذتها الحماسة الكبيرة تجاه المثاليات. انتماء الشاب إلى جمعية سرية وإتقانه التعامل مع الأسلحة يولد لديه شعورًا بالقوة والقدرة. إذا ما أخذنا بعينِ الاعتبار التقاليدَ الاجتماعية المُحافِظة في تلك الحقبة، فإنَّ ذلك كانَ شيئًا أكثر من مُتحرِّرٍ حتى بالنِّسبة لشابَّةٍ يهودية. أحد مبادئ الحركة هو المساواة الكاملة بين الرجال والنساء.

كانت تسيپورا ناشطة باستحقاقها: عملا، هي وأڤراهام، كفريقٍ. وقعَ المراهقان في غرام بعضهما وتزوجا لاحقاً في إسرائيل.

كان فؤاد يافعًا جدًّا كي يفهم ما يجري، لكنَّه قدَّم بعض العون للحركة. حين كان أڤراهام وزملاؤه ينقلون الأسلحة من مكانٍ سريٍّ إلى آخر، كانوا غالبًا يصطحبونَ فؤاد معهم كي يعطوا الانطباع بأنهم يقومون بنزهةٍ عائلية بريئة. في خريف عام ١٩٤٩، عبَرَ أڤراهام، وأعضاءٌ آخرون من مجموعته، الحدودَ بشكلٍ غير مشروعٍ متجهين إلى طهران، بعد أنْ واجهوا تهديدًا وشيكًا بالاعتقال من قبل الشرطة. عقبَ مضيِّ عامٍ، ساعد خلاله الموظفين الصهاينة في معسكر المرور المؤقت، رتبوا طيرانه إلى إسرائيل. وافقت الحكومة الإيرانية على معاملة أيِّ يهودي عراقي يدخل إلى أراضيها بصفته لاجئًا، وسهَّلت رحلتهم القادمة إلى إسرائيل. دارتْ شائعاتٌ حول رشاوي على نطاقٍ واسع يتقاضاها موظفون إيرانيون رفيعو المستوى كي يمهدوا السبيل لهذه الموافقة.

في تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٤٩، تبع فؤاد خطى شقيقهِ غير أنَّ هجرته، كما أخبرني في إسرائيل عام ٢٠١٩، كانت حافلةً بالأحداث أكثر. لم يكن عمره سوى اثني عشر عامًا حين باشرَ في رحلته الخطيرة إلى إسرائيل مع دليل من الحركة ونحو عشرين يهوديًّا آخرين. كان هو الطفل الوحيد. شقوا طريقهم إلى العْمارة، وهي مدينة تقع في جنوب – شرق العراق وتبعد نحو خمسين كيلومترًا عن الحدود مع إيران. أُلقي القبض عليهم في العمارة، ثم نقلوا في سيارة تابعة للشرطة إلى مكان تواجدهم الأول، ليتم اقتيادهم بعد ذلك إلى السجن. سهَّلت الرشوة

على الشرطي إخلاء سبيلهم. حين أُفرِج عنهم لم يعودوا إلى بيوتهم؛ خشية أن تأتي الشرطة للبحث عنهم.

بعد أيام قليلة من الاختباء، انطلقت المجموعة مجدَّدًا، هذه المرَّة مع دليل مسلم. إنَّه مُهرِّبٌ أكثر من كونه دليلًا. أخذهم المُهرِّب إلى الحدود، أشار بإصبعه إلى مركز حدودي وأخبرهم أنه يتعين عليهم أن يُكملوا الرحلة مشيًا على الأقدام. في حقيقة الأمر، كان هنالك مركزان حدوديان، واحد عراقي، وواحد إيراني. بعد أن تقاضى المهرِّب أجره، دلّهم عمدًا على المركز الحدودي العراقي لأنه أراد أن يُلقى القبض عليهم وإعادتهم أدراجهم. لحسن الحظ، هرع الضابط الإيراني نحوهم وقادهم إلى ناحيته من الحدود. جاء ضابط عراقي إلى هناك حالًا وطالب بأن يُسلِّم الرجال إليه. رفض الإيراني، وهدَّد العراقيُّ بأن يرجع ومعه تعزيزات لاستعادة المجرمين. ذكَّر اليهودُ الضابط الإيراني بأن الشَّاه أصدر تعليمات بالترحيب بأيِّ لاجئ من العراق في بلاده. طمأنهم، بدوره، أنْ لا شيء يستدعي القلق. إلا إنهم كانوا لا يزالون قلقين وطالبوا بمعرفة ما سيحصل لو عادَ الضابط العراقي مطالبًا بهم. ردَّ الضابط الإيراني بأنه سوف يُطلق عليه النار، وسكَّنَ هذا الجوابُ بعضَ مخاوفهم.

استغرقت المجموعة ثلاثة شهور كي تقطع المسافة من الحدود إلى طهران. كانت الرحلة قاسيةً، ومن الصعب الحصول على الطعام. كان شتاءً قارصَ البرودة مصحوبًا بالمطر والعواصف الثلجية. شقوا طريقهم ببطءٍ، تارةً يسيرون على أقدامهم، وتارةً يمتطون الحمير. مكثوا في قرًى فقيرةٍ حيث الفطور المعتاد يتألف من أرغفة الخبز المفرود وحبات

التمر. في طهران، مضوا إلى معسكر المرور المؤقت، التابع للوكالة اليهودية. كانت التسهيلات في المعسكر بدائيةً إلى حدٍّ ما، واستطاعَ النزلاءُ الواصلون حديثًا نيل قسطٍ من الراحة والاستمتاع بوجبات طعام منتظمة. يأتي موظف إيراني إلى المعسكر كي يؤدي العمل الورقي قبل أن يُصدرَ تراخيص المغادرة الضرورية. كانت عمليةً بطيئة بما أنَّ الاستمارات الشخصية يجب أن تكون كاملة قبل إصدار كل ترخيص مغادرة. في إحدى المرات، حين كان الموظف يشرب ويتحدَّث مع الأعضاء الأكبر سنًا من المجموعة، رفع اليافع فؤاد ختمه ومن دون التزام بالأنظمة والقوانين؛ ووزَّع تراخيص المغادرة. بمجرد اكتمال جميعِ الإجراءات الرسمية، سيُوضع اليهود على متن طائرة تأخذهم إلى مطار ليدا بالقرب من تل أبيب. لعب شاه إيران دورًا بالغَ الأهمية في تسهيل الهجرة غير الشرعية لليهود العراقيين نحو إسرائيل.

في عام ١٩٤٩ غادر العراقَ -بصورة غير مشروعة- قريبٌ آخرُ، هو يعقوب سلطون، شقيق جدتي موزلي. تلك قصة مختلفة تمامًا. كان الخالُ يعقوب رجلَ أعمالٍ مرتاحًا من الطبقة المتوسطة، دون ارتباطٍ بالحركة الصهيونية أو حتى تعاطفٍ معها. لم يكن ذلك بسبب إغراء صهيون، بل بسبب الوضع الأليم ليهود العراق في أعقاب الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى الذي دفعه للفرار؛ أحسَّ أنْ لا مستقبل له ولأسرته لمجرَّد أنهم يهود. كان قرار المغادرة قرارًا مؤلمًا بالنسبة له بما أنه يستلزم فقدان معظم أصوله. خطر البقاء، كما رآه هو، كان أرجحَ وزنًا من الفوائد المادية. اتخذ قراره، نقل نقوده إلى خارج البلاد عبر قنوات غير

نظامية، وترك بيته، عمله وسيارته. أخذ المُهرِّبون العم يعقوب، وأسرته، وخادمته المخلصة صبيحة، عبر الحدود إلى داخل إيران. سمَّت جدتي تلك الرحلة بـ«السوق السوداء»؛ لأن مغادرة البلاد من دون تأشيرة خروج هي مخالفة قانونية. في طهران، ساعد الأسرةَ شقيقُ أمي المقيم هناك، ألفريد، ومن طهران أكملوا رحلتهم صوبَ إسرائيل جوًّا.

لم تكن مراقبة الحدود العراقية مع إيران سوى جزءًا واحدًا من الأعباء الأمنية العديدة التي كانت تتحملها الحكومة العراقية في ذلك الزمن. السؤال الجوهري بالنسبة للعراقيين هو ما إذا كان ينبغي لهم «أن يتطوروا» و«أن يتبعوا ثقافة الغرب»(١) بالطريقة التي توقعها منهم محتلوهم الاستعماريون السابقون، أو أن يرسموا خطَّةً لمسارٍ عربي مستقل ويدفعوا الثمن. فورًا، تعيَّنَ على الحكومة أن تتغلب على المشكلات المرتبطة بالاستعمار والاستعمار الجديد. رغمَ أنَّ العراق حصلَ على استقلالٍ رسميٍّ في العام ١٩٣٢، فإنَّ بريطانيا واصلتْ ممارسةَ سلطةٍ غير مباشرة، لكن حاسمة، من خلال الأسرة المَلَكية ونخبة سياسية موالية يترأسها نوري السعيد. كانَ البريطانيون، عمومًا، غيرَ محبوبين في البلاد، ونُظِرَ إلى أصدقائهم المحليين -على نطاق واسع- على أنهم متعاونون معهم.

مثَّلَ حزبُ الاستقلال المعارضة الرئيسة، وهو حزب وطني يميني يدعو إلى تأكيد الاستقلال العراقي التام عن الاستعمار البريطاني. تأسس الحزب في العام ١٩٤٥؛ كثير من أعضائه شاركوا رشيد عالي الگيلاني ميوله المناصرة للنازية، ودعموا انقلابه المناهض للبريطانيين في العام

(١) أي أن يصبحوا كالغربيين. [المترجم]

١٩٤١. كانت للحزب قاعدة قوية من التأييد الشعبي، وأبدى معارضةً قوية للحزب المُحافِظ الحاكم. أضمرَ العداء لليهود بسبب أيديولوجيته اليمينية، وكذلك لأن اليهود كان يُنظَر إليهم بوصفهم حلفاء للبريطانيين. وصفتْ جريدته، «لواء العراق»، أبناء الطَّائفة اليهودية مرارًا وتكرارًا باعتبارهم أتباعًا خانعين للاستعمار البريطاني، وطابورًا خامسًا، كما دعت (أي الجريدة) إلى طرد جميع اليهود من البلاد ومصادرة ممتلكاتهم. لقد نوقشت مسألةُ هل ينبغي على العراق معاملة اليهود كما تعامل إسرائيل الفلسطينيين.

لم تكنْ لدى الحكومة نيَّة طرد اليهود، لكنَّها احتاجتْ فعلًا إلى استعادة السيطرة على الوضع من خلال العمل على إيقاف الفرار غير الشَّرعي لليهود، وتهريبِ المال اليهودي إلى خارج العراق، وكبح الأنشطة التخريبية للحركة الصهيونية السرية، التي اشتملتْ على دفع الرشاوى للسياسيين، والموظفين المدنيين، والشرطة وشرطة الحدود. بمجرد إدراكها استحالة إيقاف خروج اليهود غير الشرعي، قررت استعادة السيطرة من خلال تمرير قانون يجيزه. طلبتْ التشكيلة الوزارية العراقية، من وزير الداخلية صالح جبر، قبيل سنِّ القانون، التماسَ مشورةِ الحكومة البريطانية. ذهب جابر لمقابلة السفير البريطاني في بغداد وأُبْلِغَ بأن البريطانيين لا يؤيدون السَّماح لليهود العراقيين بالرحيل إلى إسرائيل وحسب، بل قاموا في الواقع بصياغة قانون لجعل ذلك ممكنًا أيضًا.

في ٩ آذار/ مارس من عام ١٩٥٠، مُرِّرَ قانون إسقاط الجنسية في البرلمان العراقي، مفوِّضًا الحكومة بإصدار تأشيرة خروج لأي يهودي

يرغب «بملء إرادتِه وخيارِه» بمغادرة البلاد إلى الأبد. بالإضافة إلى التخلِّي عن جنسيتهم العراقية، تعيَّنَ على أولئك الذين غادروا في ظل هذا القانون التخلِّي عن حقهم في العودة إلى العراق ثانيةً. وقد طمأنوا أولئك الذين اختاروا البقاء بأنهم سيتمتعون بحقوق مساوية لتلك التي يتمتع بهم أيّ مسلم. كان من المزمع أن يبقى القانون ساريَ المفعول عامًا واحدًا. لم يُذكَر شيءٌ عن حقوق الملكية العائدة لأولئك الذين اختاروا المغادرة. مع إعلان هذا القانون، وفتح الأبواب للهجرة اليهودية الشرعية نحو إسرائيل، انخفض الفرار غير المشروع لليهود من العراق بشكل دراماتيكي. بُرِّرَ القرارُ رسميًّا بالمعدل المرتفع لهجرة اليهود غير الشرعية، التي أضرَّت كثيرًا باقتصاد البلاد. كان رئيس الوزراء العراقي، توفيق السويدي (١٨٩٢ - ١٩٦٨)، هو القوة المُحرِّكة وراء هذا القرار.

كان السويدي سياسيًا عراقيًا تقدُّميًّا، وكان محاميًا، ومسلمًا سُنِّيًّا تزعم أسرته بأنهم من «السَّادة»، أي ممَّن يتصل نسبهم بسلالة النبي محمد. نشأ سُوَيْدِي في بيئة غير اعتيادية، غنية بتنوعها الثقافي. أُرسل في طفولته إلى مدرسة الأليانس الابتدائية في بغداد، حيث كان معظم زملائه من اليهود. لقد مُيِّزَتْ عمومًا بوصفها أفضل مدرسة في العراق وقتذاك. أرسلتْ عائلات «سادة» أخرى أبناءها الذكور إلى هذه المدرسة اليهودية، بسبب جودة تعليمها. بعد المدرسة، درس السويدي القانون في كلية بإسطنبول، وفي السوربون بباريس، وبات يتحدَّث التركية والفرنسية بطلاقة فضلًا عن الإنجليزية[٦].

عقبَ قيام إسرائيل، فرضتْ جامعة الدول العربية مقاطعةً تامَّة مع

الدولة اليهودية. العراق، مثله مثل الأعضاء الآخرين في الجامعة، التزمَ بهذه المقاطعة. لم يُسمحْ لليهود العراقيين بمغادرة البلاد إلا بإيداع مبلغ كبير من المال، ويسقط حقهم باستردادهِ إذا فشلوا في الرجوع خلال ثلاثة أشهر. هدفَ هذا القانون إلى ردع اليهود العراقيين من المغادرة إلى إسرائيل. بصفته رئيس الوفد العراقي إلى الأمم المتحدة في عام ١٩٤٩، كان توفيق السويدي يعي جيدًا الضغط العالمي، الذي كانت تديره إسرائيل وأصدقاؤها في أميركا، بهدف السماح لليهود العراقيين بحرية التنقُّل. تصاعدت الدعاية الصهيونية كثيرًا ضد الحكومة العراقية، ووصفتْ اليهود بأنهم طائفةٌ على حافة الإبادة، وأن إسرائيل تقدِّم الملاذَ الوحيد الممكن لهم. في العراق كانت للسويدي سمعةٌ تفيد بأنه مستعدٌ لمساعدة اليهود إلى أقصى درجة. كان له أصدقاء يهود كثر منذ أيامه في مدرسة الأليانس. كان حسقيل شمبتوب، رئيس الطَّائفة اليهودية في بغداد جارُه وصديقه الحميم. ينحدر شمبتوب من عائلة يهودية بارزة. كان رجل أعمال، مثقفًا وقنصلًا فخريًّا سابقًا لتشيكوسلوفاكيا. وكان مِثالًا لليهودي العراقي الوطني، والنشيط في عمله، والناجح، والملتزم بالقانون.

تعاطف شمبتوب مع الأهداف العامة للحركة الصهيونية، لكنه استهجن الأنشطة غير المشروعة لعملائها في العراق، وتوجس خيفةً من أنْ تعودَ بالضرر على طائفته. شهد شمبتوب على الأساليب الصهيونية الاستبدادية. في زمنٍ مضى يعود إلى العام ١٩٤٣، كان الجواسيس الصهاينة قد اختطفوا خفيةً ١٨ شابًا يهوديًّا من عائلات غنية من البلاد من دون إذنِ عائلاتهم. من بينهم يوسِف، ابن شمبتوب، ذو الثمانية عشر

عامًا. اغتاظ شمبتوب وتدخل بقوة مع الوكالة اليهودية في فلسطين، مطالبًا بإعادة الشُبَّان الصغار. ظهرَ يوسف بعد شهورٍ في كيبوتس متقشِّف، يروم العودة إلى دياره بأي شكلٍ. على أية حال، لم يكن بحوزته جواز سفر وقتذاك، فذهب إلى القنصل العراقيِّ في القدس، والذي كان بالمصادفة صديق أبيه، وأخبره بأنه أضاع جواز سفره. أصدر له القنصل جوازَ سفر جديدًا وحثَّه، مع طرفةِ عين، ألَّا يضيِّعَه ثانيةً[٧]. هذا مجرد مثال واحد على التوتر المتنامي بين قادة الطَّائفة اليهودية البغدادية والجواسيس الصهاينة المتطفِّلين.

أظهر شمبتوب كُرهًا عميقًا مُفرَدًا تجاه موردخاي بِن - بورات، جاسوس الموساد رفيع المنزلة في العراق والمعني بالهجرة الكبرى. كان بِن - بورات مسؤولًا عن سائر الجواسيس الآخرين، يتحكم بالميزانية، ويمتلك جهازَ إرسالٍ سريًّا للتواصل مع المسؤولين في بلاده. كان يعمل لصالح دولة إسرائيل، وليس لصالح الطَّائفة اليهودية المحلية في العراق. اتهمَ شمبتوبُ بِن - بورات بالعمل بصورةٍ لا مبالية، في الاعتداء على حقوق القيادة المحلية المُنتَخَبة؛ وتعريض منزلة الطَّائفة اليهودية إلى الخطر. تستذكر أمي مرارةَ حديثِ شمبتوب عن بِن - بورات، حين سمَّاه كذَّابًا ومُنحطًا. في نظر شمبتوب، لا شفاعةَ لبِن - بورات؛ إذْ كان يخلطُ الفظاظة مع الرعونةِ بنسبتين متساويتين تقريبًا. في إحدى المناسبات كان شمبتوب غاضبًا للغاية مع بِن - بورات بحيث أنه نزع قبعته ورماها على الأرض. اتفق توفيق السويدي مع شمبتوب بأن الهجرة هي قضية الطَّائفة اليهودية المحلية وقادتها، وليست قضية عملاء بلدٍ معادٍ. مهَّد هذا الاتفاق الطريق لقانون إسقاط الجنسية. كما

أنه دفع الحكومة العراقية لتفوِّضَ الطَّائفة اليهودية مهامَّ تسجيل وتنظيم نقل أولئك الأعضاء الراغبين بالرحيل.

لدى أمي بعضُ الملاحظات التي تُبديها حولَ القانون ومهندسيه الرئيسيين معًا. بحسب ما أفادت به، فإنَّ كثيرًا من اليهود، الذين سجَّلوا بمقتضى القانون، لم يقرروا التخلِّي نهائيًّا عن جنسيتهم العراقية؛ كانوا ببساطة يُريدون طريقًا إلى الخارج بعدما أصبح الوضع لا يُطاق. بكلمات أخرى، إنه خيارٌ بدلًا من أن يكون قرارًا لا رجعة فيه. زيادةً على ذلك، فقد تصوَّروا على نحوٍ معقولٍ بما يكفي، بأنهم حتى في حالة المغادرة، لن تتأثر حقوق ملكياتهم في العراق. بالتالي، أحسُّوا بالخديعةِ حين مُرِّر قانونٌ آخرُ بعد مرور عام، مُجمِّدًا أصولَ أولئك الذين سجَّلوا رغبتهم بالمغادرة.

كانت والدتي تكنّ تقديرًا كبيرًا للرجلين اللذين صاغا قانون عام ١٩٥٠. كان حسقيل شمبتوب صديق أسرتنا الحميم. ينضم لنا صيفًا، هو وأسرته، في نزهات عند نهر دجلة ويشاطروننا «المسگوف»، السمك المشوي، المشهور عالميًا. أُقِيمَت نُزهاتٌ أُخْرى على البرّ. أحسنتْ أمي، النجمة الاجتماعية الشابة، تحديد الأماكن الجذابة للنزهات مثل الممتلكات الخاصة ذوات البحيرات، والحدائق، والمتنزهات. كانتْ تُخبر شمبتوب ببقعة مناسبة ويتصل هو بمالكها كي يحصل على ترخيص باستعمال أراضيه. في إحدى المرات التفتَ شمبتوب إلى أمي، التي كانت شابة بما يكفي كي تكون ابنته، وخاطبها قائلًا، «ماما، إلى أين ستأخذيننا في المرة القادمة؟». تعوَّدَ هو وزوجته أن يأتيا إلى بيتنا للعبِ الورق وتعوَّدَ

والدايَ أن يذهبا إلى بيتهما. كانوا يلعبون البوكرَ بمبالغ مالية مقبولة إلى حدٍ ما. قابل أبوايَ توفيق السويدي وزوجته فخرية السعدون خلالَ المناسبات الاجتماعية في بيتهما. لم يكن السيد السويدي يلعب الورق، لكنَّ زوجته فعلتْ ذلك. مثل زوجها، تتحدر السيدة فخرية من أسرة عراقية رفيعة الشأن. كانت قد انتظمت في مدرسة الأليانس الفرنسية بالبصرة حيث تلقت تعليمها على أيدي راهبات فرنسيات[٨]. السيدة شمبتوب، السيدة السويدي وأمي أصبحن صديقات حميمات وفي بعض الأحيان كن يجتمعن كي يلعبن الورق صباحًا حين يكون أزواجهن في العمل. بينما كان معظم اليهود من طبقة والديَّ الاجتماعية يختلطون بحُرية مع المجتمع المسلم الراقي، كان حسقيل شمبتوب بشكلٍ خاص وثيق الصلة وحسن الاندماج بهم. كان واحدًا من حفنة من اليهود الذين ينتسبون إلى نادٍ اجتماعيٍّ استثنائي في بغداد.

انتسبَ خالي، إسحاق – موشيه سَلطون (S'hak-Moshi Saltoun)، إلى النادي أيضًا. كان هدفًا لمزاح ودِّي بين فرعيْ العائلة السامية. في واحدةٍ من المناسبات سأل أصدقاء مسلمون إسحاق – موشيه عن صحَّة الاعتقاد بأنَّ المسلمين سيُمسخونَ إلى حميرٍ يمتطيها اليهود بعد مجيء المسيح. لم يُنكرْ سحاق – موشي القصة. حتى أنه ألَحَّ إضافةً إلى هذا بالقول: هل سيختارون حميرًا سنية أم حميرًا شيعية؟ تفادى إسحاق – موشيه السؤال بالقول إنه حين يأتي المسيح، سيكون هنالك صخبٌ تام واليهود سوف يقفزون على أول حمار يأتي ناحيتهم من دون أن يتحققوا من طائفته!

اعتقدتْ أمي أن حسقيل شمبتوب أعطى رشوة لتوفيق السويدي كي يسمح لليهود بمغادرة البلاد. حين سألتُها ما الذي جعلها تعتقد أن السويدي تلقى رشوةً، أجابت على طريقتها المعتادة: «وماذا باستطاعته أن يفعل خلاف ذلك»؟ ثم استطردت قائلةً إنه في العراق، في تلكم الأيام، إذا ما أردتَ أن تنجز شيئًا ما، عليكَ أن ترشي الشرطي، الموظف أو الوزير المَعني. لم تكن الرشوة شيئًا استثنائيًا: كانت جزءًا من الثقافة السياسية السائدة. ربما لا نستطيع وصف ما حدث في هذه الحالة بالرشوة بالمعنى الحرفي. فضلًا عن كونه رئيس وزراء، شغل توفيق السويدي منصب رئيس لهيئة سفريات العراق، وهي شركة سفريات راسخة مقرها بغداد. مُنح امتيازُ نقل اليهود الجوي إلى خارج العراق لشركة أميركية تُدعى «نير إيست أير ترانسپورت»، وهي في الحقيقة واجهة لشركة النقل الوطنية الإسرائيلية، إل عال. في أول الأمر، تعيَّنَ على الطائرات أن تتوقف في مطار نيقوسيا بقبرص، ولكن أُسقطت الذريعة لاحقًا، وسُمح للطائرات بأن تحلق مباشرةً إلى مطار اللُّد (بن غوريون الدولي حاليًّا)، بالقرب من تل أبيب. كان من المفترض أن تستلم سفريات بغداد حصَّةً من ريع النقل الجوي استنادًا إلى عدد المسافرين. كانت الأموال المستخدمة كبيرة: عشر جنيهات إسترلينية لكل رأس مضروبة في مئة ألف مسافر سوف تدرُّ ربحًا مقداره مليون جنيه إسترليني[٩]. بهذا المعنى، يُمكن القول إن رئيس الوزراء ربح بصورةٍ غير مباشرة من الصفقة.

انقسمَ موقف الطَّائفة اليهودية تجاه القانون. بعضهم ارتابَ من أنه خُدعة لكشف واعتقال الصهاينة الراغبين بالمغادرة وأخذ أموالهم

معهم. بعضهم ممَّن كانوا متردِّدين أخَّرتهم المعوقات البيروقراطية البالغة ذات العلاقة. من أجل الحصول على تأشيرة خروج نهائي؛ يحتاج مقدم الطلب إلى حشدٍ من شهادات إبراء الذمَّة المالية - من سلطات الضريبة، وزارة العدل، القنصل المحلي والشرطة - كي يُقَرَّ بأنه (أو بأنها) ليس مَدينًا للسلطات بأيِّ مبلغ مالي. بعض العائلات انقسمتْ بحدَّةٍ بين المغادرين والباقين؛ حين يصل أحد أفراد العائلة إلى قرار حازم بالمغادرة، عادةً ما يحذو بقية الأفراد حذوه. لكنْ، لم تكن لدى الغالبية العظمى من يهود العراق نية التخلي عن البلاد التي كانوا يملكون فيها جذورًا عميقة للغاية. وبناءً على ذلك، في الأيام المبكرة بعد تمرير قانون إسقاط الجنسية، يهود قليلون جدًّا هم فقط من سجلوا للتخلي عن جنسيتهم العراقية. في السنة التالية، حدثت سلسلةٌ من التفجيرات في المباني اليهودية سرَّعت من خُطى التسجيل. كان الغرض من القنابل هو أن تُوَّلد الخوف، والرعب والضلال لدى الطَّائفة اليهودية وأن تحثَّ الغالبية العظمى من الباقين على تغيير آراءهم. كانت القنابل عاملًا واحدًا فقط في وضعٍ متدهور باضطراد. تأثيرها، على أية حال، لم يكن طفيفًا. كان هنالك ارتباطٌ مباشر بين تفجير القنابل وارتفاع عدد مقدمي الطلبات للهجرة من العراق[١٠].

فُتح مكتبٌ في كنيس مئير طويق لأولئك الراغبين بـ«إسقاط الجنسية»، أي إلغاء الجنسية. كان هذا شرطًا لتأشيرة خروج نهائي. أُفترِضَ أن يكونَ موظفو الطَّائفة اليهودية مسؤولين عن التدابير الرسمية، لكن النشطاء الصهاينة أقصوهم عن الطريق وحلُّوا مكانهم. كان شلومو هِليل في المسؤولية الشاملة المتعلقة بتنظيم الرحلات الجوية

المستأجرة إلى إسرائيل. أصبح النزوح الجماعي يُسمى «سنة التسقيط»[١١]. غير أن البدء بالعمل بطيء جدًا. في اليوم الأول ثلاثة يهود فقط جاءوا إلى المكتب الكائن في الكنيس كي يسجلوا. في ١٩ آذار/ مارس ١٩٥٠، انفجرت قنبلة في «المركز الثقافي والمكتبة الأميركيين» ببغداد، وهو مركز يرتاده يهود كثر. ألحقت القنبلة الضرر بالمبنى وجرحت بضعة أشخاص، غير أن الصدمة النفسية كانت محدودة لأن اليهود لم يكونوا هم الهدف الخاص. بحلول السابع من نيسان/ أبريل، ارتفع عدد الراغبين بالهجرة إلى ١٢٦ فردًا.

أول هجوم على هدف يهودي حدثَ في الساعة التاسعة والربع من مساء يوم ٨ نيسان/ أبريل، حين رُميت قنبلة يدوية من سيارة متحركة على الرصيف خارج مخزن الدار البيضاء، في شارع أبو نواس على ضفاف دجلة، وهو مخزن لبيع القهوة يملكه يهودي. لم يُقتَل أحد لكنَّ أربعة يهودٍ جُرِحوا في الانفجار. رغم أن الضرر كان محدودًا، فإنَّ الحادثة هزَّت أوساط الطَّائفة اليهودية. في اليوم التالي، ٣٤٠٠ يهوديٍّ عراقي حضروا إلى مكتب الهجرة لغرض التسجيل. كان معظمهم فقراء، وليس لديهم ما يخسرونه. بحلول نهاية الشهر، وصل العدد إلى ٢٥ ألفًا و٣٠٠ يهودي عراقي[١٢]. هذا العدد الكبير، غير المتوقع، من المتقدمين أجبر السلطات على أن تفتح مكاتب هجرة جديدة في المدارس والكُنُس. في منتصف العام ١٩٥٠، على أية حال، تباطأت سرعة التسجيل. أبلغَ اليهود الذين وصلوا إلى إسرائيل عن الظروف المزرية في المخيمات المؤقتة، وحذَّروا أقاربهم من السير على خطاهم. كان للتحذير بعض التأثير، لا سيّما على

اليهود الأغنى. بحلول ذلك الوقت، على أية حال، تشكلت دائرةٌ خبيثة؛ ووجدَ المترددون أن بقاءهم بات أصعب. استغلَّ الصهاينة حوادث تفجير القنابل، وأصدروا تحذيرًا لليهود كي يسرعوا ويغادروا البلاد قبل فوات الأوان. بحلول نهاية العام، أكثر من تسعين ألف يهودي سجلوا رغبتهم في التخلِّي عن جنسيتهم العراقية. وبعدها جاءت القنبلة الكبيرة.

في ١٤ كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٥١، عند الساعة السابعة مساءً، أُلْقِيَت قنبلة يدوية إلى داخل فِناء كنيس مسعودة شمبتوب الخارجي، الذي كان يُستخدم كنقطة تجمع الأشخاص الذين حصلوا على موافقة السلطات على الرحيل. كانت قنبلة من طراز ميلز بريطانية الصنع، يستخدمها الجيش والشرطة. أشارَ شهود عيان إلى أن رجلًا ذا ملامح عربية هو من ألقى بالقنبلة اليدوية. أصابت القنبلة كابلًا عالي الجهد وانفجرت، مما أسفر عن مقتل أربعة يهود وإصابة عشرين آخرين. بما أن القنبلة اليدوية رُميت على فناء خالٍ تقريبًا، فربما كان المقصود منها أن تُخيفَ بدلًا من أن تقتل؛ والارتطام العَرَضي بالسلك الكهربائي هو الذي سبَّبَ الإصابات القاتلة. مهما كانت النوايا وراءه، خلَّفَ هذا الانفجار المُميت رُعبًا حقيقيًا وطفرةً فورية في عدد الأشخاص الذين آثروا مغادرة العراق.

بمجرد أن انقشعَ الغبار، بدأتْ تنتشر شائعات تتعلق بهوية ودوافع المُهاجِم. الأشخاص الذين تكلم معهم إسحاق بار - موشيه تصوروا أن الجناة يجب أن يكونوا نازيين، أعضاء حزب الاستقلال أو بعض المجاميع المتطرفة الأخرى ممَّن يضمرون العداء لليهود. بينما ارتابَ

آخرون من أنَّ هذا عمل الحركة الصهيونية السرية. أحد الرجال أخبر بار - موشيه أنَّ رجال الحركة وحدهم الذين باستطاعتهم أن يقوموا بهذا الفعل الشنيع. «ولماذا يفعلون ذلك؟» سأل بار - موشيه. لأن مصلحتهم في تسريع رحيل يهود العراق لا يقلُّ عن مصلحة الحكومة أو الشرطة، هذا هو الجواب. مهما كان مصدرُها، استنتج بار - موشيه، القنبلة أدَّت وظيفتَها: «خوفٌ جديد داهمَ اليهود... أحسُّوا أن الأرض تتزحزح تحت أقدامهم، وقد انقض عليهم الخوف مما سيأتي لاحقًا... رمي القنبلة هو فصلٌ جديد في مرحلتنا حديثة العهد في العراق، فُتِحت هاويةٌ أمامنا»[١٣].

إذا ما أخذناه مع الهجمات الأبكر، هذا الهجوم بدا كأنه يُشير إلى أن هنالك منظمةٌ خبيثة تتآمر على اليهود. باستثناء القلة منهم، فقد اقتنع معظم اليهود بأنَّ العراق لم يعد مكانًا آمنًا بالنسبة لهم. حتى اليهود الأثرياء، من الطبقة الوسطى العليا، كانوا مُرغَمين على مراجعة خياراتهم. بحلول بداية شهر آذار/ مارس ١٩٥١، مئة وخمسة آلاف وأربعمئة يهوديٍّ سجلوا رغبتهم بالمغادرة، سبعون ألفًا منهم كانوا لا يزالون في البلاد - في حالة انتقالية أو مُعلَّقة.

في تلك المرحلة وُجِّهَتْ ضربةٌ مدمرةٌ أخرى إلى الطَّائفة اليهودية، هذه المرة من الحكومة العراقية. عَرْضُ إسقاط الجنسية الطوعي كان ساري المفعول على مدى عام كامل، سينتهي في التاسع من آذار/ مارس ١٩٥١. بحلول هذا الوقت، حلَّ نوري السعيد محلَّ توفيق السويدي كرئيس للوزراء. لم يُظهِر نوري أي مشاعر مناوئة لليهود في الماضي.

على العكس، كان مرتبطًا بسياسة فيصل الأول في مصادقة اليهود، وهي سياسة أوصت بها بقوة غيرترود بِل. لكن عدد اليهود الكبير، الذين شاركوا في التظاهرات الشيوعية ضد معاهدة بورتسموث في كانون الثاني/ يناير ١٩٤٨، أغضبَ نوري السعيد. كان يُفترض أن تُعدَّلَ هذه المعاهدة الإنجليزية - العراقية، غير أنها عمليًا أبقت العراق باعتباره محميَّةً بريطانية. أرغمت الاحتجاجات الشعبية نوري على التنصُّل من المعاهدة الجديدة، غير أنها جعلته ينقلب أيضًا على اليهود المتمردين. حتى أن شائعات انتشرت تُفيد بأنه أقسمَ على إضعاف منزلة اليهود وإفقارهم، وبأنه سيجعلهم يبيعون الحمص في شوارع بغداد[١٤]. تفحَّصَ نوري، على مدى العامين التاليين، ومن ثم وضع على الرف؛ فكرةَ نفي اليهود العراقيين إلى إسرائيل أو بدلًا من ذلك استبدالهم بعددٍ مساوٍ من اللّاجئين الفلسطينيين.

كانت تلك حكومة نوري السعيد الحادية عشرة. صار يخشى الآن من عدم نجاة الاقتصاد العراقي مع انتقال رأس المال اليهودي إلى دولة يهودية معادية؛ طردت أكثر من نصف سكان فلسطين العرب. نقضَ عند توليه منصبه، على نحو مفاجئ، سياسة السويدي اللَّينة تجاه الطَّائفة اليهودية. لقد دعا، في العاشر من آذار/ مارس ١٩٥١، مجلسَ النواب إلى جلسة خاصة ومرَّرَ القانون رقم ٥: مراقبة وإدارة ممتلكات اليهود الذين أُسقِطت عنهم الجنسية العراقية. جمَّدَ هذا القانون كلَّ أصول اليهود الذين تخلوا عن جنسيتهم: المنازل، والأعمال، والمحلات التجارية، والبضائع، والسندات المالية، والحسابات البنكية. أصبح القانون ساري

المفعول فورًا ونُفِّذ بلا رأفة. أُمرت البنوك بإغلاق أبوابها على مدى يومين، حُجِزتْ الشركات اليهودية، وأحكمتْ الشرطة إغلاق المحلات التجارية اليهودية، وحرمت أصحابها من حرية الوصول إليها.

سَعى نوري، من خلال تمرير هذا القانون، إلى معاقبة اليهود العراقيين وإسرائيل على السواء. حُوِّلَتْ أصول الثروة اليهودية – العراقية القادرة على بناء إسرائيل حديثة النشوء، إلى صناديق الخزينة العراقية. بالنسبة لليهود المغادرين، لم يكن هذا القانون أقل من كارثة. لقد اصطادهم -هذا القانون- وهم بلا دولة، بلا مهنة وفي حالاتٍ كثيرة بلا مسكن. أولئك الذين لم يبيعوا منازلهم بعدُ، وكذلك أولئك الذين باعوا منازلهم وأودعوا العائدات في البنك، فقدوا كلَّ شيء. تم تهريب بعض الأصول خارج البلاد بطرق غير مشروعة، لكن معظم اليهود البالغ عددهم ٧٠ ألفًا والذين كانوا قد سُجلوا للرحيل ولم يغادروا بعد، أصابهم فقرٌ مدقعٌ بين ليلةٍ وضحاها. سيُسمح لكلِّ إنسان بالغ، ينتظر مقعدًا في طائرة تغادر البلاد، بأخذ خمسين دينارًا عراقيًّا نقدًا وحقيبة سفر واحدة.

خلال بقية العام وقع حادثان تفجيرٍ أخريان بالقنابل. في العاشر من أيار/ مايو ١٩٥١، بتمام الساعة الثالثة فجرًا، قُذِفتْ قنبلة يدوية على واجهة «معرض سيارات بيت اللواء» الذي يملكه يهودي في شارع الرشيد. كانت الشركة وكيلة استيراد السيارات الأميركية. تحطم جزءٌ من المبنى غير أنه لم يلحق الأذى بأي فردٍ بما أن المكان كان خاليًا وقتَ الانفجار. في التاسع من حزيران/ يونيو، وُضع جهاز تفجير عند مدخل مبنى يمتلكه يهودي اسمه ستانلي شعشوع، وهو وكيل آخر متخصص

باستيراد السيارات الأميركية. ألحقَ الانفجار بعض الضرر بالبناية إلا إنه لم تكن هنالك إصابات بشرية. في تلك الأثناء، مددت الحكومة الموعد النهائي للتسجيل من آذار/ مارس إلى نهاية تموز/ يوليو. بحلول نهاية العام ١٩٥١، أكثر من ١٢٠ ألف يهودي سجلوا رغبتهم بالمغادرة، وفي بداية العام ١٩٥٢ غادروا كلُّهم تقريبًا إلى إسرائيل؛ وهذا هو الهدف الوحيد لعملية عزرا ونيحميا. قادَ الطائرات طيارون يهودٌ يحملونَ جوازات سفر أجنبية. بالنسبة لإسرائيل فقد منحتْها العمليةُ، بغضِّ النظر عن الحمولة البشرية، عائداتٍ مالية بالعُملة الصعبة؛ تُقدَّر بمئات الآلاف من الجنيهات الاسترلينية.

مسألة أنَّ القنابل الخمس لعبتْ دورًا معينًا في إقناع يهود العراق بالهجرة إلى إسرائيل أمرٌ لا يقبل الجدال. السؤال الكبير هو مَن الذي زرعَ القنابل؟ الدليل الذي اكتشفته يوفر جوابًا جزئيًّا على هذا السؤال: ثلاثٌ من خمسِ قنابل كانت صنع الحركة السرية الصهيونية في بغداد. غير أنه قبل تقديم الدليل على نسختي من الأحداث، لكن قبل أن أعرض الأدلة على روايتي للأحداث، أود أن أَبتّ في النسخة الصهيونية التقليدية المتعلقة بالنزوح الجماعي لليهود العراقيين. هذه النسخة ترفض بشكل صريح أيَّ دور صهيوني في زرع القنابل. أهمُّ مروِّجي هذه النسخة هما شلومو هِليل وموردخاي بِن - بورات. وُلد شلومو هِليل في عام ١٩٢٣ ببغداد وهاجرَ إلى فلسطين في العام ١٩٣٤. لعبَ، بعد الحرب العالمية الثانية، دورًا رئيسًا في تنظيم الهجرة المشروعة -وبعدها غير المشروعة- لليهود العراقيين إلى إسرائيل. كان نجاحه الأكبر هو اللقاء مع رئيس الوزراء توفيق السويدي،

وفيه قدَّم نفسه بصفته موظفًا في شركة تأجير رحلات جوية أميركية، نير إيست أير ترانسبورت، وحصل على امتياز نقل اليهود إلى خارج البلاد. واصلَ هِليل طريقه كي يحصلَ على سمعة مميزة بصفته دبلوماسيًّا، ووزيرًا ومتحدِّثًا باسم الكنيست: (برلمان إسرائيل). نشر هيليل روايةً شخصية لما وصفه مجهودًا صهيونيًا بطوليًّا لإنقاذِ يهود العراق. في هذا الكتاب وصفَ الادِّعاء بأن عملاء الحركة الصهيونية هم من ألقوا القنابل اليدوية لإخافة يهود العراق وحثِّهم على الهرب، بـ«سخيف للغاية» روَّجت له الأحزاب العربية لأهداف شخصيةٍ[١٥].

وُلد موردخاي بِن - بورات في العام ١٩٢٣ ببغداد، باسم مراد قِصاص. نشطَ في الحركة الصهيونية السرية، وغادر العراق بصورةٍ غير مشروعة إلى فلسطين المُنتدَبة في العام ١٩٤٥. أُعيد إلى بغداد في العام ١٩٤٩ من قبل «Mossad I'Aliyah Bet»، المنظمة المسؤولة عن الهجرة السرية، لتجهيز الأرضية للنزوح. كان مسؤولًا شاملًا عن عملية عزرا ونيحميا، وبالنتيجة فهو شخصية رئيسة في القصة. كان بِن - بورات شخصيةً خشنةً واستبداديةً خاصم قادة الطَّائفة اليهودية البغدادية من خلال وقاحته، ومن خلال العمل من دون الأخذ بمشورتها، ومن خلال التجاوز على حقوقها وتعريض حياة اليهود الذين آثروا البقاء في العراق للخطر. مثَّلَ خمسة أحزاب سياسية مختلفة في أثناء دوراته الأربع بصفته عضوًا في الكنيست. نفى بشدة أي تورط له في تفجيرات بغداد، لكن الإشاعات استمرت بملاحقته. أسماهُ اليهود العراقيون الساخطون «مراد أبو القنابل»[١٦].

نشر بِن – بورات روايته الخاصة تحت عنوان «ذهابًا وإيابًا إلى بغداد». الكتاب يتسم بالتباهي والمبالغة في تقدير الذات. وعلى الرغم من ذلك، فهو تقريرٌ ثمين عن مرحلة زاخرة بالأحداث في تاريخ يهود العراق. حملَ الفصل الثاني عشر عنوان «قنابل في شوارع بغداد». هنا المؤلف يُشير بوضوح، باعتباره فردًا ترأس العملية، إلى كون الادِّعاء بأن مبعوثيْ الحركة الصهيونية هم الذين ألقوا القنابل في قلب بغداد بُغيةَ إخافة اليهود ودفعهم للهجرة، ادِّعاءً تافهًا ولا أساسَ له من الصحة على الإطلاق. في حقيقة الأمر، وصلَ به الحدُّ إلى أن يسمي هذا الادعاء بأنه قذفٌ وتشهير[١٧]. وكمُلحقٍ لكتابه، يضمُّ بِن – بورات تقريرَ العام ١٩٦٠ المتعلق بلجنة التحقيق في القضية. أشار التقرير إلى أن اللِّجنة لم تجد أي دليل حقيقي على أن الهجمات نفذتها منظمة يهودية أو أفراد يهود. كما أن اللجنة لا تستطيع أن تفكر في أي سبب منطقي من المحتمل أنه قاد منظمةً يهودية كي تحرِّض على هجماتٍ كهذه. كانت اللجنة مقتنعةً على السواء بأنه ما من منظمة إسرائيلية أعطتِ الأمرَ بشنِّ تلك الهجمات[١٨]. في العام ١٩٧٧ اتَّهمَ صحفيٌّ إسرائيلي يُدعى باروخ نادِل، بِن – بورات، بضلوعه مباشرةً في زرع القنابل. بدورهِ قاضى بِن – بورات الصحفيَّ بسبب هذا التشهير ونال اعتذارًا صريحًا[١٩].

بالنسبة لبِن – بورات كانت هذه نهاية القضية. لكنَّها ليست كذلك بالنسبة إليَّ. بمقدوري الآن أن أقول بثقةٍ تامَّةٍ بأن بِن – بورات لم يُلقِ قنبلةً واحدةً من القنابل التي انفجرت في شوارع بغداد بين عامي ١٩٥٠ – ١٩٥١. مسألة ما إذا كان متواطئًا، وكذلك ما إذا كان لديه أي معرفة

مسبقة، هي مسألة منفصلة. بالنظر إلى منصبه المركزي كأرفع مبعوث إسرائيلي إلى العراق، يصعب تصديق أنه لم يكن لديه علم بما يفعله زملاؤه في الحركة السرية الصهيونية. لكن ليس لدينا إجابات قاطعة حتى الآن. الشخص المسؤول عن القنابل الثلاث كانَ يهوديًّا بغداديًّا عمره ٢٨ عامًا، يُدعى يوسِف ابراهيم بصري، مهنته محامٍ، وهو شخص اشتراكي، وطني يهودي متحمس، وعضو في «حاشورا»، الجناح العسكري لـ«حتنوا». في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٩، عندما استفحل اضطهاد الأقلية اليهودية، غادر بصري العراق بصورة غير مشروعة وواصل عبر طهران طريقه نحو إسرائيل، حيثُ جُنِّد في الموساد وأُعيد إلى بغداد جاسوسًا ووكيلَ أمنٍ. لم يكن بصري مسؤولًا عن الحادثة المهلكة في كنيس مسعودة شمبتوب؛ إلا إنه كان مسؤولًا عن التفجيرات الثلاثة الأخرى. لم يكن القتل هدفه، وإنما زرع الخوف في أفئدة اليهود المترددين وحثهم على تسجيل رغبتهم بالمغادرة وإسقاط جنسيتهم العراقية. على الأقل هذا هو الانطباع الذي حصلتُ عليه من خلال التحدث مع يهوديٍّ بغدادي آخرَ ينتمي إلى الحلقة الصهيونية المتماسكة نفسها والتي، بعد ستة وستين عامًا، أعطتني القصة غير المَروية وراء النزوح.

اسم مصدري هو يعقوف كركوكلي، يهوديٌّ عراقي وُلد في بغداد عام ١٩٢٨، أمضى عقوبات عديدة بالحبس بسبب أنشطة صهيونية، وفي الختام هربَ من العراق إلى إسرائيل في عام ١٩٧٣. كان جار وصديق أمي في رَمات گان وقد قابلتُه من خلالها في زيارةٍ لي شهرَ آذار/ مارس من عام ٢٠١٧. كانت لأمي مجموعة من الصديقات، من اليهوديات

العراقيات المسنات اللواتي يجتمعن بانتظام مساءَ الإثنين من كل أسبوع لتناول القهوة والكعك في صالة الاستراحة بالفندق في كي فار ها-مكابيا، في ضاحية من ضواحي رَمات گان المحاطة بالأشجار. في أحد أيام الاثنين، جاء يعقوف وزوجته داليا لاصطحابنا بسيارتهما إلى الفندق. جلستُ بجانبه في السيارة، وفي الفندق كذلك. إنَّه رجل يضع نظارات طبية، متوسط القامة، هزيلٌ كالعصا، له خدّان غائران، وشَعرٌ وحاجبان وشاربان بلون الثلج. كان ثقيل السمع، يتكلم ببطءٍ وتروٍ، ولغته العِبرية ذات لكنةٍ عربية جليَّة. في مجموعتِنا كان ثمَّة أربعة أو خمسة أزواج مع زوجاتهم، والحوار يُجرى بخليطٍ من العِبرية والعَربية. معظم أولئك الحاضرين، على غرار كركوكلي، هم يمينيون، يزدرون العربَ، ومن ناخبي حزب الليكود؛ وأغلب الحديث يدور حول القضايا الراهنة. حاولتُ أن أقود حديثي مع كركوكلي بعيدًا عن الحاضر؛ صوبَ الماضي البعيد.

أثناء الأمسية، وخلال النقاشات، عرفتُ قدْرًا كبيرًا عن خلفية كركوكلي. تستحقُّ قصته أن يُعيدَ المرء سردها لما تُلقيه من ضوء على الارتباطات الوثيقة بين إسرائيل والصهاينة وسط يهود العراق، والطريقة التي عملت فيها أجهزة إسرائيل الأمنية وراء خطوط العدو. التحق يعقوف بمدرسة ثانوية للمسلمين، وهو أمرٌ نادرٌ بالنسبة لفتى يهودي. في مطلع الثلاثينيات من عمره، اكتسب معرفة عميقة بالتاريخ الإسلامي وعلم التوحيد والقرآن والشريعة الإسلامية. كان ذلك بعدَ انقلاب ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨ العسكري الذي أطاح بالحُكم المَلَكي في العراق. قائدُ

الانقلاب هو الزَّعيم عبد الكريم قاسم الذي شاءتْ المصادفة أن يكون جار كركوكلي. كان قاسم وطنيًّا عراقيًّا، ومُصلِحًا اجتماعيًا أصيلًا مناهضًا للإمبريالية. جعلته تجربته -وهو ضابط شاب في حرب ١٩٤٨- ينقلب ضد البريطانيين والصهاينة الذين كانوا تحت حمايتهم، لكن ليس ضد الأقلية اليهودية في العراق - فقد أظهرَ موقفًا ليبراليًّا ونبيلًا لافتًا تُجاه يهود العراق حتَّى أُطيحَ به في انقلابٍ بعثيٍّ عام ١٩٦٣. تذكر كركوكلي قاسم بوصفه رجلًا لطيفًا ومستقيمًا كان يُعطي نصف راتبه لأبويه ويواصل أسلوب حياته المتواضع بعد صعوده إلى قمَّة السلطة. أصبح الرجلان صديقين. ساعده قاسم في أن يُقبَلَ بـ«كلية الدراسات الإسلامية» في بغداد؛ إذْ لم يكن مرغوبًا بغير المسلمين. أكمل كركوكلي دراسته بتميُّز في عام ١٩٦١. تلّقى قرآنًا فخمًا من عميد الكلية وأرفق معه رسالة تهنئة من رئيس الوزراء. أشارتْ الرسالةُ بزهوٍ إلى أنها أول مرة يحظى فيها ابن أقلية بهذه الجائزة المَهيبة.

في تموز/يوليو من عام ١٩٦٨، دُشِّن عصرٌ مظلمٌ في العراق بانقلاب آخر قاده حزب البعث، وصل بصدام حسين إلى منصبِ نائب رئيس الجمهورية. أدخلَ صدام تدابيرَ قاسية ضد سائر أقليات العراق وبخاصة ضد اليهود. في هذه البيئة العدائية عمومًا، أُعتقل كركوكلي وأُخِذ من أجل التحقيق أولًا إلى البصرة ومن هناك إلى قصر النهاية في بغداد، وهو قصر مَلَكي عثماني حوَّله نظام البعث إلى سجنٍ سيئ السمعة معروف شعبيًا باسم «قصر اللَّا عودة» لأن السجناء، الذين يُقال بأنهم أعداء النظام، كانوا يُعذَّبون ويُقتَلون هناك. كان هنالك جناحٌ خاص للشيوعيين. أمضى كركوكلي خمسة أعوام في السجن، بعضها في حبس

انفرادي. خضع إلى أكثر أشكال التعذيب إيلامًا وتدهورت حالته الجسدية والنفسية إلى درجة أنه كان يتوسَّل حراسه بأن يطلقوا عليه النار. لم تكن هنالك تُهم رسمية، من أي نوع، قد وُجهت ضده ولم تُعقَد أيُّ محاكمة رسمية. في كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٧٣ أُفرِج عنه فجأةً من دون تفسير، وسُمِح له بمغادرة العراق مع أفراد أسرتِهِ للعيش في إسرائيل[٢٠].

انجذبَ يعقوف، في سنٍّ مبكرةٍ، إلى الحركة الصهيونية. والشيء نفسه ينطبق على شقيقته روث وشقيقه الأصغر منه سنًا أقراهام. صُدِمَ أفرادُ الأسرة كلُّهم بـ«الفرهود»، وأملوا بمستقبل أفضل مع الهدف الصهيوني المتعلق بدولة يهودية مستقلة في فلسطين. حين كان يعقوف في سن السابعة أو الثامنة، ترك فيه شقيقه الأكبر منه سنًا، شلومو، انطباعًا بأن وطنهم الحقيقي ليس العراق، بل فلسطين. في عام ١٩٤٤، حين كان في السادسة عشرة من عمره، زار يعقوف فلسطين أول مرة كي يمكث مع شقيقته روث. خلال زيارته أخذه أحد الأشخاص كي يرى أيسر هارِل، رئيس الخدمة الأمنية الداخلية للدولة التي كانت في طور التكوين. أشار هارِل إلى أن يعقوف باستطاعته أن يكون نافعًا وسأله ما إذا سيكون مستعدًا لمساعدتهم. من دون تردُّد، قال يعقوف «نعم!». أُعطي اسمًا رمزيًا، غيديون. كانت مهمته الأولى هي أن يساعد خبيرًا في استخراج نسخة مطابقة من الأختام المتنوعة والرُخص على جوازِهِ العراقي. كانت هذه الوثائق المزورة قد استخدمتها الحركة مرارًا وتكرارًا كي يستطيعَ أعضاؤها الخروج من العراق عبر إيران ومن ثم الدخول إلى فلسطين. في بغداد، استمر يعقوف في خدمة القضية الصهيونية من

خلال جمع المعلومات ومساعدة مبعوثيها السريين بطرائق عملية لا تُعد ولا تُحصى. يزعم هو أنه زوَّد إسرائيل بقائمة كاملة بما يحوزه العراق من أسلحة في ١٩٤٨، السنة التي شهدت فيها خوض أول حرب عربية - إسرائيلية.

أكَّد لي يعقوف كركوكلي أنه أصبح ناشطًا صهيونيًا انطلاقًا من قناعة أيديولوجية خالصة. كان قد تمرَّنَ كي يكون محاسبًا، وكسب رزقًا جيدًا ولم يكن بحاجة إلى أي دعم مالي. في حقيقة الأمر، كان مستعدًا لأن يدفع ثمنًا غاليًا عن خدماته للقضية الصهيونية، من خلال الاعتقال والتَّعذيب. على الرغم من أنه نجا من المحنة، إلَّا إنها خلَّفت فيه ندوبًا جسدية وعاطفية؛ ومع ذلك هو غير نادم البتة. بينما يعود بالنظر إلى ماضي حياته، تجده فخورًا بما صنعه، وبصراحة دُهِش بالجرأة التي أظهرها يومَ كان شابًّا في مواجهة الشدَّة. لو تسنى له أن يمتلك فرصته مجددًا، فسوف يقوم بذلك مرةً أخرى، قال لي. التزامه بدولة إسرائيل لم يكن مشروطًا، حتى إنه برَّرَ الطرائق القاسية التي استخدمتها الدولة من أجل تصفية الشتات اليهودي في العراق. قلَّةٌ دفعوا حياتهم ثمنًا وكثيرون فقدوا أصولهم وأموالهم، لكنَّ المكاسب من أجل الدولة اليهودية حديثة النشوء لا حصرَ لها. مع إنه هو نفسه مؤيد على مدى حياته لحزب الليكود اليميني، يعتقد كركوكلي أن ديفيد بِن - غوريون، قائد حزب العمل وأول رئيس وزراء إسرائيلي، امتلكَ بصيرة وحكمة عام ١٩٥٠ كي ينظرَ خمسين عامًا إلى الأمام. لو أنه لم يفعل ما فعله، لضاعتْ فرصةٌ فريدة: أقل من خُمسِ يهود العراق كانوا سيهاجرون فقط، وكانت إسرائيل لتتدهور

على المستويات الديموغرافية والاقتصادية والأمنية. إنَّ استئصال جذور الطَّائفة اليهودية من العراق كان مُبرَّرًا تمامًا.

بعبارةٍ أخرى، يعتقد هو أنَّ الغاية تبرر الوسيلة. غير أنه يمتلك شيئًا، يذكره عن تفجيرات بغداد والحركة الصهيونية السرية، أكثرَ إثارةً للاهتمام. حين وصلتُ إلى البيت، دوَّنت بسرعةٍ كلَّ ما وسعني تذكره. باختصارٍ: انتمى يعقوف كركوكلي إلى مجموعةٍ صغيرة كانت قد أنجزتْ الترتيبات العملية لأولئك اليهود الذين آثروا الرحيل بعد تمرير قانون إسقاط الجنسية؛ مجموعة ضمت يوسِف بصري، المحامي وعضو حاشورا؛ بصري نفَّذَ هجمات إرهابية بمفرده من دون أن يُخبرَ الآخرين عمَّا يفعله؛ كان موجِّهُ بصري ضابط استخبارات إسرائيلي يُدعى ماكس بِنيت، مقره في إيران؛ بِنيت جهَّزَ بصري بقنابل يدوية ومادة الـ(TNT) المتفجرة؛ وقد نفَّذَ بصري ثلاث هجمات على مواقع يهودية، ليس من بينها الهجوم على كنيس مسعودة شمبتوب.

أصرَّ كركوكلي، إلى حدٍّ كبير، بأن لا صلةَ لبصري بالهجوم على الكنيس. هذا يستدعي السؤال الواضح: مَن هو الجاني الحقيقي؟ أجاب كركوكلي، مع لمسةٍ من الاعتداد بالنفس، أنه الشخص الوحيد في العالَم الذي يعرف جواب هذا السؤال. وبعد بعض الإلحاح، كشف عن هوية الجاني. إنه صالح الحيدري، مسلم سُنِّي من أصول سورية. وصف كركوكلي الحيدري بأنه رجل فاسد ومحتال، يعتاش على خداع الآخرين واستغلال النساء. إذ أنه كان يعتمد على الأموال التي تجنيها شقيقاته من أعمال غير أخلاقية. عرف بعض اليهود، واقترف غلطة محاولة الاحتيال

عليهم. أبلغوا عنه الشرطةَ، فأُلقي القبض عليه وأُدين، وأمضى عقوبةً بالحبس. الحيدري هو الذي ألقى القنبلة اليدوية في فِناء الكنيس كفعلٍ انتقامي ضد اليهود الذين بلَّغوا السلطات عنه.

أثارت هذه الاكتشافات فضولي وأشعلت رغبتي في معرفة المزيد. كان مطلوبًا مني أن أعود إلى المملكة المتحدة مساء اليوم التالي. سألتُ كركوكلي ما إذا كان بمقدوري أن أزوره في بيته صباحًا مع مفكرة كي آخذ بعض الملاحظات. أجابني أن ساعات قلائل لن تكون كافية. كان يعرف القصة كلها، وبحوزته وثائق تُثبتها، إلَّا إني أحتاج إلى يومين أو ثلاثة أيام كاملة معه كي أحصل على القصة الكاملة. لم يكن أمامي خيارٌ سوى أن أتركها عند هذه النقطة. العدد حتى الآن ثلاث قنابل رماها يهودي، واحدة رماها مجرمٌ مسلم وقنبلةٌ أخيرة مصدرُها مشكوكٌ فيه. بينما كنتُ أركب طائرة الخطوط الجوية البريطانية من مطار بِن - غوريون إلى مطار هيثرو؛ بقيتْ أسئلة كثيرة لدي دون أجوبة.

كانت رحلتي التالية إلى إسرائيل في أواخر تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠١٧. هذه المرة مضيتُ مُسلَّحًا بآلة تسجيل. كان الهدف الأساسي للرحلة هو أن أُلقي خطابًا رئيسًا في مؤتمر فلسطيني بالقدس الشرقية بمناسبة الذكرى المئوية لوعد بلفور. فضلًا عن حضور المؤتمر، أمضيتُ أسبوعًا في رَمات گان. في ٢٨ تشرين الأول/ أكتوبر، جاءَ يعقوف كركوكلي وزوجته داليا إلى شقة أمي. الحوار، الذي سجلتُه، كان كلُّه بالعِبرية واستمرَّ ساعةً ونصف. تخلَّلته مداخلات من أمي، في خليط من العِبرية والعَربية، كي تُجيبَ على بعض الأسئلة التي وجهتُها إلى ضيفنا أو

كي تقدِّم لنا القهوة، والشَّاي، والعرقَ، والمكسرات، والتمر، والمشمش المجفف، والشوكولاته، والمرطبات الأخرى.

أقترحُ الآن أن أذكر بالتفصيل مادة الحوار على الرغم من أنه يتضمن بعض التداخل مع ما كتبتُه آنفًا في هذا الفصل. بعد تمرير قانون إسقاط الجنسية، تشكَّلتْ مجموعةٌ صغيرة، مؤلفة من مبعوثين إسرائيليين وصهاينة محليين، لتسريع عملية التسجيل والهجرة. ضمَّت المجموعة موردخاي بِن - بورات، المبعوث الإسرائيلي رفيع المقام، ويوسِف بصري، ويوسِف خبازة، وساسون صادق، ويعقوف كركوكلي نفسه، وقلة آخرين. تعوَّدوا أن يجتمعوا في منزل ساسون صادق كي يلعبوا الورق، لكن ذلك كان مجرد غطاء لأنشطتهم الحقيقية.

تذبذبت استجابة الطَّائفة اليهودية للقانون، وكانت بطيئةً. مئات فقط تقدموا في المرحلة الأولية. خابَ أمل السلطات الإسرائيلية حيال تلك الاستجابة. جرت مشاوراتٌ أفضتْ إلى ضرورة القيام بعملٍ ما من شأنه أن يشجع اليهود على التخلي عن جنسيتهم العراقية. كانت إسرائيل بحاجة إلى قوة بشرية لبناء البلاد ولزيادة الأعداد في الجيش أيضًا. في ذلك الحين كان عدد سكان إسرائيل قليلًا جدًّا، ٦٠٠ ألف لا غير، مطوَّقة ببلدان عربية مجموع سكانها عشرات الملايين. كانت هنالك حاجةٌ ماسَّة لزيادة أعداد الطرف اليهودي من تلك المعادلة الديموغرافية.

لم يكن بمستطاع كركوكلي أن يتذكر تواريخ حوادث التفجيرات ومواقعها على وجه الدقة. إلا إنه يتذكر فعلًا أسماء دار البيضاء، بيت اللواء، وشركة ستانلي شعشوع لبيع السيارات، وأشارَ إلى أنه في إحدى

المناسبات غاب يوسف بصري بضعة أيام من دون أن يُعطي أي تفسير، وأن الغياب تزامن مع واحد من تلك التفجيرات. في مناسبة أخرى، غادر بصري أحد الاجتماعات طوال ساعتين ومن ثم عاد، كان صامتًا ومتوترَ الأعصاب. في مناسبة ثالثة، رأى كركوكلي بصري في الشارع بسيارته الصغيرة، سوداء اللون من ماركة أوستن. وصل بصري إلى الاجتماع بعد خمس دقائق تقريبًا من وصول كركوكلي، أشعثَ الشعر قليلًا، قلقًا بعضَ الشيء ومرتبكًا نوعًا ما. كان غير راغب في الكلام؛ وجلسَ بهدوء فقط في زاويةٍ محاولًا استعادة رباطة جأشه. يعتقد كركولي، غيرَ متيقنٍ، أن ذلك صادف ربَّما يومَ تفجير مقهى الدار البيضاء، الذي جُرح فيه يهوديٌّ واحد في إحدى عينيه. على أية حال، لم يُفصِح عن شكوكه ببصري، ولم يناقشْها مع أي عضو آخر من أعضاء المجموعة.

قال كركوكلي إنَّ موجِّهَ بصري ضابطُ استخبارات إسرائيلي يُدعى ماكس بِنيت، مقرُّهُ طهران. اسمه الكامل مائير ماكس بِنيت، وكان ضابطًا برتبة رائد في فرع استخبارات القوات الجيش الإسرائيلي (IDF). في طهران تمتَّعَ بِنيت بحُرية عملٍ كبيرة في نطاق شبكة من التعاون السرِّي بين البلدين. زوَّدَ بِنيت بصري بالخرائط، المعرفة، الإرشادات، القنابل اليدوية ومادة الـ(TNT) المتفجرة. ضُبطت القنابل اليدوية، والمتفجرات، والإرشادات بعناية لغرض الترهيب لا القتل. تعيَّنَ على بصري ترك سيارته في خانقين، نحو ثمانية كيلومترات من الحدود مع إيران، في رافد «الوند» المتفرع من نهر ديالى، ومن ثم عبور الحدود بصورةٍ غير مشروعة كي يقابل مشرفه أو موجهه. لم يكن ذلك أمرًا

بالغَ الخطورة بما أن الحدود لم تكن خاضعة لحراسةٍ مشددة. بعد اعتقال بصري، عُثِرَ في سيارته على آثارٍ من مادة الـ(TNT) المتفجرة تطابق الآثار المأخوذة من مكان التفجير.

أُعتقل بصري في العاشر من حزيران/ يونيو ١٩٥١ بسبب خطأ ارتكبه. بعد أربع قنابل انفجرت في شوارع بغداد، خضع قسم التحقيقات الجنائية (CID) لضغوط هائلة من أجل العثور على الجُناة. لاحظ المخبرون أن مجموعةً من اليهود اجتمعوا في بيت ساسون صادق بظروف مشبوهة، لذا اقتادوه إلى مركز الشرطة من أجل التحقيق. أقرَّ صادق أن أصدقاءه أتوا إلى بيته كي يلعبوا الورق. لم يكن باستطاعته أن يُخبرهم بأي شيء عن القنابل لأنه لا يعرف شيئًا. كان بصري ابن عمة صادق ووكيلًا قانونيًّا.

في صباح يومٍ ما اتصل بصري هاتفيًا بزوجة صادق، سمحاء، كي يساعدها في ترتيب زيارة لزوجها في مركز الشرطة. سُمع طَرقٌ على الباب. اختلس بصري النظر من النافذة ورأى سيارة الـ(CID). كان ينبغي له أن يبقى في مكانه ويُخبر المخبرين بأنه وكيل ساسون صادق القانوني، وأنه هناك كي يحاول أن يضمن إخلاء سبيله. إلا إنه اضطربَ وأخفى نفسه في داخل خزانة ثياب. سألَ المخبرون سمحاء ما إذا تعرف يوسف خبازة. أجابت بأنها تعرفه غير أنها تجهل مكانه. في الواقع، كان خبازة قد تمكَّن للتوِّ من الهرب خارج العراق بوثائق مزوَّرة وهو في طريقه إلى إسرائيل. شرع المخبرون بتفتيش المنزل ووجدوا بصري مختبئًا في خزانة الثياب. سألوه: «مَن أنت؟». أخبرهم بصري باسمه، وإنه محامٍ، وابن عمة ساسون صادق.

غير أن الأوان قد فات الآن ليتظاهرَ بصري ببراءته. لو كان بريئًا، لماذا هو مُختبئ؟ لم يكن بصري قادرًا على تقديم تفسير مقبول. أُعتقل على الفور، واقتيدَ إلى الحبس، خضعَ للتعذيب طويل الأمد وحاول الانتحار. بعد قُرابة شهر من التعذيب المروِّع، انهارَ واعترفَ بأنه مسؤول عن ثلاث قنابل لكن ليست تلك الملقاة في فناء كنيس مسعودة شمبتوب[٢١].

كان كركولي قد أخبرني سابقًا، في لقائنا الأول، أن مرتكب جريمة القنبلة في الكنيس هو شخص سوري سيئ السمعة اسمه صالح الحيدري. كما أخبرني بأنه عمل انتقامي ضد اليهود، الذين يزعم أنهم ظلموه. لكنه أدهشني الآن بالقول إن ضابط شرطة البتاوين هو من طلب من الحيدري القيام بذلك العمل البغيض! إنَّ ذلك لا يعني شيئًا، قلت له. لماذا يتعين على ضابط شرطة عراقي أن يقوم بهذا الفعل القذر لمصلحة الحركة الصهيونية السرية، أي بالضغط على يهود العراق كي يهاجروا إلى إسرائيل؟ عند سماع تفسير كركوكلي، كدتُ أسقط من على الكرسي الذي أجلس عليه: الرجل الذي نتكلم عنه هو عَمِيل تلقى رشوةً من الحركة الصهيونية السرية. كانت الحركة تُريد أن تبث الخوف في نفوس اليهود الذين لا يزالون يتمنَّون البقاء في العراق، لذا أعطوا رشوةً لضابط الشرطة، الذي استأجرَ الحيدري لارتكاب العمل الحقير.

سألتُ، غيرَ مصدِّقٍ، ما إذا فجَّر وكلاء الصهاينة بنايات يهودية على نحو متعمد. «أجل»، أجابَ بهدوء. تساءلت بعدها: «هل تورَّطَ جواسيس إسرائيل مباشرةً في دفع الرشاوى للسياسيين العراقيين الفاسدين؟» لم يعرفْ كركوكلي الجواب. لقد اعتقدَ أن الحركة هي

التي دفعت الرشاوى. لكنَّه شبَّه الموساد بأخطبوط. لم يكن يعرف الكلمة باللُّغة العِبرية لذا استخدمَ العربية فقالَ كلمتيْ - «أخطبوط» و«أغدبوص»[٢٢]. هل عرفَ بصري أن ضابط الشرطة كانَ في خدمة الصهاينة؟ مالَ كركوكلي إلى الاعتقاد بأنه فعل ذلك، لكنه لم يكن متأكدا. ما كان يعرفه فعلًا هو أن ضابط الشرطة قد أُعتقل، ثم حُوكِم وأُدين بالتعاون مع العدو. على أية حال، سُلطتْ تغطية إعلامية محدودة على محاكمته. ظلَّت الحركة الصهيونية، كما هو متوقع، بعيدةً عن الأنظار قدر الإمكان في هذه القضية، متفاديةً لفتَ الانتباه إليها. كما حاولتْ باستماتة التقليل من شأن الرشاوي التي موَّلتْ الموظفين وعمليات «الراية المزيَّفة»[١]. من جانبها، كانت السُّلطاتُ محرُجةً أن يُكشفَ الخائنُ من بين صفوفها. لهذا بذلوا كل ما بوسعهم كي يُبقوا هذه الحالة الخاصة بعيدةً عن الأضواء الكاشفة. بالمقارنة، أعلنوا نجاحهم في كشف حَلَقة الجواسيس والمُخرِّبين الصهاينة، وتقديمهم إلى العدالة.

ناشط صهيوني آخر قبض عليه الـ(CID) هو مساعد بصري، شالوم صالح شالوم. كان شالوم إسكافيًّا ساذجًا نوعًا ما، في التاسعة عشرة من عمره جُنِّد إلى رُتَب حاشورا، وتدرَّب كخبير للأسلحة. كان الجواسيس الإسرائيليون، كما أشرنا آنفًا، يُهرِّبون الأسلحة إلى بغداد ويدرِّبون سرًا شبَّان اليهود العراقيين على استخدامها بغرض الدفاع عن أنفسهم في حالة حصول «فرهود» آخر. كان عمل شالوم إخفاء الأسلحة في كُنُس متنوعة ومنازل شخصية. كما اختارته الحركة الصهيونية السرية

(١) تعني عملية لغرض التمويه. [المُترجم].

لمهمة تقديم المساعدة في مسألة تسجيل اليهود الذين قرروا التخلّي عن جنسيتهم العراقية. كان موقع التسجيل الرئيس في كنيس مئير طويق غير أنه حين ازدادت الأعداد، فُتِح موقعٌ إضافي في كنيس مسعودة شمبتوب. أُعتقل شالوم في هذا الكنيس، الذي كان بمنزلة مستودع رئيس للأسلحة المحظورة. خلالَ الاستجواب، الذي صاحبه أكثر أشكال تعذيب الـ(CID) ترويعًا، انهارَ شالوم. اعترفَ بأنهم، هو ويوسِف بصري ويوسف خبازة، نفّذوا ثلاثًا من الهجمات الخمس. أخذ الشرطة من كنيس إلى آخر ومن منزل إلى آخر، ليُريهم أين كانت الأسلحة مُخبأةً.

في منزل يوسف خبازة، الذي تمكّن من الفرار في الوقت المناسب، وجدوا أسلحةً، وموادَّ متفجرةً، وخريطةَ مواقع المخابئ، الأخرى ولائحةً بأعضاء الحركة. وقد مكّن هذا الشرطة من القبض على الخلية بأكملها. اعتقلوا واحدًا وعشرين ناشطًا، ضمنهم عدد من النساء، وقدموهم جميعًا للمحاكمة. اتَّهمَ الادِّعاءُ العام المُشتَبه بهم بحيازتهم عضوية الحركة الصهيونية السرية. قيل إن الهدف الأولي للمُشتَبه بهم كان تخويف اليهود ودفعهم إلى الهجرة في أقرب وقتٍ ممكن، وأخطرُ التُهم وُجِّهتْ إلى أولئك المتورطين في زرع القنابل لتحقيق هذا الهدف. أطلقَ سراح بعض المُدعى عليهم، بينما عوقبَ الباقونَ بالسجن فترات زمنية مختلفة، تتراوح من خمسة أشهر إلى خمسة أعوام. وحُكِمَ على يوسِف خبازة بالإعدام غيابيًّا.

بدأت محاكمة يوسِف بصري وشالوم صالح شالوم في ١٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٥١. وُجهت إليهما تهمة تنفيذ ثلاث هجمات إرهابية:

في ١٩ آذار/ مارس ١٩٥٠ على المركز الثقافي الأميركي؛ في ١٠ أيار/ مايو ١٩٥١ على مبنى شركة بيت اللواء؛ وفي ٩ حزيران/ يونيو ١٩٥١ على شركة ستانلي شعشوع لبيع السيارات. سُلِّمتْ عيِّنةُ الـ(TNT) وهي أحد أدلة التجريم التي عُثِرَ عليها في سيارة بصري، إلى المحكمة لإدانته. عوقب بصري وشالوم بالإعدام شنقًا. وبحسب شلومو هِليل، كانت كلمات بصري الأخيرة قبل ذهابه إلى المشنقة هي (تعيش دولة إسرائيل!).

على العموم، كشف الـ(CID) عن اثني عشر موقعًا خُبئت فيها الأسلحة والمواد المتفجرة، وأسفر ذلك عن غنيمةٍ ضخمة. صدرت أحكام ضد أولئك المُدانين الذين ذكروا ٤٢٥ قنبلة، ٣٣ رشاشًا، ١٨٦ مسدسًا، ٢٤,٦٤٧ طلقة، ٧٩ مخزنًا للرشاشات، و٣٢ خنجرًا[٢٣].

لم أكن قادرًا على تحديد المسؤول عن القنبلة الرابعة. يوسِف خبازة، ويوسِف بصري، وشالوم صالح شالوم ارتكبوا ثلاث هجمات إرهابية بحقِّ أبناء دينهم. الحكومة الإسرائيلية أنكرت بشكل مطلق أي تورُّط يهوديٍّ أو إسرائيلي في أيٍّ من التفجيرات. موردخاي بِن - بورات وشلومو هِليل نسبوا الهجمات كلها إلى اليمينيين المتطرفين المسلمين من حزب الاستقلال. يعقوف كركوكلي كان متيقنًا من أن بصري لم يلقِ القنبلة اليدوية على كنيس مسعودة شمبتوب لكنَّه غير متيقنٍ ما إذا كان مسؤولًا عن ثلاثة أو أربعة من التفجيرات الأخرى. أميلُ للاعتقاد بأن بصري كان متورطًا في ثلاثة من التفجيرات الباقية، في حين أن حزب الاستقلال متورط في التفجير الآخر. لمْ أصلْ إلى هذا الاستنتاج رغبةً في التسوية، بل بشكلٍ تجريبي، استنادًا إلى أحد الأدلَّة الدقيقة.

في العام ٢٠١٣، نشر صحفيٌّ عراقيٌّ اسمه شامل عبدالقادر كتابًا بعنوان «تاريخ الحركة الصهيونية ودورها في هجرة اليهود ١٩٥٠ – ١٩٥١». يُشير المؤلف إلى أن عضوًا في حزب الاستقلال، يشير إليه بالأحرف الأولى من اسمه «م. ش.أ»، اعترف له أنه هو وعضو آخر من الحزب «ت. ب» بأنَّهما نفذا الهجوم على الدار البيضاء في نيسان/ أبريل ١٩٥٠ بتوجيه من عدنان الراوي، وهو شاعرٌ وأحد قادة الحزب. في الاعتراف المزعوم:

«أخبرنا الراوي بأن تردد اليهود في مغادرة العراق يستلزم عملًا من شأنهِ أن يرغمهم على مغادرة العراق، ونحن في الحزب نتطلَّع إلى ترحيل اليهود من العراق. في الحقيقة، لقد اُتخذ قرار بأن ننسف كازينو البيضاء، الذي يرتاده الشُّبَّان اليهود. أخبرنا الراوي بأنه سيزودنا بالقنابل لنلقيها على الكازينو حتى نزرع الرعب في قلوب اليهود. بعد مُضي أيام معدودات، جاء الراوي وأنا و(ت.ب) وقد عُهِدت إلينا مهمة إلقاء القنابل على الكازينو، وفي اليوم المحدَّدِ من نيسان/ أبريل عام ١٩٥٠ ألقينا القنابل على اليهود الجالسين هناك، ولذنا بالفرار واختبأنا في منزل مستأجر بالقرب من مدخل (شارع أبو نؤاس)؛ قرب الكازينو وتوارينا عن الأنظار»[٢٤].

استنادًا إلى هذا الاعتراف، استنتجتُ أنَّ حزب الاستقلال، وليس الحركة الصهيونية السرية، ربما هو المسؤول عن هجوم القنبلة اليدوية على الدار البيضاء في الثامن من نيسان/ أبريل ١٩٥٠.

شامل عبد القادر، صديق هيفاء جِجّاوي، وهي امرأة عراقية تعمل معي في مكتبة مركز الشرق الأوسط في كليتي، كلية سانت أنتوني، بجامعة أكسفورد. من خلالها تبرع بالعنوان المذكور آنفًا وكتبه الأخرى لمكتبتنا، ولم يُترجم أي واحد منها للإنجليزية. بمساعدة هيفاء تواصلت بشامل عبد القادر وتراسلتُ معه بواسطة البريد الإلكتروني في نيسان/ أبريل وأيار/ مايو ٢٠٢٢. كان حسِنَ الاطلاع ومُتعاونًا إلى أبعد حدٍّ. أخبرني أن الرجل الذي تسلَّم الرشوة من الحركة الصهيونية السرية كي ينظم تفجير «كنيس مسعودة شمبتوب هو سالِم القريشي، وهو ضابط برتبة نقيب في الشعبة الخاصة التابعة لمديرية شرطة مدينة بغداد. شارك القريشي لاحقًا في الغارات على الكُنُس والمدارس بحثًا عن الأسلحة المُخبَّأة. نُقِل من الخدمة في الشعبة الخاصة إلى مركز شرطة اعتيادي. بعد انقلاب ١٤ تموز/ يوليو ١٩٥٨، أُعتقل وعاقبته المحكمة الثورية بالسجن مع الأشغال الشاقة.

لم يكن كركوكلي دقيقًا في خلفية الرشوة وتفجير الكنيس. على أية حال، لقد انسجمَ ما أخبرني به في باقي الجوانب، مع ما كنتُ قادرًا على جمعه من مصادر أخرى. أحد مزاعمه عجزي عن العثور على أي دليل مُسانِد. يتعلق ذلك بسياسة دولة إسرائيل تجاه ملكية اليهود الذين غادروا العراق. أحد أسباب رفض الحكومة العراقية السماح بالرحيل الحرِّ لليهود قبل آذار/ مارس ١٩٥٠ هو الخوف من العواقب الاقتصادية التي قد تترتب على البلاد. كان اليهود عمودًا رئيسًا للاقتصاد الوطني والنظام البنكي وإذا ما تسنى لهم أن يرحلوا بشكل جماعي مع سائر

أصولهم، ستكون العواقب خطيرةً. بعض الكتاب يدَّعون أن الحكومة الإسرائيلية كانت مستميتةً للغاية من أجل الناس بحيث أنها أشارت إلى أنها سترحب باليهود حتى من دون ممتلكاتهم. أحدهم، أفراهام شمه، يدَّعي أنه «في وقتٍ ما من ربيع ١٩٥٠، توصَّلتْ السلطات العراقية إلى اتفاق مع ممثِّلي الوكالة اليهودية يقضي بالسَّماح لليهود العراقيين بمغادرة العراق في تأشيرة خروج نهائي إلى إسرائيل، شريطةَ التخلِّي عن جنسيتهم العراقية وترك أصولهم المالية للحكومة العراقية[٢٥].

لم يقلْ كركوكلي ما يكفي. لكنه يزعم فعلًا أن الحكومة الإسرائيلية، منذ البداية، اعتبرت ثروة يهود العراق ورقة مساومة في مفاوضات السِّلم المستقبلية مع العرب. وقعتْ إسرائيل تحت ضغط عالمي شديد للسماح لـ٧٥٠ ألف فلسطينيٍّ الذين أصبحوا لاجئين في العام ١٩٤٨ إما بالعودة إلى منازلهم أو تلقِّي تعويضات. رفضتْ إسرائيل حقَّ العودة بشكلٍ قاطع. لم يبقَ سوى هذا البديل المتعلق بالتعويضات، لكنها كانت تعارض بشدةٍ الإقرار به. في هذه الأثناء نشأت فكرة تعويض الممتلكات التي تركها اللاجئون الفلسطينيون وراءهم مقابل ممتلكات اليهود العراقيين.

يُقرُّ كركوكلي أنه طول الوقت كانت هذه الفكرة في بال صنَّاع السياسة الإسرائيليين لكنها لم تحظَ باهتمامهم، ولهذا السبب لم يدافعوا بشدَّة كما ينبغي لهم أن يفعلوا عن أملاك يهود العراق. يقرُّ هو أنَّ شلومو هِليل وحسقيل شمبتوب توصَّلا إلى تفاهم ضمني مع توفيق السويدي بأنه إذا سُمِح لليهود بالمغادرة إلى إسرائيل، يُمكن أن يتركوا أموالهم

وراءهم. هذا الادعاء لا يتوافق مع حقيقة لقاء هليل مع سويدي في ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٥٠، بعد سبعة أسابيع من إقرار قانون إسقاط الجنسية. وزيادةً على ذلك، مضى هِليل لرؤية رئيس الوزراء متنكِّرًا. حطَّ رحاله بصفته ممثلًا لشركة تأجير سفريات جوية أمريكية رائدة، لإبرام صفقة نقل جوي مهمة. ربما لم يكن باستطاعته أن يقدِّمَ عرضًا كهذا نيابةً عن الحكومة الإسرائيلية. كان شمبتوب رئيسًا للطَّائفة اليهودية - العراقية لذا من المستبعد إلى حدٍّ كبير أنه سيبرم صفقةٍ مشؤومة كهذه على حساب طائفته أيضًا.

الشخص الوحيد الذي سعى بنشاطٍ من أجل صفقةٍ كهذه هو موردخاي بِن - بورات. بحسب روايته هو، كتبَ إلى الموساد في ١٩ آذار/ مارس ١٩٥٠ مبينًا أنه ثمة فرصةً لتحريك الأمور إلى الأمام من خلال رشوة رئيس الوزراء ووزير الداخلية. اقترحَ إعطاء هذين الرجلين جزءًا من الممتلكات المتبقية في العراق وتعويضَ أصحابها اليهود بالممتلكات التي تركها اللَّاجئون الفلسطينيون في إسرائيل. طلبَ بِن - بورات الإذنَ بالمُضي قُدُمًا لكن، كما يدوِّن في كتابه، لم يتلقَّ جوابًا من أي نوع[٢٦].

لم تتخذْ إسرائيل موقفًا في قضية الممتلكات اليهودية - العراقية قبلَ تمرير قانون تجميد الملكية. في ١٩ آذار/ مارس ١٩٥١، استهجن موشي شارِط، وزير خارجية إسرائيل، القانونَ من منصة الكنيست باعتباره «عملًا من أعمال اللُّصوصية» وربطه لأول مرة بالممتلكات التي تركها اللَّاجئون الفلسطينيون وراءهم في إسرائيل[٢٧]. أعلن شارِط أنَّ حكومته

قررت أن قيمة الممتلكات اليهودية المجمدة في العراق سوف تؤخذ بنظر الاعتبار في احتساب مبلغ التعويض الذي رُبما يدفَع للعرب الذي تخلَّوا عن ممتلكاتهم في إسرائيل. هذا التصريح مهم بسبب الصِّلة التي يُقيمها بين مجموعتين من الممتلكات. على أية حال، لم أجد دليلًا على الاتفاق بين الحكومتين الإسرائيلية والعراقية بما يتعلق بممتلكات يهود العراق قبل أن يُصبح قانون إسقاط الجنسية ساريَ المفعول. هذا لا يعني أنه لم يكن هنالك اتفاق. ما يعنيه فعلًا أن الدليل المتاح لا يسمح بأيِّ حُكم نهائي في موضوع إشكاليٍّ بهذه المرحلة.

في أثناء واحدة من زياراتي لإسرائيل حاولت أن أتفحَّصَ القصة المتعلقة بالصفقة الإسرائيلية - العراقية المزعومة مع شلومو هِليل نفسه من خلال الاتصال به هاتفيًّا في بيته برعنانا. في ٣٠ تموز/ يوليو ٢٠١٨، تكلَّمنا على التليفون طوال ساعة ونصف. كان في الخامسة والتسعين من عمره، غير أن بصيرته ثاقبة، وصوته قويٌّ، كان يشعُّ بالثقة بالنفس وقد رحَّبَ بفرصة أن نعرض مرةً أخرى النسخة البطولية من عملية عزرا ونيحميا. في مطلعِ حوارنا، رفض بصورةٍ مطلقة الادِّعاء غير المعقول تمامًا، المتعلق باتفاق إسرائيلي مع توفيق السويدي على أن حكومته تتخلَّى عن أصول اليهود الذين غادروا العراق إلى إسرائيل. ذكَّرني هِليل أنه، كما دوَّن في كتابه، مَضى إلى اللقاء مع السويدي في ٢٨ نيسان/ أبريل ١٩٥٠ ليس بوصفه شلومو هِليل، بل بهوية مزيفة بكونه ريتشارد أرمسترونغ، ممثل شركة السفريات الجوية الأميركية، نِير إيست أير كومبني، وأن الهدف الوحيد من اللقاء كانَ مناقشة كُلفة والأمور

اللوجستية المتعلقة بالنقل الجوي لليهود الذين آثروا أن يستفيدوا من قرار إسقاط الجنسية.

أضاف هِليل أنَّ السويدي توقع أن عددًا قليلًا فقط من اليهود سوف يوافقون على العَرض. دليلُه على ذلك هو أن السير هنري ماك، السَّفيرَ البريطاني في بغداد، أبلغَ وزارة الخارجية أنه سأل رئيس الوزراء كم عدد اليهود الذين يُخمِّنُ مغادرتهم بعد تمرير مذكرته في البرلمان؛ وكان جوابه ستة أو سبعة آلاف. كما رفض هِليل إيحاءَ كركوكلي بأن إسرائيل ربما أعطت للعراقيين موافقتها الضمنية بالإبقاء على ممتلكات يهود العراق المغادرين، حيث من المحتمل أن يُستغَل هذا لموازنة طلب التعويض من جانب اللّاجئين الفلسطينيين، واعتبره عاريًا عن الصحة. أصرَّ هِليل أنه لم تكن هنالك مفاوضات مباشرة أو غير مباشرة بين الحكومتين الإسرائيلية أو العراقية في قضية ممتلكات اليهود العراقيين.

ثم واصل كلامه، رافضًا بصورةٍ لافتة إيحاء التوُّرط الصِّهيوني في إلقاء القنابل. كانت القوة الدافعة الرئيسة لحُجَّته هو أنَّ إسرائيل في العام ١٩٥٠ لم تكن في وضعٍ يسمح لها باستيعاب عددٍ غفيرٍ من اليهود العراقيين. في أول عامين بعد قيامها، كانت إسرائيل تغصُّ بمهاجرين من شتى البلدان، وكانت الوكالة اليهودية مُجبرةً على تقسيم حصص نسبيَّة قومية كي تبقى في نطاق مواردها المحدودة. مُنِح المهاجرون من بولندا ورومانيا الأولوية. تحدَّت رومانيا أوامر موسكو وفتحت أبوابَها للهجرة اليهودية نحو إسرائيل. دفعتْ الوكالة اليهودية للحكومة الرومانية مبلغًا من المال عن كل مهاجرٍ. الخوف من أن تُغلَق الأبواب ثانيةً هو ما دفع

الوكالة اليهودية أن تضع اليهود الرومانيين في صدارة الطابور. كان هذا مُحبطًا جدًا لشلومو هِليل، الذي أُرسِل كي ينظم الهجرة القانونية الكبرى من العراق بعد أن فُتِحت الأبواب.

في آذار/ مارس من عام ١٩٥٠، ذهب هِليل لرؤية ليڤي إيشكول، أمين صندوق الوكالة اليهودية وقتذاك، كي يضغط بشأن قضية يهود العراق. قال له إيشكول كما ذكرت التقارير: «قل لهم سوف يُرَّحب بهم لكن ليس الآن. ليس لدينا منازل، لا خيام، لا مدارس، لا تشغيل، ولا طعام». بعد مُضي يومين ذهب هِليل لرؤية رئيس الوزراء ديڤيد بِن - غوريون الذي قال له كما ذكرت التقارير، «إيشكول على صواب. ليس لدينا أي شيء. إنما ثمة خطر بأن الحكومة العراقية قد تغير رأيها. لذا، اذهب، وأحضر يهود العراق بأسرع وقت ممكن!» ناقش هِليل أنه في ظل تلك الظروف لم يكن ثمة معنى بالنسبة لقادة إسرائيل أن يُعطوا الأمر بزرع القنابل من أجل تسريع الهجرة الكبرى من العراق[٢٨]. إلا إنني لا أزعم أن الأمر، إن كان هنالك أمر على أية حال، جاء من القيادة الإسرائيلية العُليا.

باستثناء صفقة الممتلكات، لفت كركوكلي انتباهي -باعتباره مصدرًا موثوقًا- إلى الدور الذي لعبته الحركة الصهيونية في أحداث ١٩٥٠ - ١٩٥١. خلافًا للآخرين، من المشاركين المعروفين على نحو أوسع في الدراما، أولئكَ الذين مضوا تاليًا إلى حياةٍ أكثر شهرةً في إسرائيل، لم تكن لدى كركوكلي مآربُ شخصية يسعى لتحقيقها. في الوقت الذي تقابلنا فيه، كان أغلبية جيله قد فارق الحياة. كركوكلي في التاسعة والثمانين من

عمره متلهِّفٌ ليتركَ وراءه سجلًّا من الأحداث المهمة جدًّا التي، بما أنه حسِنَ الاطلاع، لعبَ فيها دورًا ثانويًّا. على الرغم من ذلك، كما أشار إليَّ مرارًا وتكرارًا، كان واحدًا من حفنةٍ ناجين عرفوا خلفية الأحداث. وكان متحمِّسًا لرواية القصة بدلًا من أن يأخذها معه إلى قبره. حتَّى إنه، في لحظةٍ ما، أوحى إلي بأن نكتبَ القصة بالتفصيل معًا. أجبتُه بأنني لستُ خبيرًا بتاريخ العراق، وأكتب مذكرات شخصية فقط، ومن الأفضل لو كتب قصته بنفسه بالتعاون مع صحفي إسرائيلي.

تبقى هناك مسألة الدعم بالوثائق، وتحديدًا تقرير شرطة بغداد في القضية، الذي أخبرني كركوكلي في لقائنا الأول أنه بحوزته. أنا مهتمٌّ إلى حدٍّ كبير بالدليل الوثائقي بصفتي مؤرخًا دبلوماسيًّا، ولا أقول إني مهووس به. في لقائنا الثاني، اللِّقاء الذي سجلتُ فيه الحوار، ذكَّرتُ كركوكلي بوعده، لكنه تملَّصَ. قال إنَّ أرشيفه الشخصي في كريات أونو، في شقةٍ تقاسمها مع زوجته الأولى إلى أن لفظت فيها أنفاسها الأخيرة. ثم أجَّرها لزوجين مسنين؛ بعد أن قابل داليا وانتقلا للسكن معًا بشقتها في رَمات گان. عرضتُ عليه أن أصحبه إلى كريات أونو لجلب تقرير الشرطة. رفض عرضي بأدبٍ. بدأتُ أشك في وجود الوثيقة، وأن كركوكلي كان يخدعني لا أكثر. واصلتُ مضايقته باستمرار بشأن التقرير وواصل هو مماطلتي. كما أن أمي ظلت تتابع القضيَّة وآتى إصرارُها أُكله. ذات يوم اتصلت بي أمي هاتفيًّا كي تقول لي إنَّ التقرير صار بحوزتها، وسوف تبعثه إليَّ في أكسفورد بالبريد الإلكتروني. كان هذا التقرير يستحقُّ الانتظار.

لم يُكتب تقرير الشرطة على ورقة رسمية مروَّسَة، بل على ورقة عادية ومكوَّن من صفحة واحدة وباللغة العربية، بلا تاريخ، ولا توقيع، ولا عنوان، ولا حتى إشارة إلى من أُعد له. تعيّن عليَّ أن أسأل كركوكلي من أين جاء بهذا التقرير، وكيف وضع يده عليه؛ فأجاب أنه بعد أعوامٍ طويلة من الحادثة شعرَ بحاجتِهِ إلى معرفة الحقيقة كلها، لذا أفضى بأسئلته. وشاءت المصادفة أنَّ له صديقًا مسلمًا، ضابطَ شرطة برتبة عالية متقاعدًا، قصده كي يقدم له يد المساعدة. زعمَ كركوكلي أنه نجحَ في إقناع صديقه بأن اهتمامه ذا طبيعة تاريخية بدلًا من كونها سياسية، وتفضَّلَ عليه الصديق بالحصول على نسخةٍ من التقرير من أرشيف شرطة بغداد. هذا ما يذكره التقرير:

«محاضر التحقيقات السرية لشرطة الشعبة الخاصة كشفت عن أساليب التضليل التي التي لجأ اليها (كادر) الحركة الصهيونية السرية في العراق لخداع الطائفة اليهودية واقناعهم بترك العراق كما أن هؤلاء القادمين من اسرائيل استعانوا وتشبثوا بالطرق اللا أخلاقية لتسهيل مهماتهم كدفع الرشاوى الضخمة او تزوير الوثائق الرسمية. ويذكر كرجي صبيح لاوي: ان عملاء اسرائيل استخدموا الدكتور عبد النبي) وهو يهودي عراقي في تزوير توقيع وزير الداخلية صالح جبر وان احد المقربين من هذا الوزير يطلب (٢٠٠) دينار عن كل موافقة (لتهجير) يهودي عراقي وان دائرة السفر رفضت جميع المعاملات التي تحمل توقيع صالح جبر لاكتشافها بأنها مزورة كما استخدموا الموظفين اليهود في المطار (لتمرير) حقائب

كثيرة وان الشرطة القت القبض على مواطن لبناني الجنسية اسمه (عادل) وهو يحاول تهريب (٢٦) حقيبة لافراد المنظمة الصهيونية السرية.. في ٢١ حزيران عام

١٩٥١ صدرت الأوامر بالقاء القبض على ١٤٩ عضوًا في الحركة الصهيونية السرية وبعد أسبوع ضبطت الشرطة في كنيس مسعودة شنطوب جهازي ارسال عسكريين يحملان الرمز د _ ٥ استخدما من قبل بعض اعضاء لجنة التسفير لارسال البرقيات الى تل ابيب قبل ذلك بايام قلائل وبالتحديد في يوم السادس عشر من حزيران اعترف شالوم صالح شالوم بالتفصيل عن دوره ودوري يوسف بصري ويوسف مراد في قضية القاء القنابل والمتفجرات على المحلات اليهودية وبذلك تمكنت الشرطة من فك اللغز الكبير الذي لف بغداد من جراء اختفاء الفاعلين الحقيقيين لهذه الجرائم التي استهدفت اليهود العراقيين، قال شالوم للمحقق في هذا اليوم وجدت نفسي محتارا اذا اجيبكم باقوال غير حقيقية نظرا لما جابهتموني به من الحقائق ومادمت قد اعترفت ببعض الأمور كالاشارة الى مخابئ الاسلحة فقد قررت ان ادلي بجميع ما لدي من الحقائق، واعترف يوسف بصري ايضًا بدوره واضاف: بعد صدور قانون اسقاط الجنسية صدرت الأوامر من اسرائيل بتهجير جميع ملاك الحركة الصهيونية السرية وفعلا تمكنا من تسفير الكثير منهم وبقي يوسف مراد وحبيب، المحقق: هل تعرف شيئًا عن حبيب؟ يوسف بصري اعتقد انه قدم من اسرائيل

وقد حول نشاطنا الى نشاط ارهابي كالقاء القنابل وكان يعتمد على مصادر معروفة في التجسس على العراق مثل عزرا هندي وشمعون بلاص وسليم صديق والياهو بينمور وداد باشا ولطيف فرايم وزلخا والطبيبين سليم الشكرجي وادور مروان ان يوسف مراد يعرف باسم جوني وكان متحمسا لتهجير اليهود ويدور في محلاتهم واسواقهم يحثهم على تسقيط جنسياتهم وهو مدفوع من حبيب، لم يكن حبيب وقتذاك في بغداد فقد هرب الى اسرائيل وظهر باسم موردخاي بن فرات وبهربه كان عدد اليهود العراقيين الذين اسقطوا جنسياتهم بتأثير الحركة الصهيونية السرية قد بلغ ١٥٤ و١٠٨ وبلغ عدد اليهود الذين تم تهجيرهم ٥٤٦ و٩٩ وبقى ٦٠٨ و٨ بالانتظار حتى يوم العشرين من حزيران عام ١٩٥١!».

يشكِّل هذا التقرير دليلًا قاطعًا على التورط الصهيوني في الهجمات الإرهابية التي قادت لإنهاء ٢٥٠٠ عامٍ من الوجود اليهودي في بابل. أتردد في تسميته «دليلًا دامغًا» لأنه لا يحمل أيًّا من العلامات المألوفة لوثيقة رسمية. من الناحية الأخرى، استندَ التقرير بجلاء على معرفة داخلية. لم يكن بالمستطاع جمعه من دون وسيلة وصول إلى تقارير الشرطة. التفاصيل الدقيقة جدًّا والأسماء، المذكورة في التقرير، أعطته المصداقية.

أي شكوك عالقة قد أمتلكها دَفَنَتْها شهادة الصحفي العراقي والخبير البارز في هذا الموضوع، شامل عبد القادر وصديقه ضابط الشرطة المتقاعد، المقدم عبد الرحمن السامرائي الذي كان بين عامي

١٩٥٠ - ١٩٥١ آمرَ وحدة الشعبة الخاصة التابعة لمديرية شرطة مدينة بغداد، وهي الجهة التي حققت في الأنشطة الصهيونية غير المشروعة. كان يعمل وفقًا لأوامر من المدير العام لشرطة بغداد، عبدالجبَّار فهمي، وشارك جنبًا إلى جنب مع سالم القريشي في اعتقال الناشطين والتحقيق معهم، وفي الغارات على المباني اليهودية بحثًا عن الأسلحة. أعطى السامرائي عبدَالقادر نسخةً من ملف كامل بالتحقيقات مع الناشطين الصهاينة. يتكوَّن الملفُ من ٢٥٨ صفحةً. بعثتُ بالتقرير المؤلف من صفحة واحدة، والذي كان بحوزتي، إلى عبد القادر فأكَّدَ لي بأنه جزءٌ من ملفٍ أكبر[٢٩].

ثمَّة جانبان يتعلقان بقصة إلقاء القنابل: الجانب الشخصي والجانب المهني. القصة التي سمعتُها من عائلتي وأقاربي يومَ كنتُ صبيًا أثَّرتْ بي عاطفيًّا وأثارتْ أسئلةً عديدةً بلا أجوبة. كان شيئًا مُوجِعًا ومُضعِفًا للعزيمة أن أعتقد أن الرفاق اليهود ربما لعبوا دورًا في اقتلاعنا من بلادنا. غدوتُ مهووسًا بهذه القصة. مع ذلك، انجذبتُ إلى حبكة القصة بصفتي مؤرِّخًا محترفًا، فمن المُغري تبني نظرية مؤامرة، لكنّني كمؤرِّخ احتجتُ إلى أدلة قوية لتأكيدها أو دحضها. هذا هو مصدر بحثي طوال حياتي عن حقيقة القضية. لو أني فشلتُ في الوصول إلى قاعها، ليس السبب التقصير في المحاولة. ما أتمنى إنجازه هو جمع أفضل دليل مُتاح، بما في ذلك الدليل الجديد الذي اكتشفته كما لو أنه كنزٌ ثمين، وأن استخدمَ هذا الدليل كي أفتحَ النسخة الصهيونية من هذه القصة المفجعة. مراسلاتي مع شامل عبدالقادر هي المرحلة الأخيرة في بحثي عن الحقيقة. لم يترك لي مجالًا للشك في أصالة تقرير الشرطة الذي أعطاني إياه يعقوب

كركوكلي. فقط المقتطَف الذي أملكه من هذا التقرير الأطول هو اتهامٌ خطير موجه للناشطين الصهاينة وللأساليب التي استخدموها في تحقيق غاياتهم، مثل دفع الرشاوى وتزوير الوثائق. إلا إن التهمة بالغة الخطورة التي يتضمنها التقرير هو أنَّ جواسيس إسرائيل حوَّلوا أتباعهم اليهود المحليين إلى إرهابيين.

في كانون الثاني/ يناير من عام ١٩٥٢، شُنِقَ يوسف بصري وشالوم صالح شالوم في بغداد، بعد ستة أشهر من اختتام عملية عزرا ونيحميا رسميًّا. كما يُشير عالِم الاجتماع الإسرائيلي يهودا شِنهاف:

«سيكون شيئًا طبيعيًّا فحسب، بالنسبة لليهود العراقيين في إسرائيل أن يتفاعلوا بغضب شديد مع أنباء الشنق. لكن على العكس، تجمعات التعزية التي نظمتها قادة الطَّائفة في شتى المدن الإسرائيلية فشلت في إيقاظ التضامن مع الصهاينة العراقيين. على النقيض تمامًا: وثيقةٌ مصنفة من موشي ساسون، المنتسب لشعبة الشرق الأوسط التابعة لوزارة الخارجية، إلى وزير الخارجية موشي شارِط أكد بالدليل أن مهاجرين عراقيين كُثر، من ساكني مخيمات العبور، رحَّبوا بالإعدام قائلينَ: (هذا ثأرُ الله من الحركة التي جلبتْنا إلى قيعان كهذه). تشهد مرارة ردة الفعل تلك على الدرجة الشديدة من الاستياء وسط اليهود العراقيين الذين وصلوا حديثًا. إنها توحي بأن عددًا وازنًا منهم لم ينظرْ إلى هجرته باعتبارها عودةً مبهجةً إلى صهيون كما وصفها عملاء الحركة. بدلًا من ذلك، فضلًا عن توجيه لومهم إلى الحكومة

العراقية، أنحوا باللَّائمة على الحركة نفسها لأنها أتت بهم إلى إسرائيل لأسباب ليست من بينها مصالح المهاجرين»[٣٠].

الجدال الدائر حول مسؤولية قنابل بغداد لا يزال يتردد صداه في إسرائيل حتى يومنا هذا. في عام ١٩٥٤، حظيت هذه الواقعة سيئة الصيت باهتمام متجدد بسبب ما يُدعى بـ «قضيَّة العار» أو «صفقة العار»، أو ما أطلق عليه بخلاف ذلك اسم «عملية سوزانا» أو «قضية لافون». أُلقي القبضُ على عددٍ من اليهود المصريين لأنهم زرعوا قنابلَ في أماكن عامة وفي مكاتب الخدمات الإعلامية للولايات المتحدة بالقاهرة والإسكندرية. كانت تلك هي عملية (راية إسرائيل المزيَّفة) المصممة لخلق ضغينة بين النظام الثوري الذي يتزعمه جمال عبد الناصر والقوى الغربية. جنَّدت استخبارات إسرائيل العسكرية، ودرَّبت وجهَّزت الجاسوس اليهودي وحلقته التخريبية. أفضى اعتقال عضو واحد إلى انهيار الحلقة بأسْرها. محاكمةٌ ذات دعاية واسعة لتسعة أعضاء، إعدام اثنين منهم والقبض على الضابط الإسرائيلي المسؤول: مائير ماكس بِنيت، هو ماكس بِنيت نفسه الذي أدار عمليات الراية المزيفة في بغداد قبل بضعة أعوام. في العام ١٩٥٤ كان ضابطًا برتبة مقدم في فرع الاستخبارات العسكرية التابع للجيش الإسرائيلي (IDF). انتحرَ في سجنه بالقاهرة بأن قطع أوردته بشفرة بعد أن عُذِّب وسمع أن السلطات العراقية طلبت تسليمه إليها كونه متَّهمًا هاربًا من البلاد.

كان الهدف وراء عملية سوزانا إفساد العلاقات بين مصر والغرب؛ وكانت نتيجتها إفساد العلاقات بين الشعب المصري واليهود الساكنين

بينهم. بدتْ الهجمات الإرهابية كأنها تؤكد شكوك المسلمين المصريين بأنَّ مواطنيهم اليهود يَدينون بالولاء لبلدٍ أجنبيٍّ، ويشكِّلون تهديدًا للأمن الوطني. كما عبَّر بروفيسور جامعة ستانفورد جويل بينين، «تورُّط اليهود المصريين في أعمال تجسس وتخريب ضد مصر نظمتها وأدارتها الاستخبارات العسكرية الإسرائيلية أثارَ أسئلةً جوهرية حول هوياتهم وولاءاتهم»[٣١].

عادت القضية كلُّها على إسرائيل بنتائج عكسية خطيرة. أنكرَ بنهاس لافون، وزير الدفاع وقتئذٍ، بشدة قصةَ أنه أعطى أمرًا من أي نوعٍ إلى الاستخبارات العسكرية لتفعيل هكذا إجراء. كما استنكرَ نوع العمل في هذه القضية التي حملت اسمه، ونعته بالعمل الغبي واللَّا إنساني، وأضاف قائلًا إن ذلك كله بدأ في العراق[٣٢]. أُجبر لافون على الاستقالة؛ واستمرتْ «الصهيونية الوحشية»، على أية حال، في أن تكون ميزةً لسلوك إسرائيل بعد أن خمدت «قضية لافون» بوقت طويل. ربما تكون البداية لما يُسمى بـ «صفقة العار» في ظلّ الانفجارات التي حدثت وسط بغداد عام ١٩٥٠، لكن جذوره تعود على الأرجح إلى أسباب أعمق بكثير. ومهما يكن من أمر، إنه واحدٌ من أمثلة صادمة للغاية على «الصهيونية الوحشية» التي صادفتُها في سنواتي الخمسين من التجوُّل البحثي حول الطرق السريعة والطرق الفرعية للنزاع العربي - الإسرائيلي.

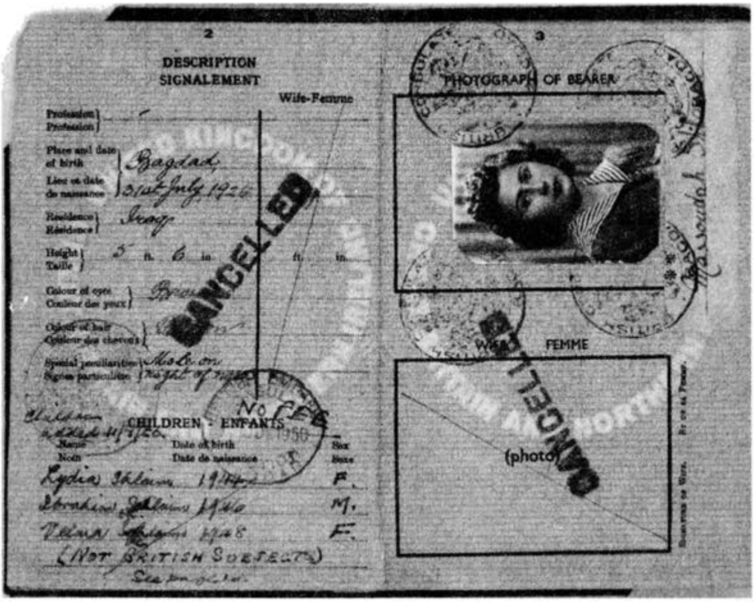

جواز سفر «مسعودة شلايم» البريطاني،

وقد أُضيفت إليه أسماء أولادها الثلاثة.

الفصل الثامن

وداعًا بغداد

في ٢١ تموز/ يوليو من عام ١٩٥٠ غادرنا، أنا وأمي وشقيقتاي وجدتي لأمي، بغدادَ إلى الأبد. غادرنا بشكلٍ شرعي مع تأشيرات خروج عراقية مختومة على جوازات سفر البالغين. كانت أمي، سعيدة، إحدى رعايا بريطانيا بالولادة لأنَّ والدها مائير وُلد في بومباي العام ١٨٨٢ حينَ كانت الهند تحت الحكم البريطاني. حصلتْ جدتي موزلي، المولودة في بغداد عام ١٨٨٨، على الجنسية البريطانية كذلك، حين تزوجت من جدي. بينما أُضِفنا أنا وشقيقتاي إلى جواز سفر أمي البريطاني قبل رحيلنا بعشرة أيام. غادرنا في رحلة جوية نظامية إلى قبرص مع توقف في مطار بيروت. من قبرص، بعد مكوث يُقارب شهرين في فندقٍ بنيقوسيا، واصلنا الرحلة بواسطة سفينة إلى ميناء حيفا في إسرائيل. تأخَّر أبي، الذي يمتلك جنسيةً عراقية، وانضمَّ إلينا في بعد عام ونصف العام تقريبًا، حيثُ غادر العراق بطريقةٍ غير شرعية إلى إيران بمساعدة مهربين أكراد.

لم تكن مغادرتنا لوطننا (رحلة والدي ورحلتي مع أمي وإخوتي) بمحض إرادتنا: فقد واجهنا ضغوطًا دفعتنا إلى المغادرة، على الرغم

من عدم إجبارنا بشكل مباشر، بسبب ظروفٍ خارجة عن سيطرتنا. بالنسبة لنا، كما هو الحال بالنسبة لمعظم اليهود العراقيين، على الرغم من «الفرهود» ومضايقات ١٩٤٨ - ١٩٥٠، فإنَّ مغادرة العراق الذي نملك فيه جذورًا عميقةً للغاية لم تكن خيارًا سهلًا. اقتلاعنا من تلك الجذور سبَّبَ لنا حزنًا عميقًا، زاده شدةً إدراكُنا أنْ ما من عودةٍ إلى وطننا ومسقط رأسِنا.

أما فيما يتعلق بالأسباب الدقيقة لمغادرتنا، فكان مصدر معلوماتي الوحيد هو والدتي، ولم تكن روايتها متماسكةً تمامًا. باعثٌ واحد ذكرتَهُ، قبل زمنٍ طويل جدًّا، هو القلق على صحتي. وُلدتُ بقدمين مُسطَّحَتين، وهو على ما يبدو ليس بالأمر النادر بين اليهود. ولسبب غامضٍ، اشتبه والداي في إصابتي بشلل الأطفال. أخذاني إلى طبيب أطفال معروف. جزءٌ من الفحص يتضمن وخز باطن قدميَّ بدبوس. عمَّقَ عدمُ استجابتي شكوكَ أبويَّ في وجود علَّةٍ ما. سألتْني أمي، حين رجعنا إلى البيت، ما إذا كنتُ قد شعرتُ بأيِّ ألمٍ نتيجةَ وخزِ الدبوس. «بالطبع»، كان جوابي المختصر. إذن لماذا لم أُظهِر ذلك؟ وعلى هذا السؤال أجبتُ كما يبدو: «ألَمْ يخجل الطبيبُ من نفسه؟ وهو إنسانٌ بالغ! لماذا يؤذيني بدبوس؟ كنتُ غاضبًا منه ولهذا تظاهرتُ بأنَّ الدبوس لم يؤذِني». ادعاءٌ آخر أدلتْ به أمي، يبدو غير مقبولٍ أيضًا، هو أن طبيب الأطفال المسلم أخبرهما أنه يوجد طبيب في تل أبيب، وهو اختصاصيٌّ مشهورٌ عالميًّا، ونصحهما بأن يأخذاني لرؤيته. لا أتذكر هذه الواقعة، إلَّا إنها تصدمني بوصفها سببًا غير مُرجِّح للقرار الجدِّي بمغادرة العراق. لاحقًا، اعترفتْ

أمِّي بأنَّ قصة شلل الأطفال المُشتبَه به لم تكن السبب الحقيقيَّ؛ بل مجرد ذريعةٍ استثمرتْها في مساعيها لإقناع أبي بالرَّحيل.

السبب الحقيقي للرحيل، بحسب رواية أمي المتأخرة، هو أنَّ الحياة في العراق باتت خطيرةً جدًّا بحلول العام ١٩٥٠، بالنسبة لليهود عامَّةً، ولأُسرتنا على نحوٍ خاصٍّ. اشتدَّ اضطهادُ اليهود، واتَّخذَ أشكالًا مختلفةً كثيرة. أصبحتِ أجهزة الحكومة، والقضاء، وعامة الناس أيضًا مجاهرين بالعداء. وُضِعت قيودٌ على اليهود في قطاعيْ الصناعة والتجارة. صُرِفَ اليهودُ في الخدمة المَدنية من وظائفهم، ووضِعتْ الطَّائفة اليهودية بأسْرها تحت المراقبة. مُنعَ الشُّبَّان اليهود من دخول كليات التعليم العالي. أمَّا الشُّرطةُ فاعتقلتْ، وعذَّبتْ، وفرضتْ غراماتٍ اعتباطيةً، وانتزعتْ من اليهود الأبرياء أموالهم فيما يشبه حمْلةَ مضايقةٍ مستمرةً أقرَّتها الحكومةُ. على رأس كلِّ ذلك جاءت سلسلة التفجيرات، التي تناولناها في الفصل السابق، والتي أرعبتْ الطَّائفة اليهودية وضاعفت إحساسها بعدم الاطمئنان. بحلول نيسان/ أبريل من عام ١٩٥٠، سجَّلَ أكثر من ٢٥ ألف يهودي عراقي رغبته في التخلِّي عن جنسيته ومغادرة العراق بتأشيرة خروج نهائي. لا تتذكر أُمِّي التواريخ بالتفصيل، لكنها تتذكر بوضوح الجوَّ العام من الخوف والتوجس، الذي أعقبَ التفجيرات.

بالإضافة إلى عدم الأمان العام، فقد واجهتْ عائلتي تهديدًا محدَّدًا: إطلاق سراح أعضاء «عصابة اللَّيل والهوا» - تلك العصابة التي حاولت ابتزازنا في العام ١٩٤٨ وفشلتْ. لا يزال صدى تهديد العصابة وقتذاك باختطاف شقيقتي ليديا يتردَّدُ بقوة في آذان والديَّ. خلالَ المحاكمة

وبعدها، توعَّدَنا أعضاءُ العصابة بالثَّأر، وأرسلوا إلينا تهديدات بالموت. الآنَ، سيُطلقُ سراح أولئك الذين حُوكِموا بالسجن مدةً قصيرةً؛ مع ما يحمله ذلك -بالنسبة إلينا- من عواقبَ لا يُمكن التنبؤ بها. واجهَ يهودٌ آخرون الحيرة والشك؛ كان علينا أن نقاوم تهديداتٍ مميتة من مجرمين مُدانين. على الرغم من المخاطر، أراد أبي البقاء. بينما أمي، على صعيدٍ آخرَ، رأتِ المخاطرَ شديدةً جدًا، خاصة بالنسبة لأولادها، واتَّخذت قرارَها بالرحيل. لم يحاول أبي إقناعها بالعدول عن قرارها أو منعها، بل دعمها تمامًا في سائر المهمات العملية الكثيرة التي كان يجب إنجازها قُبيل المغادرة.

فضَّلَ أبي البقاء في العراق لأنه عراقي. لم يسبقْ له العيش خارجَ البلاد، فهو لم يسافرْ، ولم يُجِد الكلام بأي لغة أجنبية. كان بمقدوره أن يقرأ العِبرية، فقط، من أجل تلاوة الصلوات اليهودية التي حفظها. كما لم يكن لديه أي تآلف أيديولوجي مع الصهيونية. هويته كيهودي كانت هوية ثقافية -عِرقية وليست وطنية- صهيونية. وإن كان ثمّة «شعور بوطنية المهجر»، كالحنين القديم للعودة الى وطنٍ عرقيّ ما، فهو لا يشعر بهذا الحنين أبدًا. إسرائيل بالنسبة له بلدٌ أجنبي، أجنبي أكثر من أيِّ بلد آخر ناطقٍ بالعربية. وفضلًا عن ذلك، كان لديه أسباب أساسية عظيمة الأهمية تربطه بالبلد الذي وُلد فيه. كان لديه منزل فخم وهو مبعث فخره وسعادته، ومهنة ناجحة، ومستودع مليء بالسلع غالية الثمن. أخيرًا وليس آخِرًا، كان لديه أربعة موظفين يهود يعتمدون عليه في كسب أرزاقهم. لقد أجبرهُ إحساسه بالمسؤولية الأخلاقية على الاستمرار حتى

يتَّخذوا قرارهم بالمغادرة أو البقاء. على أقل تقدير، سيحتاجُ إلى الوقت كي يبيعَ أصوله وأملاكه، لتقليل زخم عمله ولكي يؤدي واجبه تجاه موظفيه.

حتى لو رغبَ أبونا بمغادرة البلاد في تلك المرحلة، معنا أو بعدنا مباشرةً، فما كان باستطاعته فعل هذا، على الأقل ليس بطريقة مشروعة. أُعطِيَ، كأيِّ يهوديٍّ عراقي آخر، عامًا للتسجيل على تأشيرة خروج نهائي؛ في ظل قانون آذار/ مارس ١٩٥٠. لكن، من أجل الحصول على تأشيرةٍ كهذه، احتاجَ أن يثبت براءة ذمته المالية، وبأنه غير مَدين للدولة. لم يكن أبي في وضعٍ يؤهله لفعل ذلك، لأنَّ أحد أصدقائه خذله. كما ذكرنا في فصلٍ سابقٍ، خلال الفترة الواقعة بين الحربين العالميتين كان لأبي شريكُ عملٍ وصديقٌ حميم اسمه شوَّاع عُبيد. انتهت شراكة العمل بسبب سوء سلوك ابن عُبيد، لكنَّ الصداقةَ ظلت قائمة. في العام ١٩٤٩ طلب عُبيد معروفًا من أبي: كان يحتاج لاستدانة مال وتوقيع مستندات «أنا مدين لك»، وأرادَ من أبي تذييلها ككفيل. وافق أبي. هذا يعني أنه إذا ما تخلَّف عُبيد عن السداد، سيكون أبي هو المسؤول أمام القانون عن ذلك. بعدها طلب عُبيد من أبي معروفًا آخر: أن يكفلَ رحلته إلى خارج العراق - ففي العام ١٩٤٦ أصدرت الحكومة العراقية مرسومًا يحتم على اليهودي الراغب بالسفر إلى خارج العراق إيداع وديعةٍ مالية بقيمة ٢٠٠٠ دينارٍ عراقيٍّ؛ تُصادَرُ في حالة عدم عودته. في عام ١٩٤٨، ارتفعت قيمة الوديعة إلى ٣ آلاف دينارٍ عراقيٍّ، وفي عام ١٩٤٩ زادتْ إلى ٥ آلاف دينارٍ عراقيٍّ. بمساعدة كفالة أبي ضمن عُبيد ترخيصًا بمغادرة

العراق مدةً محدودة. مضى إلى إسرائيل ولم يعُد. ومرةً أخرى، تُرِك أبي في موقف حَرِج.

إحدى حسنات عدم التسجيل على الرحيل هو أنَّ أبي كان قادرًا على الاحتفاظ بكافة الحقوق التي تلازم جنسيته العراقية. فلم تُصادَر أملاكه، ولم يُجمَّدْ حسابه المصرفي. انخفضتْ أسعار العقار بشكل مفاجئ نتيجة الخروج الجماعي لليهود من العراق. إنه شيء شديد الشبه بالعرض والطلب. في الختام، نجح أبي في بيع بيتنا بعشرة آلاف دينار. هذا مبلغٌ ضخم إلا إنه مجرد جزء من ثمنه في الأوقات الطبيعية. الشَّيء نفسه انطبق على البضائع في المستودع. نظرًا لبعض الأصول التي كان يمتلكها والتي تتطلب تحويلها إلى أموال خارج البلاد، واجه صعوبة في القيام بذلك بشكل قانوني كامل بسبب القيود على العملات الأجنبية التي فرضتها الحكومة. لكي يفعل هذا بصورةٍ غير قانونيةٍ واجهَ احتمال فقدان المال وعقوباتٍ ضخمة في حالة كُشف أمره.

كان نقل المال إلى خارج البلاد شيئًا صعبًا لكنه ليس مستحيلًا. إذ بالنسبة للمصرفيين اليهود الذين احتفظوا بالجنسية العراقية كان عملًا معتادًا. لحسن حظ أبي، كان له صديق يهودي جدير بالثقة اسمه يوسِف مصري. مصري ابن أخت حسقيل شمبتوب. شمبتوب جاء إلى أبويَّ في ساعة ضيقهما وعرض عليهما المساعدة، إلا إنهما لم يرغبا بإزعاجه. كان مصري مصرفيًا انتقل من بغداد إلى لندن حين تدهورت أوضاع اليهود. كان قد رسم خطةً مدروسة من أجل إخراج المال اليهودي بصورة غير قانونية من البلاد. يُسلِّم أبي المال باليد إلى شخص موثوق

به في بغداد، ومن هناك يُنقل إلى لندن، ومن لندن إلى إسرائيل. تلك هي الطريقة التي صمدنا بفضلها ماليًا وتدبرنا من خلالها معيشتنا في إسرائيل إلى أن التحق بنا والدي.

استثمرَ أبي وضعه بصفته مواطنًا عراقيًا لمساعدة أعضاء آخرين من الأسرة، بعضهم كان في مأزقٍ أسوأ من مأزقه. الخال شاؤول واحد منهم، هو الشقيق الأصغر لجدتي موزلي. كان شاؤول تاجرًا غنيًا ورجلًا سعيدًا في زواجه. الخوف على أمان عائلته أغراه بالتسجيل على الخروج من البلاد في حالة تفاقم تدهور الأوضاع. لم يكن قد اتخذ قراره بالرحيل؛ كان يودُّ التأكُّد فقط من إستراتيجية الخروج. القانون رقم (٥) في ١٠ آذار/ مارس من عام ١٩٥١ فاجأه تمامًا. جُمِّدتْ أصوله المالية وحسابه المصرفي، كمئة ألف يهودي عراقي غيره كانوا قد سجَّلوا أسماءهم ولم يغادروا البلاد بعدُ. ومثلهم، هو الآن في حالة انتقالية. كان لدى شاؤول صندوق حفظ أمانات في البنك مليء بالمال، والذهب، والمجوهرات، يُحظر عليه الآنَ الوصول إليها. تمكَّن أبي الذي امتلكَ صندوقًا في البنك نفسه، عبر رشوة أحد الموظفين هناك، تمكَّنَ من نقل محتويات صندوق شاؤول وتسليمها إليه.

غادر شاؤول وعائلته العراق بتأشيرات خروج نهائي قانونية، وبحقيبة سفر واحدة لكل فرد، وخمسين دينارًا لكل شخص بالغ. أعطى أشياءه الثمينة إلى رجلٍ هرَّبها إلى خارج البلاد وسلَّمها بأمان في إسرائيل. يهود آخرون لم يكونوا محظوظين جدًا. كان لديهم الخيار، قبل أن يعتلوا متن الطائرة المغادِرة، في أن يُودِعوا أشياءَهم الثمينة لدى ناشطين صهاينة

يُعطونهم إيصالًا ويعدونهم بتسليمهم الأشياء الثمينة في إسرائيل. بعض هؤلاء الناشطين كانوا صادقين، وبعضهم الآخر ليسوا كذلك. علمَت أمّي بشأن موظفٍ استلم أشياء ثمينة لحفظها في بغداد، لكنه لم يُعدها إلى صاحبها في إسرائيل، مدَّعيًا أنها صُودرت منه في المطار. لكنَّ المالكَ تاليًا اكتشف خاتم زوجته الماسي في يد زوجة الموظف! ثمّة قصص كثيرة مشابهة تتعلق بناشطين صهاينة استغلُّوا محنة اليهود العراقيين لمنافعهم الخاصة.

أرادَ أبي أن يكرر الخدعة نفسها مع العم جوزيف، شقيقِ جدي مائير. لجوزيف زوجةٌ وأربعة أولاد. مكَّنهُ النجاحُ في المهنة من شراء فيلا جميلة ذات حديقة كبيرة في حيِّ الكرَّادة جنوب بغداد، تطلُّ على ضفة نهر دجلة مباشرةً. جدَّاي أيضًا يمتلكانِ فيلا في الكرَّادة، غير أنها في الدَّاخل، وليست على جبهة النهر. امتلكَ جوزيف عددًا من المنازل، وبعد تسجيله على مغادرة العراق، بدأ يحوِّل أصوله إلى نقدٍ. في كل مرة يبيع منزلًا، ويشتري سبيكة ذهب يُخبئها في صندوق حفظ الأمانات المصرفي، أو هكذا تقول القصة. في الختام، باع بيت الأسرة إلى مسلم بسعر مُخَفَّض. أنهيا الصفقة ووقعا الأوراق. لكن بدلًا من تسليم المال، ضرب الرجل جوزيف على رأسه بآلةٍ غير حادة وجرحه. لم يكن الجُرح قاتلًا، غير أنه كان كافيًا كي يهز جوزيف حتى النخاع. قرر أن يتخلَّى عن صندوق حفظ الأمانات مع سبائك الذهب. لم يُرد استثمارَ فرصٍ أخرى أو تعريض أبي إلى خطر إلقاء القبض عليه. حين جاء دوره في المغادرة، جمع جوزيف أفرادَ أسرته وصعدوا إلى الطائرة التي أخذتهم إلى إسرائيل

عبر قبرص. إنها الصفقة ذاتها لسائر المسافرين: حقيبةُ سفر واحدة لكل فرد وخمسون دينارًا لكل شخص بالغ. كما في الجزائر بعد الاستقلال في العام ١٩٦٢، كان الخيار أمام العم جوزيف هو نفس الخيار أمام يهود الجزائر: «La valise ou le cercueil» – حقيبة السفر أو النعش!

كان مأزقنا يختلف، نوعًا ما، عن مأزق العم جوزيف. كان قد آثر الذهاب إلى إسرائيل مع كافة أفراد أسرته، مستعملًا المسلك المسموح به رسميًا. في حالتنا كان قرار أمي هو المغادرة مع الأولاد وقرار أبي هو البقاء في الوقت الحالي، كي يتصرَّف في أملاكه بأفضل ما يستطيع، ومن ثم يقرِّرُ إستراتيجيةَ المغادرة. المشكلة هي أننا، وشقيقتايَ وأنا، مواطنون عراقيون لأنَّ لنا أبًا عراقيًّا. وبناءً على ذلك لم يكن بمقدورنا مغادرة البلاد مع أمنا بمفردها لأنَّها أجنبية. ولأنها امرأةٌ ثابتة العزم وواسعة الحيلة، وجدت حلًّا لهذه المشكلة. ثمَّة مفهومٌ عربي يُسمى «واسطة»، يُمكن ترجمته بصورة فضفاضة إلى «محسوبية»، أو «نفوذ» أو «مَن هو الشخص الذي تعرفه». إنه يُشير إلى استخدام علاقات شخصٍ ما كي تُنجزَ الأمور، بما في ذلك جعل الموظفين المدنيين يحرِّفون القوانين. آمنتْ أُمِّي إيمانًا راسخًا بـ«الواسطة» التي تراها أسلوبَ حياة. في وقت شدَّتِها، استثمرتْ كلَّ علاقةٍ ممكنةٍ من أجل تسهيل رحيلنا.

كان أول ميناء زارته أمي هو القنصلية البريطانية في بغداد. شرحت المشكلة وطلبت منهم أن يُضيفوا الأولاد الثلاثة إلى جواز سفرها البريطاني كي تستطيعَ اصطحابهم معها إلى خارج البلاد. الجواب الصريح، البيروقراطي الذي تلقَّته هو إن هذا مخالِف للقوانين، وإنه لا

توجد طريقة لتقديم العون إليها. أحسَّت بخيبة الأمل لكنها لم تيأس، واستعانت بعلي غالب، جارنا المسلم المُقرَّب، وهو موظف مَدني رفيع المنزلة في وزارة الداخلية يمتلك صلاحية إصدار تأشيرات المغادرة. لم يكن غالب يلعب الورق، لذا لم يكن زائرًا مُنتظمًا. تعوَّد أن يأتي إلى بيتنا صحبة أفراد أسرته لتناول العشاء ونبادلهم الشيء نفسه حين يوجهون لنا دعوةً لزيارة بيتهم. كان صديقًا أصيلًا وفردًا متنوِّرًا يتعالى على الانقسامات الطائفية والولاءات العشائرية.

أبدى علي غالب تعاطفًا خاصًّا تجاه اليهود واستنكرَ بشدة التدابير التي اتخذتها حكومته لإيذائهم. خلال أزمة الطَّائفة اليهودية في العام ١٩٥٠، نقلته وزارة الداخلية من بغداد إلى البصرة. تقول شائعةٌ إن سبب النقل هو المساعدة المتكتمة التي كان يُقدمها لليهود من خلال التحايل على القوانين الرسمية. في أول الأمر أخبر علي غالب أمي أنه ليس بمستطاعه مساعدتها: يمتلك هو صلاحية ختم تأشيرات المغادرة على جوازات السفر العراقية إنما ليس على جوازات السفر البريطانية. في اليوم الأخير في منصبه الوظيفي، على أية حال، أرسل أحدَ مساعديه كي يُخبرَ أمي بأن تأتي بسرعة إلى مكتبه بجواز سفرها البريطاني. ذهبت وسلَّمته جوازَ سفرها. كتب على الصفحة ١٤ بالعربية: يُسمحُ لحاملة هذا الجواز بمغادرة البلاد مع أولادها الثلاثة: ليديا، وإبراهيم وڤيلما. وضع الختم الرسمي، أضاف توقيعه، والتفت إلى أمي وخاطبها قائلًا: «هذه آخر رخصة مغادرة أصدرُها». كان ذلك في التاسع من تموز/ يوليو ١٩٥٠.

بعد مُضي يومين، أتتْ أمي مجددًا إلى القنصلية البريطانية وقدَّمت جوازَ سفرِها مع تأشيرة المغادرة العراقية. كانت قلقةً من أنهم قد يفندون شرعيةَ تأشيرة المغادرة؛ ومن المحتمل أن يحتجوا بشكوى رسمية إلى رؤساء علي غالب. ويا لشعورها بالارتياح الكبير، حين وافقوا على تأشيرة المغادرة العراقية، بل واستخدموها أساسًا لإبطال قرارهم الأسبق. ما دامت الحكومة العراقية لا تعارض مغادرة الأولاد العراقيين البلاد مع أمهم الأجنبية، فهم أيضًا لا يعارضون ذلك. بالتالي، أضافوا إلى جواز سفر أمي الأسماء، وسنوات الولادة وجنس كل طفل. بغية إزالة أي شك، أفاد التدوين بالحروف الكبيرة، «(**ليسوا رعايا بريطانيين**). أُنظر الصَّفحة ١٦». في الصفحة ١٦، كتب نائب القنصل: «تدوين أسماء الأولاد في جواز سفر أمِّهم **لا يُقبَلُ** دليلاً على جنسيتِهم البريطانية».

أُزِيلت عقبةٌ بيروقراطية رئيسة، وبقيت مشاكلُ عملية كثيرة. بعضها يتعلق بالقيود الصارمة التي فرضتها الحكومة على نقل الذهب، والفضة، والمجوهرات، والقطع الأثرية والسجاجيد الشرقية إلى خارج البلاد. إذا ما استثنينا مجوهرات أمي، فإنَّ أسرتنا امتلكتْ كنزًا دفينًا ضخمًا من المواد الثمينة. إنه طقس يهودي حين يُولد طفل يُعطى له أو لها سلاسل أو أساور ذهب، وأقداح فضة، تمائم وهدايا أخرى. كل عيد ميلاد طفل أو طفلة هو مناسبة لهدايا أغلى ثمنًا. كنَّا ثلاثة أطفال ومعظم أصدقاء عائلتنا من الأثرياء، لذا كان الكنز كبيرًا بكل معنى الكلمة. على أية حال، بسبب النزوح اليهودي المباغت من العراق، تدنَّت قيمة السوق

بشكل مفاجئ في ما يتعلَّق بالمعادن والأحجار النفيسة. وكذلك هو الحال بخصوص المنازل والسيارات، هذا هو قانون العرض والطلب.

من أجل إخراج أي شيء من البلاد يتجاوز الحصة الرئيسة، يحتاج المرء إلى ترخيص خاص. منذر العذالي [**المقصود، على الأرجح: العذاري**]، رئيس لجنة إصدار التراخيص، وهو سليل أسرة مسلمة شيعية، أُرسِل إلى مدرسة الأليانس حيث أصبح صديقًا حميمًا لخالي صالح. في هذه الحالة، على أية حال، كانت «الواسطة» بلا جدوى. عرف العذالي أن أمي شقيقة صديقه صالح عُبادية الصغرى؛ لكنه رفض استمارة طلبها. اعتبرتْ قراره غير مُنصِف؛ وأنه تحيَّز ضدها لأنها بريطانية الجنسية. على أية حال، كان العذالي موظفًا مدنيًّا نزيهًا، على الأرجح، يُطبِّقُ القوانين بلا خوف أو محاباة. مهما يكن من أمر، أُرغِمتْ أمِّي على بيع أشيائها الثمينة إلى صاحب محل مجوهرات أتى إلى بيتنا ومعه ميزان، وعرض ما اعتبرته هي عُشر قيمتها الحقيقية. الميزان، أشارت بمرارة، كان لوزن الفاكهة والخضار، وليس لوزن المعادن النفيسة.

يومٌ لك ويومٌ عليك. كان حظُّها أوفر في استخدام «الواسطة» للحصول على ترخيصٍ خاص لأخذ السجاجيد الفارسية إلى خارج البلاد. هنا، ثانيةً، ثمة قوانين وأنظمة صارمة. بسبب حرارة الجو ببغداد، لم يكن لدينا سجادٌ يغطي الأرضية بالكامل في منزلنا، لا سيما في الصيف، لأن ذلك لم يكن ملائمًا للمناخ الحار. كُسِيتْ أرضياتُ بيتنا بالسجاجيد الفارسية، بخاصة الكاشان. نُسِجتْ سجاجيد الكاشان بإحكام شديد لتحتفظَ بقيمتها، لذا كان من الصعب أن تُستهلَك؛ أو

تتلفَ بالاستعمال الاعتيادي. كان الالتزام بالقواعد يعني التخلي عن سجادنا الثمينة أو بيعه بسعر زهيدٍ جدًا لا يتناسب مع قيمته الحقيقية. مكَّنتنا «الواسطة» متجسدةً في شخص جمال بابان من تجاوز القوانين. كان بابان سياسيًّا كرديًّا شهيرًا وتبوأ مرارًا منصب وزير العدل. كما كان يترأس شركة محاماة من الدرجة الممتازة اعتبرت عددًا غفيرًا من اليهود البارزين زبائنَ لها. كانا، هو وزوجته، صديقيْ والديَّ؛ وتعودا أن يأتيا إلى بيتنا للعب الورق. وجدَ أبواي وسيلةً لا يفرِّطان بها كطريقةٍ لتدعيم الصداقة مع ضيفهما المُميَّز. لم ينزعج بابان عندما طلبت أمي نصيحته في المسألة التافهة المتعلّقة بالسجاجيد الفارسية. على العكس، كان غايةً في السعادة كي يقدِّمَ المساعدة. أعطاها اسم الضابط الكردي المسؤول عن مكتب الجمارك والرسوم.

في اليوم التالي ذهبت أمي والتحقت بالطابور كي ترى المدير. أخبرته أن جمال بابان أرسلها كي تتكلم معه وهو يبعث تحياته. بعد الدردشة عن صديقهما المشترك، وصلت أمي إلى الغرض الحقيقي من الزيارة: طلب السماح بأن تأخذ ست سجادات فارسية إلى خارج العراق. شرحت له أن أطفالها الصغار الثلاثة ينامون على سجادة واحدة ويغطون أنفسهم بسجادةٍ أخرى؛ وإنهم ذاهبون إلى لندن حيث المناخ شديد البرودة؛ وأن الأطفال لن يكونوا قادرين على التغلُّب على المشكلات من دون السجاجيد. عندئذ كتب الرجل على ورقة ملاحظات عليها عنوان رأسي مع ختم رسمي، «السماح بمغادرة العراق مع ستِّ سجاجيد فارسية» وسلَّمها الورقة باليد.

بقيت هناك مسألة ما العمل مع ماسات أمّي، جوهرة تاج المجموعة إذا جاز التعبير. ومرةً أخرى، جاء علي غالب لإنقاذنا. أخبر أمي بألّا تقلق، واقترحَ عليها أن تُعطيه الماسات في كيس صغير، وسوف يبذل قصارى جهده كي يُعيدها إليها في الطائرة بعد أن تكون قد اجتازت مراقبة جوازات السفر والجمارك، قبل الإقلاع مباشرةً. لم تكن مترددة في فعل ذلك كما اقترح هو، لأنَّها كانت تثق به تمامًا. قلقُها الوحيد هو أنه من المحتمل أن يُضبط وينتهي الأمر بأن يدفع ثمنًا غاليًا عن لطفه معنا.

قُبيل مغادرتنا، جاء علي غالب وزوجته وأولاده لزيارتنا وتوديعنا. كانوا يهمُّون بتغيير مقر سكناهم إلى البصرة. كانت أجواء البلاد متوترة وكئيبةً وما من أحد بوسعه أن يجزم ماذا يخبئُ المستقبل. غير أن الصداقة عميقة وصلبة. كان الوقت مساءً صيفيًّا حارًّا وجلسنا في الحديقة من أجل ما سيكون آخر عشاء في البيت. اعترف علي لوالديَّ أنه لم يكن باستطاعته أن ينامَ طوال الليل بعد أن أدخل ترخيص المغادرة للأولاد الثلاثة في جواز سفر أمي البريطاني. كان المزاج حول المائدة سوداويًّا والحوار لم يكن سلسًا كما كان عادةً في الأوقات الطبيعية. عرف الجميع، في أعماق أنفسهم، أنهم لن يروا أصدقاءهم مجدَّدًا. كانت أسرة غالب تنتقل للإقامة في البصرة لا غير، بينما نحن ذاهبون للعيش في بلدٍ عدو قاتلَ مؤخَّرًا ضد الجيش العراقي في حرب فلسطين، وكان لا يزال رسميًا في حربٍ مع العراق. على الرغم من الكآبة والشؤم اللذين يطوقاننا، أو ربما بسببهما، فقد تظاهرَ البالغون بالشجاعة وبذلوا جهدًا كي يبدوا متفائلين. نحن الأطفال لعبنا كالعادة، بمرح ونشاط، متجاهلين بسعادةٍ القلق الوجودي الذي يرهق آبائنا كثيرًا.

كانت الأيام القليلة الأخيرة قبل المغادرة مزدحمة للغاية: توديع الأصدقاء والأقارب، والتخلُّص من السِّلع المنزلية، ومهمات الدقيقة الأخيرة وحزم الحقائب. على الرغم من أننا ذاهبون بالطائرة، في رحلة نظامية، إلى قبرص، فقد أخذنا معنا كميةً كبيرة جدًا من الأمتعة. ضمَّتْ تلك الأمتعة حقائبَ سفر كبيرة منتفخة بالملابس لمختلف الفصول، وكتبَ الأطفال، ولُعبًا، وصناديقَ شاي مليئة بالسِّلع المنزلية، وطقم أواني طعام ممتاز، ورزمة كبيرة مع ستِّ سجاجيد فارسية ذكرناها آنفًا. رافقتنا الجدَّةُ موزلي، بسنِّ الثانية والستين، في الرحلة الطويلة. بما أنها تملك جوازَ سفر بريطانيًّا، لم تكن بحاجة إلى تأشيرة مغادرة. كما أن الجواز يعني أنه باستطاعتها أن تحتفظ بملكية بيتِها في الكرَّادة.

أخذنا والدي إلى المطار في ٢١ تموز/ يوليو من عام ١٩٥٠. ولو كان أحس بالخوف أو القلق وقتذاك، فقد احتفظ بذلك لنفسه. لا بد أن أمي تساءلت ما إذا كانت ستراه ثانيةً. تبادلنا قبلات الوداع، فرغنا من تدقيق الجوازات والجمارك، وصعدنا إلى متن الطائرة. لم يقل علي غالب ما إذا كان هو نفسه سيأتي إلى الطائرة. كل ما أخبر به أمي هو ألَّا تقلق. أمي، على أية حال، لم يكن بوسعها أن تكف عن الاضطراب في ما يتصل بما يُحتمل أن يحصل لصديقها لو أنه ضُبِطَ متلبِّسًا بالجريمة، وهو يساعد يهوديةً على تهريب ماسات إلى خارج البلاد في انتهاك فاضح للقانون العراقي. الذي حدثَ: غالبٌ نفسه لم يأتِ؛ إذْ أرسل أحد مساعديه كان يمتلك تصريحَ مرورٍ أمنيًّا لا يخضعُ بموجبه للتفتيش. جاء المساعد إلى الطائرة، ظاهريًّا كي يودعنا. مضى مباشرةً إلى أمي كي يصافحها. وبينما

هو يفعل ذلك، دسَّ في راحة يدها كيسَ الماسات. بالنسبة لأمي، كما أشارت إليَّ لاحقًا، مثَّلتِ الماساتُ أكثر بكثير من كونها ملكًا ماديًّا ثمينًا: لقد كانت شهادةً على إخلاص وأمانة صديق مسلم، والبرهانَ الملموس على أنَّ الأصول الإنسانية لم تطمسها تمامًا الضغوطُ السياسية للصِّراع العربي - الصهيوني.

أخذتْنا الرِّحلة الجوية إلى مطار نيقوسيا في قبرص، مع إن مقصدنا الأخير هو إسرائيل. في ذلك الوقت كانت قبرص مستعمرةً بريطانية. بعد الموافقة على خطة الحكومة العراقية للسماح للطائفة اليهودية بمغادرة البلاد، اقترحت بريطانيا أن تكون قبرص نقطة تواصل بين بغداد وتل أبيب. بطبيعة الحال، لم يكن هناك رحلات جوية تجارية نظامية بين العراق وإسرائيل. أصدرتْ جامعة الدول العربية، صبيحةَ حرب فلسطين، مرسومًا يقضي بمقاطعة دبلوماسية واقتصادية مع الدولة اليهودية حديثة الولادة، واستبعدَ هذا المرسوم أيَّ تماسٍ معها بواسطة اليابسة، أو البحر أو الجو. كما لم يكن بمقدورنا الذهاب من أيِّ بلدٍ من البلدان العربية المجاورة لأنها، كلُّها، مقيَّدة بقرار جامعة الدول العربية. أقرب بلد غير عربي من إسرائيل هو قبرص، التي جعلتها المقصد الواضح للجزء الأول من الرحلة.

توقفٌ مُبرمَج في مطار بيروت سبَّبَ أول تعقيد منذ مغادرتنا وطننا. بينما كان الحمَّالون يفرِّغون أمتعة المسافرين الذين غادروا الطائرة إلى بيروت، لمحتْ أمي حُزمة السجاجيد الفارسية الست. وفي الحال شرعت تصيح أن هذه أمتعتها وأصرَّت على أن يُعيدوها إلى الطائرة.

في البداية، قالوا لها إنها مُخْطِئة، والدليل على ذلك أروها أن الرقعة التي تحمل اسمها ملصقةٌ الآن برزمة تبدو قليل الأهمية. كان تحويل الملصقات أو «الليبلات» على ما يبدو جزءًا من الغشِّ، إلا أن أمي لم تكن من النوع الذي يُخدَع بذلك. ألحَّت على أن تُلصق الرقعة ثانيةً بالحُزمة وأن تُعادَ إلى الطائرة. احتراس أمي أحبط حيلة سرقة سجاجيدنا الثمينة. وأظل أنا المالك الفخور لواحدة من تلك السجاجيد الست – متاع أسرتي الوحيد الباقي من زمننا البغدادي.

كانت رحلة أبي إلى إسرائيل أطول بكثير، وأخطر من رحلتنا بشكل لا متناهٍ. انقضتْ قُرابة ثمانية عشر شهرًا بين توديعنا في مطار بغداد في تموز/ يوليو ١٩٥٠، ووصوله إلى إسرائيل. كانت تلك بلا ريب الفترة الزمنية الأكثر إرهاقًا في حياته، لكنه لم يتحدث عنها البتة. خلال هذه المرحلة، كان قادرًا على إرسال النقود إلينا، غير أنه لم يكن قادرًا على الاتصال بنا بواسطة التليفون أو البريد. التفاصيل اليسيرة التي أملكها بشأن معاناته مصدرُها أمي. في روايتها، كان زوجها سجينًا في العراق: ليس بمستطاعه المغادرة في رحلة جوية اعتيادية أو في النقل الجوي الذي تنظمه الحركة الصهيونية؛ لأنه لا يمتلك وليس بوسعه الحصول على تأشيرة مغادرة. الطريقة الوحيدة للهرب هي عبور الحدود إلى إيران بصورةٍ غير مشروعة. تضمَّنَ هذا الأمرُ خطرًا كبيرًا: بعض اليهودِ الذين سلكوا هذا السبيل ماتوا في الطريق، وبعضهم سُلِبوا وبعضهم الآخر قُتِلوا، لكنَّ أبي لم يملك خيارًا ثانيًا، إذًا، هذا هو السبيل الذي سلكه أخيرًا. ساعده مهرِّبون أكراد، هو وبعض اليهود الآخرين الذين كانوا في الظروف الصعبة نفسها، للوصول

إلى نقطة شمالية على الحدود مع إيران. كانت الرحلة قاسيةً إلى أقصى حدٍّ، بمؤن شحيحة، وترتيبات نومٍ مؤقتة والخوف الحاضر أبدًا من احتمال اكتشاف أمرهم. للتخفي عن الأنظار، تشقت المجموعة طريقها ليلًا، بعضهم سيرًا على الأقدام، وبعضهم على ظهور الحمير. اعتقدَ أبي، في أكثر من مرة، أنه لن ينجح. لكنَّ مستوى التوتر انخفضَ بشكل لافت، بمجرد عبورهم إلى الجانب الإيراني من الحدود. رحبت إيران باللاجئين اليهود - العراقيين وكانت هنالك ترتيباتٌ تُمكنهم من الوصول إلى وجهتهم النهائية. كان المرور من الحدود إلى طهران سهلًا نسبيًّا. في طهران مكثَ أبي طوال شهر تقريبًا مع شقيق زوجته، ألفريد. كان بأمس الحاجة إلى الراحة والنقاهة. من طهران شق طريقه إلى إسرائيل.

أمضينا، جدتي وأمي وشقيقتاي وأنا، شهرين في نيقوسيا، حيث مكثنا في فندق ضخم. كنت في الرابعة من عمري فلا عجب أن تكون ذكرياتي عن تلك الفترة ضعيفة وقليلة. أتذكَّر جيِّدًا النَّادل الذي يُدعى أنجيلي، والذي أظهر اهتمامًا شديدًا وتساهلًا معي ومع أخواتي. شجعنا أُسلوبه على التصرف بحُرية. كان هنالك جرس في غرفة الطعام: التقطناه من حامله ورحنا نطوف حول الفندق، نقرعه ونهتف قائلين المرة تلو المرة «هذا أنجيلي!» - وثمة ذكرى أخرى تتعلَّق برحلةٍ بغية زيارة أصدقاء في فاماغوستا، وهي مدينة قبرصية أخرى. ليست الرحلة هي ما أتذكره بقدر الصخب الذي سبقها. وجدنا اسم فاماغوستا غريبًا، لذا التقطنا الجرس مرَّةً تلو أخرى معلنين بالعربية، وبأعلى أصواتنا، «نحن ذاهبون إلى فاماغوستا، نحن ذاهبون إلى فاماغوستا!».

الأشخاصُ الذين مضينا لزيارتهم أصدقاء عراقيين اشتروا فيلا في فاماغوستا واستقرُّوا هناك. للفيلا حديقةٌ كبيرة مع بئر. كانت لدى أمي بعض القطع النقدية الذهبية الإنجليزية في حقيبتها اليدوية. التقطت ليديا واحدة من تلك القطع النقدية وهددت برميها في البئر. بدت مصممةً للغاية؛ لكنَّ أمي أفلحت في النهاية باستعادة القطعة النقدية. بحسب ما قالته أمي كان هذا مثالًا مبكرًا عن طبيعة ليديا المتعنتة وصعبةَ المراس، وربما يكون دليلًا على عدم تقبل والدتي لأي بادرة تحدٍ، أو حتى استقلالية، من ليديا. فضلًا عن أنّ الحادثة كشفَت عن تحيز أمي الكبير وازدواجية المعايير التي تطبقها، حيث عاملتني بشكل مختلف تمامًا عن شقيقتي الكبرى: أنا صبي ولا يُمكنني أن أرتكب غلطةً من وجهة نظر والدتي، في حين ليديا فتاة ولهذا فهي تخضع إلى مجموعةٍ مختلفة من القواعد. يُتوَّقع منها أن تكون خجولةً ومحتشمةً ومطيعة، وعليها أن تتبع الأوامر وألا تتصرفَ وفقًا لقناعتها هي.

بالنسبة لأمي، لم تكن قبرص خالية من الضغوط والمشاكل. كانت تلك هي أول مرة وجب عليها أن تعتني بأولادها الصغار من دون مساعدة المربيات والخادمات. كانت أمها عونًا لها لكنها لن تكون بديلًا مناسبًا عن مربيةٍ، محترفة، بدوام كامل. أضافت الحمولة الإضافية التي أرسلها الخال شاؤول من قبرص إلى الأعباء الموجودة. كان الخال الماكر قد أعطى رشوةً للحمّال[1] كي يُعيد إليه الترخيص الذي أعطاه رئيسُ دائرة الجمارك الكردي لأمي. بعدها استخدم شاؤول هذا الترخيص كي

(١) المقصود، على الأرجح، موظف الخدمة الذي يقوم بأعمال التنظيف وحمل الأمتعة وما إلى ذلك. [المُترجم].

يرسل ست سجاجيد فارسية له ويُبلغ أمي بالخطة بواسطة التليفون. ومن ثم كرَّر الحيلة وأرسل دُفعةً أخرى من ست سجاجيد قبل أن تحذره أمي على التليفون بأنه، إذا أرسل أي سجاجيد أخرى، سوف ترميها في البحر. على ما يبدو نجح التهديد لأن شحنات السجاجيد انتهتْ منذ ذلك الوقت.

أبحرنا بالسفينة من قبرص إلى حيفا. معنا حقائب سفرنا، وصناديق الشاي المعبأة بالأغراض، وسجاجيدنا الفارسية الست، بالإضافة إلى سجاجيد خالي الاثنتي عشرة. فصلٌ عاصف في تاريخ أسرتنا بلغَ نهايته. وفصلٌ آخر يوشِك أن يبدأ. كانت طريقة مغادرتنا للعراق مختلفة عن طريقة غالبية اليهود البالغ عددهم ١٢٠ ألفَ يهوديٍّ الذين غادروا في الوقت نفسه. غادرنا بصورةٍ مستقلة معتمدين أنفسنا؛ في حين نُقل أغلبهم من العراق إلى إسرائيل في عملية عزرا ونيحميا. على الرغم من ذلك كنا جميعًا جزءًا من قصةٍ أكبر: النهاية الفاجعة لليهود البابليين. كنا نغادر بلدًا تمتعنا فيه، بوجه العموم، بحياةٍ كريمة، ونحن الآن ذاهبون إلى دولةٍ جديدةٍ وفقيرة مستقبلُها مُبهَم في أحسن الأحوال.

أحد أقاربي البعيدين إسحاق بار – موشيه عاش هذه اللحظة بصورةٍ مُحزنة أكثر من الأغلبية. في كتاب سيرته الذاتية المعنون «النزوح من العراق» أظهر سوداوية النزوح اليهودي من العراق:

العلاقات التي تشكَّلت طوال مئات السنين مُحِيت في ساعات قلائل. طائفةٌ بأكملها تسلخُ نفسَها من الماضي وتتحركُ بسرعةٍ صوب المستقبل الذي يقف على الباب. تاريخٌ قوامُه أكثر من ألفيْ عام صُفِّي في أقل من ألفيْ ساعة... هنا كل شيء يتحطم ... الماضي يرتج وينهار... ما من شاعرٍ في العالَم بوسعه أن يصف تجربتنا... يهودٌ يمشون كالسَّائرين في نومهم.

تساءل بار – موشيه: هل تُدرك حقائب الجلد وهي تضم خفاياها أن ما تحمله ليس مجرد أشياء عاديَّةً؛ بل تاريخ طائفتنا العريق[١].

مكتبة
t.me/soramnqraa

آڤي في رَمات گان، الصف الأول، (الصف العلوي، الثاني من جهة اليسار)

الفصل التاسع

أرضُ الميعاد

وصلنا في أيلول/ سبتمبر من عام ١٩٥٠، جدتي «نانا» وأمي وليديا وڤيلما وأنا، إلى ميناء حيفا على ظهر مركب. كان عمر إسرائيل عامين لا غير حين رسونا على شاطئها. أيُّ نوع من البلدان كانت إسرائيل؟ ثمة جواب واضح ألا وهو إنه بلد المهاجرين الجُدد، بلد يهود الشتات العالمي، وثقافات متباينة ولغات متعددة. في نهاية حرب العام ١٩٤٨، كان عدد سكان الدولة الوليدة لا يتجاوز ٦٥٠ ألف نسمة، من بينهم ١٥٠ ألفًا من العرب. لذا كان للـAliyah (هجرة اليهود الكبرى) أولويةً قصوى بالنسبة للقادة الإسرائيليين. بالنسبة لديڤيد بِن - غوريون، أول رئيس وزراء، كانت مسألةَ وجود. بحلول منتصف عام ١٩٥١، تضاعفَ عدد السكان تقريبًا. في أول الأمر، أقبل اليهود من أوروبا، بعضهم ناجون من المحرقة النازية، الهولوكوست. تلقُّوا معاملةً تفضيلية، على الأقل بقدر تعلَّق الأمر بالإسكان: مُنحوا منازلَ العرب الذي هربوا أو طُرِدوا إبَّان الحرب ولم يكن مسموحًا لهم بالعودة. في تحدٍّ لقرار الأمم المتحدة المرقم ١٩٤ في كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٨، رفضت إسرائيل منح حقِّ

العودة أو التعويض لـ٧٥٠ ألفَ لاجئٍ فلسطينيٍّ. إلا إنه بحلول العام ١٩٥٠ لم يعد هنالك مزيدٌ من المنازل كي تُخصَّصَ.

بالنسبة لأسرتي كانت الهجرة الكبرى عمليةً مؤلمة. في المقام الأول، كانت هجرتنا إلزامية. التفاعل المتبادَل بين القوتين –الصهيونية والقومية العربية– أجبرنا على مغادرة وطننا وغيَّرَ حيواتنا تمامًا. كما أسلفنا، تعني «Aliyah» حرفيًّا: الصُّعود. لكنَّها كانت هبوطًا بالنسبة إلينا، أو «Yerida» باللُّغة العِبرية. لم نهبط على السُّلَّم الاجتماعي والاقتصادي فقط، بل فقدنا ثقتنا بأنفسنا أيضًا، ومكانتنا الاجتماعية وشعورَنا الفخورَ بهُويتنا كوننا يهودًا عراقيين. التاريخ الصهيوني الرسمي يصف الـAliyah (هجرة اليهود الكبرى) من الدول العربية بكونها انتقالًا من الشرق إلى الغرب. بالنسبة لوالدتي، كانت هذه نقلة من بيئة بغدادية - إنجليزية - فرنسية إلى عالم اشتراكي أشكنازي لم تفهم قواعده وشفراته. على نحوٍ لا يُمكن نكرانه، معاناتنا كانت أقل بكثير من معظم المهاجرين العراقيين الذين انتهى بهم المطاف في خيام وأكواخ. مهما يكن من أمر، استلزمَ الانتقال، والانتزاع، والنزوح، والألم العاطفي والارتباك السيكولوجي للأسرة كلها. أمي، وشقيقتاي وأنا تكيَّفنا مع البيئة الجديدة بأفضل ما نستطيع. بالنسبة لجدتيَّ، فات الأوان كثيرًا على التكيُّف. أما بالنسبة لأبي، كانت عقبات الاندماج لا يمكن التغلب عليها. لم يبرأ أبدًا من آلام النزوح والتجريد من المِلكِية وظل رجلًا كسيرًا طوال ما بقي من حياته. في إسرائيل، كان ظِلَّ الرجل الذي كان عليه يومًا في العراق. هو والبالغون في الأسرة، بالإضافة إلى بقية اليهود العراقيين، تمسكوا بصور وأصداء ماضيهم العراقي في رَمات گان.

بالنسبة لدولة إسرائيل، أيضًا، لم تكن مَهمة استيعاب سائر المهاجرين الجُدد سهلةً. بعد يهود أوروبا جاء يهود الشرق الأوسط وشمال أفريقيا: العراق: ١٢٠ ألفًا؛ اليمن: ٤٥ ألفًا؛ تركيا: ٣١ ألفًا؛ إيران: ٢١ ألفًا؛ مصر: ١٦ ألفًا؛ المغرب: ٣٠ ألفًا؛ تونس: ١٣ ألفًا؛ ليبيا: ٣١ ألفًا؛ الجزائر: ألف وخمسمئة. لم يكونوا يُسَمَّوْن «لاجئين»، بل «أوليم» (أي مهاجرون). في المراجعة الصهيونية الرسمية، كانت هذه الـAliyah (هجرة اليهود الكبرى) إنقاذًا: لقد أنقذتْ الدولةُ الجديدة يهودَ الشرق الأوسط وشمال إفريقيا من البيئة العدائية التي لا سبيل لتغييرها، رحَّبت بهم بذراعين مفتوحتين وأنجزت مهمةً بطولية في استيعاب المهاجرين بظل ظروف عصيبة واستثنائية. يُقال بأن هذا كلَّه جزءٌ من تحقيق الحلم الصهيوني المتعلق بـ«جمْع المنفيين». كانت إسرائيل، في السردية الصهيونية المُهيمنة، لا تزال «أرض الميعاد» على الرغم من مشكلاتها المبكرة، «مشكلات التَّسنين المبكِّر!»[1].

لم تبلغ التجربة الحقيقية للأغلبية الساحقة من المهاجرين العراقيين مستوى الأسطورة الصهيونية. في المقام الأول، لقد شكُّوا بأن إسرائيل عملت بنشاط وحيوية من أجل اقتلاعهم من بلدهم العربي وهذا الأمر غذَّى استياءَهم من البداية. ثانيًا، كان هؤلاء القادمون الجُدد ضحايا الرأي السائد بأنَّ إسرائيل تقدُّم لهم خدمةً من خلال احتضانهم في الداخل بعيدًا عن البرد. وصفت الدعاية الإسرائيلية يهود العراق طوال العامين الفائتين بأنهم يواجهون تهديد الإبادة الجسدية على أيدي نظامٍ فاشي. هذه

(١) هنا التعبير مجازي، كما هو واضح. [المُترجم].

التهمة الملفَّقة كان الهدف منها خدمة حمْلة إسرائيل ضد العراق في الميدان العالَمي. إلا إنها في الوقت نفسه، دفعت الجماهير الإسرائيلية إلى الاعتقاد بأنه بينما يجب أن تظل أبواب البلاد مفتوحة لهؤلاء المنبوذين سيئي الطالع، لكنَّ ثمن استيعابهم سيكون باهظًا. بالتالي، لم يُرَّحب بالعراقيين على اعتبارهم مهاجرين فخورين، بل باعتبارهم لاجئين مَدينين بديْنٍ ثقيل من العِرفان بالجميل لمُنقِذيهم. وقد تماشَت هذه الصورة مع النظرة الاستعلائية التي لطالما أبدتها الحركة الصهيونية تجاه يهود العراق[1]. ثالثًا، كانت ليهود العراق قيادتهم ومؤسساتهم، وقد وصلوا إلى أبواب أرض الميعاد فُرادى مُفلسين، عاجزين بلا قيادةٍ، تحت رحمة سلطات الدمج والاستيعاب في الوطن الجديد.

على أية حال، كانت تجربة يهود العراق الحقيقية، عند وصولهم إلى إسرائيل، حاسمةً جدًّا. في المطار، رشُّوا عليهم مبيد قاتل الحشرات (DDT) لتعقيمهم كما لو كانوا حيواناتٍ. كانت تجربةً بالغة الإذلال. ثمَّ أخذوهم إلى المعسكرات المؤقتة، أو المخيمات المؤقتة، أو معسكرات العبور، «معبروت» (مفردها: مَعْبَرة). تألفت وحدة السكن في الـ«مَعْبَرة» من الخيام أو أكواخ الحديد المضلَّع (الشينكو)، مع وحدة اغتسال وطهي بدائية. كانت الظروف المعيشية قذرة وغير صحية، وكان مصادر الماء شحيحة وغير كافية. اقتصرت فرص التشغيل إلى حدٍّ كبير على واجب المطبخ مرَّةً أو مرتين في الأسبوع، وعلى البناء والمهام الحقيرة الأخرى مثل اقتلاع الأعشاب الضَّارَّة على طول الطرق العامة. أمَّا المصرفيون والمحامون والأطباء والمحترفون الآخرون فقد أُجبروا على استجداء

عمل اعتباطي جدًّا في سبيل إطعام عائلاتهم. حرية نزلاء المعسكرات المؤقتة كانت محكومةً بقسوة. طُوِّقتْ بعضُ المعسكرات بالأسلاك الشائكة وبرجال شرطة يحرسونها. هنا لا يمكن التغافل عن السُّخرية المريرة من اليهود وراء السلك الشائك.

المهاجرون الذين لا يمتلكون مؤهلات مهنية ولا موارد مالية عائدة لهم، أي بمعنى، الغالبية، خصصت لهم سلطات الاستيعاب الإسكانَ في مستوطنات زراعية وبلدات تطوير في أطراف المدن. نادرًا ما كانوا يُستشارون، وعادةً ما يُكذَب عليهم بخصوص موقع منازلهم الجديدة. أرادَ معظم المهاجرين أن يكونوا في أو قُرب المدن الكبيرة في مركز البلد إلا إنهم عادةً ما انتهى بهم الحال في مناطقَ ريفية نائية في النقب القاحل وعلى الحدود. قاومَ بعضُهم جسديًّا فكرةَ أن يتم التخلُّص منهم هكذا في واحدة من تلك الوجهات التي خُصصت لهم. أخبرني آفي غِل، المدير العام السابق في وزارة الخارجية الإسرائيلية، أن أباه، وهو سائق حافلة، كان يأتي إلى البيت في ساعةٍ متأخرة من الليل مطلعَ خمسينيات القرن العشرين مع لطخات دم على قميصه بعد مشاجرات مع مهاجرين رفضوا الترجُّل من الحافلة. على العموم، (اختيار الجنسية الإسرائيلية)، بحسب كلمات أوريت باشكين، «كان تحوُّلًا مُوجِعًا، عنيفًا، وصادمًا»[٢].

ألقى موقف الهجرة وسلطات الاستيطان تجاه القادمين الجُدد بظلاله على كلِّ شيء آخر. ببساطة لم يفهموا طقوس، ثقافة أو تطلُّعات يهود العراق. كانوا يحسبونهم متخلفين وبدائيين، وتوقعوا أن يتخذوا مكانهم في قاع الهرم الاجتماعي وأن يكونوا ممتنين لأي شيء يعطونهم

إياه. أقبلَ المهاجرون من تسعة بلدان عربية مختلفة غير أنهم كانوا سواسية بالنسبة لمدراء معسكر العبور المؤقت. تفاقمت التوترات بين اليهود الأشكينازيين والسفارديين بسبب الفجوة الثقافية بين الشرق والغرب. نُظِرَ إلى الثقافة اليهودية - العربية على أنها أدنى منزلةً بلا جدال.

زيادةً على ذلك، كانت المؤسسة الإسرائيلية عازمةً على قمع الثقافة العربية ومحو هُوية اليهود الشرقيين من خلال إجبارهم على الانصهار في بوتقة أشكينازية - أوروبية. أشارَ ديفيد بِن - غوريون إلى المهاجرين الشرقيين بوصفهم «حشودًا هَمجية». ثمة مموِّل آخر لهذه الغطرسة هو وزير الخارجية أبا إيبان، الذي أفاد قائلًا، «ينبغي أن يكون الهدف غرسَ روحًا غربية فيهم، وألَّا نَدَعهم يجرُّونَنا إلى شرقٍ غير طبيعي». العدسة التي كان يُنظَر من خلالها إلى المهاجرين الجُدد هي نفس العدسة الاستعمارية التي كانت تنظر من خلالها المؤسسة الأشكنازية إلى الفلسطينيين. لم يكن الهدف دعم مجتمع متعدد الثقافات في إسرائيل، بل نزع شرعية الجذور الثقافية للشرقيين، وتأكيد الميزة الأوروبية لإسرائيل والمحافظة على احتكارٍ أشكينازي لمراكز السُّلطة الثقافية بالإضافة إلى السلطة السياسية.

تُشكلُ مسألةُ التأقلم مع المجتمع الجديد موضوعًا جوهريًا يتكرر في روايات المهاجرين العراقيين إلى إسرائيل. يبرز من بينهم صديقي سامي ميخائيل. وُلِد سامي في بغداد عام ١٩٢٦، انضمَّ إلى الحزب الشيوعي العراقي حين كان في سن السابعة عشرة من عمره، وساعد في توزيع المنشورات السرِّية التي تنتقد التأثير النَّازي في العراق، حُكِم

عليه بالإعدام في العام ١٩٤٨ وفرَّ إلى إيران. في إيران اتصل بتودة، الحزب الشيوعي الإيراني، وجدَّد أنشطته ضد حُكَّام العراق. طالب العراق بتسليمِهِ، لذا كان مُرغَمًا على التواري عن الأنظار ثانيةً. كان يتطلع للسفر إلى الاتحاد السوفيتي، إلا أنه وجد نفسه في إسرائيل بشكل غير متوقع! انضم في حيفا إلى الحزب الشيوعي، وكتب لجريدته باللغة العربية «الاتِّحاد»، وانخرطَ في حركات السِّلم مع الفلسطينيين. اكتسب سمعةً وطنية كونه ناقدًا عنيدًا للمؤسَّسة الأشكنازية ولمواقفها العنصرية تُجاه العرب، المواطنين الفلسطينيين في إسرائيل ويهودِ العالَم العربي. كان سامي من بين أوائل الإسرائيليين الداعين إلى خلق دولة فلسطينية مستقلَّةٍ جنبًا إلى جنب مع إسرائيل. أُنتُخِبَ في العام ٢٠٠١ رئيسًا لجمعية الحقوق المَدَنية في إسرائيل.

تعرَّفتُ على سامي ميخائيل بين عاميْ ٢٠٠٠ -٢٠٠١ حين أمضى وقتًا في مركز أكسفورد للدراسات العِبرية واليهودية في سياق برنامجه «زَمالة كُتاب اللُّغة العِبرية الزَّائرين». هو وزوجته راشيل، وهي صحفية من أصل عراقي، سكنا في دفيئة البرتقال في يارنتون مانور، وهو بيت فخم من القرن السَّابع عشر في قرية يارنتون، يبعُد عشرة كيلومترات شمال غرب أكسفورد. في هذا الموقع الريفي الإنجليزي الجوهري، تمتَّعا بالاستراحة من النقاشات السياسية المضطربة التي كانت تلاحقهما بشكلٍ دائم في إسرائيل. قضيتُ أمسيات عديدة في رفقتهما. أطباق العشاء العراقية المتبلة بالبهارات التي كانا يعدَّانها، مثل كرات اللحم مع البامية على طبقةٍ من الأرز، ذكَّرتني بالطعام الذي تعوَّدنا أن نأكله

في بيتنا. معظم حواراتنا كانت تدور حول المجتمع الإسرائيلي، السياسة والثقافة، وهذه كلُّها كان سامي يعرف عنها أكثر بكثير مما كنتُ أعرف. كان منزعجًا من الظُلم، وعدم المساواة والعنصرية السافرة للمجتمع الإسرائيلي وصوَّر نقاطه مع سرد وقائع شخصية. سامي ذو بشرة داكنة. خلال سنواته المبكرة في إسرائيل كان يلجُ إلى مكتبة ويبدأ التَّصفح. كان صاحب المكتبة الأشقر يصيح عليه أمام الزبائن الآخرين، «ليس لدينا كتبٌ مُصوَّرة!» الإهانة اشتعلت عميقًا إلا إنها أيضًا حَسمت إصرارَ سامي على أن يُثبت نفسه ككاتب بالعِبرية. ما كنا نتقاسمه؛ سامي، راشيل، وأنا هو شعورنا بأننا غرباء. مع أن سامي في الختام حقَّق شهرةً ككاتب وناشط سياسي في إسرائيل، لم يكن جزءًا من المؤسسة. بصرف النظر عن وجهات نظره السياسية الراديكالية، كانت هنالك مشكلة اللغة: احتاج إلى ربعَ قرنٍ كي يجدَ صوتَه باللُّغة العِبرية.

كان سامي في نحو الخمسين من عمره حين نشر روايته الأولى بالعِبرية «متساوونَ، ومتساوون أكثر»، مستذكرًا السطر الشهير في رواية جورج أورويل «مزرعة الحيوان». كشفَ كتاب سامي نفاق السلطات الإسرائيلية والمعاملة المُهينة التي خضع لها المهاجرون الجُدد في معسكرات العبور آن وصولهم. أظهر الكتاب فكرة رش مسحوق قاتل الحشرات (DDT) باعتبارها رمزًا لإذلالهم وأصبحتْ عبارةُ «الجميع متساوون، لكنَّ بعضهم متساوون أكثر» إشارةً شهيرةً للكفاح من أجل مساواة اليهود القادمين من البلدان العربية بالآخرين. حفَّزت الرواية جدالًا حيويًّا حول الفجوات الاجتماعية - الاقتصادية في المجتمع الإسرائيلي

ومن خلال هذا العمل ساعد (أي الجدال) على جلب المسألة العِرقية إلى البرنامج الوطني. في رواياته ومسرحياته الأخرى تعامل ميخائيل مع تطلُّعات وكفاح اليهود والعرب على السواء، على الدوام من منظور تقدُّمي، عادلٍ وإنسانيٍّ.

على أية حال، لم تكن رواية ميخائيل «ڤيكتوريا» الصادرة في عام ١٩٩٥ عن المجتمع الإسرائيلي؛ بل كانت قصة أُسرة يهودية من الطبقة العاملة في بغداد بدايةَ القرن العشرين - كانت تُوصَف بذكاءٍ على أنها روايةٌ عربية كُتبتْ بالعِبرية. لقد ركزتُ في الفصل السادس «مدينتي بغداد» على أسلوب حياة أُسرتي المُترَف. كان مصدري الرئيس هو أمي التي بدتْ بغداد بالنسبة لها، مع مرور الوقت، وأكثر فأكثر أشبه بـ«فردوس مفقود». لم نكن، بأية حال، أسرة يهودية نموذجية: كنا أسرة ثرية وذات امتيازات من الطبقة الوسطى العليا. حين كنتُ صبيًّا، لم تكن لديَّ فكرة عن طبيعة حياة يهود الطبقة العاملة الفقراء. حصلتُ على ذلك التبصُّر الذي أحتاجه كثيرًا من خلال قراءة رواية «ڤيكتوريا».

تصف الرواية بتفصيل حارق الواقع القاسي لمنطقة سكنية يهودية: الأزقة القذرة، والبيوت المزدحمة، والنزاعات على السلطة والدسائس، والفقر والجوع، والإغراءات والخيانات، والسِّفاح والعُهر. تصف مجتمعًا ذكوريًا متخلِّفًا تكون فيه النساء تابعات بكل معنى الكلمة، يُعتبرن أدنى منزلةً، مُهاناتٍ ويُترَكن بلا أملٍ. دور النساء الرئيس في هذا المجتمع هو أن يخدمنَ الرجال ويُنتجن ذريةً من الذكور. حتى صدور «ڤيكتوريا»، تعاملتْ كلُّ روايات ميخائيل إمَّا مع الصراع بين اليهود والعرب أو مع

الانشقاق بين اليهود الأوروبيين والشرق أوسطيين. في «ڤيكتوريا»، يعود بنا سامي إلى تاريخ أسبق مستخدمًا تجربته الشخصية كطفل لإلقاء الضوء على ديناميكيات مجتمع الطبقة العاملة التي تنتمي للطَّائفة اليهودية - العراقية. رغم أنه عملٌ سرديٌّ، فإنَّ ميخائيل يُؤكِّدُ على دقَّتِهِ التاريخية. ما يُضفي التعقيد والمصداقية على رواياته كلها هو أنه هو نفسه خليطٌ من سائر الهويات المختلفة التي يكتب عنها: يهودي - عربي، عراقي، شيوعي وإسرائيلي.

رواية «ڤيكتوريا» تحفةٌ أدبيةٌ عن امرأةٍ، كتبها رجلٌ، عن جمهور غير مميَّزٍ من الشخصيات الأقل شأنًا من حولها، وعن مجتمعٍ فريد لم يعد له وجود منذ أمدٍ بعيد. بحساسيةٍ استثنائية، يتغلغل الكاتب في أعماق الشخصية الرئيسة، جسدها وعقلها وروحها. وبواقعية رزينة، وبعيدًا عن أي حنين للماضي، يعيد بناء الرواية المعقدة لحياة اليهود العراقيين من الطبقة العاملة في بغداد. من الصعب أن نتخيَّل تصويرًا أصدق أو أكثر أصالةً. وعلى الرغم من ذلك، فقد واجه نشرُ رواية «ڤيكتوريا» ردَّةَ فعل عدائية وصاخبةٍ من العراقيين الأغنياء في إسرائيل، الذين تذمروا قائلين بأن الكتاب رسمَ صورة زائفة لحياة الأقلية اليهودية في العراق، وجلبَ الخزي والعار إلى الطَّائفة بأسْرها. انضمت أمي إلى جوقة الانتقاد. «بهدلنا»، قالت لي بأسلوب عنيف - «ألحقَ بنا الخزي والعار». وعلى سؤالي ما إذا كانت قد قرأت الكتاب، أجابت أنها قرأت الصفحات العشر الأولى ومن ثم ألقته جانبًا. «لماذا؟» سألتُها، وعلى هذا السؤال ردَّت، «إنه كتاب غير واقعي!» كانت هذه هي نهاية الحوار.

حظيت رواية «ڤيكتوريا» بثناءٍ عظيمٍ من نقّاد الأدب، وبسرعة أمسى الكتاب الأكثر مبيعًا، وتُرجم إلى لغات مختلفة كثيرة، بما فيها العربية. في العام ١٩٩٥، نُشر بالإنجليزية. الطبعة العربية نُشرت في القاهرة مع مقدمة قدَّمها ميخائيل بصفته مؤلفًا يهوديًا من أصل عراقي وركز على انتقاله من الكتابة بالعربية إلى الكتابة بالعِبرية. وشددت المقدمة مع إن ميخائيل يُقيم في إسرائيل ويكتب بالعِبرية، فقد أظهر هو وعيًا عميقًا بجذوره الثقافية العربية. قَدَّمتْ الرواية نفسها بوصفها إسهامًا رئيسًا في قضية التطبيع الثقافي بين العرب واليهود.

في سنواتٍ تالية من حياتي، بعد استقراري لمدةٍ طويلة في إنجلترا، وتشرَّبي الهويةً البريطانية، أصبحتُ أوافق سامي ميخائيل على بعض وجهات النظر الراديكالية. ولاحقًا أصبحتُ أيضًا أشاركه ارتباطه بهويته الأصلية، هوية يهودي - عربي. على أية حال، لم تكن وجهات النظر هذه متأصلةً في تجربتي الشَّخصية أو تجربة أسرتي في ذلك الوقت.

لم يكن لقاؤنا الأول بـ«أرض الميعاد» صادمًا كلقاء معظم المهاجرين العراقيين. لم يرشونا بمادة الـ(DDT) عند الوصول ولم يرسلونا إلى «مَعْبَرة». رغم فقداننا معظم أصولنا المالية بسبب الانتقال، فقد كان بحوزتنا ما يكفي للعيش في إسرائيل، على الأقل خلال الأعوام القليلة الأولى. زيادةً على ذلك، كانت لدينا شبكة دعم أُسريَّة تمنحنا دعمًا كُنا بأمسِّ الحاجة إليه. عندما ترجَّلنا من السفينة في ميناء حيفا، كان الخال يعقوب، شقيق نانا، في استقبالنا مرحِّبًا بنا. أقبلَ من رَمات گان مع سائق وشاحنة بلا سقف. حمَّلنا أمتِعتنا -حقائبَ سفر، وصناديقَ ثياب،

وصناديق شاي وحزم السجاجيد الفارسية- في الخلف. في الطريق الذي سارت فيه السيارة جنوبًا على طول الساحل، جلسنا أنا وشقيقتاي في الكابينة بجوار السائق؛ بينما جلستْ أمي مع خالها يعقوب في الخلف مع الأمتعة المكشوفة. كانت أمي في مزاجٍ مبتهج: وصلنا إلى «أرض الميعاد» وخالها المُفضَّل كان هناك كي يُرحِّب بنا.

يُقيم الخال يعقوب في رَمات گان، أكبر مدينة تابعة لمنطقة تل أبيب - يافو الحَضَرية. تأسست في العام ١٩٢١ «موشاڤا»، أي مستوطنة زراعية مشاعية، لكنَّها تحوَّلتْ شيئًا فشيئًا من الزراعة إلى الصناعات الخفيفة. في أربعينيات القرن العشرين، أصبحت ميدان معركة في حرب اللغة التي شهدتها البلاد: مطبعةٌ باللغة اليدشية نسفها المتعصبون للغة العِبرية. في العام ١٩٥٠ أصبحت مدينةً وبحلول العام ١٩٥٥ وصل عدد سكانها إلى ٥٨ ألفًا. في رَمات گان بعض المواقع الجميلة: مناطق سكنية ومتنزهات، بما فيها متنزه وطني، وحديقة حيوانات وأكبر ملعب كرة قدم في البلاد. لكنَّ ذِكرياتِي الرئيسة تتعلَّق بالفضاء المَديني المملِّ والرتيب بمجمعاته السكنية الكثيرة جدًا، التي يتم تشييدها بسرعةٍ مُذهِلة في الأمكنة كلِّها كما لو أنها موقع بناء ممتد من دون نظام.

استقرَّ، في رَمات گان، مهاجرونَ من العراق بأعدادٍ غفيرةٍ. فقد استوعبت اليهود القادمين من خيرية، وساقية وكفر عانة، بالإضافة إلى المخيمات المؤقتة المحيطة بها. بسبب ارتفاع نسبة يهود العراق بين سكَّانها؛ لطالما أُشيرَ إليها بـ«رَمات بغداد». منحها ذلك شيئًا من نكهتها الشرقية: تميَّزت بكثرة المحلات التجارية، وكذلك أصحاب وزبائن

المطاعم والمقاهي كانوا عراقيون غالبًا، ممن يتحدثون العربية. الأهمُّ من ذلك، سَهّلَتْ تشكيل شبكات دعمٍ لأشخاص ذوي توجهاتٍ فكريةٍ متشابهةٍ. بالمال الذي تمكَّن الخال يعقوب تهريبه من العراق، اشترى فيلا ضخمة ذات حجرة جلوس كبيرة، وستِّ غرف نوم، وشُرفة، وحديقة بالإضافة إلى مساحة من الحديقة لزراعة الخضروات. كما امتلكَ محلَّ بقالة على مقربة من الفيلا. بالنسبة لتاجر بمنزلته السابقة، مثَّلتْ إدارة البقالة تراجعًا له بلا شكّ، لكنها امتازتْ باستقرار دخْل الأسرة الثابت. سكن معه، في البيت، زوجته ڤيوليت، وابنته إسپرانس وأولاده الأربعة: مائير، وألبرت، ودودي، وإيلي. كما كانت معهم الخادمة المفعمة بالحيوية والنشاط، صبيحة، التي رافقتهم من بغداد. مُجرد استضافتنا جميعًا، قيّد ذلك من أسلوب حياتهم المعتاد بلا شك، ولكنهم لم يتذمروا. كما لم يكن بالمستطاع إقناعهم بأخذ أي إيجار منا أو قبول أي مساهمة في مصاريف البيت.

كان مستوى وجبات الطعام أدنى بكثير مما كان عليه في بيتنا ببغداد وفي الفندق بنيقوسيا، إلا إن الأشخاص الأكبر سنًا بيننا كانوا في منتهى التهذيب كي يتذكروا ذلك. ڤيلما، على أية حال، التي لم تكد تبلغ عامها الثاني وقتذاك، كانت أقلَّ تحفُّظًا في هذا الشأن. تألفت واحدة من وجبات العشاء، التي قدَّمتها لنا صبيحة بعد وصولنا مباشرةً، من شرائح خبزٍ أسود سميكة مع سردينٍ مُعلَّب هُرِسَ على سطحها. كان سمك السردين مُشبَّعًا بالزيت وكريهَ الرائحة. دفعت ڤيلما الطَّبَقَ إلى صبيحة وقالت بلهجة اتِّهامية، «هذا أكل؟ هذا خرا!». بدلًا من أن يستبدَّ

بها الغضبُ، انفجرت صبيحة ضاحكةً، وراحت تكرر كلمات قيلها مَرَّةً تِلوَ الأُخرى.

كان مطلعُ خمسينيات القرن العشرين، في إسرائيل، حقبةَ تقشُّفٍ، وبطالةٍ مرتفعة، وكلِّ أنواع العُملات الأجنبية والقيود الأخرى وتقنين الطَّعام. كان الناس يتسلمون كوبونات بالمؤن الضرورية الرئيسة مثل السكر، والحليب، والزبد، والبيض، واللحم. كان الخال يعقوب وأفراد أسرته مواطنين، لذا كانوا يحصلون بانتظامٍ على مؤنهم. نحن، على الجانب الآخر، كنا نُعَدُّ مقيمين بصورةٍ مؤقتة، وبالتالي فنحن مؤهَّلون للحصول على مؤنٍ بكميَّاتٍ مضاعَفة: تسلَّمنا نحن الخمسة عشرة دفاتر كوبونات. مكّننا هذا من المساهمة المتواضعة في رفع المستوى المعيشي والغذائي (من خلال الطهي) لكامل أفراد أسرتنا الكبيرة. أتذكر على وجه الخصوص قوالب الزبد التي كانت تأتي بغلاف يُعلِن بحروف حمراء «زبد مستورد من الولايات المتحدة الأميركية»؛ كانت أميركا تبيع المنتجات الزراعية الفائضة مثل الزبد إلى إسرائيل ويُدفع لها بالعملة المحلية، الأمر الذي ساعد في دعم العملة الإسرائيلية وإنهاء عملية ترشيد استهلاك المؤن. كانت تلك هديةً من العم سام لشعب الدولة الفتيَّة المناضل، وإشارةً مبكرة للمعامَلة التفضيلية التي منحتها الولايات المتحدة الأميركية لإسرائيل.

وصلنا إلى إسرائيل بجوازات سفر بريطانية، لكن من دون خطة واضحة تتعلَّق بالاستقرار فيها. لم يكن آنذاك ثمَّة ضغطٌ قوي على المهاجرين، من أوروبا والبلدان العربية، كي يكونوا مواطنين إسرائيليينَ.

وصلَ معظم المهاجرين العراقيين إلى إسرائيل من دون وثائق سفر، كان بحوزتهم عدم ممانعة فقط، وتأشيرة خروج نهائي. أُصدِرت لهم فورًا شهادة مهاجر، وهي بطاقة هوية. لم يكن هنالك اختبار مواطنة مثل معرفة اللغة العِبرية أو التربية الوطنية الأولية؛ فقد افتخرت إسرائيل بنفسها كونها بوتقةَ صهرٍ تصوغ هوية وطنية جديدة لسائر المهاجرين مهما كانت أصولهم.

جيء بتقييدٍ واحدٍ فقط، أن يُحملَ القادمون الجُدد على تغيير أسمائهم إلى صياغة يهودية. ضربَ القادة الصهاينة مثلًا. أصبحَ البولندي ديڤيد غرين: ديڤيد بِن - غوريون؛ والروسي موشي شيرتوك: موشي شاريط؛ والأوكرانية -القادمة عبر الولايات المتحدة الأميركية- غولدي ميرسون: غولدا مائير؛ وغولدبيرغ أصبح هار - زهاف، تعني حرفيًّا: الجبلُ الذهبي. كان اكتساب الأسماء العِبرية جزءًا من عمليةٍ نظامية ترمي إلى محَو كل آثار الشتات. مباشرةً، بعد وصولنا تقريبًا، استسلمَ بعض أفراد أسرتي لهذا الضغط. كانت أمي تُدعى مسعودة أو سعيدة باختصار. في إسرائيل، غيَّرتْ برغبتها اسمها إلى عايدة. ليديا أصبحت داليا. اسم ڤيلما بقي من دون تغيير: مع إنه اسم أجنبي، هو ليس اسمًا عربيًّا ولهذا سُمِح له بالبقاء. أصبحتُ أڤراهام بدلًا من أبراهام وسيُختصر آڤي بدلًا من آبي.

مع إن أُمِّي غيَّرت اسمَها إلى اسم غير عربي، لكنها رفضت الحصولَ على جواز سفر إسرائيلي. إنَّه شيءٌ استثنائي جدًّا خلال الأعوام المبكرة من الانتماء للدولة الوليدة. حصل المهاجرون الجدد تلقائيًا على الجنسية

الإسرائيلية، أو في بعض الحالات، احتفظوا بجنسية مزدوجة. وصلت أمي بجواز سفر بريطاني ورفضت بثبات عرض الحصول على جواز سفر إسرائيلي. باعتبارها مسألة سياسية، سهَّلت السلطات على اليهود كي يأتوا ويستقروا في إسرائيل إنما يصعب عليهم المغادرة. وصلت أمي إلى إسرائيل كسائحة لكن لأنها يهودية، مُنحت بطاقة شخصية وكُتِبَ فيها أنها مُقيمة مؤقتة. بشكل مثير للانتباه، تحت حقل (الجنسيَّة) كُتِبَ في بطاقتها الشخصية «يهوديةً»، ولا توجد عبارة إسرائيلية. لم يمضِ وقتٌ طويل على تفاؤل أمي الأولي؛ حتَّى تبخَّر الأمل بخيبةٍ مبكِّرة. أدارت في رأسها فكرة الذهاب إلى إنجلترا مع افتراض الاستقرار هناك. وإذا ما استعملتُ قولَها، خَشِيتْ من أن «تبقى ملتصقةً» بإسرائيل. بعد مُضي عام أو نحو ذلك، حينَ وصلنا أبي، حُسِمت المسألة أخيرًا: سنبقى.

سكنَّا مع الخال يعقوب ما يقرب من ستة شهور بينما كنا نتطلَّع إلى مكان إقامةٍ دائمٍ. شاءت الظروف أنَّ نانا كانت تملك قطعة أرض في رَمات گان. بعد أن فارق زوجها مائير، جَدِّي لأمي، الحياة في العام ١٩٤٥، كانت نانا بحاجةٍ إلى تغيير الجو، لذا سافرت بغية زيارة شقيقتها الصغرى غالا في فلسطين المنتَدَبة. عاشت غالا في رَمات گان، التي كانت موطنًا للمهاجرين العراقيين الأوائل وأيضًا لأولئك الذين جاءوا خلال «هجرة اليهود الكبرى» مطلعَ خمسينيات القرن العشرين. في الساحة المركزية من المدينة، كان هنالك مقهى صاحبُه عراقي، يميل العراقيون الأكثر ثراءً للتجمُّع فيه. أحدهم سمسار عقارات أقنع نانا بشراء قطعة أرض كاستثمار. لولا أنها بعيدة النظر، في ذلك الزمن، لم

يكن بمستطاعها أن تخمِّن بأنها قد تبني في يومٍ من الأيام منزلًا على قطعة الأرض هذه. لقد حصل ذلك حين وصلنا إلى إسرائيل.

كانت غالا، وزوجها سالم، أول أفراد أسرتنا الذين انتقلوا إلى فلسطين. وُلِدَ ابناهما الأكبر سنًّا، ريوفين ومعتوق، في بغداد؛ بينما وُلِدَ الابنان الأصغر سنًّا، شولا وأمنون، في إسرائيل. اندمجتْ العائلة جيدًا في المجتمع الإسرائيلي وكما هو الحال دومًا مع المهاجرين الجُدد، أصبحت لديهم نزعة وطنية متشدّدة. خالي إسحاق، ابن نانا الأكبر، كان ضابطًا برتبة نقيب في سلاح الاستخبارات بالجيش البريطاني. كان مقره الدائم في القاهرة إبَّان الحرب العالمية الثانية وبين الفينة والأخرى كان يقوم بزيارة فلسطين، يُسافر ببزَّة نظامية عسكرية. هذا الأمر لم يُحببه لأبناء خالته المراهقين المتخاصمين. في أثناء انتداب عصبة الأمم، كانت فلسطين حتى العام ١٩٤٨ تحت حكم بريطانيا ومندوبها السامي في القُدس. يجوبُ رجالُ الشرطة البريطانيون، المشهورون بقسوتهم، الشوارعَ، ومشهدُ الجنود البريطانيين كان مألوفًا. لم ينظر بعض اليهود إلى بريطانيا على أنها حامية، بل قوَّة استعمارية، وكان زِيّ الجيش البريطاني رمزًا للحكم الأجنبي. يتذكر إسحاق أنَّ أولاد غالا الذكور كانوا في منتهى الوقاحة، نغَّصوا عليه خدمته مع الجيش البريطاني وكانوا يؤكدون له أنهم سوف يطردون جميع البريطانيين إلى خارج البلاد. على العموم، ثمَّة أفراد من أسرتي لم يكونوا مهتمين جدًّا بالسياسة. هذا أحد الأمثلة النادرة التي قسمتْ فيها السياسةُ ولاءات الأُسَرْ.

ساءتْ الظروف الاقتصادية في فلسطين، بين عامي ١٩٤٥- ١٩٤٦، ولم يكن الطعام كافيًا. لهذا، في الرحلة إلى فلسطين، أخذت نانا معها سلَّةً

كبيرةً، أو ما يُدعى «زنبيل» بالعربية، مع دجاجتين مطبوختين على طبقة من الرز ودزينة من البيض البُنّي المسلوق جيدًا صُفَّتْ بأعلى الزنبيل. حينَ أوقفها ضباط الجمارك، قالت بالعربية إن ابنها إسحاق نقيبٌ في الجيش البريطاني وبزهو وضعت ثلاثة أصابع على كتفها كي تُوضح رتبتَه العسكرية. لم يعجبهم ذلك. أرادوا أن يعرفوا لماذا كانت تحمل كل ذلك الطعام معها. ردت عليهم بملامحَ جادَّة أن هذا هو فطورها. لوَّحوا لها بأيديهم، ضاحكين بأنه ليس لديهم خيارٌ آخر - إذا رفضوا، فلربما ستأكلهم كوجبة غداء لها!

جاءت أرض نانا بالفائدة العظيمة علينا عندما وصلنا إلى رَمات گان. خلال فترة إقامتنا مع الخال يعقوب، أعطانا مقاولٌ فكرةً عن بناء منزل صغير بغرفة كبيرة، ومطبخ، وحمَّام وشرفة على قطعة أرض نانا. قبلنا عرضه وشرعَ يبني لنا البيت. ما لم يُخبرنا به هو إننا سنحتاج أولًا إلى تقديم طلب للحصول على رخصة التخطيط من دار البلدية. في مرحلةٍ مبكرة، جاء مفتشٌ من دار البلدية وهدم الهيكل الذي اكتملَ نصفُه. أخذ الصديق العراقي السيد ألفريد باشي، والذي يعمل محاميًا، أمي عايدة لرؤية رئيس البلدية، السيد أفراهام كرينيتزي، للشكوى بشأن هدم المبنى. كان كرينيتزي أول رئيس بلدية لرَمات گان، وبقي في الدائرة طوال ثلاثة وأربعين عامًا. وأوضح أن بنياننا المتواضع لا ينمّ عن استخدامٍ جيدٍ للمساحة: منزل صغير جدًا على قطعة أرض كبيرة جدًا. غير أنه في النهاية، أعطى ترخيصًا بمنزل صغير يُشيَّد شريطةَ أن يكون فقط هيكلًا مؤقتًا، كي يُستبدَل لاحقًا بمجمع سكني. استأنفَ البنَّاء

العمل في المنزل الصغير، وعندما أصبح جاهزًا، انتقلنا للإقامة فيه. كان المسكن ضيّقًا لدرجة خانقة، غرفة واحدة فقط، لا يمكن وصف الفرق الهائل بينه وبين الفيلا الواسعة والفخمة التي تركناها وراءنا في بغداد. حين وصل أبي، انتقلتْ نانا للسكن في بيت الخال يعقوب كي تفسح له المجال. بالمال الذي تسلَّمه عن بيع بيتنا في بغداد، اشترى أبوايَ شقةً من غرفتين في الطابق الرابع من بناية كبيرة في «٥ شارع ياحالوم»، الذي سُمِّيَ بعد ذلك بـ«شارع كرينتيزي» تيمُّنًا باسم رئيس البلدية الذي لقي فيه حتفَه بحادث سيارة.

كانت الخالة غالا جزءًا مهمًا من شبكة دعم الأسرة التي ساعدتنا كي نجدَ موطئًا لأقدامنا في البيئة الجديدة غير المألوفة. كانت امرأة قصيرة القامة، وقوية، وممتلئة الجسم، وطيبة القلب، ذات وجه باسم وأسلوب ودود للغاية. كانت تتكلَّم العِبرية بطلاقة ومن دون أصوات حَلقية تميِّز المهاجرين العراقيين الجُدد. مع إنه صادف وقت تقشُّف وكانوا فقراء نسبيًا، لطالما كانت تدعونا إلى العشاء إلى بيتها ليلةَ كلِّ جمعة وتُقدِّم لنا وجبة طعام يهودية - عراقية من الدجاج والأرز. كما ساعدتنا في ملء الاستمارات والصراع مع البيروقراطية المحلية التي عرفت بكونها استبداديةً كما عُرِفت بالمحسوبية التي أفسدتها. لم يشكِّلْ هذا الوجه الخاص من الحياة في إسرائيل صدمةً بالنسبة لأمي. ففي العراق كانت مؤمنة كبيرة وممارسة بارعة لفن «الواسطة»، أي استثمار العلاقات لإنجاز الأمور. المرادف الإسرائيلي لـ«الواسطة» هو فيتامين (پ) الذي يرمز إلى «پروتيكزيا»، التي ربما تُترجم بنحوٍ فضفاض إلى معاملة

تفضيلية أو ممارسة التأثير من خلال العلاقات. هنا كانت أمي سريعة التَّعَلُّم. تراجعُ رئيس بلدية رَمات گان عن قرار هدم منزلنا الصغير كان أول نجاحاتها في سجلِّ محيطها الجديد.

أحد الأشياء الأولى التي فعلتها الخالة غالا هي أن تجد روضة أطفال لي، وأن تسجل داليا في المرحلة الأولى بمدرسة ابتدائية حكومية تُسمى «ها – جيڤا»، أي: التل. في روضة الأطفال كانت تجربتي الأولى مع اللغة العبرية. في بغداد وفي بيت الخال يعقوب كنا نتكلَّم العربيةَ فقط: الأطفال في هذا العمر يتعلمون اللغات بسهولة، وأنا لم أكن استثناءً. اعتقدتْ أمي أني أثبتُّ كفاءةً عالية واستثنائيةٍ في الممارسة اللُّغوية بالنسبة لطفلٍ عمره أربعة أعوام ونصف. بحسب كلامها، قلَّما كنتُ أتحدَّث خلال سنتنا الأولى في إسرائيل وبدأت الأسرة تقلق بشأني. فقط بعد أن بدأتُ أذهب إلى المدرسة وأحسست أني واثق من قدرتي على التحدُّث بصورة لائقة أخبروني أنني تغلَّبتُ على امتناعي عن التحدُّث.

في بيت الحضانة، ثمَّة مدًى مألوفٌ من الفعاليات: اللُعب، والرسم، والكتب المزوَّدة بالرسوم التوضيحية، والألعاب الرياضية، والغناء والرقص. كما توجد نزهةٌ أجرُها عشر ليرات. أعطتني أمي النقود إلا إنني لم أسلِّمها باليد للمعلِّمة. في النهاية بعثت المعلِّمة مذكرةً إلى أمي مع تذكير. التفتتْ إليَّ أمي وسألتني لماذا لم أُسلِّم النقود؟ أجبتُها أن الأطفال الآخرين الذين أعطوا النقود استرجعوا فقط قطعة ورق ولم تكن تستحق ذلك. شرحت لي أمي أن قطعة الورق هي إيصال؛ عندئذ فقط سلَّمتُ النقود باليد.

اعتادت داليا على أن تصطحبني من الروضة بعد انتهاء دوام مدرستها، ثم نَسْيِرُ معًا إلى المنزل. إنه لأمرٌ مُطمئِنٌ أن ترافقَك أختُك الأكبر منك سنًّا، خاصةً أن الطريق إلى البيت يتطلَّب عبور طريق بين المدن بستة ممرات يُدعى «طريق جابوتنسكي»، معروف شعبيًّا باسم «ها - كفيش ها - شاهور»، الطريق الأسود، بسبب الحوادث القاتلة المتكررة التي حصلت هناك. اسم جابوتنسكي لا يعني لي شيئًا، إلا إنه سوف يظهر بشكل بارز في عملي اللَّاحق: زئيف جابوتنسكي هو الأب الرُّوحي لليمين الإسرائيلي. كان الرجلُ مهندسَ إستراتيجية متعصبةٍ للتعامل مع عرب فلسطين: «الجدار الحديدي».

انتقلت داليا إلى المرحلة الدراسية الثانية بمدرسة ها -جيڤا في العام الذي يليه وأنا دخلتُ المرحلة الأولى في المدرسة نفسها. شهادة مدرسية صغيرة من الروضة، بحجم بطاقة بريدية، أكَّدت بأني مؤهلٌ للانتقال إلى للمدرسة الابتدائية. خلال الفسحات، غالبًا ما رأيت داليا تلعب مع زملاء صفها مثلما كنتُ ألعب مع زملاء صفِّي أيضًا. كنت أنظر إليها بإعجاب لأنها أكبر مني وأكثر ثقة، جعلني وجودها أشعر بالطَّمأنينة. بعد المدرسة كنا نمشي معًا نحو البيت الذي كان قريبًا ولا يتضمن عبور طريق جابوتنسكي المُفزِع. في طريق العودة إلى المنزل، كنا نشتري أحيانًا قطعًا مكسورة من وافل الشوكولاتة (نوع حلوى) بمصروف جيبنا لأنها أرخص ثمنًا من تلك المغلفة. هكذا نوفر المال ونحصل على ما نريد.

كانت المدرسة صفٌّ من المباني الخشبية البسيطة المنفصلة، وكلها في الطابق الأرضي. ذكرياتي عن التعليم ضبابيَّة وغير واضحة، لكنني أتذكر

بحنين معلمتي في الصف الأول، هانا أوبنهايمر. كانت شابة في بداية مسيرتها التعليمية، على الأغلب خريجة جديدة من كلية إعداد المعلمين، وكانت جميلة ومتعاطفة جدًّا. كان تقريري عن الفصل الدراسي الأول، الذي وقَّعتْه، يُفيدُ بأنَّ سلوكي «جيدٌ»، في حين أن منجزاتي التعليمية «متوسطة» فقط. كذلك كان حال تقرير الفصل الثاني. أتاح لي تقرير الفصل الثالث الصعود إلى المرحلة الثانية إلَّا إنه أشار إلى أني بحاجة لتحقيق مزيدٍ من التقدُّم في القراءة.

بحلول نهاية العام الأول، انتقلتْ العائلة إلى شقتنا الجديدة، وانتقلنا أنا وداليا إلى مدرسة أكبر: مدرسة ياحالوم الحكومية. ومرةً أخرى، ذكرياتي عن الأعوام المبكرة في مدرسة ياحالوم كانت ضبابية نوعًا ما، لكنَّ تقارير نهايات الفصول الدراسية أوحتْ بأنني كنتُ أعاني وأكافح. قد تكون كلمة أكافح خاطئةً(١)، لأنها تلمِّح ضمنًا إلى مجهودٍ من ناحيتي. في الحقيقة، قلَّما بذلتُ أيَّ مجهودٍ على الإطلاق: لم أُظهِرْ أيَّ اهتمامٍ بأيٍّ من المواد المدرسية، ولم أنجزْ سوى الحد الأدنى مما يطلب مني كواجب منزلي. في الصف، كنتُ قليلَ الانتباه لما يقوله المعلمون والمعلمات، إذْ قضيتُ معظم الوقت مستغرقًا في أحلام اليقظة. كان من عادة المعلمين أن يوجهوا الأسئلة، ويُتوقَّع منَّا نحن التلاميذ أن نرفع أصابعنا كي نُجيبَ. لا يسعني تذكُّر مناسبةٍ واحدة رفعتُ فيها إصبعي رغبةً في الإجابة. سواء أكان هذا عن تخطيط أم بمحض المصادفة، كنتُ أجلس دومًا في آخر غرفة الصف، أبعد مكانٍ عن المعلم أو المعلمة،

---

(١) أي أنني كنت أواجه الكثير من الصعوبات والتحديات [المترجم].

وأهتمُّ بشؤوني الخاصة. لم أكن مصدر إزعاج، فأنا بعيد كل البُعد عن ذلك، لكنني لم أكن مفيدًا أيضًا. هذا السلوك الكئيب، والمنعزل عن الآخرين، لم يجعلني محبوبًا من قبل مُعلميَّ ومُعلماتي.

تشهد جميع تقارير نهاية الفصل الدراسي الباقية على ضعف تحصيلي الدراسي. الفصل الدراسي الأول من المرحلة الثانية: كان واجبي المنزلي غير كافٍ، وكان تقدُّمي غير مُقنِع. كان تحصيلي الدراسي ضعيف لا سيما بالعِبرية والرياضيات، وأحتاجُ إلى «مساعدة أساسية في المواد الدراسية كلِّها». عقب انتهاء الفصلين الدراسيين الأول والثاني من المرحلة الثالثة: لم أكن أجتهد كما يجب؛ كان واجبي المنزلي يتطلَّب المتابعة؛ ولا بدّ لي من توسيع معرفتي وتحقيق تقدُّم ملموس في دراستي عمومًا.

في حين استمرَّ عدم اهتمامي بعملي المدرسي، اكتسبتُ اهتمامًا قويًّا في قراءة الكتب التي لا علاقة لها بالمدرسة. تتذكر أمي أني غدوتُ قارئًا نهمًا لكُتب الأطفال وقصص المغامرات: كلَّما نزور نانا، أجلسُ في الحديقة وفي حِضني كتاب. قارنتْ أمي حبي للقراءة مع تلكُّئي الواضح في إنجاز واجبي المنزلي أو أيِّ شيء متعلق بالمدرسة. يشغل بيت نانا ركنًا صغيرًا من قطعة أرضٍ كبيرة: البقيةُ شَغَلَتها مساحةٌ لزراعة خضار وبستان من أشجار الفاكهة - كأشجار البرتقال، والليمون المُرِّ، والرُّمان، والتِّين، والخوخ الأصفر، والجوافة الوردية والخوخ الياباني. ليس لديَّ ذكرى شخصية عن القراءة في الحديقة، لكنني أتذكر فعلًا مدى المتعة واللذة وأنا أطوف حول البستان، أتسلَّق الأشجار وآكل بنهمٍ الفاكهة الناضجة، بالأخص ثمار التِّين والجوافة.

في بعض الأحيان، كنتُ أمضي لزيارة نانا مشيًا على قدميَّ بعد المدرسة. كانت تُسَرُّ حين تراني، إذ أَنّني كنتُ المفضَّل لديها لأني صبي. لكن، كما هو الحال مع أمي حين كانتْ طفلةً، لم تكن نانا من النوع الذي يعبر عن عاطفته جسديا بالأحضان والقبلات. طريقتها الرئيسة في إظهار عاطفتها كانت من خلال الإغداق في الطعام. كان التواصل الشفهي بيننا أقلَّ ما يُمكن: لم تُجِدْ العِبرية وكنتُ كارهًا للتحدُّث بالعَربية. بمجرد وصولي، كانت تُجلسني إلى المائدة وتباشر بتكديس أصناف مختلفة من الطعام في طبقي: فطائر محشوة بالجبن، وبسكويت الشوكولاته، والكعك، والمكسرات، والتمر، والموز. بعض الأطعمة كانت منتهية الصلاحية إلى حدٍّ ما والموز بُني اللُّون. ذكّرتني داليا أن نانا تعوَّدت أن تدَّخر الطعام لي وتقول لها «هذا لآبي، وهذا لآبي». لا عَجَب إن شعرتْ داليا بأنها لا تحصل على حصتها العادلة. أكثر ما أذكره هو أن نانا اعتادت أن تقول لي: «كُلْ، كُلْ! أشو ما تاكُل؟» - «كُلْ، كُلْ! لماذا لا تأكل؟» الجواب الذي منعني أدبي من التفوه بِهِ: إنَّ كثيرًا من الطعام الذي حاولت أن تجبرني على أكله كان في حالةٍ سيئة. بلا شك تلقيت معاملة خاصة، لكنها معاملة تفضيلية كنتُ في غنىً عنها. أما البستان فقصتُه قصةٌ مختلفة: إنه جنَّةٌ.

في المرحلة الخامسة كانت لي معلمة صف جديدة رفضت تحمُّل عدم التزامي. كان اسمها سارة غرينبيرغ، وكانت ناجيةٌ من المحرقة النازية، مع أنها كانت سَريعة الانفعال وميلودرامية في سلوكها، إلا إنها ملتزمة بعمق بالتعليم وكانت محاوِرةٌ فعَّالة. كانت لديها آمال كبيرة لنا جميعًا ولعلها أحسَّت أننا لم نكن نُدرِك كم كنا محظوظين كي نكون قادرين على أن نعيش حياةً طبيعية، متحررين من الاضطهاد. بالتأكيد، كانت تعتقد

أني أخفقت في انتهاز الفرص التعليمية التي، كما كانت ترى، قُدِّمت لي على طبقٍ من فضَّة. أَغضَبها هذا الأمر، وقالتْ ذلك. لم يحضرْ أبي اجتماعات أولياء الأمور - المعلمين لأنَّ لُغته العِبرية لم تكن جيدة بما يكفي، لكنَّ أمي حضرتْ بكلِّ تأكيدٍ وأخذتْ تلك الاجتماعات على محمل الجَدَ إلى حدٍّ كبير.

في كل اجتماع، كانت أمي تُمطَر بسيلٍ من الشكاوي عني من الجميع: كنتُ كسولًا، وانطوائيًا، ومنعزلًا، ولامُباليًا إلى حدّ كبير ونادر، ولم أبذل مجهودًا من أيِّ نوع في المشاركة. وصلَ الانتقادُ إلى ذروته حين صاحَتْ: «هاآتشوت شيلو ميفوتسيتيت أوتي!» - «لامبالاتُه تجعلُني أنفجر!» لم يُسمَح لي بأن أحيا بطريقةٍ أنسى فيها هذا التعليق. طوال أعوام وعقود قادمة ظلَّت أمي تكررها على مسمعي، مُقلِّدةً صوت السيدة. جسّد هذا التعليق نبرة التكرار لأنه لامس صميم المسألة - تقبلتُ بداخلي الشعور بالدونية الذي اعتقدتُ أن المجتمع قيدني به وتصرفتُ على هذا الأساس. للأسف، أصبح إهمال الدراسة وعدم السعي للتفوق من سمات الكثير من الأطفال. حالتي حالةٌ مختلفة. لا ينقطع إحساسي بالاغتراب كوني عراقيًّا، فهو يلاحقني أينما ذهبت، داخل قاعة الدراسة وخارجها. ولَّدَ الاغترابُ الخمولَ والنفور من أن ألعب دورًا في أيِّ مجهودٍ جماعي. أرادتْ السيدة غرينبيرغ أن تجعلني أُعيدُ المرحلةَ الخامسة، لكنَّ أمي أقنعتها بأن تمنحني فرصةً أخرى. في نهاية المرحلة السادسة، تكرَّرَ نفس السيناريو: أرادتْ السيدة غرينبيرغ أن أُعيد العام الدراسي وأقنعتها أمي بأن تُعطيني فرصةً أخرى.

إحدى الاستراتيجيات التي استخدمتها أمي هي وعدها بأن تستأجر معلمين خصوصيين لي كي يساعدونني على اللَّحاق ببقية زملائي في الصف، وهو ما فعلتْه - رغم عدم استطاعتنا تحمُّل تكاليفه. لقد أنفق والداي مبلغًا لا بأس به مقابل أقساطي الدراسية. بعض المعلمين الخصوصيين كانوا متخصصين بمادة دراسية محددة وبعضهم الآخر لم يكونوا كذلك. بعضهم كانوا يأتون إلى بيتنا، في حين أنَّ بعضهم كانوا يُعطون دروسهم الخصوصية في بيوتهم. كلُّهم يقبضون أجورهم بالساعة. إذا جاءوا إلى بيتنا، كانوا يأخذوننا أنا ودااليا معًا، وبذلك يُتيحون لأبوينا الاستفادة من التوسُّع في الإنتاج. أمَّا إذا فضَّلَ المعلمون أن يُعطوا الدروس في بيوتهم، فأذهب وحدي. من بين معلمينا إسحاق عزوري (Itzhak Azouri)، متخصص بالاقتصاد، ابن أخ مُحاسب والدي في بغداد، وهو الذي كان يُعلِّمنا الرياضيات. عزرا، خريج مدرسة ثانوية فارع الطول ولامع الذكاء درَّسنا طائفةً من المواضيع. نيازي، طالب دراسات عُليا في أكسفورد علَّمنا الإنجليزية. هؤلاء الثلاثة كلُّهم كانوا من أصول عراقية، لذا كانوا قريبين منَّا بالثقافة والعادات.

بالمقارنة، فإنَّ إحدى المعلمات كانت أشكينازية بامتياز. معلمة مدرسة شابة تُدعى أورا. كانت طويلة القامة، ونحيفةً مثل المجرفةٍ، ذات شعر أشقر طويل وعينين زرقاوين. كانت تُقيم مع أبويها وتعوَّدتُ أن أذهب إلى شقَّتِها من أجل الدروس الخصوصية في مجموعةٍ من المواد. كانت الشقة نظيفةً بشكل لا عيب فيه ومرتبة بما ينمُّ عن الذوق بأثاث من خشب الماهوغاني، وسجاجيد حرير، وثريات وأرفف مكتظة بالكتب

من الأرض إلى السقف. كانت أورا معسولة اللِّسان وحسنةَ السلوك. ساد الشقةَ جوٌّ من الهدوء والصفاء. أتاحَ لي الذهاب إلى هناك اختلاس النظر إلى ثقافةٍ أخرى وعالَمٍ آخر: عالمٌ كنت أحسدُه سِرًّا.

من خلال ما ورد في النص، يتضح أنني عندما كنتُ غلامًا صغيرًا في إسرائيل لم أشعر بأني آخذ حريتي في بيئةٍ أشكينازية. احترمتُ هذه البيئة، لكنني لم أكن جزءًا منها. وكي أكون صريحًا، أحسستُ أني في غير مكاني بسبب كوني سفارديًّا، شرقيًا، يهوديًّا مشرقيًّا، «مزراحي» وهو المصطلح الذي لم يكن يُستَعمل عادةً يومذاك؛ إذْ تطلَّب الأمرُ عَقدين إضافيين كي يُصبح مصطلحًا رسميًّا يميِّزُ سائر المهاجرين القادمين من العالَم العربي، ومن بينهم المهاجرون القادمون من شمال إفريقيا. أمَّا المصطلح الذي أُستُعمِلَ على نطاقٍ واسعٍ في حينها فقد كان «يوتسئي إيدوت ها – مزراه»، أي: المتحدرون من الطَّوائف الشرقية. «مزراح» هي الكلمة العِبرية لـ«الشرق». هكذا لقَّبني المجتمع الإسرائيلي، والأهمُّ، هكذا رأيتُ نفسي.

غالبًا ما هيمنَ وجهٌ واحدٌ من هويةِ شخصٍ ما، وألقى بظلاله على سائر وجوهه الأخرى. في حالتي كوني عراقيًّا، هذا هو الوجه السائد والحاضر أبدًا، والمُقيِّد حدَّ الاختناق. خلال وقتي في إسرائيل، شعرتُ بالغضب كوني حسبتهم يعاملونني معاملةً غير مُنصِفة لأني عراقي. لم أتعرَّض لتمييزٍ مباشرٍ في المُعامَلة ولم أصادف عنصريةً علنيةً، باستثناء مناسبات نادرة. لكنني لم أقوَ على تحرير نفسي من الشعور الذاتي بأني لم أكن جيدًا كباقي الأطفال الأشكينازيين في صفي. هذا الشعور كان

حاجزًا أمام معرفة إمكانياتي. المعاملة التفضيلية التي كنتُ أتلقاها في البيت بصفتي الابن الذكر لم تكن تختلفُ كثيرًا. كنتُ أخجل من الجهْر بتكلُّم العَربية التي عُدَّتْ في إسرائيل لغةً قبيحةً وبدائيةً، والأسوأ من كلِّ شيء، إنها لغة العدو. بصورةٍ لا واعية، استوعبتُ هذه التحيُّزات الشَّديدة. يساعد هذا الأمر على فهم أسباب عدم تكلُّمي خلال سنتي الأولى في إسرائيل، حتَّى أصبحتُ قادرًا على التكلُّم بالعِبرية بشكل مناسب. وهو يقينًا يفسر حرجي الشديد حين يتحدَّث أبوايَ معي بالعربية أمام أصدقائي.

أمي، من الناحية الأخرى، تجنبت إحراجي على هذا النحو وكانت حذرةً بألّا تُخاطبني بالعربية خارج بيتنا. ربما شعرت أنَّ الضغوط الاجتماعية التي واجهتها نتيجة إدراكي أنني عراقي أثّرت على تحصيلي الدراسي. ذات مرة، بعد لقاءٍ مع السيدة غرينبيرغ، وبعد سماع سيل مألوف من الشكاوى، حاولتْ أن تستفهم حقيقة عدم تحسُّن أدائي في المدرسة. حدَّقتْ في عينيَّ وسألتني مباشرةً، «أتشعر بأنك أدنى منزلةً لأنك عراقي؟» أحسستُ بضيقٍ شديدٍ، أشحتُ ببصري وتمنيتُ لو أنها لم تسألْني هذا السؤال. وفي ردي، همهمتُ بكلماتٍ مبهمة رافضًا الفكرة تمامًا. ولكن في أعماقي كنتُ أعلمُ أنها الحقيقة، فأنا لم أكن مرتاحًا لأني عراقيٌّ، ووددتُ أن أُترَك في سلام وحسب من دون تطفُّل الكِبار.

للمفارقة، فإنَّ الشخص البالغ الذي لم أجده متطفِّلًا هو طبيبٌ نفسي. لا بد أن المدرسة أحالتني إليه لأنهم كانوا قلقون عليَّ، غير أنه ما من أحدٍ أخبرني بالطَّبيعة الدقيقة لقلقِهم أو غرض الإحالة. في ذلك

الوقت، لم يكن هناك مُرشِدون تربويون مُختصون تقتصر مسؤولياتهم على التعامل مع الصحة النفسية للطلاب. إذا أساءَ طفلٌ التصرف بإصرارٍ في الصف، كان يُرسَل إلى مدير المدرسة أو وكيله. غرض الموعد هو أن يُعاقَب أو يُنبَّهَ، لا أن يُمنَح دعمًا سيكولوجيًّا. كان من النادر أن يُحال تلميذٌ إلى خبير خارج المدرسة، لكنَّ هذا هو ما حصل معي. في يومٍ من الأيام، حين كنتُ في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة، أبلغني معلم الصف بموعدٍ كانوا قد عيَّنوه لي في عيادةٍ طبية لا أتذكر اسمها. على الرغم من وصولي في الموعد المحدد، إلا أنني شعرت ببعض القلق عند دخولي العيادة. قابلني طبيب الأمراض النفسية، كانَ رجلًا في منتصف العمر، يرتدي بدلةً وربطةَ عنق، وينضحُ رحمةً وعاطفة. وجَّه إليَّ أسئلةً كثيرة وانتزعَ مني أجوبةً صادقة. كما دعاني كي ألعب معه الشطرنج. في نهاية الساعة، شكرني على وقتي، ورجعتُ إلى المدرسة. لا ريبَ أن طبيب الأمراض النفسية قدَّم تقريرًا إلى المدرسة بعد الجلسة، لكنني لم أسمعْ شيئًا آخر عنه. من ناحيتي، سأكون سعيدًا لو عدتُ إلى العيادة الطبية، لأني أثمِّنُ بشكل كبير مزاجَه اللَّطيف فضلًا عن سلوكه الهادئ والدَّمث.

استمرت الحياة في البيت كالعادة، مع قدرٍ يسيرٍ من الإثارة، وعمليًا من دون تحفيز فكري. تدنَّتْ ظروفنا المادية كثيرًا مقارنةً ببغداد لكنَّ هذا لم يُضايقْني. الشقة التي اشتريناها كانت متواضعةً إلى حدٍّ ما، ذات تسهيلات أساسية ومن دون وسائل ترف. فيها ردهة مدخل، وحجرة جلوس، وحجرتا نوم، ومطبخ، ومرحاض، وحمَّام وشرفتان صغيرتان

جدًّا. في الردهة، كانت هنالك طاولة حيث كنا نتناول وجباتنا الغذائية العائلية. وفي غرفة الجلوس، كانت هنالك سجادة فارسية كبيرة على الأرض، وسرير مغطى بسجادة أخرى، ووسائد كانت بمنزلة كنبة، وعدد من الكراسي، وجهاز راديو - مسجل كبير، ومائدة طعام أكثر أناقة، وعدد من الكراسي حيث كنا أنا وداليا نُنجز واجباتنا المنزلية، ونأخذ دروسنا الخصوصية. إحدى غرفتي النوم تعود لأبوينا: تحتوي على سرير مزدوج، وخزانة ثياب عتيقة الطراز، وفي زاويتها غسالة ملابس متنقلة لها ثلاثة أرجل بدواليب. أمَّا غرفة النوم الأخرى، فقد تعين علينا أن نتقاسمها أنا وشقيقتاي مع جدتي لأبي لولو - «يُمَّا». لم يكن في الحجرة متسعٌ سوى لخزانة ثيابٍ صغيرةٍ وثلاثة أسِرَّة حديدية. ثمَّة سرير رابع منخفض على دواليب يسهل حفظه تحت أحد الأسرَّة الأخرى؛ يُجلَب إلى وسط الحجرة ليلًا. لا توجد رفوف كُتب في البيت ولا كُتب باستثناء كُتب المدرسة وكُتب الأطفال.

كانت «يُمَّا» في أواخر ستينياتها أو مطلع سبعينياتها حين انضمَّت إلينا في إسرائيل. انتقلت من العراق مع ابنها الأوسط عزرا وأسرته خلال ما سُميَ بـ«هجرة اليهود الكبرى» وسكنتْ معهم في مَعْبَرة حتى التحقَ بنا أبي واشترينا شقةً في رَمات گان. كانتْ يُمَّا امرأة نحيلة وهشَّة ذات شعر أبيضَ طويلٍ، ومعقود على شكل كعكة. مثَّلَ لها الانتقال إلى إسرائيل انقطاعًا مُوجِعًا عن ديارها. في العراق، كانت لديها شبكة ممتدة من أفراد الأسرة والصديقات. أمَّا في إسرائيل فكانت تقريبًا معزولةً تمامًا. لا تجيد القراءة والكتابة وغير قادرة على التكلُّم بالعِبرية، نادرًا ما

كانت تغادر الشقة. وعلى غرار جدتنا الأخرى، اشتاقت إلى البلد القديم بشدَّةٍ، البلد الذي كانت تمجِّده بانتظام باعتباره «جنة مال الله». مع إني لم أكن واعيًا بهذا حينذاك، أصبحت يُمَّا كالسَّائرة في نومِها عقب انتقالها إلى إسرائيل. في ثلاث أو أربع مناسبات خرجت بثوب النوم إلى الشارع ووجب على أبويَّ أن يُفتِّشا عنها. لقد أحببنا، أنا وأختاي، صحبتها. لديها مخزون كبير من الحكايات الشعبية العربية التي كانت تستمتع بسردها، ولم نتعب أو نضجر البتة من الاستماع إليها. لم تكن العربيةُ، الآتيةُ منها في نطاقِ أماننا المنزلي، لغةَ العدو... بل لغتنا الخاصة.

أحببتُ بشكل خاص قصة رابونزيل، الأميرة التي حُبست في برج وأنزلتْ شعرها كي تُمكِّن الأمير من الصعود إليها. في التراث الشعبي العربي رابونزيل تُدعى «عنقا بنت الريح». حالها حال عراقيين كُثر من جيلها، آمنتْ يُمَّا بالخُرافات. كانت تؤمن بالعين الشريرة، على سبيل المثال. عندما يكون لدينا سمك في بيتنا، كانت تقتلع أعيُنَها بإصبعها، وتغلِّفها بورق إحدى الجرائد وتطلب مني أن أدوس عليها بقدمي وأكرر وراءها، «انفكست عين الرع!»[1] - لتُسحَق العيُن الشريرة!

كانت يُمَّا تقضي ساعات في تقشير بذور دوار الشمس: تأخذ النوى وتضعها في ثلاث أكوام صغيرة متساوية، وتعطي كل واحد منا كومةً منهًا، قائلة لنا «هاي حصتك»، هذه حصتك. في بعض الأحيان نفشل في التواصل بسبب عجزنا عن تقدير الفوارق الدقيقة في اللغة العربية. ذات مرة، كانت يُمَّا جالسة على مقعد (stool) منخفض على أرضية

(١) انفُكْسَتْ: كلمة باللهجة العراقية الدارجة، تعني انفقأت؛ أي: لتنفقئْ. [المُترجم].

المطبخ، طلبت مني أن أعطيها شيئًا فهمت أنه حبتان من العنب، ففعلتُ كما طلبت. بالعربية يوجد مثنى، الذي استعملتْهُ -عِنبايتين- فقدمت لها طلبها. وبختني حالًا لأني فهمتُها حرفيًّا؛ وأعطيتُها حبتيْ عِنبٍ فقط.

قُسِّمَ العملُ بأن تقوم أمي بالتسوُّق ويُمّا بالطهي، بعد أن تجهِّزَ الطعامَ فوق لوح تقطيع سميك لتطبخه على نار موقد كيروسين. طهت لنا بتلك الوسائل البدائية ألذَّ وجبات الطعام: الدجاج والأرز مع البازلاء أو الفاصولياء كان الغذاء الأساسي، قائمة طعامها كانت تشمل أيضًا كذلك كرات اللحم بمرق الطماطم، لحم الغنم والباذنجان، الخضار المحشوة، البطاطس الكروكيت باللَّحم المفروم المقلي، وأطباقًا حلوة وحامضة. وجبة الطعام الرئيسة في النهار هي الغداء. على خلاف أعضاء الأسرة القريبين الآخرين، كانت يُمّا يهوديةً ملتزمة بالقواعد الدينية، لذا لم تطبخ في أيام السبت، يوم الراحة. بدلًا من ذلك، تعوَّدت أن تحضِّر الطبق اليهودي التقليدي من الدجاج والرز المُسمّى «تبِّيت»، تضعه على حرارة منخفضة جدًّا كي يُطبخ طوال الليل في قِدر كبيرٍ. فوق الدجاج والأرز ستضعُ يُمّا البيض الذي سيصبحُ ليِّنًا من الداخل وينقلبُ خارجهُ إلى اللَّون البُني بحلول الصباح. البيض هو الأساس بالنسبة لصباح السبت الخاص. إلى جانب البيض البني، يتكون هذا الطبق من شرائح من الباذنجان المقلي، والبصل المقطع، والبقدونس المفروم، وسلطة خضار مفرومة ناعمًا، وحمص، ومايونيز، ومخلَّل المانجا غني التوابل المسمى محلِّيًّا «عَمْبَة». تُهرَسُ جميع المكوِّنات معًا، وتؤكَلُ مع الخبز المفرود، المستدير. في المطاعم، هذا الإعداد يُقدَّم في خبز مفرود، مثل الفلافل، ويُدعى «صبيح».

كانت بائعةُ الحليب، التي تسكنُ بالقرب منا في منزل بسيطٍ من طابق واحد، هي من تُوصل ألينا الحليب الطازج كل يومين. لديها قطعة أرض صغيرة وقفص دجاج. في وقتٍ مبكر من صباح كل يوم، قبل حرارة النهار، تبدأ جولتها، جولة الحليب في عربة ضيقة يجرُّها حصان، وهي تحمل ثلاثَ جرار كبيرة وثقيلة. كي تسلِّمَ الحليب إلى زبائنها في بناياتنا. كان لديها صفيحة تحملها على ظهرها ودورق ألمنيوم تستعمله للقياس وتسكب ما يُقارب اللتر والنصف اللتر من الحليب. أحيانًا، كانت تُعطي يُمّا بائعة الحليب قطعًا من الخبز المتبقي كي تُطعِم دجاجاتها. بالنسبة ليُمّا، كما هو الحال بالنسبة للناس البسطاء في العالَم العربي، الخبز هو رمزٌ للحياة - وواحدة من كلمات عربية عديدة تعني الخبز، والأكثر شيوعًا في مصر، هي «عيش»، التي تعني حرفيًّا الحياة. لا ترمي يُمّا الخبزَ أبدًا. إذا ما أسقطَ أيُّ فردٍ آخر قطعةً من الخبز على الأرض، تلتقطُها وتُقبِّلها، وتضربُها ضربًا خفيفًا على جبينها كعلامةٍ من علامات الاحترام. ليس ثمَّة تواصل بين يُمّا وبائعة الحليب، فهي لا تُجيد العِبرية، لكنَّهما ليستا بحاجةٍ إلى الكلمات من أجل التعامل: تسليم الحليب وجمع الخبز الذي انتهت صلاحيته. حتى من دون لغةٍ مشتركة، بدا أنَّ المرأتين أحبَّت إحداهما الأخرى. في أحيانٍ نادرة فقط، كُنا نُستدعى -أنا وأختاي- للعمل كمترجمين.

لا أتذكر على وجه الدقة متى فارقت يُمّا الحياة، لكن من المحتمل أني كنتُ في سن العاشرة تقريبًا. ذات يوم رجعتُ من المدرسة وقابلتُ فيلما بالمصادفة في أسفل الدَرَج. قالت لي كلمتين لا غير بالعِبرية: «يُمّا ميتة» -

ماتتْ يُمّا. تستحضر ذاكرتي ذلك الموقف والمكان جيدًا. كانت تعبيرات وجه ڤيلما لا تُنسى. مع أنها لم تُظهر أي مشاعر واضحة، ولكن مع ذلك، عيناها كانتا تومضان ببريق من الفخر، كأخت صغرى تحمل أخبارًا هامّة لمشاركتها مع أخيها الأكبر. كما أتذكر أني لم أُدلِ بأيِّ جواب من أيِّ نوعٍ، فقد كنتُ أصارع داخلي لأستوعب ما سمعته للتو. لم أشعر بالذهول وإنما ببساطة، لم أعرف ماذا أقول. هذا لقائي الأول مع الموت؛ لم يكن مُخيفًا كثيرًا جدًّا بقدر كونه غريبًا ومُربِكًا. لم نذهب، أنا وشقيقتاي، إلى الجنازة. تصرَّفَ أبوايَ كما لو أنَّ شيئًا لم يحدث، ليُخفِّفَا من وطأة وجعنا بلا شك. سواء أكان هذا صحيحًا أم خاطئًا، لقد حجبْتَنا محاولتهما عن الحُزن الطَّبيعي لفقدان جَدَّةٍ إلى حدٍّ بعيدٍ. في يومٍ ما غابت يُمّا، واستمرَّت الحياة كالمعتاد.

كانت أمي هي التي تتسوَّق يومَ كانت يُمَّا على قيد الحياة. أمَّا بعد رحيلها، فقد كانت أمي هي التي تتسوَّق وهي التي تقومُ بالطَّهي كذلك. برزت سريعًا كطاهية ممتازة بجدارة. لم تكن ثمَّة أسواقٌ مركزية في ذلك الزمن. نتسوق معظم حاجياتنا من متجرين. أحدهما محلُّ بقالة يملكه أبوا صديقٍ لنا اسمه رُحامة. تجادلت داليا معهما على مسألة تافهة ورفضت أن تطأ قدماها محلَّهم، لذا وقعَ عليَّ واجبُ القيام بالتسوُّق الإضافي الذي كنا نحتاجه إلى جانب أغلب مُشترياتِ أمي. جميع مشترياتنا كانت على الحساب لتُسدَّد لاحقًا. كان بحوزة والديْ رُحامة دفتر تمارين مدرسيٍّ أسودَ، وكانا يسجِّلانِ فيه تاريخ ومجموع مشترياتنا. لم تكن لدينا ميزانية ولا حصصٌ مفروضة ذاتيًّا لذا كانت ديوننا لهم ترتفع بسرعةٍ شديدة. في

نهاية كلِّ شَهر ندفعُ الديون. بعد أن تنفد نقودنا، تتفاقم صعوبة تسديد فواتيرنا، لذا كانت أمي تلجأ إلى أمها كي تكفلها. كانت نانا ميسورةً لكنَّها شحيحة اليد، لذا وجبَ استخدام قدر معيَّن من الضغط. لم تكن أمي أرفع من أن تُشير إلى نانا بأنها أرغمتها على الزواج ضد مشيئتها وأنها ينبغي أن تتحمَّل معها مسؤولية العواقب، طالما حقَّقتْ تلك الإشارة الغرضَ. في واحدةٍ من المناسبات، لحينَ ألحَّ والدا رُحامة على تسديد الدين ورفضت نانا تقديم العون، قطعا تسهيلات دَيننا. دائمًا ما كانت أمي حكيمة التصرف، فقد باعَتْ قطعة نقدية ذهبية إلى صائغٍ مجوهرات، سدَّدتْ بثمنها الدَّين وفتحتْ حسابَ دينٍ جديدٍ. لم نجعْ؛ لكنَّ تجربة التَّقتير خلَّفت بي قلقًا لا يزال قائمًا، بعد سبعين عامًا، ويتجلى في الميل إلى إنفاق المزيد من المال على التسوُّق.

أما مصدر الإمدادات الرئيسي الآخر فكان محلًا للخضار والفواكه. كنتُ أذهبُ إلى كلا المتجرين في كثيرٍ من الأحيان مع أمي لمساعدتها على حملِ الوزن الثَّقيل إلى المنزل، لنصعد بعدها أربعة أدوار. كان البقال من أوروبا الشرقية، رجلًا قصيرَ القامة قويَ البُنية وممتلئ الجسم، يتحدَّث اليدشية مع زبائنه الأشكيناز. في الربيع والصيف، يلبس سراويل قصيرة وقمصانًا بأكمام قصيرة. تعلَّمت أمي شيئًا من اليدشية، واستمتعتْ بوضع طلباتها وتفاصيل الكميات باللغة اليدشية. بدا هذا شيئًا يُسلِّي البقال، لكنَّه بالتأكيد لم يكن ليُسلِّيني. السبب وراء عدم ارتياحي هو أن البقال كان لديه رقم على ذراعه موشوم بالحبر الأزرق الذي لا يُمحى، وذلك كان علامة دالَّة علىّ شخصٍ ناجٍ من الهولوكوست، كما عرفتُ في

المدرسة. من جانبٍ، أدركتُ أن منشأ الوشم له صلة بمعسكر الاعتقال النازي وعرفتُ أنه يمثل رقم البطاقة الشخصية؛ لكنَّ الحقيقة وراءه لا تزال بعيدةً عن إدراكي. ومن جانبٍ آخر، كرهتُ مواجهة الحقيقة الرهيبة وراء الرقم. كلَّما رأيتُ الرقم، حفَّزَ أفكارًا قاتمةً عن القسوة والهَمَجية، عن الأعماق التي لا تُصدَّق لما يمكن أن تنحدرَ إليه النفسُ البشرية. كانت هذه أفكارٌ بدائية ناقصة ومخيفة ومؤلمة، ولم أشاركها مع أحدٍ قطّ.

قلَّةٌ هم من كانوا يزوروننا في شقَّتنا. أحدهم عمي إسحاق، شقيق أبي الأصغر. كان يُدعى «إسحاق الأعمي»، إسحاق الأعمى، لأن عينيه صغيرتان جدًا. عمومًا كان يُعتبر غبيًّا بعض الشيء. في العراق، كان أبعد ما يكون عن النجاح الذي حققه أبي؛ وربما خجل منه أبي. لم يتزوج إسحاق. كان يَسكن وحده في پيتا تكڤاه، ويعمل عاملَ بناءٍ. تعوَّد أن يزورنا بين الفينة والأخرى رغم توتُّر علاقته، نوعًا ما، بشقيقهِ الأكبر. رحَّبت به أمي دومًا في بيتنا، لكنَّها كانتْ متحفظة إلى حدٍّ ما في حين هو، من جانبه، كانَ يُخاطبها بلقب «مدام» بدلًا من اسمها الأول – يبدو أنَّ تفاوت المنزلة الاجتماعية الذي ميَّز أبواي عن إسحاق في بغداد استمرَّ إلى ما بعدَ الانتقال إلى إسرائيل. بعد أن كنَّا نُقدِّم له وجبة طعام دسمة، كان يقضي وقته مع شقيقتيَّ ومعي في غرفتنا، يدردش معنا بالعِبرية.

استمتعنا بصُحبة عمِّنا لأنه كان راوي جيد للقصص، لكنَّ شخصيته غريبةُ الأطوار ومهما حاولنا، فلا يسعنا أن نفهمه. نال إسحاق تعليمًا جيدًا، لكنَّه لم ينجح في أيِّ شيءٍ. بدا جليًّا أنه خائف من كوننا نزدريه،

ولطالما أخبرنا، «ينبغي ألّا تعتقدوا أنَّ لديكم عمًّا جاهلًا». وكدليلٍ على تعليمه تعوَّد أن يُلقي قصيدةً بالفرنسية. تمكَّنتُ بعد مرور ستين عامًا، مستعينًا بمحرِّك بحث، من تعقُّب القصيدة. كانت «Après la Battaille - بعد المعركة» لڤيكتور هوجو. إنها قصيدة عن الفروسية، كُتبت إجلالًا لأبيه، جوزيف هوجو، الجنرال في جيش نابليون.

عندما وقع عزرا، شقيق أبي الأوسط، في غرام قريبته خاتون، ابنة شقيقة يُمّا، وجد نفسه بصورةٍ غير متعمَّدةٍ في وسط قصة عائلية من النوع الموصوف في رواية سامي ميخائيل المعنونة «ڤيكتوريا». لم توافق يُمّا على الزواج، تشاجرت مع شقيقتها ورفضت بتفاخر حضور حفل الزفاف. مالت يُمّا، بحسب قول أمي، إلى الشجار مع الناس، وأحيانًا بسبب قضايا تافهة. كانت قادرةً على اختلاق أعذار غريبة، كي تستعمل تعبيرًا عربيًّا، «من تحت قدميْ دجاجة». لعزرا وخاتون صبيان، أڤراهام وإسحاق. أڤراهام في سنِّي، وإسحاق أصغر مني بسنة واحدة. في العام ١٩٥٠، سافرت الأسرة كلُّها على متن طائرة متجهة إلى إسرائيل مع يُمّا كجزء من عملية عزرا ونيحميا. رُشُّوا بالـ(DDT) المعتاد عند وصولهم المطار، وأُرسِلوا إلى واحد من مخيمات معبروت بالقرب من هرتسليا. ما أن لاحظنا اسم «مَعْبَرة»، حتى ذهبنا لزيارتهم هناك. ما وجدناه هو معسكر لاجئين مفعم بالضجيج، آيل للسقوط ومشوَّش إلى حدٍّ ما؛ كان أقاربي يعيشون في كوخٍ من الحديد المضلَّع (الشينكو). أمضينا، أنا وابنا عمِّي، وقتًا بهيجًا ونحن ندور راكضين نمارس الألعاب الرياضية. كان الجو ممطرًا، والمكان موحلًا، وبذلنا أقصى ما نستطيع كي نتفادى البِرك

الصغيرة جدًا. بعشوائية ذكريات الطفولة، أعتقد الآنَ أني قصصتُ شعري في هذا المَعْبَرة تحديدًا. بعد ما يقرب من العام، مُنح العم عزرا عملًا في معمل للأسلحة وانتقلت الأسرة إلى بيتٍ متواضع. بقينا على تواصلٍ مع أبناء العم، وغالبًا ما كُنَّا نزورهم في نهايات الأسابيع.

أمَّا شقيقة أبي، رَجينا، التي وصلت أيضًا إلى إسرائيل خلال هجرة اليهود الكبرى من العراق عام ١٩٥٠، سلكت مَسارًا مختلفًا. كانا هي وزوجها، إلياهو حمامة، أُمِّيَّانِ لا يجيدان القراءة والكتابة. أدارَ محلًّا للمكسَّرات والتَّوابل في سوق حنوني ببغداد. ثلاثة من أولادهم وصلوا إلى إسرائيل قبلهما: عزرا، الذي قُتِل في الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى؛ أفراهام، الذي غادر العراق بصورة غير مشروعة مع زملائه في الحركة الصهيونية السرِّية؛ وفؤاد، الذي قام برحلةٍ خطيرة بمفردهِ، من العراق إلى إسرائيل في سن الثانية عشرة. وصل الأبوان إلى إسرائيل في عام ١٩٥٠، مع ابنهما إسحاق وثلاثِ بناتٍ، رينا، ليبين وجاكلين. في مطلع عام ١٩٤٨، قبيل الحرب، ٨٠٪ من السكان اليهود أقاموا في المدن الكبيرة. خلال الحرب وسَّعت إسرائيل حدودها، طردت مئات الآلاف من العرب، ورفضت السماح لهم بالعودة إلى بيوتهم. كان هناك ضغطٌ شديدٌ من السلطات العُليا على استيطان البلاد كلها وكان هناك الكثير من الخطابات حول جعل الصحراء تزهر. رُسِمَتْ الخطط الحكومية من أجل بناء مستوطنات زراعية جماعية في النَّقَب وتنمية المدن في أطراف البلاد، ليستقرَّ فيها المهاجرون الجُدد من الشرق الأوسط وشمال إفريقيا. هذه فكرةٌ راديكالية: أن نجعل الناس لا يستقرون في

الموقع الذي يرغبون به، بل في الموقع الذي تأمرهم الدولة به. صَممت مؤسسة الدفاع مخيمات الـ«معبروت»، المستوطنات الجماعية، تنمية المدن وتطويرها، لغرض إعادة توزيع السكان من المدن الكبيرة إلى بقية أنحاء البلاد.

بعد إقامة قصيرة في مَعْبَرَة، أُرسِلتْ أسرة حمامة، من دون أخذ رأيها، إلى موشاف، وهي مستوطنة جماعية، في النقب، شمال شرق قطاع غزة، تأسست في العام ١٩٥٠ مع مهاجرين جُدد آخرين من العراق، هم أيضًا لم تكن لديهم خبرة في الزراعة. كانت تُدعى «كوخاف»، التي تعني «نجمة»، حيث استولوا على الاسم السابق للقرية الفلسطينية التي هُجِّر سكَّانها، «كوكبة». في كوخاف، مُنحِتْ أسرة حمامة منزلان، وقطعة أرض، وآليات زراعية، وسلسلة دروس تعليمية في الزراعة للمبتدئين، وتُرِكوا كي يتدبروا أمورهم بأنفسهم. كان العمل شاقًا ومرهقًا في ظل حرارة الصيف، ولم يجنوا الكثير من المحاصيل. حرفيًّا، كان يتعين عليهم أن يكسبوا رزقَهم بعَرَق جبينهم. مهما يكن من أمر، تصرَّفوا كالجنود على مدى أعوام.

واحدة من أسعد ذكريات طفولتي هي الإقامة في كوخاف خلال العطلات الصيفية. لم يكن لدينا رفاهية قضاء عطلة فخمة. مع إننا كنا نُباغت أقاربنا من دون إخطار، فلا نحن ولا هم لدينا تليفونات، وبسرعة يقومون بالترتيبات كي يوفروا لنا وسائل الراحة، ولا يدخرون جُهدًا لجعل إقامتنا مُريحةً وممتعةً قدرَ المستطاع. كان الفارقُ لافتًا للغاية بين بيئتِنا الحَضَرية المزدحمة وأسلوب حياتهم الرِّيفي، بالحقول المفتوحة،

والهواء النقي والمحصول الطازج. لم تكن هذه الطبيعة قاسية كما تبدو، بل كانت بالنسبة لي صورة للجمال الريفي. عرضت أنا وشقيقتاي تقديم المساعدة لأبناء أقاربنا الأكبر سنًّا في أعمال المزرعة، وقد تفضَّلوا علينا بتكليفنا ببعض المهام السهلة لكي نشعر بأننا نكسب ما نستحقه بجهودنا. إنَّها بساطة الحياة في المزرعة هي التي بهرتنا، لكنَّ أقاربنا كانوا يعيشون في واقع قاسٍ.

بعد خمسة أو ستة أعوام، عندما كانت الأعمال لا تزال قاسية، قررت أسرة حمامة حزم أمتعتها والذهاب للإقامة في مدينة كبيرة. لم يكونوا الوحيدين. كثيرٌ من المهاجرين وجودوا أنه من الصعب عليهم أن يتكيَّفوا مع الحياة الجديدة التي أُختيرت لهم وبدؤوا يتسربون إلى المدن. صنع هذا الأمرُ مشكلةً خطيرة أمام السلطات. لجأوا إلى تدابيرَ وعقوباتٍ متنوِّعة لردعِ الذين ينتقلونَ من الضواحي والأطراف صوب مراكز المدن. قُيِّدَتْ أسماءُ أولئك الذين غادروا من دون موافقة، وأُرسِلتْ القوائم إلى مكاتب العمل كي تمنع تشغيل الهاربين وإسكانهم. طُلِبَ من الشرطة نصب نقاط تفتيش وعدم السماح لهم بالمرور. هذه الإجراءات الجائرة كذَّبت ادِّعاء إسرائيل بأنها مجتمع حُرٌّ وعادل.

في حالة آل حمامة، تمَّ الخروج من موشاف بالتدريج ومن دون الدخول في مشكلة مع السلطات. رينا، البنت الكُبرى، أقامتْ في تل أبيب. تزوجت من ابن عمها، خضوري حمامة، الذي أصبح مورِّدًا بارزًا للأرز في إسرائيل. كان ثمَّة الكثير من اليهود العراقيين في إسرائيل غذاؤهم الأساسي هو الأرز، لذا ازدهرَ عمله. بالنسبة لإسحاق وفؤاد،

فقد ساعدتهما شبكة دعم الأسرة، وانتقلا من موشاف إلى بلدةٍ صغيرة تُسمى «پارديس كاتز» وفتحا محلًّا تجاريًّا باعا فيه الحبوب، المكسَّرات، الفواكه المجففة والتوابل. رجعتْ الأسرة كلُّها إلى ما كانت عليه في بغداد - أصحاب دكاكين في المدينة.

لم يُدرَج أڤراهام حمامة في المشروع الهندسي الاجتماعي الصهيوني، الذي صُمِّمَ لتحويل أسرته من أصحاب دكاكين إلى فلاَّحين. كان، كما أشرنا آنفًا، عضوًا فاعلًا في الحركة الصهيونية السرية في بغداد. عقبَ وصوله إلى إسرائيل، تزوجَ تسيپورا ووجدا وظيفةً في قسم الجمارك والجباية. أثناء عمله، كان أيضًا يدرس للحصول على شهادة البكالوريوس بالعربية والدراسات الشرق-أوسطية في الجامعة العِبرية بالقدس. واصل دراسته من أجل نيل شهادة الماجستير في الدراسات الشرق-أوسطية والأدب العربي. لأسباب مفهومةٍ، اعتقدَ أن مؤهلاته الأكاديمية سوف ترجِّح احتمالات ترقيته في العمل. لكنَّ الموساد، وكالة الاستخبارات الخارجية الإسرائيلية، كانت له خططٌ وظيفيةٌ أخرى بشأنه: لقد جنَّدوهُ جاسوسًا. لا يصعب أن نخمن لماذا كانوا حازمين جدًّا كي يحصلوا على خدماته: عاش في بلدٍ عربي كمواطنٌ يتكلَّم العربية، وملمٌّ جيد بتاريخ وثقافة المنطقة. كان يشبه أي شخص عربي. رفضَ أڤراهام، في أول الأمر، مقاربات الموساد؛ غير أن مساره نحو الترقية كان مسدودًا واستُخدمتْ ضده تكتيكات أُخرى أجبرته على الإذعان.

منذ تلك المرحلة فصاعدًا، قلَّما شوهِدَ أڤراهام في إسرائيل. كانت القصة التي يتم تداولها لتغطية غيابه أنه يدرس في باريس. توارثْ

أنشطتُه الحقيقية خلف حجابٍ كثيفٍ من السرِّية، كما هو الحال مع سائر الجواسيس. استقيتُ القليلَ الذي أعرفه من نقاشٍ مع شقيقهِ الأصغر، الذي واصلنا تسميته فؤاد مع إنه غيَّر اسمه إلى هِرتزل عند وصوله إلى إسرائيل. بحسب فؤاد، أول إرسال لأڤراهام إلى الخارج كان إلى العراق، حيث أمضى هناك سنوات طويلة. في مناسبات نادرة كان أڤراهام وتسيپورا يلتقيان سرًّا في باريس. أما معظم الوقت فكانا يتواصلان عبر الرسائل التي تمر بقنوات الموساد. في مطلع ستينيات القرن العشرين، أُرسِل أڤراهام إلى القاهرة ويا للدهشة، حصل على حق الالتحاق بجامعة الأزهر، المركز الشهير المتخصص بالتعليم الإسلامي والجامعة الإسلامية السُّنِّيَّة رفيعة الشَّأن. أُضيفت، أيام حُكم جمال عبد الناصر، طائفة واسعة من الكليات العلمانية للجامعة. وكي يحصل على صلاحية الالتحاق، تظاهر بأنه طالب جامعي من العراق. في الوقت الذي غادر فيه، كان يعرف القرآن حقَّ المعرفة. توطدت علاقة أڤراهام بمجموعة من زملائه الطلاب في جامعة الأزهر، وهم من ضباط القوات الجوية المصرية. من خلال الاستماع إلى نقاشاتِهم، حصل على بعض المعلومات المفيدة حول تدريب الطيارين، وصيانة الطائرات، والأعمال الروتينية للقواعد الجوية وإجراءات الطوارئ. هذه المعلومات كانت على ما يبدو لا تقدر بثمن بالنسبة لسلاح الجو الإسرائيلي في التخطيط لهجومه المفاجئ على القواعد الجوية المصرية في الخامس من حزيران/ يونيو عام ١٩٦٧، اليوم الأول من «حرب الأيام الستة». دمَّرَ هذا الهجوم معظم طائرات القوة الجوية المصرية على الأرض ومنح إسرائيل الهيمنة على الأجواء، وهو شيء أبقت عليه حتى نهاية القتال. قبل نشوب الحرب

بوقتٍ قصير، ترك أفراهام موقعَه، على وجه السرعة، في القاهرة وعاد إلى الديار. كان يعرف أنه مشتبهٌ به؛ أحسَّ بأنَّ الشَّرَكَ يضيق عليه؛ فهرب في الوقت المناسب تمامًا. بعد فراره، حكمت عليه المحكمةُ العسكرية في القاهرة غيابيًا بالموت شنقًا. إيلي عمير، الروائي المولود في العراق، كان واحدًا من أصدقاء أفراهام القليلين. كان عمير يرغب بتدوين كتاب عن أفراهام حمامة ومسيرته كجاسوس، لكنَّ الرقيب العسكري أخبره أن عليه أن ينتظرَ أربعين عامًا.

الغريب أن والدتي أيضًا لفتت انتباه مُراقب في الموساد. هذا بعد وقتٍ ليس بالطويل من وصولنا إلى إسرائيل. تلقَّت رسالةً لم تذكر الموساد بالاسم لكنَّها ببساطة دَعَتها إلى مقابلة في تل أبيب من دون الإشارة إلى غرض اللقاء. حضرت إلى هذا العنوان في الساعة المُحدَّدة واستقبلها رجلٌ طويل القامة ينضح سلطةً، جالسًا خلف مكتب ضخم. امتلكَ الرجل عنها معلومات، أكثر بكثير من الأساسيات التي يحتويها جوازُ سفرِها. كان حسنَ الاطلاع على مؤهلاتها التعليمية، وخلفيتها العائلية، وحالتها الزوجية وارتباطاتها السياسية قبل وصولها إلى إسرائيل. لم تستغرق وقتًا طويلًا كي تعرف أنَّ هدف اللقاء تقييمُ وضعها ومعرفة رأيها في أن تُصبِح جاسوسةً. أخبرها الرجل أنها المرأة التي يفتشون عنها: شابةٌ وجميلة، جاءت من بلد عربي، بحوزتها جواز سفر بريطاني، وتجيد الحديثَ بأربعِ لغات، وباستطاعتها أن تعمل بصورةٍ طبيعية للغاية في بيئةٍ عربية. وأضاف أنها ستمضي بأوقات ممتعة مليئة بالسفر إلى الخارج والترف والمغامرات. رفضت أمي العرض بغضب، مُشيرةً إلى أنها امرأة

متزوجة ولها ثلاثة أولاد صغار عليها الاعتناء بهم. إنَّها عراقيةٌ ١٠٠٪ والعراقيون «شريفين»، والعراقيات يحمينَ شرف أزواجهن، ولسن بحاجة إلى مغامرات. حين وقفت كي تذهب، جاء الرجل من وراء مكتبه الضخم، عانقها وحاول أن يُقبِّلها! ركلته ركلةً قوية، سقط هو إلى الوراء ولاحظت هي أنه برجلٍ خشبية. هذا ما فسّر الخشخشة التي سمعتها عندما انهار على الأرض. لاذت بالفرار، لا ريب أنها أحبطت في الوقت نفسه رغبته بمغامرات جنسية وأمله في تجنيد «ماتا هاري[1] - Mata Hari إسرائيلية»!.

تعليق أمي على هذه الواقعة هو لو أنها حصلت في عهدٍ متأخر، كانت ستشكو، وكانت سترغب بأن ترى الرجل الذي هجم عليها يذهب إلى السجن. شعرت بارتياح كبير إثر سن قوانين لحماية النساء من الاعتداء الجنسي. ولكن، في زمنها طالما فعل الرجال أشياءَ مُنكرةً من دون أن يتعرَّضوا للعواقب. كان هنالك «فرهود» - فوضى من دون قوانين أو أنظمة تمنع سوء استخدام السلطة. كان شيئًا شائعًا جدًّا بالنسبة للرجال في مواقع السلطة أن يُسيئوا استخدام صلاحيتهم من خلال تحرُّشهم الجنسي بمرؤوساتهم الإناث أو توسُّل خدمات جنسية من المتقدمات للوظائف. يومذاك، كررتْ بكآبةٍ: النِّساءُ لا يتذمَّرنَ؛ إنَّهن يتحمَّلنَ.

---

(١) ماتا هاري (١٨٧٦ - ١٩١٧): راقصة هولندية جرمانية، أشهر جاسوسة في التاريخ الحديث. أعدمها الفرنسيون رميًا بالرصاص بتهمة التجسس عليهم خلال الحرب العالمية الأولى. [المُترجم].

وأنا أكتب عن أمي، عليَّ أن أذكِّر نفسي دائمًا بأنها كانت في سن السادسة والعشرين، في عام ١٩٥٠، وأنه ما من شيءٍ مرت به في حياتها استطاعَ أن يُهيئها للمشاكل والمِحَن التي انتظرتها في أرض الميعاد التي نعتتها الميثولوجيا التوراتية بأرضٍ يتدفق فيها الحليب والعسل: الواقع لا يُمكن أن يكون مختلفًا أكثر. على حين غرَّة، وجدت المرأة الشَّابة نفسها بمفردِها في بلدٍ أجنبيٍّ وبيئة غريبة، من دون زوج، ومع ثلاثة أولاد أعمارهم دون العاشرة عليها أن تعتني بهم وترعاهم... ومستقبلٌ مشكوكٌ فيه تمامًا. بعد أن اعتادت على حياة بلا هموم، أُرغِمت فجأة على تحمل عبء مسؤوليات ثقيلة. اشتاقت لأسلوب الحياة الذي كنا نعيشه في بغداد و، للغرابةِ، اشتاقت أيضًا إلى احتفالات عيد الميلاد الكريسماس. هي وكلُّ حاملي جواز السفر البريطاني كانوا يُدعوْنَ مرَّةً في السنة إلى حفلة كريسماس فخمة في السفارة البريطانية ببغداد. ليست لديَّ أدنى فكرة عن الغرض الحقيقي للكريسماس - في إسرائيل، يوم الكريسماس هو يومُ عملٍ عاديٌّ. كانت مقرَّاتُ كثيرٍ من الدبلوماسيين الأجانب في رَمات گان، التي تبعد مسافة قصيرة عن السفارات في تل أبيب. في يومٍ من الأيام، في طريق العودة من المدرسة، لفتَ انتباهي مشهدٌ غريب في حجرة جلوسِ مقرٍّ دبلوماسي: رأيت شجرةٌ بمصابيح كهربائية صغيرة وزخارف غريبة. حين وصلتُ إلى البيت وأبلغتُ أمي بما شاهدتُه، هتفتْ قائلةً، «إنَّها شجرة الكريسماس!» وانفجرت باكيةً.

وُضِعت أمي فجأة في هذا العالم الغريب، لكنها تحلت بقوة وتحملت التحديات الجديدة بشكل رائع، رغم صعوبتها. ظاهريًّا كانت تبدو ثابتةً

وواثقةً من نفسها في حين أنها في الحقيقة، كما كشفت لي لاحقًا، كانت مُحبَطةٌ وتترنَّح على حافة انهيارٍ عصبي. جاءَ صديقانِ لتقديم المساعدة لها في وقت شدَّتِها: مائير وسلمى ديڤيد. الدكتور مائير، كما نسمِّيه دومًا، كان أحد أقاربنا البعيدين وطبيبَ العائلة. تلقَّى تعليمه الطبي في الجامعة الأميركية في بيروت وتاليًا في لندن التي قابل فيها سلمى، الابنة اللطيفة والجميلة ليهوديين ألمانيين هاجرا إلى فلسطين. تزوجها وأعادها إلى بغداد حيث مارس عمله طبيبًا عالجَ أربعة أجيال من أسرتي: والدا أجدادي، أجدادي، أبوايَ، أنا وشقيقتاي. بدأت سلمى تعلِّم أمي اللغة العِبرية في بغداد؛ استعدادًا للانتقال إلى إسرائيل حيث واصلا هي وزوجها عنايتهما المفرَطة، إذْ يأخذانها معهما إلى الشاطئ، إلى النزهات والحفلات مع أصدقائهما.

حينَ وصل أبي إلى إسرائيل، سرعانَ ما تلاشت مشاعر الارتياح والسعادة الأوليين لالتئام شمل العائلة، أمام صعوبات تأقلمه في موطنه الجديد، كانت توجد صعوبات أكبر من تلك التي واجهتها أمي. كان عمره خمسين عاما، ولا يتحدث العبرية، وقد خسر عمله وكان في حالة من الضياع إلى حدٍ ما. لاحظت أمي بأنه شاخ بصورة واضحة خلال الرحلة الشَّاقة من بغداد إلى رَمات گان. بعد مدَّةٍ غير طويلة من التئام الشمل السعيد، بدآ يبتعدان أحدهما عن الآخر ويتحركان في دوائر اجتماعية مختلفة. كانت لها دائرتها الخاصة من عراقيي الطَّبقة العليا الذين تلعب معهم الورق كلَّ ليلة جمعة، بينما كانتْ له دائرة أصغر من الرجال العراقيين عاثري الحظ ممَّن لهم مزاج وأفكار مشابهة. تعوَّدوا أن

يلتقوا بمقهًى في الهواء الطلق لتبديد الوقت، وارتشاف القهوة التركية، والتدخين والدردشة.

إنه شيءٌ شائع بين الرجال في منتصف العمر في دائرة أبي أن يتفاخروا بأمجادهم الماضية، وبثروتهم ومنزلتهم الاجتماعية في بغداد. في العربية، ثمَّة قول يشبِّه هذا النوع من الرجال بالجِمال: حين يجوع الجمل يلجأ إلى سنامه. أما أبي فقد كان مختلفًا. لم يتكلَّم عن الماضي، على الأقل بحضوري. ولا تمرَّغَ برثاء الذات. على العكس، كان فخورًا وصبورًا – وقليل الكلام. استمر على طريقته في اختيار ملابسه: بدلة بثلاث قطع خاطها له خيَّاط في بغداد من قماش بريطاني فاخر، قميص أبيض وربطة عنق متناسقة مع لون البدلة. لكنْ، في أعماقه، كان رجلًا مُحطَّمًا. كان يشعر بالغربة تمامًا في البيئة الجديدة، ولم يندمج فيها على الإطلاق، وكان عاجزًا عن التأقلم. مع إني صغير السن، كنتُ أعي جيدًا المأساة التي تتكشف أمام عينيَّ. أحسستُ بالتعاطف مع أبي، الذي جَلَده إحساسٌ غامضٌ بالذَّنب بسبب انحسار ثرواته المفاجئ.

للحصول على المال، بذل أبي مجهودًا كي يكسب رزقه في البلد الجديد. باشرَ في مشروعين تجاريين، انتهى كلاهما بخَيبة أمل كبيرة. المشروع الأول مع رجلٍ محتال بكل المقاييس. كان مالك مقهى «بستان» الشهير في تل أبيب. كان كابلينسكي غارقًا في الدَيْن. قابله أبي بالصدفة خلال عامه الأول في إسرائيل. قدَّم كابلينسكي نفسه على أنه تاجرٌ ثريٌّ لديه رخصة استيراد مواد غذائية من أميركا. كانت حقبة تقتير وثمة نقص بالإمدادات في إسرائيل. قال كابلينسكي إنه بحاجةٍ إلى رأسمال كي

يؤسِّس عملًا لتوريد الغذاء ووعد أبي بعائدات مرتفعة في حال استثماره. جزءٌ من المال الذي أخرجه أبي من العراق، سُلِّم إليه في إسرائيل، وجزءٌ منه كان بعُهدة شقيق زوجته صالح في نيويورك. سافر كابلينسكي إلى نيويورك آملًا على الاستحواذ على بعض هذه النقود، لكنه قُوبلَ بالرفض الحازم من طرف صالح الذي أخبر أبي بأن كابلينسكي مجرد محتال، إنَّه ينتعل حذاءً بخمسة دولارات ويدخِّن سيجارًا بعشرة دولارات! على الرغم من هذا التحذير، فقد دخل أبي الذي كان صادقًا ويثق بالناس في شراكة مع كابلينسكي، واستثمر مبلغًا ضخمًا من المال. واحدة من أوراق العائلة القليلة التي أملكُها هو العقد الذي وقعه أبي مع شركة هيركا الصناعية والتجارية ومقرُها «٨ شارع فِن» في تل أبيب. طُبع العقد باللغة الإنجليزية، التي لم يكن يُجيدها والدي، وكان مؤرَّخا في ٢١ تشرين الأول/ أكتوبر من العام ١٩٥١. ونصَّ العقد على أن الشركة ستقوم باستيراد طرود غذائية فردية من مؤسسة رالان التجارية في نيويورك، وأن الأرباح ستقسم بنسبة ٤٠: ٦٠ لصالح السيد جوزيف شلايم. تتألف الدفعة الأولى من ٣٠٠ رُزمة سكَّر، وعصير التفاح ومعكرونة الدجاج. لكنَّ الشريكين تشاجرا قبل أن تصل البضاعة، وفقدَ أبي كلَّ نقودهِ التي استثمرها.

أمَّا المشروع الثاني فكان مع روبِن نصر الله، وهو أحد المعارف من بغداد أصبح صديقًا في إسرائيل. فكَّرَ بفتح محل تجارة الجُملة ودخل والدي معه في شراكة. استأجرا محلًا كبيرًا في تل أبيب في شارعٍ تمركزت فيه محلات تجارة الجُملة. كان أغلبُ زبائنِهم من اليهود العراقيين

أصحاب مخازن البيع بالتجزئة. عُرِضت مجموعةٌ كبيرة من البضائع في المخزن: السكَّر، والأرز، والعدس، والشاي، والقهوة، والشوكولاته، والحلوى، والمكسَّرات، والفاكهة المجفَّفة، والتَّوابل وكلُّ صنوف الحلويات الشرق-أوسطية. مقارنةً بمحل بقالة اعتيادي؛ أذهلني حجم البضائع حين كنتُ صغيرًا. كانت هنالك أكياس من الغذاء في صفين مستقيمين على الأرض، ولوحان ضخمان من الحلوى وكميات كبيرة من كلِّ شيء. ازدهر العملُ، والعلاقة بين الشريكين كانت جيدةً: كان روبِن هو المشتري وكان يتحمَّل العبء الأكبر؛ وأبي كان أمين الصندوق والمحاسب. كانت بدايةً واعدة في سوقٍ يتَّسع.

استمرَّ العمل بالازدهار طوال عامين، وبعدها وقعت الكارثة: عانى أبي من نوبةٍ قلبية. أخذته سيارة إسعاف إلى المستشفى في تل حاشومير حيث رقد هناك على مدى أسبوعين. كان مستشفى كوپات خوليم - خدمة الصحة الوطنية، وهو مستشفى مجَّاني، لكننا لم ننضم إلى خدمة الصحة العامة لأن لدينا دكتور مائير بصفته طبيب أسرتنا، وفي إسرائيل كان يزوِّدنا بخدماته مجانًا. نُقِل أبي من تل حاشومير إلى مستشفى أسوتا الأهلي في تل أبيب حيث شُخِّصَ بـ«ذبحة قلبية»، بسبب نقص تدفُّق الدم إلى القلب. زرناه، أنا وشقيقتاي عدَّة مرات في المستشفى. بالنسبة إلي كانت تلك زيارتي الأولى لمستشفًى، وقد أذهلتني النظافة الشديدة، وثياب الكادر الطبي الرسمية والمنشَّاة، وجوُّ المهنية الذي عمَّ المكان. هذا كلُّه، على أية حال، لم يكن كافيًا كي يُخفِّف من قلقي على مصير والدي.

بعد وقتٍ غير طويل من عودة أبي إلى البيت، عانى من نوبة قلبية ثانية ووجب أن يؤخذ ثانيةً إلى المستشفى الأهلي. هذه المرة خضع لعملية القلب المفتوح، ومكثَ مدةً أطول بكثير من أجل المراقبة والتماثل للشفاء. كان لديه إيمانٌ تام بالأطباء، وكان مولعًا بنحو خاص بالممرضة التي تعتني به واسمها تيلما. على الرغم من جودة الخدمة المقدمة، إلا أن التكاليف الباهظة كانت عبئاً ثقيلاً على ميزانيتنا المحدودة. بالنسبة لأبي، نوبتا القلب كان لهما تأثيراتٌ مزمنة: أضعفتاه جسديًّا وسيكولوجيًّا على السَّواء، ونخرتا القليلَ المتبقي من ثقته القديمة بنفسه.

أعقبتْ الفاجعةُ الماليةُ النَّكسةَ الصِّحيةَ مباشرةً. زعم روبين نصر الله أنه لم يعد بمقدوره إدارة العمل مع أبي في حالته الصحية الواهنة، وقرر من طرفٍ واحد بأن يحلَّ الشَّراكة. من دون استشارتنا، وجد شريكًا آخرَ وأعطاه حصة أبي من العمل. أعطى أبي تسعة آلاف ليرة عن حصته التي هي عشرة آلاف ليرة آنَ تأسيس العمل. لقد قدَّم العرض بسلوك بشع، استنادًا إلى قاعدة إمَّا أن يقبلَها أو يتركها. لعبتْ أمي دورًا في المفاوضات اللَّاذعة، لم يسبق لها أن رأتْ زوجها غاضبًا إلى هذا الحدِّ - في لحظةٍ ما نزعَ فردة حذائه ورماها باتجاه روبِن.

في العام ١٩٥٤، خرج أبي من المستشفى وفقد عمله كذلك. كان في سن الثالثة والخمسين وبقيَ عاطلًا عن العمل حتى وفاتِهِ في الثالث من كانون الأول/ ديسمبر عام ١٩٧٠. لم يُعلِن عن هذا بصراحة غير أنها الحقيقة. حاول أبي أن يعمل سمسارًا لصفقات الأراضي. أحد أصدقائه العراقيين، يعقوف صوفِر، كان سمسارَ عقارات وله مكتبٌ في الطابق

الأرضي من عمارتنا السَّكنية. قضى أبي وقتًا طويلًا هناك، وكذلك في مقهى الهواء الطلق، يتحدَّث مع الناس، ويحاول التوفيق بين البائع والمشتري أملًا بالحصول على عمولة. لكنَّ جهوده كلَّها كانت بلا طائل. كما أن سلوكه تغيَّر: بدا أكبر سنًّا، يمشي ببطء، صامتًا ومنطويًا على نفسه، كما كفَّ عن التواصل مع الآخرين.

في يوم صيفي حار مضيتُ مع أبي إلى غالي غِل، ومعناها الحرفي «أمواج الفرح»... حوضُ سباحةٍ في رَمات گان. لم تكن ثمَّة خزائن بأقفال في غرفة تبديل الملابس، بل فقط مشاجب سُترات بأكياس من الكنفاس ملتصقة بها حيث باستطاعتك أن تترك ثيابك في داخلها. كانت لدى أبي ساعة سويسرية من الذهب، مسطحة، وكبيرة، ذات طوق جلدي؛ نجت خلال الرحلة القاسية من بغداد إلى إسرائيل. وضعها في جيب بنطلونه، ثم طوى بنطلونه ووضعه في الكيس وسلَّم الكيس باليد إلى خادم غرفة الإيداع، الذي أعطاه قرصًا مزوَّدًا برقم. حذوتُ حذوه. كان وقتَ استرخاء، وسباحة وحمَّام شمسي. بعدها بدَّلنا ثيابنا وشرعنا نمشي خارج حوض السباحة حين لاحظ أبي أن ساعته مفقودة. رجعنا إلى غرفة تبديل الملابس وأخبرنا الخادم أننا فقدنا ساعةً، لكنه كان مُرتجِلًا ورافضًا، مدَّعيًا أنه لم يرَ أيَّ ساعة. بدا واضحًا بكل معنى الكلمة أن الرجل سرقها غير أن أبي لم يتحدَّاه، فإنَّه لم يحتجّ، ولم يُطالب برؤية المدير. تمتم فقط، استدارَ ومضى مبتعدًا. في الطريق إلى البيت كان منزعجًا جدًّا، ولكنه كان مكتئبًا وصامتًا أيضًا. شعرتُ بشفقةٍ مفرَطة عليه وتساءلتُ أيضًا لماذا كان ضعيفًا للغاية؟ خطر ببالي

أنه لم يكن حازمًا بسبب شعوره بالاغتراب وأنه أجنبي، وأن هذا ليس بلده، وأنه لا يملك الحقَّ في التذمر أو رفع صوته. احتفظتُ بأفكاري لنفسي وواصلت المسير إلى جواره بصمت، على غراره تمامًا.

كانت ثمَّة ارتدادات لانهيار عمل أبي، على موارد أسرتنا المالية وديناميكا الأسرة. من دون دخلٍ نقدي، سيتعين علينا أن نعيشَ على ما تبقَّى لنا من رأس المال الذي جلبناه معنا من العراق، والذي تضاءل بشكل ملحوظ بسبب فواتير المستشفى. كان من الجليِّ أن رأس مالنا سوف ينفد عاجلًا أم آجلًا. بما أن أبي كان غير قادر على أن يجد عملًا، أصبحت أمي مرغمةً على أن تضطلعَ بدور المُعِيلة. الدكتور مائير ديڤيد، طبيب أسرتنا المخلص، دخل ميدان السياسة المحلية من خلال الانضمام إلى حزب «الصهاينة العموميون»، وانتهى به الحال بأن أصبح وكيل مدير بلدية رَمات گان. كان هذا حزبًا سياسيًّا وسطيًّا دافع عن مبدأ عدم التدخل في الشؤون الاقتصادية إلا نادرًا، وأُعتُبِر كثيرٌ من عراقيي الطبقة الوسطى من بين مؤيديه (أي الحزب). التحقتْ أمي بالحزب وعملت لهم كمتطوِّعة. جعلها هذا الأمر على تواصل مع أعضاء آخرين من الحزب يعملون في مبنى البلدية.

في العام ١٩٥٥، بدأت أمي العمل موظفةَ هاتفٍ في دار البلدية. كان من حسنات هذا اليوم قصر مدة العمل، حيث اقتصر على خمس ساعات فقط، يبدأ في الثامنة صباحًا، مقارنةً بثماني ساعات للوظائف الأخرى. مع إن هذا عمل متواضع، كانت أمي فخورةً به واستفادت منه إلى أبعد الحدود. جلبت الصبر، والمرونة، والتصرفات الجيدة، والمهارات

الاجتماعية الثمينة والاستعداد لتقديم العون إلى العمل الجديد. جعلها هذا الأمرُ محبوبةً وكسبت الأصدقاء والصديقات من المستويات كافة، من مدير البلدية إلى السُّعاة. تعيَّن عليها، أثناء عملها، أن تعرف موظَّفينَ كُثر في مبنى البلدية مثل صلاحياتهم، واختصاصاتهم ومسؤولياتهم. مكَّنها ذلك من ممارسة نفوذٍ ورعاية لا يتناسبانِ مع حجم وظيفتها الحقيقية. تعوَّد الأصدقاء العراقيون أن يأتوا للمساعدة في شتى ضروب المشكلات المتعلِّقة بضرائب المجلس البلدي، وفواتير الماء والكهرباء، وغرامات وقوف السيارات، وتراخيص التخطيط وهلمَّ جرًّا. هتفتْ امرأةٌ عراقيةٌ برهبةٍ مرَّةً: «كلمتُكِ كالسيف!».

إحدى الصديقات المقربات لوالدتي في العمل كانت مريام ياكيم، ابنة رئيس البلدية ورئيسة قسم رعاية الأطفال. كانت أيضًا رئيسة لجنة التوأمة مع لواء المظليين في الجيش الإسرائيلي؛ كانت لدى المدن الكبرى في إسرائيل ترتيبات توأمة مع أحد فروع الجيش، وكانت رَمات گان توأمًا لكتيبة المظليين.

دعت السيدة ياكيم أمي كي تخدم بصفة عضوة في اللجنة. كانت هذه اللجنة فعَّالةً جدًّا في جمع المال، وتنظيم المناسبات وإقامة حفلات المظليين. أتذكر هذه الحفلات كونها مناسبات مُبهِجة للغاية، في حديقة منزل مدير البلدية، مع الطعام والشراب اللذين عُدَّا من مظاهر الإسراف بحسب معايير ذلك الوقت.

من بين جميع الضباط الذين حضروا تلك الحفلات، برز أحدهم لأنه كان استعراضيًّا. اسمه أرييل شارون. كان مقدمًا شابًّا، ممتلئ الجسم،

ذو شعر أشقر كثيف وعينين زرقاوين ثاقبتين تنضحان ثقةً بالنفس. في إحدى نزهاتنا توقفنا عند جسر على طول نهر الأردن. صرخ جنديٌ أردني من الجانب الآخر من الجسر شيئًا في وجهنا. فصرخ شارون بعلو صوته مجيبًا بالعربية: «أسكت، يا أسود!». بدا واضحًا أن أمي أعجبتها هذه الطريقة الذكورية الإسرائيلية في معاملة العرب لأنها ظلت تكرر الكلمات المسيئة بعد ذلك. أصبحَ شارون لواءً، وقائدًا لحزب الليكود اليميني وفي الختام رئيسًا للوزراء. كان مثيرًا للجدل عبر مسيرته بسبب كثرة كذبه وأعماله الوحشية تجاه المدنيين العرب. كوني باحثًا في النزاع الإسرائيلي - العربي، بوسعي أن أقبلَ حُكمًا قاسيًا جدًا على شارون، إنَّما في مراهقتي كان لديَّ انطباعٌ أكثر دفئًا عنه. بعد زمن طويل جدًّا تذكرتُ المفارقة: حتى مجرمو الحرب بوسعهم أن يكونوا رفاقًا لطفاءَ بكل معنى الكلمة.

حين بلغتُ سن الثالثة عشرة، خضعتُ لـ«بار - متزفا»(١). بحسب الشريعة اليهودية، في سن الثالثة عشرة، يُصبح الفتيةُ أعضاء ناضجين في المجتمع وبالتالي، يكونون محاسبين على أفعالهم. يتعين عليهم أن يصوموا في يوم الغفران، وربما يُحتَسبون في «منيان»، وهي صلاة نخبة مختارة تتألف من عشرة رجال على الأقل. تتألف البار - متزفا من طقوس دينية واحتفالات علمانية معًا. اعتنى أبي بالدينية وأمي بالعلمانية. أعطاني أبي ثلاثة عناصر رئيسة تُلبس أثناء الصلاة اليهودية: قلنسوة (كيباه)؛ وشاح

(١) بار ـــ متزفا: سن التكليف الشرعي، وهو حفل يهودي ديني يُقام عند بلوغ الغلام اليهودي سن الثالثة عشرة، أي عندما يُعدُّ مكلَّفًا بأداء جميع الالتزامات المفروضة عليه بحسب الشريعة اليهودية «الهالاخاه». [المُترجم].

صلاة (طيلسان)؛ وتيفيلين (مكعَّب من الجلد الأسود يوضع على جبهة المُصلِّي له خيط يُلفُّ على الذراع اليُسرى كونها الأقرب إلى القلب). كنا أسرة علمانية لا أسرة يهودية تقليدية، وأنا لم أكن متدينًا على الإطلاق، لذا اخترتُ أن أحتفظ بهذا الجانب من بلوغ سن الرشد إلى أدنى حدٍّ. تدرَّبتُ على لبس التيفيلين ومضيتُ إلى الكنيس السيفاردي مع أبي يوم السبت بعد عيد ميلادي الثالث عشر، لكن، بدلًا من الصعود إلى المنصة لقراءة جزء من الشَّريعة (التوراة)، تلوتُ دعاءً فقط؛ بعد قراءة الحاخام والبالغين.

عندما يتعلَّق الأمر بإقامة حفل فإنَّ أمي تنفق ببذخ. تضمَّنَ حفل بار - متزڤا بالطبع «سأودات متزڤا» بهيجةً، وهي وجبة طعام احتفالية لأفراد الأسرة والأصدقاء. استأجرت أمي قاعةً ودَعَت إليها جميع أقاربنا وأصدقائنا. إدراكًا منها لمكانتها الاجتماعية، دون أيّ تكبّر، أعدّت طاولةً فخمةً للضيوف المميزين. من بين هؤلاء رئيس البلدية أڤراهام كرينيتزي، وابنته مريام ياكيم، والدكتور مائير ديڤيد، وشالوم زسمان، وهو قائد آخر لـ«الصهاينة العموميون»، ونائب مدير البلدية. مع إنه زمن تقشُّفٍ، فقد كانت هنالك وفرةُ طعامٍ في الحفلة: أرغفة خبز محشوة بالدجاج، والسَّلَطات، والحمُّص، وزيت السمسم «الطحينية»، والفطائر المحشوة بلحم الضأن، وحلويات شرق-أوسطية وفواكه. كما توجد أيضًا مجموعة من المشروبات الكحولية والمشروبات الغازية. ترأست أمي الاحتفال برباطة جأشٍ. بعثَ إليها شقيقها إسحاق فستانًا مُخمليًا أخضرَ من إنجلترا. لبسته مع حزام شيفون أحمر. على ما يُقال، فإنَّ

السيد كرينيتزي أخبر ابنته «أنظري إلى عايدة، كم هي جميلة!». لم تتعب أمِّي من تكرار هذا التعليق وقد تجاوزت التسعين من عمرها.

تلقَّيتُ بمناسبة بار - متزفا هديةً مُثيرة واستثنائيةً، ألا وهي دراجةً هوائية من ماركة «رالي»؛ أرسلها لي خالي إسحاق من إنجلترا. وصلتْ في صندوق خشبي. لا تزال تلك اللحظة محفورة في ذاكرتي، عندما شعرت بسعادة غامرة وأنا أفكك الألواح الخشبية كي أكشف عن الدراجة الهوائية الجديدة والمذهلة. بعد مُضي أعوام طويلة، أخبرني الخال إسحاق بأنه لم يدفع قرشًا واحدًا عن هذه الهدية الفاخرة. صديقٌ يهودي غني مكث في العراق بعد نزوح العام ١٩٥٠، طلب منه أن يشتري دراجتين هوائيتين إنجليزيتين راقيتين لابنيه المراهقين. دخل إسحاق إلى أحد المخازن واشترى ثلاث دراجات هوائية متماثلة، اثنتين لصديقه العراقي وواحدة لي، والفاتورة تم التلاعب بها بحيث أن الصديق انتهى به الحال أن دفع ثمن الدراجات الهوائيات الثلاث كلِّها. لم تكن لديَّ فكرة عن أصول الهدية المُبهَمة وإذا عرفتُ؛ فلربما لن يكون هنالك فرق. كنتُ منتشيًا بامتلاك هذه الدراجة الهوائية الرائعة، وسرعان ما تعلَّمتُ ركوبها، ورحتُ أستخدمُها يوميًّا وغدوتُ متعلِّقًا جدًّا بها.

مع البراعة المتنامية كراكب دراجة هوائية، جاء الحافزُ للقيام بالأعمال البهلوانية. واحدة من تلك الحركات المفضلة الركوب عكس الاتجاه وظهري للأمام؛ وأخرى هي الوقوف على المقعد بينما إحدى رجليَّ في الهواء، مثل راقصة باليه. كثيرٌ من أصدقائي في الحيِّ السكني تعلَّموا ركوب هذه الدراجة الهوائية وكنتُ سعيدًا أن أجعلهم يستعيرونها في

رحلةٍ قصيرة؛ لأني كنتُ المالك، فأحسستُ أني أفضل من البقية. وفي الوقت المناسب غدوتُ ماهرًا بكلِّ معنى الكلمة في إنجاز إصلاحات ثانوية ومعالجة المواضع المثقوبة، وهي مهارة لازمتني بقية عمري. في أكسفورد امتلكتُ دراجة هوائية خضراء قديمة ماركة «رالي» تعود لعام ١٩٥٠ كنتُ متعلِّقًا بها بشكل مشابه إنَّما تعيَّن عليَّ أن أتخلَّى عنها عندما لم يَعُد بالمستطاع إصلاحها. ما من دراجةٍ هوائية أخرى منحتني لذَّةً بقدر هاتين الدراجتين الهوائيتين الخضراوين من ماركة «رالي»، إحداهما في مراهقتي المُبكرة، والأخرى في غَسَق رحلتي كراكب دراجة هوائية.

مكتبة
t.me/soramnqraa

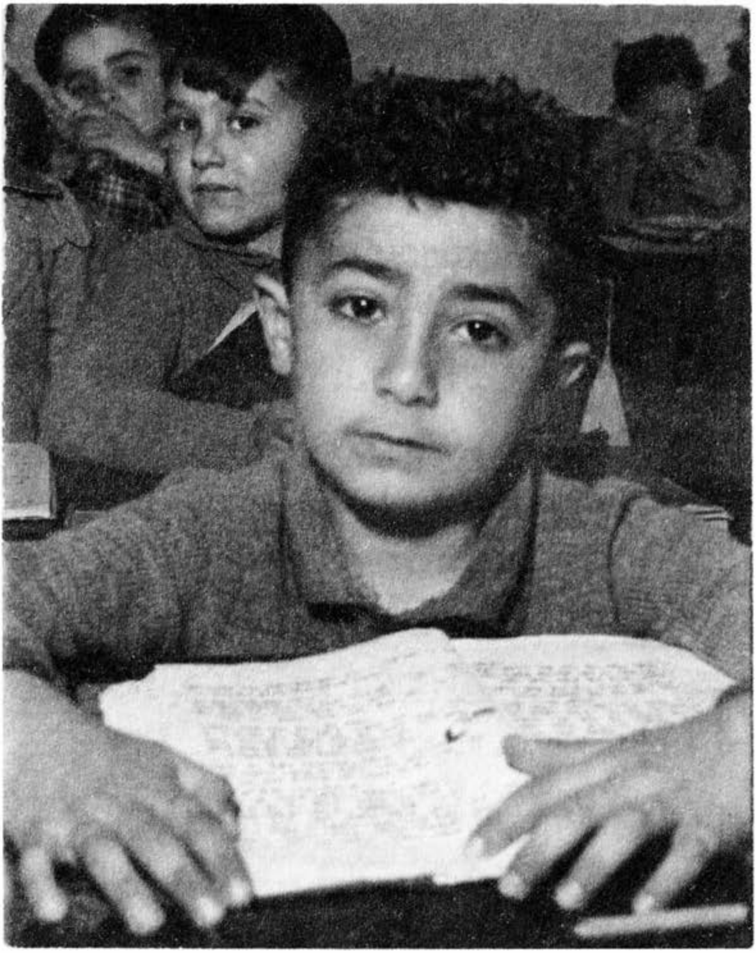

آقي في المدرسة خلال المرحلة الدراسية السابعة أو الثامنة.

الفصل العاشر

في مهبّ الريح

في عاميَّ الأخيرين بالمدرسة الابتدائية، خلالَ المرحلتين السابعة والثامنة، تأثَّرتُ بشكل متزايد بما يمكن وصفه اليوم بـ«القلق الوجودي». ما عانيتهُ على نطاقٍ صغير هو ما عاناهُ اليهود العراقيون في جميع أنحاء إسرائيل: ازدراء أصلنا العراقي، وعدم معرفة تاريخنا؛ والاستخفاف بثقافتنا؛ واستصغار لغتنا؛ وهندسة اجتماعية تجبرنا على التكيُّف مع القالب الإسرائيلي - الصهيوني - الأوروبي. تهيمن على المشهد سردية أشكينازية وطنية مهيمنة، تُقارن ماضينا المُحزن كأقلية مُهانة في المنفى بحاضرٍ مُشرق من الحرية والاستقلال اليهودي في أرض الميعاد. كانت هنالك عمليةٌ منظمة لنزع شرعية تراثنا ومحو جذورنا الثقافية. الأهداف غير المُعلنة لسياسة المدارس الرسمية هي تقويض هُويَّاتِنا اليهودية - العربية وتحويلنا إلى مواطنين صالحين في الدولة القومية الإسرائيلية الجديدة.

تصاعد الصراع الثقافي بفعل علاقتي مع معلمة الفصل الجديدة. من الواضح أنها لم تحبني، وكان الشعور متبادلًا. اسمها مريام لينتز.

انتقلتْ من ألمانيا وكانت تتحدَّث العِبرية بلكنة ألمانية. تسكن بقربنا مع ابنها الوحيد الذي تذكر اسمه عادةً في الصف؛ وكانت شديدة التعلُّق به. لم يكن هنالك أيُّ ذكر لرجلٍ اسمه سيد لينتز. السيدة لينتز لم تكن «سعيدةً». بدت صارمةً، ولم تضحك أبدًا، ونادرًا ما تبتسم حتى. ما كرهتُه فيها، على أية حال، ليست إطلالتها العابسة، إنَّه تحيُّزُها الجليُّ ضدنا نحن طُلَّاب صفها الذين قدمنا من بلدان عربية.

لم تقُم السيدة لينتز بأي محاولة كي تُخفي كراهيتها لي. ربما لأني كنتُ طالبًا سيئًا: لم أكن متحمسًا للدراسة؛ كنتُ أنجز أقل ما يمكن من الواجب المنزلي؛ وأدائي على السبورة أدنى بكثير من المعدَّل الطبيعي. تُظهِرُ شهادتي المدرسية، نهاية المرحلة السابعة، أن سلوكي «جيدٌ جدًّا»؛ ودرجتي في مادة الرياضيات «جيدةٌ»؛ درجاتي في اللُّغة العِبرية، التوراة، التاريخ، علم الأحياء والجغرافيا كانت «مقبولة تقريبًا»، ودرجتي في اللغة الإنجليزية كانت «غير مقبولة». لم أكن مُلهَمًا ولم أبذل مجهودًا خاصًّا في أيِّ مادة دراسية، لكنني وجدتُ اللغة الإنجليزية صعبةً حقًّا وبدأتُ أتخلَّف بشكلٍ سيءٍ عن أقراني في الصف. يبدو لافتًا، عند النظر في الماضي، أن ينتهي الحالُ بالطفل الذي أمه ناطقة بالإنجليزية إلى أن يخفق في اللغة الإنجليزية في إسرائيل. لم تشكُ السيدة لينتز من سلوكي العام، لذا فإنَّ درجتي كانتْ «جيد جدًا». لو شكتْ من كسلي وقلَّة التزامي، لكانت مُحِقَّةً تمامًا. غير أن شعوري هو أنه ثمة عاملٌ آخر في المعادلة.

ربع تلاميذ صفِّنا، تقريبًا، جاؤوا من العراق أو البلدان العربية الأخرى. كُنا نُسمى جميعًا «سفارديم»، «شرقيين» أو «مزراحيم»، وينبغي

لي أن أستخدم هذه المصطلحات كما لو أنها قابلةٌ للاستبدال مع أنها، إذا ما تحدَّثنا بدقة، لم تكن كذلك. السيدة لينتز من أوروبا، وكنا نشعر بنقص التعاطف مع الطريقة التي تُعاملنا بها. كانت تنحاز للأطفال الأشكيناز في الصف، بخاصة أولئك الذين جاءوا من عائلات الطبقة الوسطى العليا. تتسم تصرفاتها تجاهنا بطابع متكبر، وتعكس تحيزاً واضحاً ضد مجموعة عرقية معينة. مرَّةً، في فصل دراسيٍّ، مساء يوم جمعة، تعوَّدنا أن يكون لدينا اجتماع للصف كلِّه والمعلمة في بيت أحد الأطفال. ينبغي على الأبويْن أن يتطوَّعا كي يستضيفونا وكي يفعلا هذا يجب أن يملكا منزلًا كبيرًا أو شقة كبيرةً. في العادةِ كان الأبوانِ عضويْن ناجحين من النخبة الاقتصادية أو الثقافية. تعوَّدتْ السيدة لينتز أن تتودَّدَ للأبويْن وتعرضهما لنا نحن البقية كمواطنيْن نموذجييْن. في هذا التقاطع البارع للطبقة والثقافة، شعرنا نحن الذين قدمنا من خلفيات أقل ثراءً أو تعليمًا بأننا أبناء عم أو خال فقراء أو حتَّى أسوأ من ذلك - شعرنا بأننا أدنى منزلةً.

ثمة واقعة مسَّتني مباشرةً، بدت كما لو أنها توحي بانحيازٍ ضد العراقيين تحديدًا من قبل السيدة لينتز. كانت ترتدي ملابس بسيطة جدًا: لم تكن تضع مساحيق التجميل ولا ترتدي مجوهراتٍ من أي نوع. على النقيض من ذلك، تميل النساء من البلدان العربية إلى ارتداء المجوهرات، لا سيما مجوهرات الذهب بأنواعها المختلفة: القلائد، ودبابيس الزينة، والأساور، والخواتم. كما أنها عادةٌ يهودية - عربية أن تُعطى مصوغاتٌ بني متزفا من الذهب والفضة كهدايا. تلقَّيتُ عن بار - متزفا الخاص بي

قلادةً ذهبيةً على شكل نجمة داود، وخاتمًا من الذهب نُقشَ عليه حرفا اسمي الأوَّلانِ: AS. ارتديت كلًا من السلسلة والخاتم إلى المدرسة، عن براءة شديدة، إذ لم أدرك دلالات رموزهما الثقافية والفكرية.

الصهيونية أيديولوجية صارمة ترفض تراث الشتات وتهدف لبناء إسبارطة يهودية في الشرق الأوسط. لا تنسجم المجوهرات مع هذه الأيديولوجية الصارمة، بخاصة حين يلبسها الرجال. هذا ما قالته السيدة لينتز لطلاب الصف، وهي صهيونيةٌ ملتزمة. مخاطبةً الصف بأكمله، أدلت ببعض التعليقات المُستخفَّة بالشرقيين وعادتهم المنحطة في لبس المجوهرات. ومن ثم التفتت إليَّ وأمرتني بنزع قلادتي وخاتمي. وأنا مذهول، نزعتُ الخاتم من إصبعي لكنني واجهتُ صعوبةً في فتح مِشبك القلادة. بعد دقيقة متوترة أو دقيقتين، أتى زميلي الذي بجواري لمساعدتي، واستطعتُ أن أزيل ذلك الشيء المزعج. طوال ذلك الوقت كلِّه، وقفتْ السيدة لينتز أمامي، تحملق فيَّ بنظرة اشمئزاز. كانت تلك تجربةً مُذِّلةً بعمق، وما زاد الأمر سوءًا هو حقيقة أني لم أفهم تمامًا ما الذي كانت تتكلَّم عنه. كان هذا مساويًا لرشِّي بمادة الـ(DDT)، لكنني لزمتُ الصمت.

ثمة موقف غير متوقع آخر كان أكثر إيلامًا. ذات يوم، كانت السيدة لينتز تكتب شيئًا ما على السبورة، مُديرةً ظهرها لطلاب الصف، فرمى أحدهم قصاصةَ ورق مجعدة عاليًا لتحطَّ على الأرض. استدارت السيدة لينتز، عند سماعها الضجة، ملتقطةً قطعة الورق ومدقِّقةً في محتواها. بدتْ صارمة للغاية، وطالبت بمعرفة من كتبها. لم يجبْ أحد. سألتْ ثانيةً،

ولم يرفع أحدٌ يده للإجابة. سألتْ للمرة الثالثة ومُجدَّدً لم يعترف أحدٌ بالذنب. بعد ذلك، أفصحتْ بأن قصاصة الورق احتوت على كلمات بذيئة، معلنةً عن عزمها على اكتشاف المذنب. بينما كانتْ تحوِّل دورها من معلمة إلى شرطية سرية، سألتْ ستةً من طلبتنا منا في المكان الذي حطَّتْ فيه قصاصة الورق؛ بأن نذهب إليها مع دفاتر تمارينا لمقارنة الخط. بعد فحصٍ سريع، أعلنتْ بأنَّني المذنب! لا أتذكَّر ما إذا أُكِّدتُ براءتي. ربما لم أفعل لأني كنتُ مَذهولًا وصامتًا. ما أتذكره بوضوح، على أية حال، هو أني خفضتُ رأسي على ذراعيَّ المثنيتين فوق المكتب وبكيتُ بصمت. طعنني ظلم الاتهام في قلبي. حسبتُ أنه تصرفٌ جبان من الجاني ألَّا يقرَّ بفعلته، لكنَّ غضبي الأعمق كان موجهًا نحو المعلمة التي أعتقد بأنها تعمَّدتْ تلفيق تلك الجريمة لي.

في المرحلة الثامنة، السنة الأخيرة من المدرسة الابتدائية، لم يتغيَّر شيءٌ. أصرَّت معلمة الصف على موقفها السلبي تجاه الأطفال الشرقيين عمومًا، وتجاهي خاصةً، في حين واصلتُ الشعور بأني منسلخ عن المكان، أتلكَّأ خلف باقي الطلاب. الأداء المُسجل في شهادة المدرسة، للفصل الدراسي الأول من المرحلة الثامنة كان مطابقًا تقريبًا للسنة الفائتة: «جيد» في درس الرياضيات؛ «مقبول بالكاد» في معظم الدروس؛ و«غير مقبول» في اللغة الإنجليزية. على أية حال قبل نهاية العام الدراسي، حصل شيءٌ غير متوقَّع؛ ومهمٌّ جدًّا: اجتزتُ الـ«سيكير»، الامتحان الوطني الذي يقرِّر المسار اللَّاحق للطالب أو، تحديدًا، ما إذا كان بوسع الطالب الالتحاق بمدرسة ثانوية نظرية، أو مدرسة مهنية أو سوق

العمل. إنَّه نظام اختيار على مستوى البلاد يُقسِّم الأشخاص في سن الرابعة عشرة إلى ثلاثة مستويات من القابلية وثلاثة جداول. الغرض من الـ«سيكير» ثنائي: تحديد أولئك المناسبين للتعليم النظري ما بعد الابتدائي، وتزويدهم بمنح دراسية تُغطِّي أجورهم. التعليم الابتدائي فقط هو الذي كان مجانيًّا في ذلك الوقت.

كانتْ نسبة اجتياز الـ«سيكير»، بالنسبة للطلَّاب من أصول أسيوية وإفريقية، أدنى قليلًا مقارنةً بالطلَّاب الأشكينازيين. كان الامتحان من مسؤوليات وزارة التعليم. وقد عكس الجدل بين مدرستين من التفكير: أولئك الذين يعتقدون أن القابلية الفكرية هي قابليةٌ فِطرية، وأولئك الذين يعتقدون أن الظروف المادية والبيئية تؤثر على الأداء التعليمي. بينما ناقشتْ المجموعة الثانية ظروفًا كهذه هي على درجة عالية من الأهمية، وأن نسبةً عاليةً من الفشل بين الأطفال الأسيويين والأفارقة في المدرسة الابتدائية تُعزى إلى عوامل مثل الفقر، والآباء المشغولين للغاية أو غير المتعلِّمين. بناءً على ذلك، وُضِعَ نظامٌ من التَّمييز المعكوس المحدود جدًّا موضع التطبيق؛ تحت عنوان «نورما بيت» أو نموذج (B).

يتألف امتحان الـ«سيكير» من ٧٨ سؤالًا. تذمَّرَ البعض في نهاية التسليم من كونها أسئلةً صعبةً بصورةٍ غير مألوفة، لكنَّ الخبراءَ وجدوها أسئلةً أُعِدَّتْ بذكاء. الخبر السعيد الذي تلقيته هو نجاحي في اجتياز الامتحان. شكَّل ذلك دعمًا هائلًا لاعتدادي بنفسي. امتعضت السيدة لينتز، خصمي الرهيب، في الظاهر من نجاحي. ناقشتْ النتائج عمومًا أمام الصف بأكمله. لكنَّها أتتْ إليَّ عند نهاية الجلسة؛ وانبرت قائلةً:

«أتمنى فقط أن تدركَ أنكَ اجتزت الـ«سيكير» بسبب التسهيلات المقدَّمة للأطفال المزراحيين». لم أجبْ بكلمة، لكنِّي أتذكَّر أني فكرتُ مع نفسي: «لماذا تقول ذلك؟». بينما أستعيدُ أحداثَ الماضي، أعتقد أنَّ هذا الأسلوب كان مُروِّعًا ولا يمكن أن تسلكه معلمةٌ مع تلميذٍ صغير وضع تحت رعايتها. في المقام الأول، كان هذا امتحان على مستوى الدولة، ولا يُمكنها الجزم إذا ما كنتُ اجتزته فقط بسبب التسهيلات التي قدموها للأطفال المزراحيين. ثانيًا، حتى إذا كانت تعلم علم اليقين أن هذه الحالة واقعة، فلا حاجةَ بها لأن تؤكدها عَمدًا. كل ما كان عليها فعله معي هو تهنئتي بمناسبة نجاحي، وتمنِّي الحظَّ الطيب لي. عزَّزَ المسارُ الذي اتخذتْهُ غضبي، وقوَّى شكِّي بأنها مُتحيِّزة.

ما لم أعرفه، يومذاك، هو أن خبراء كثيرين اعتبروا النظام التعليمي الإسرائيلي برمته، بما فيه امتحان الـ«سيكير»، غيرَ مُنصِفٍ لليهود الشرقيين، ولفئتي الاجتماعية. كان زَلمان آران، وزير التعليم منذ منتصف خمسينيات القرن العشرين، وعضوًا بارزًا في حزب العمل الحاكم، أو «ماباي» كما كان يُدعى في تلك الأيام. رأى آران نفسه ابنَ نخبةٍ أشكينازية رفيعة، واحتقرَ اليهود الأسيويين والشمال إفريقيين كونهم عِرقًا أدنى منزلةً أصلًا. كان يؤمن أن أداءَهم السيئ في المدرسة عكس ذكاءً فطريًا منخفضًا بدلًا من عوامل اجتماعية - اقتصادية خارجية. لم يكن هدفه أن يسدَّ الفجوة التعليمية، بل أن يوجِّه أكبر عدد ممكن من اليهود الشرقيين نحو المدارس المهنية وسوق العمل؛ كان يُريد طبقةً عاملة كبيرة كي تدعم التطوُّر الصناعي والزراعي للبلاد. مع إنه لم

يستخدم العبارة التوراتية، فإنَّ الدور الذي تصوَّره لليهود الأسيويين والأفارقة في المجتمع الإسرائيلي هو «الطبقة العاملة». كانت حصيلة سياسته هذه إعاقة اليهود الشرقيين من خلال تقييد دخولهم إلى التعليم العالي، وما يتبع ذلك من المناصب الوظيفية والمهن ذات الأجور العالية.

شكَّل الأطفال الشرقيون، بين عامي ١٩٥٩ – ١٩٦٠، ما نسبته ٥٠٪ من فئتهم العمرية في عموم البلاد، لكنَّ نسبتهم في المدارس الأكاديمية كانت ١٨,٨٪. لم يرَ آران خطًا في هذا الأمر. في آذار/ مارس من عام ١٩٦٤، أخبر هيئة أمناء الجامعة العِبرية بأن «أطفال المهاجرين من البلدان الإسلامية ليسوا مزوَّدين بكلِّ ما هو ضروري للاضطلاع بدورهم الكامل في ما بعد الدراسة لابتدائية والتعليم العالي». أشارَ إلى أن هذه الفئة تشكل ٦٠٪ من طلبة رياض الأطفال، و٥٠٪ من المدارس الابتدائية، و٢٥٪ من المدارس الثانوية النظرية و١٢٪ من التعليم العالي. للمرَّة الثانية، فإنَّ هذه الإحصائيات لم تُقلق وزير التعليم بل مثَّلتْ انعكاسًا للانتظام الطبيعي للأشياء برأيه. مقدار التحيُّز العكسي في الـ«سيكير» لم يكن ليمثِّل رأي آران و، بأية حال، لم يكن ليُحدِثَ فرقًا كبيرًا. الغالبية العظمى من اليهود الشرقيين مع ذلك أخفقوا في الـ«سيكير». بعض المعلمين والمعلمات لم يُدخلوا أطفالهم الشرقيين هذا الامتحان على الإطلاق لأنهم اعتقدوا أنهم لا يملكون فرصة الاجتياز[1]. كنتُ أحد أولئك المحظوظين القلائل. لكن السعادة التي حصلت عليها من هذا التميز الأكاديمي الوحيد في أول عشر سنوات لي بالمدرسة قد تشوّهت على نحوٍ لا يمكن إصلاحه بسبب تعليق السيدة لينتس اللاذع.

أُدرك أنّي رسمت صورة شخصية قاتمة بشكلٍ تام للسيدة لينتز، وأجد من واجبي الأدبيّ أن أُشير إلى وجود وجهة نظر معاصرة تختلف اختلافًا جوهريًا عما قدّمته. تأتي وجهة النظر هذه من أرليت شياع، وهي فتاة عراقية كانت زميلتي خلال السنوات الست الأخيرة بالمدرسة الابتدائية. بعد كتابة الفصل الحالي، وجدتُ بالمصادفة رسالةً كتبتْها لي في الرابع عشر من آب/ أغسطس العام ٢٠٠٥ مع تعليقات على حوار مطوَّل معي، منشور في جريدة «هاآرتس» الليبرالية اليومية. كان عنوان المقالة هو «يدُنا ممدودةٌ للحرب». المؤلف صحفي يساري اسمه ميرون رابوبورت، ومناسبة الحوار هو نشر النسخة العِبرية من كتابي المعنون (الجدار الحديدي: إسرائيل والعالَم العربي). أثار اهتمام رابوبورت أصولي كيهودي عربي، ونتيجة لذلك، كاد نصف المقال أن يتكون من ذكريات شخصية عن حياتي المبكرة في إسرائيل، بما في ذلك قصة السيدة لينتس والـ «سيكير».

دُهِشَتْ أرليت شياع، وسُرَّتْ، لدى قراءتها المقالة عني وعن كتابي، وحاولت الاتصال بي هاتفيًّا. ثمَّة شلايم واحد في دفتر هواتف رَمات گان، لكنَّهم أخبروها بأنهم لا يعرفونني. لذا كتبتْ لي رسالةً طويلةً وطلبت من ميرون رابوبورت أن يبعثها إليَّ. أفادت أرليت، في الرسالة، أنها وجدت فرضيتي عن تشدُّد إسرائيل مُثيرةً للاهتمام ومعقولةً على حدٍّ سواء لكنَّها ليست جديدةً كليًّا. هي نفسها تمسَّكت بوجهة النظر هذه لأنَّ شقيقها الأكبر الشيوعي أفشى لها تفسيراتٍ بديلة لسلوك إسرائيل. أشارتْ، في الوقت نفسه، إلى أنَّ الجرأةَ ضروريةٌ لقول هذه الأشياء

بصراحة وتحدٍّ للفرضيات الزائفة التي تروِّجها المؤسسة الرسمية. هنَّأتني على شجاعتي في المسير ضد التيار، وعلى المسير الرائع منذ أيامنا في المدرسة الابتدائية.

بقية الرسالة تتعلَّق بالسيدة لينتز. كانت أرليت متعجبة مما أخبرتُ به ميرون رابوبورت بشأن العداء تجاه الأطفال العراقيين. هي أيضًا عراقية لكنَّها لم تلمسْ أيَّ عداء. بدتْ السيدة لينتز، في تجربة أرليت، على العكس تمامًا؛ كانت متعاطفةً وداعمة. في إحدى المرات، قامت فتاتان، ربما كانتا غيورتين من أرليت، بالتنمر عليها وتسميتها «إراكيت مسريحة» - عراقية كريهة الرائحة. سمعت السيدة لينتز حديثهما خلسة، فغضبت بشدة ووبختهما بعبارات قاسية وصريحة. استعملت السيدة لينتز سلطتها إلى حدٍّ كبير في هذه الحادثة المنفصلة حيث كرَّست درس التربية الوطنية للموضوع، مؤكدةً مرارًا وتكرارًا على أن التنميط العنصري هو ممارسة فاشية ونازية لا مكانَ لها في دولة إسرائيل. حيال هذه الخلفية، تساءلت أرليت ما إذا كانت السيدة لينتز عدائية معي ليس بسبب كوني عراقيًا، بل بسبب أني غير متعاون ومنطوٍ بشكل كبير (باعترافي أنا).

على الرغم من مرور الوقت، أتذكر أرليت بشكل واضح للغاية. في المرحلة الثامنة كانت تجلس أمامي بصفين. كانت أبرز طلبة الصف في معظم المواضيع الدراسية، وعبقريةً في الرياضيات، وواثقةً من نفسها بشكل مُدهِش وحازمةً على نحو استثنائيٍّ. ساهمتْ مرارًا عن معرفة في نقاشات الصف. بمجرد أن تنتهي المعلمة من وضع سؤال للصف، ترفعُ أرليت يدها عاليًا في الهواء. كما كانت أرليت شخصًا بارزًا في فرقة الدراما

المدرسية. حين يُدعى صفنا إلى تقديم مسرحية حول هانا سزينيس[1]، وهي بطلة وطنية صهيونية، أمام المدرسة بأكملها، كان الدور الرئيس يُعطى إلى أرليت. باختصار، من كلِّ الوجوه التي قابلتها، كانت أرليت هي نقيضي التَّام؛ باستثناء أصلنا العراقي المُشترَك. كنتُ معجبًا وفخورًا جدًّا بها. كانت فتاة عراقية تتمتَّع برباطة الجأش في مواجهة الأشكينازيين في الصف. لكنني لم أكن صديقَ أرليت يومًا ونادرًا ما تحدثت معها. كنتُ خجولًا إلى أقصى حدٍّ ومعقودَ اللسان. فيما يتعلق بالتضامن القائم على الصلة (الاصل العراقي، او الرابطة العراقية)، كان ذلك شيئًا أشعر به بعمق في داخلي، لكن لم أتمكن من التعبير عنه علنًا.

بعد إعادة قراءة رسالة أرلييت، اتصلتُ بها هاتفيًا على الخط الأرضي في منزلها في ريحوفوت. في رسالتها، كانت قد أعطتني رقم تليفونها واسمها الزوجي - مينتزير. تلا ذلك حوار طويل ساعدني كي أفهم بشكل أفضل بعض المواضيع التي عانيتُ منها بيدَ أني لم أفهمها إلا بشكل غامض إبان هذه المرحلة العصيبة من حياتي. أرليت نفسها كانت لها مسيرة ناجحة كممثلة، ومخرجة مسرحية، وعالِمة سيكولوجية

---

(١) هانا سزينيس Hannah Szeneh (١٩٢١-١٩٤٤): شاعرةٌ ومظليَّة في وحدة العمليات الخاصة (SOE)، هنغارية الجنسية، واحدة من بين ٣٧ مظليًّا ومظليَّةً تابعين لسلطة الانتداب البريطاني في فلسطين، أنزلهم الجيش البريطاني في يوغسلافيا السابقة، خلال الحرب العالمية الثانية، للمساعدة في انقاذ اليهود الهنغاريين الذين كانوا على وشك أن يُرحَّلوا إلى معسكر الموت الألماني في أوشفيتز. أُعتُقلتْ على الحدود الهنغارية، وبعدها سُجنتْ وعُذِّبتْ من دون أن تَكشف تفاصيل مهمَّتها. في النهاية حوكمتْ وأُعدِمتْ بالرصاص. تُعدُّ في «إسرائيل» بطلةً وطنيةً، وثمة «كيبوتس» وشوارع عدة تحمل اسمها هناك. [المُترجم].

سريرية، وشاعرة. إنها تتذكرني من مدرستي بوصفي «حالة مُفرَطة» من الصمت. لم أكن صموتًا فحسب في الصفّ، بل حتى خلال الاستراحات بين الدروس، نادرًا ما كنتُ أتحدّث بأيّ شيء. كان من الواضح أني كنتُ كسولًا ومهمِلًا في الواجبات المنزلية، لكن لأني كنت قليل الكلام، هي وبقية الأطفال حسبوا أني لربما كنتُ بليدَ الفهم قليلًا. على أية حال، أشارت أن الأطفال يرون فقط ما يظهر على السطح؛ ونادرًا ما يغوصون في لُبّ القُشُور.

الصفة الأخرى التي بسببها تذكّرتني أرليت هو أني «أدين»، أي رقيق ومهذّب. هذه الصفة عَزَتها إلى كوني طفلًا من الشرق. قالت إنَّها لاحظت أنّ العراقيين يُعلّقون أهمية كبيرة على أن يكونوا دمثين مع الأشخاص الآخرين. إلا إنه من الواضح ثمة أشياءٌ تتعلّق بي لا تراها العين. كيف تسنى لها أن تكون جدًا واثقة من نفسها فضلًا عن كونها دمثة؟ سألتُها. على نحو مُذهِل، جواب أرليت دار أيضًا حول خلفيتها العراقية. كانت في سن السادسة حين وصلت إلى إسرائيل. لديها ستة أخوة وأخوات كانوا أكبر منها سنًا بسنوات طوال. كانت تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والرابعة والعشرين عند وصولهم. أشقاؤها خريجون جامعيون. كان أحدهم عضوًا في الحزب الشيوعي وناقدًا صريحًا للمؤسسة الإسرائيلية. في البيت، عمومًا، يوجد مستوًى عالٍ من الوعي والجدال السياسيين. أشقاؤها وشقيقاتها علّموها وساعدوها، وهذا ألغى أيّ إحساس بالدونية الذي ربما كانت ستملكه لولا ذلك بسبب كونها عراقية.

أدهشتني ملاحظات أريليت حول المناخ الفكري في إسرائيل خلال الخمسينيات. بدت لي متبصِّرة وفطنة. قالت إن توجد هناك عنصرية تجاه جميع المهاجرين الجُدد. هذا تجلى في اللجوء الواسع النطاق إلى القوالب النمطية القومية. الرومانيون، على سبيل المثال، كان يُنظَر إليهم عمومًا بوصفهم أمة من اللصوص، وهنالك نكات لا نهائية مستندة إلى هذا القالب الجاهز. في هذا المناخ العدائي، لم يكن شيئًا نادرًا بالنسبة للمهاجرين الجُدد أن يكتسبوا إحساسًا بالدونية مقارنة بالـ«سَبراس»، المولودين في إسرائيل. على أية حال، كان التحيُّز ضد المزراحيم صريحًا. كان يُعَّدون على نطاق واسع من قبل الأشكيناز بوصفهم مختلفين، وغرباء، ولديهم درجة ذكاء منخفضة، ومتخلّفين وبدائيين. وحتى بعض المعلمين والمعلمات شاركوهم وجهات النظر هذه. اعترفت أرليت أنها حتى هي تلوَّثت، كي تؤكد على تغلغل التحيُّز المناوئ للشرقيين. لم تكن ترغب بالزواج من عراقي حينَ كبرت ونظرت إلى شقيقاتها باستخفاف لأنهن يتكلّمن العِبرية بلكنة عراقية. اليوم تشعر بخجل شديد بسبب الانحياز الذي ترسّب في أعماقها في طفولتها.

الحوار مع أرليت قادني بعُمق إلى التأمل في جذور فشلي بالمدرسة. حين فكرتُ فيه، بدا لي أنَّ السبب الرئيس في عجزي عن الأداء الجيد في المدرسة هو هويتي العراقية والإحساس المستمر بالدونية الذي زرعته في داخلي. الضعف الفكري لبيئتي المنزلية هو عامل مُساعد آخر. بيئة أرليت المنزلية كانت مُحفِّزة فكريًا، عزَّزَت الوعي السياسي وألهمَت الاستقلال الروحي. لا أملك ميِّزاتٍ كهذه. ليس لدينا كُتب في البيت، أو تحصيل

جامعي يشجِّع على التفكير النقدي، ناهيك عن تحدِّي فذلكات وضروب انحياز المجتمع من حولنا.

سبقتني شقيقتي، داليا، بعام واحد في مدرسة ياحالوم الابتدائية. هي أيضًا اجتازت الامتحان لدخول المدرسة الثانوية وفي حالتها أيضًا، فاجأت النتيجة مشرفيها. كانت هادئةً للغاية في الصف، وكانت شخصيتها غير لافِتة، ولم تتميَّز في أيٍ من المواد الدراسية. في ضوء تقريرها الماضي، كان من المتوقع أن تخفق في امتحان الـ«سيكير». بحسب وصفها، فقد طُلِبَ من معلم الصف تفسير التضارب بين درجاتها المتدنِّية في المدرسة؛ والدرجات العالية التي حصلت عليها في الـ«سيكير». أدى عجزه عن التفسير إلى الشك بأنَّها قد تكون غشَّت في الامتحان. طُلب منها أن تُعيد الامتحان ومرَّةً أخرى حصلت على علامات عالية. تفسيرها للتضارب هو أن الـ«سيكير» اختبار ذكاء، وليس اختبارَ معرفةٍ نظرية. فعل نجاحُها في الـ«سيكير» شيئًا ما لاعتدادها بنفسها، لكنَّه لم يكن كافيًا لدفعها في مدرسة ثانوية نظرية. بدلًا من ذلك، درستْ اختصاصًا لمدَّة عامين في كلية (ORT)، وهي جزء من شبكة مدارس مهنية، حيث تدرَّبت لتصبحَ مُصفِّفةَ شَعر. استقرت على هذا المسار المهني لأنها لم تتلقَّ تشجيعًا من المدرسة ولا من أبويها لمواصلة دراستها الأكاديمية. يُعدُّ التَّعليمُ العالي الجيد في أوساطنا، أكثر أهمية للذكور منه للإناث؛ اللاتي يُتوقَّع منهنَّ أن يكنَّ لطيفات، ومطيعات، ومؤدبات. يُفرض عليهن الزواج في سن مبكرة، وتُكلَّفن بأعباء المنزل والأمومة. شقيقتي الصغرى، ڤيلما، التي تصغرني بثلاثة أعوام تقريبًا، هي الأخرى

لم تحصل على تشجيعٍ مناسب. في سن الرابعة عشرة انخرطت في دراسة اختصاص سكرتاريا لعامين، ومن ثم بدأت العمل موظفةَ استقبال في عيادة طبية.

كانت شقيقتاي مختلفتين للغاية في الطِباع. ڤيلما ممتلئة الجسم ومرحة، وودودة ومنفتحة، تتقبل الحياة كما هي دون أن تقلق كثيرًا على هُويتها أو مستقبلها. هل كانت واعيةً بالمعامَلة التفضيلية التي تلقَّيتُها؟ أعتقدُ ذلك. في رَمات گان، كما في بغداد، عملتْ أمنا على النظرية القائلة إنَّ المكسَّرات تحفز نمو العقل. لذا، في كل يوم جمعة، كانت تشتري لي كيسًا من الفول السوداني المُحمَّص، وتخفيه فوق خزانة الثياب. في كل مرة تحاول ڤيلما الاقتراب من المكسرات، تقول أمي: «هذه المكسَّرات ليست لكِ. إنها مكسَّرات شقيقكِ». ردُّ ڤيلما على حوافز أمي لي؛ كان جزلًا ومميَّزًا: كانت تعتقد أن أُمَّنا تُبعد المُكسَّرات عنها لأنها لا تُريد لوزنِها أن يزداد.

كانت داليا مراهقة معقدةً، وأكثر اضطرابًا. منذ سن الثامنة فصاعدًا، كان يُنتَظَرُ منها غسل أرضيات شقتنا في رَمات گان كلَّ يوم جمعة، استعدادًا لعطلة السبت؛ ما شكَّلَ مصدر استياء بالنسبة إليها. شعرتْ بأنَّها غير مُقدَّرة وغير محبوبة في البيت. في المدرسة، ربما عانت من عُقدة نقص لكونها عراقية، مع أنها، مثلي، لا تعترفُ بذلك. لقد تعيَّن عليهما أن يتحلَّا بالصبر كوني الطفل المُفضَّل، لكن بالنسبة لداليا كان ذلك أكثر من مجرد مشكلة مقارنةً بڤيلما. تعوَّدت داليا أن تتشاجرَ معي، وفي إحدى المرات، في عطلةٍ مع أبناء عمِّنا في مستوطنتهم الزراعية بالنَقَب، لوَّحت

بسوط وضربتني بقوة أبكتني. في حين كانت ڤيلما خاملةً وطيِّعة، بدتْ داليا شرسةً ومتمرِّدة.

كانت ڤيلما منسجمةً مع أبي، فكان يحبها كثيرًا. ولأنه كان بلا وظيفة، وفَّر له ذلك وقتَ فراغٍ. أحيانًا، كان يأخذها خلال العطلات الصيفية إلى الساحل في تل أبيب. يشتريان الفاكهة في طريقهما إلى هناك، ويستأجران كرسيين للاسترخاء، يسبحان في البحر ويتشمَّسانِ. لا تتذكر ڤيلما أيَّ خلافات أو أيَّ مواضيع أفسدتْ علاقتها بأبينا. اعتقدتْ أنه قام بدوره في رعايتنا، وأنه كانَ ربَّ منزل في حين أصبحت أمّنا المعيلة. لم يكن هذا النوع من تبادل الأدوار شائعًا وقتذاك، كشيوعه اليوم. بقاءه في المنزل أثناء عمل زوجته لم يؤثر سلبًا على اعتزازه بنفسه في تلك الفترة.

من خلال داليا، فُرض ضغطٌ اجتماعي علينا لقطع علاقتنا بجذورنا العربية وترك عادات الشتات خلفنا. رفضتْ داليا التحدُّث باللغة العربية، حتى في محيطٍ آمن كبيت الأسرة؛ لأنها اعتبرتها لغةَ شتاتٍ محتَقر. فاقم رفضُها العنيدُ التوترات بينها وبين أبي الذي كان مُدمنًا على الأخبار، كما كان يُحب الاستماع إلى الموسيقى العربية. تعوَّد الإنصات إلى نشرات الأخبار بالعربية عدَّةَ مرات في اليوم. عندما يحين وقت الأخبار، يقول، «أوه، الأخبار!» ويُسرِع لتشغيل الراديو. اعتدنا، نحن الأطفال، أن ينظر أحدُنا إلى الآخر ونكرر الكلمتين بالعربية كما لو أنهما شيء غريب، «أوه، الأخبار!» كانت أُمُّ كلثوم، المغنية المصرية الأسطورية، مغنيتُه المفضلة. أحد الأيام، أحدثت الخيارات اللغوية المتضاربة انفجارًا حقيقيًّا. كان لدينا راديو ماركة «زينيث» عتيق الطراز. مذياع ومسجِّل

في آنٍ معًا. رغبتْ داليا بسماع مسرحية بالعِبرية، بينما أراد أبي الاستماعَ إلى الأخبار بالعربية. نشبَ بينهما شجارٌ متعدد اللُّغات، استبدَّ بداليا غضبٌ شديد، وخاصمتْ أبي -على إثره- مدةً طويلة، طويلةً جدًّا. على غرار يُمّا، كانت قد اكتسبت عادة التشاجر مع الناس. لقد أحرجنا وبشدة الخلاف الذي اندلع بين داليا وأبينا. على كلِّ حال، حين زارتنا في أكسفورد وهي في سبعينياتها، قالتْ لزوجتي إنَّ أبانا هو الشخص الوحيد الذي كان يُحبها حبًّا حقيقيًّا. فقط في الأعوام القليلة الأخيرة من حياتها تغيَّر موقف أمِّنا من داليا تغيُّرًا ملحوظًا نحو الأحسن. الأسلوب غير الأناني الذي اهتمت به داليا بسائر حاجاتِ أمِّنا الماديَّة والطبيَّة أَكسَبها في النهاية احترامها وتقديرها.

أثَّرتْ البيئة المنزلية، غير المستقرة، بنحوٍ لا مفرَّ منه على أدائي في المدرسة، غير أن هذا عامل واحد لا غير. العوامل الرئيسة هي نقص الحافز الداخلي واحترام الذات المتدنِّي. عزَّزَ النجاح في الـ«سيكير» احترامي لذاتي إلى حدٍّ ما، لكنَّه لم يضمن لي مكانًا في مدرسة ثانوية. خلال تلك الأيام، في إسرائيل، كان التعليم الحكومي إلزاميًّا ومجانيًّا حتى سن الرابعة عشرة. أمَّا التعليم الثانوي فلم يكن إلزاميًا، ومعظم المدارس الثانوية كانت في أيدي القطاع الخاص. كان ذلك يستلزم أن يقدِّم المرء طلبَ التحاق وإذا قُبِلَ، ستغطِّي الحكومةُ الرسوم. كان من المُستبعَد أن أُقبَلَ بأيِّ مدرسة ثانوية في رَمات گان بسبب علاماتي المتدنِّية.

إحدى تلك المدارس كانت «جمنازيا دڤير»، وهي مدرسة رفيعة المستوى نوعًا ما. راقت لي هذه المدرسة كثيرًا، ولكن لم تكن لديَّ فرصة

الالتحاق بها معتمدًا على نفسي فقط. إنه لمن المُحرَج ذِكر ذلك، إذا جاز التعبير. ولكني لم أتمكن من الحصول على مكانٍ هناك إلا من خلال المحسوبية. تدخُّل أمي وتصميمها ضمنا دخولي. ذهبتْ لرؤية مدير البلدية، أفراهام كرينيتزي، وتوسَّلت إليه طالبة منه المساعدة في حلِّ مشكلة ابنٍ لامع الذكاء كما زعمت، ذي علامات دراسية متدنِّية لا يمكن تبريرها. اتصل مدير البلدية هاتفيًّا بالسيد حاليڤي، مالك جمنازيا دڤير، وطلب منه أن يمنحني مكانًا. أجاب المالك بتعذُّر قبولي؛ طالما أنهم رفضوا مقدِّمي طلبات بعلامات دراسية أعلى من علاماتي. عرض مدير البلدية، عندئذ، (تسويةً): أنْ أُقبَلَ تحت الاختبار طوالَ فصلٍ دراسي كاملٍ، سأُطردُ في نهايته إذا لم يكن أدائي مقنعًا. لقد قُبِلتُ وفق تلك القاعدة المشكوك فيها أخلاقيًّا. كان نطاق المواد التي تُدرَّس في جمناسيا دفير أوسع من المدرسة الحكومية، وكانت الفصول أصغر، ومستوى التعليم أعلى بكثير. مرحلة واحدة من حياتي انتهت وبدأت مرحلةٌ جديدة. عقدت صداقات مع زملاء جدد. بينما كان معظم أصدقائي في منطقتنا السكنية من أصل عراقي، فإنَّ كثيرًا من أصدقائي الجُدد كانوا أشكينازيين. لم تكن الفجوةُ بين الأطفال الشَّرقيين والأشكينازيين في المدرسة الجديدة واضحةً، كما في السابق. كانت أعراف المدرسة ليبرالية وتقدمية، ويُعاملُ سائر الطلبة، من الفتيانِ والفتيات، على قدم المساواة. على الرغم من هذا الجو العام، شعرتُ بعدم الارتياح لكوني غريبًا على الرغم من مساعدة أصدقائي الأشكينازيين في تخفيف هذا الشعور. معظم أصدقائي كانوا فتيانًا؛ وكنتُ أخجل جدًا من الحديث مع الفتيات.

كان هنالك بعض الصالحين من أصدقاء المدرسة. أقرب أصدقائي هو غِل سادان، شخص لامع الذكاء وفصيح، تفوَّقَ في المدرسة وأظهرَ علامات مبكرة من الاستعداد للصحافة من خلال نشر المقالات في المجلات القومية للشّباب. كان يسكن قربنا، وعادةً ما كان أحدُنا يذهب إلى بيت الآخر ونتعاون في إنجاز واجبنا المنزلي، فكان غِل دومًا في الصدارة. ثمة صديقٌ آخر هو زكي الكلالي. على خلاف الأصدقاء العراقيين قاطني الشقق في بنايتنا الضخمة، سكنَ زكي في فيلا ذات حديقة واسعة أصبحتْ مَلعَبنا. يومًا ما، تأثَّرتُ عاطفيًّا حينما حضنني زكي بقوَّة، بينما كنا نمشي صوب البيت بعد المدرسة، قائلًا إنني أفضل أصدقائه. وضعُ الأصدقاء في مراتب ليس نادرًا بين المراهقين، يومئذ والآن، لكنَّ كان تعليق زكي العَرَضِي يعني لي الكثير.

صديقٌ أشكينازي آخر من جمنازيا دڤير أتذكَّره بعاطفةٍ خاصة هو بيني أمباخ، الذي غيَّر لقبه تاليًا إلى أربيل. كنتُ أجلسُ في الزاوية عند الطرف البعيد من الصف، وكان يجلس أمامي. جلسَ بجواره أمنون بارزيلاي الذي أصبح لاحقًا صحفيًا بارزًا في «هاآرتس». ينحدر بيني من أسرة ثرية وكان يسكن في فيلا لا تبعد كثيرًا عن المدرسة. امتلك أبوه مصنع شوكولاته «إيليت» الشهير. كنتُ جامع طوابع، وتعوَّد بيني أن يُعطيني مغلَّفاتٍ ممتلئة بالطوابع التي حصلَ عليها من المصنع. كان ذكيًّا بشكل استثنائي، وكان طالبًا لامعًا، إلا إنه شخصٌ لطيف وسخي أيضًا، وذو سلوك ودِّي وحسٍ جيدٍ بالفكاهة. إذا كانت لديَّ أيُّ أسئلةٍ في أيِّ مادةٍ دراسية، أسأله، وكان يجيبني دائمًا. ساعدني كثيرًا جدًا في

عملي المدرسي، وكان صبورًا معي على الدوام، ولم يكن متعاليًا قطّ. بيني شخصٌ ساحر وكان أفضل الأصدقاء لي. أصبحَ لاحقًا أستاذًا جامعيًّا بدرجة بروفيسور (بمادة التاريخ الحديث المبكر) بجامعة تل أبيب. أنا نادم لأني لم أبقَ على تواصلٍ معه، بخاصة وأنّي في النهاية أصبحتُ مؤرِّخًا أيضًا.

رغم أنني أحببتُ المدرسة الجديدة أكثر من المدرسة القديمة، لم يزل أدائي ضعيفًا. واصلتُ الاستغراق في أحلام اليقظة نهايةَ قاعة الدرس، وإنجازاتي الأكاديمية كانت أدنى بكثير من المعدَّل المطلوب. استغرقت في أحلام اليقظة المتعلقة بالنجاح الدنيوي وأطلقتُ العنان للمآثر البطولية في طفولتي لأني وجدتُ، كغلامٍ خجول، أنه يشقُّ عليَّ مواجهة العالَم الحقيقي. في أحد الأحلام تخيَّلتُ أني آمرُ كتيبة دبابات في الجيش، وأقودُ رتلًا في النقب، وأهيِّج عاصفةً من رمال الصحراء بينما نحن نُعطي التعليمات بالتقدُّم إلى الأمام. كان الاستغراق في أحلام اليقظة غير مؤذٍ بما يكفي، لكنه لم ينفعني في تحسين أدائي الأكاديمي. أظهرَ تقرير نهاية السنة أني تقدَّمتُ قليلًا في الدروس الإنسانية مقارنةً بالعلوم الطبيعية. على مقياس من ١ – ١٠ كان معدلي ٦ فاصلة ١ حيث ٦، إن لم أكن مُخطئًا، هي علامة الاجتياز. أحرزتُ ٧ في التوراة، اللغة العِبرية والجغرافيا؛ ٦ في اللغة الفرنسية، التاريخ، الفيزياء، الأحياء والرياضيات؛ و٤ في اللغة الإنجليزية. كان أدائي في اللغة الإنجليزية هو الأضعف، كما انعكست في علامة الفشل الصريحة. تخلفتُ كثيرًا في مستواي الدراسي بحيث لم أكن قادرًا على متابعة ما يقوله المعلِّم في الصف. توجَّبَ عليَّ بذلُ المزيد

من أجل اللحاق بالآخرين. فشلتُ في تحرير نفسي من خمولي المعتاد، ودفعتُ الثمن في نهاية المطاف. كانتْ اللغة الإنجليزية السبب الرئيسي لسقوطي الأكاديمي.

لم أعانِي صعوبة في تعلم اللغة الفرنسية مثل الإنجليزية، بل وجدتها مادةً ممتعة ومفيدة. شعرت أمي، التي درست كلَّ شيء بالفرنسية في مدرستها الأليانس للبنات في بغداد، بسعادةٍ قصوى وهي تقرأ بصوتٍ عال قصصًا من كتابي المُقرَّر وتترجمها لي بخليطٍ غريب من الإنجليزية، والعربية والعِبرية. أحسستُ بفارق كبير لأن معلِّمتنا كانت معلمة فاتنة. كانت امرأة في منتصف العمر، ومهاجرة جديدة من فرنسا. كانت قصيرة، وقوية، وممتلئة الجسم، وتمتلك طاقةٍ لا تنضب. بالرغم من أن لغتُها العِبرية محدودة، إلا إن هذا لا يهمُّ لأنها تفضِّل أن تُعطي دروسها بالفرنسية. جعلتنا ننشد أغنيات فرنسية ولجأت إلى مجموعة من التقنيات الأخرى لإحياء اللُّغة. أصبحتُ، لأول مرة في حياتي اليافعة، مساهمًا نشيطًا في عملية التعلُّم.

استمرَّ ترويج القيم الصهيونية، الذي بدأ في المرحلة الأولى من الدراسة، وتكثَّف في المدرسة الثانوية. ولكنها كانت عملية دقيقة. كان الهدف الطاغي لدولة إسرائيل هو تشكيل أمة وفطرة سليمة من هُوية وطنية لليهود القادمين من جميع أنحاء العالَم، يتكلَّمون لغات مختلفة وفي بعض الأحيان، بدا أنه لا قواسم مشتركة بينهم. بطبيعة الحال، كان التعليم أداة رئيسية في السعي وراء هذا الهدف. كان مَنهج المدرسة بأسره مُعَدٌّ للفخر بالانتماء إلى الأمة الإسرائيلية والثقة بعدالة قضيتها. التاريخ

هو الدرس الرئيسي إلا إنه ليس الوحيد الذي مُرِّرَ من خلاله هذا البرنامج الأيديولوجي. الطريقة التي كان يُعلَّم بها التاريخ في المدرسة أقرب لمشروع بناء الوطن منها إلى السعي النزيه وراء الحقيقة.

بفضل العودة إلى الماضي والتأمل فيه، استطعت أن أدرك أن التاريخ الذي تعلمته في المدرسة كان متحيزًا وانتقائيًا. في المقام الأول، المجال الجغرافي لهذا التاريخ مقتصرٌ إلى حدٍّ كبير على التجربة اليهودية في أوروبا - عمليًّا لا يوجد شيء عن تاريخ اليهود في البلدان العربية والإسلامية. من خلال المعنى المتضمَّن، هؤلاء اليهود يُعتبرون هامشيين مقارنةً بالامتداد الواسع للتاريخ اليهودي. لم يتم تجاهل الإرث الثقافي الغني لليهود العرب فحسب، بل تم محوه تمامًا. بالتالي، فإنَّ الانطباع الذي غذَّاه النظام التعليمي هو أن الثقافة العربية - اليهودية فقيرة القيمة؛ أيْ ضُحِّيَ بتراثنا الثقافي المميز خدمةً لأيديولوجيا «بوتقة الانصهار» الإسرائيلية. زيادةً على ذلك، الخيط الرابط الذي امتدَّ عبر تاريخ المدرسة هو قصة المعاناة اليهودية - المنسجمة مع «الفهم الكئيب المتعلِّق بالتاريخ اليهودي» الذي تبنَّته الصهيونية بكل سرور.

والغريب أنه لم يكن هناك تركيزٌ على المحرقة، الهولوكوست، المثال الأبرز على معاناة اليهود ومظلوميتهم، لا داخل المدرسة ولا خارجها. على الأقل، كانت تلك هي الحالة حتى محاكمة أدولف أيخمان.

كان أيخمان ضابطًا نازيًّا برتبة متوسِّطة لعب دورًا محوريًّا في تنفيذ ما عُرف بـ«الحل الأخير» للمسألة اليهودية في أوروبا. ألقى عملاء الموساد القبض عليه في الأرجنتين، وأُحضِر للمُحاكَمة في القدس شهر نيسان/

أبريل من عام ١٩٦١. أجَّجت المحاكمة اهتمامًا دوليًّا وضاعفت الوعي العام بأهوال المحرقة النازية. كان هنالك مراسلون صحفيون لتغطية المحاكمة أكثر ممَّن غطوا محاكمات نورمبيرغ لُمجرمي الحرب الألمان في نهاية الحرب العالمية الثانية. في نورمبيرغ، اعتمد المدَّعون بشكل رئيس على وثائق مكتوبة؛ أمَّا في القدس فقد وُضِعَ الناجون على منصة في المنتصف. يومًا بعد يوم تحدَّثَ الناجون، في بعض الحالات لأول مرة، عن الأهوال التي تحمَّلوها. من خلال مشاركة تجاربهم، ساعدوا في خلق انفتاح جديدٍ في المجتمع الإسرائيلي.

رأى رئيس الوزراء، ديڤيد بن - غوريون، المحاكمةَ باعتبارها فرصةً لتوحيد الأمة من خلال تثقيفها بشأن هذا الفصل المؤلم من تاريخها. كما كان يُريد أن يُدرك الجميع أنه «مهما كان العالَم مَدينًا للضحايا، فهو مَدينٌ لإسرائيل الآنَ». قال المدَّعي الرئيسُ، جيديون هوسنر، المحكمةَ في مرافعته الافتتاحية، «حين أقف أمامكم، أنا لا أقف وحدي. هنا، معي في هذه اللحظة، يقف ستة ملايين مُدَّعٍ». جعل هذا الحديثُ القشعريرةَ تسري في أبدان مستمعيه. أدلى أيخمان بشهادته من وراء قفص زجاجي لحمايته من العنف الجسدي. كان خطه الرئيس في الدفاع هو أنه لم يصنع السياسة، بل نفَّذها حصرًا. «كان قلبي رقيقًا وكنت مبتهجًا بعملي»، قال، «لأن القرارات ليست قراراتي». رفض القضاة ادِّعاءه وأدانوه بعقوبة الإعدام شنقًا. أُحرق جثمانه، ونُثر رماده في البحر، خارج المياه الإقليمية الإسرائيلية. كانت تلك هي المرة الوحيدة في تاريخها التي أصدرت فيها إسرائيل عقوبةً رسميةً بالإعدام.

أثَّرتْ بي محاكمةُ أيخمان كثيرًا، باعتباري فتًى في الخامسة عشرة. إذا كان هدف الأشخاص الذين اتَّهموا أيخمان ودعوا إلى محاكمته هو أن يجعلوا ذكرى المحرقة النازية حاضرةً في الوعي البشري وغير مستساغة، فقد أدركوا هذا الهدف معي. كما أن درس المحرقة النازية أُعيد علينا مرارًا وتكرارًا: اليهود لن يُقادوا مرةً أخرى كالخِراف إلى المذبحة. «لن يُقادوا مرةً أخرى! لن يُقادوا مرةً أخرى!» استمرت المحاكمة طوال خمسة شهور. رُويتْ أحداثُها بصوتٍ عالٍ جدًا وعلى نحوٍ بارز، بشكل يومي، على الراديو وفي الصحافة. لا أزال أحمل في بالي صورة الرجل ذي النظارات بالإطارات السميكة، والبدلة الرمادية، جالسًا هناك بصمت وبهدوء داخل القفص الزجاجي، يستمع عبر سماعتيْ الأُذن إلى الترجمة الألمانية لأحداث المحكمة. ما أذهلني مرارًا وتكرارًا هو كم كان يبدو اعتياديًّا. تخيَّلتُ أن يكون مجرم الحرب النازي الخطير ضخمًا أشبهَ بالمسخ على شكل إنسان. ههنا يجلس رجلٌ ضئيل الجسم، في منتصف العمر، أصلع نوعًا ما؛ وغير مؤثر بكل معنى الكلمة.

بعد عقود من الزمن، ساعدني كتاب حنة أرنت المنشور في العام ١٩٦٣ عن محاكمة أيخمان، بحلِّ بعض الألغاز التي أزعجتني في سِنّ مراهقتي، والفصل بوضوح بين الشخصية المُخيِّبة للرجل في قفص الاتهام وضخامة الجرائم التي اتُّهِمَ باقترافها. العنوان الكامل للكتاب هو «أيخمان في القدس: تقرير عن تفاهة الشر». انتقدتْ أرنت الطريقة التي أُديرت فيها المحاكمة، ورأتها «محاكمةً صُورية» بدلًا من كونها محاولة صادقة في مراجعة الدليل وإقامة العدل. اتَّهمت هوسنر باللجوء إلى

البلاغة المتسمة بالغلو لتعزيز برنامج بِن - غوريون السِّياسي وصَرَفت النظر عن عرضه للناجين من الهولوكوست باعتبارهم «ليس لهم صلة بالدعوى». قبل كل شيء، كانت أرنت ناقدةً للطريقة التي لفقت فيها إسرائيل جرائمَ أيخمان بوصفها جرائم ضد الدولة القومية بدلًا من أن تكون ضد الإنسانية. إضافةً إلى كلِّ ما سبق، رفضت الادِّعاء القائل بإن إسرائيل القوية ضرورية لحماية يهود العالَم.

أُستُقبَل كتاب أرنت بعاصفةِ احتجاجٍ من شتى الأوساط اليهودية. أثار العنوان الفرعي موجة من الاحتجاجات - «تفاهة الشر». اُتُّهمت بالبرود وقلَّة التعاطف مع ضحايا المحرقة النازية. محاولتها شرح كيف يصبحُ الأشخاص العاديين ممثلين في الأنظمة الشمولية يُفسَّر، أو بالأحرى يُساء تفسيره، باعتباره دفاعًا عن أفعالهم. صحيح أنها كتبت بأن أيخمان كان «سَويًّا بشكل رهيب ومُروِّع». لكنَّها لم تُبرئه كإنسان اتَّبع الأوامر واعتبرت عقوبة الموت التي نفَّذها عليه القضاة مُبررةً تمامًا. السؤال العميق الذي عرضته بغية التمحيص فيه كان ما إذا الشرُّ فطري أم أنه ببساطة نتيجة النزعة لدى الأشخاص العاديين في السير مع التيار، كي يعملوا وفقًا للأوامر ويطيعوها من دون أن يفكِّروا في عواقب أفعالهم. خلال المحاكمة، بدا لها أيخمان كأنه بيروقراطي ممل وجد لنفسه دورًا في الحزب النازي وكان يفتقر إلى القدرة على تقييم الأبعاد الأخلاقية لأفعاله. مثاله دفع أرنت للاستنتاج بأن المُضيَّ قُدُمًا مع البقية والرغبة في قول «نحن» كافٍ كي نجعل جرائم الحرب مُمكِنة. حتى الجريمة المروِّعة إلى أقصى حدٍّ، التي ارتكبتها الأنظمة الشمولية، ناقشت أرنت فرضية أن يكون لها أصول

دنيوية. هذا هو المعنى الحقيقي لشبه الجملة «تفاهة الشر». سواء أكانت أرنت محقَّة أم مُخطئة في ما يتعلَّق بالـOberstürmbannführer SS[1] - أدولف أيخمان، فإنَّها يقينًا قد أدركتْ حقيقةً مهمَّة تتعلَّق بطبيعة الشرِّ.

في إسرائيل ما بعد الحرب، أُنتُقِدَ الناجون من الهولوكوست بقسوة وبلا إنصاف لأنهم لم يقاوموا، ولأنهم سمحوا، بحسب العبارة التَّوراتية، أن يُقادوا كالخِراف إلى المذبحة. قاومت النزعة القومية اليهودية هذا الاستسلام ومجَّدت المقاومة المسلَّحة. بطولة المقاتلين في «انتفاضة حيِّ اليهود في وارسو» عام ١٩٤٣، المثال البارز للمقاومة اليهودية المسلَّحة ضد النازيين، انتحلها وكلاء الدعاية الإسرائيليون كي ينعتوا يهود الشتات الآخرين باعتبارهم سلبيين وضعفاء بالمقارنة مع «اليهود الجُدد» في إسرائيل. التاريخ اليهودي، كما علَّمونا في مدرستي، أغدق الثَّناء على الأشخاص الذين قاوموا المضطهِدين الأجانب وقاتلوا من أجل الاستقلال اليهودي. أحدهم هو شمعون بار كوخبا، الذي قاد ثورة ولاية يهودا ضد الإمبراطور الروماني في القرن الثاني الميلادي. صَمَدَ بار كوخبا باعتباره كبطل قومي على الرغم من سحق الثورة التي قادها، وتحول يهودا إلى أرض خراب، وقتل سكانها أو نفيهم أو بيعهم كعبيد. الدرس الذي توقعنا أن نستنتجه من تاريخ هذه الثورة هو أنه شيءٌ مُشرِّف أن يمضي المرء للقتال أكثر من الاستسلام وعدم القتال.

---

(١) رتبة عسكرية في الحزب النازي الألماني توازي رتبة فريق. أما الـ SS بالألمانية «Schutzstaffel» ، فتعني حرفيًّا «الوحدات الوقائية»، وهي منظمة شبه عسكرية كبرى، عملت تحت قيادة أدولف هتلر والحزب النازي في ألمانيا النازية، ثم عملت بعد ذلك في جميع أنحاء أوروبا التي احتلتها ألمانيا النازية؛ خلال الحرب العالمية الثانية. [المُترجم].

ثمة بطلٌ آخر، من المرحلة الصهيونية للتاريخ اليهودي، هو جوزيف ترومبلدور. كان ترومبلدور يهوديًا معتدًّا بنفسه تطوَّع في الجيش الروسي، وأصبح ضابطًا وفقد ذراعه بسبب شظية في الحرب الروسية - اليابانية عام ١٩٠٥. انتقل إلى فلسطين في العام ١٩١٢ حيث دافع عن مستوطنة زراعية جماعية وتحيَّز للدفاع المسلَّح عن النفس. خلال الحرب العالمية الأولى، ساعد في تنظيم المتطوعين للانضمام إلى الفيلق اليهودي التابع للجيش البريطاني، وكذلك في جلب المهاجرين اليهود إلى فلسطين. توفي ترومبلدور مدافعًا عن مستوطنة تِل هاي في شمال الجليل ضد المهاجمين العرب عام ١٩٢٠، وعقب ذلك أصبح أيقونةً صهيونية ورمزًا للدفاع عن النفس. في التمثيل الصهيوني المعتمد للقصة، كانت كلماته الأخيرة: «إنه شيءٌ حسن أن نموت من أجل بلادنا». ثمة مُلصق لترومبلدور يُزيِّن جدار غرفة صفنا وعُلِّمنا أغنيةَ مديحٍ لبطولته. إنها أغنية مرهَفة وجميلة، كنا ننشدها مرارًا وتكرارًا بحيث أني أحفظ كلماتها جيدًا. ليس لدي أي موهبة بالغناء، ومع ذلك، في حفل عيد ميلاد صديقي العراقي يوسف صوفي، أصر والده على أن أغني هذه الأغنية أمام الجميع. بعد سنوات طويلة عرفتُ أن القصة عن كلمات ترومبلدور الأخيرة كانت مصطنعة. إنها تُبيِّن أن كلمته الأخيرة كانت «yopofoyomat»، وهي كلمة شتم روسية، يُمكن ترجمتها بشكل تقريبي إلى «خسيس».

في ذلك الوقت تقريبًا بدأ اهتمامي بالسياسة. لا أعرف كيف أو لماذا اكتسبتُ هذا الاهتمام. إنه أمر غير واضح تمامًا لي اليوم. لا أتذكر أني تكلَّمتُ عن السياسة مع أصحابي. ولا يُمكن أن يكون البيتُ حافزه.

والداي لم يطالعا الجرائد ولم يواكبا السياسة المحلية أو القضايا الأجنبية. بما أنّهما نشآ في ظل ثقافة سياسية استبدادية، لم يعتادا على الحرية السياسية ولم يفهما معنى الديمقراطية إلا لمامًا. بالتّأكيد، كان المَشهد السياسي الإسرائيلي مُحيِّرًا. أسفر نظام التمثيل النسبي البحت عن تكاثر الأحزاب، بعضها ذات حفنة فقط من الممثلين في الكنيست ذي الـ ١٢٠ عضوًا. بناءً على ذلك، فإنَّ إسرائيل ذات نظام أحزاب متطور - وربما يتسنى للمرء أن يقول إنه نظام مُفرط التطور. ما من حزبٍ واحد فاز بأغلبيةٍ مُطلقة، وسائر الحكومات هي حكومات تحالف وائتلاف بمقتضى الضرورة. «ماپاي»، الذي يمثل الصهيونية العمّالية، هو الحزب الحاكم، و«هيروت» الحزب القومي اليميني، مثَّل المعارَضة الرئيسة. قادَ ضئيل الجسم والشرس، ديڤيد بِن - غوريون، حزب ماپاي، في حين قاد مناحيم بيغن حزب هيروت، وهو يهودي بولندي، من أتباع زئيڤ جابوتنسكي، والرئيس السابق لإرغون(١) - المنظمة العسكرية الوطنية قبل الاستقلال. هيمنَ على المَشهد البرلماني، إلى حدٍّ كبير، التنافسُ الشخصيُّ والمرير بين هذين القائدين بحيث أنه غالبًا ما كان يشبه عرض الدُّميتين «بنش وجودي».

كان أبواي يدعمان «الصهاينة العموميون»، وهو من أحزاب الوسط مكوّن من التجار، الصناعيين، وأصحاب الأراضي والموظفين الإداريين. انضمت أمي إلى «الصهاينة العموميون» وعملت لهم كمتطوِّعة في تنظيم

---

(١) إرغون Irgun: منظمة شبه عسكرية صهيونية، نفَّذت عملياتها في فلسطين الخاضعة للانتداب البريطاني بين عاميْ ١٩٣١ - ١٩٤٨. هي قسم من منظمة شبه عسكرية صهيونية، أكبر وأقدم، تُسمى (هاغاناه - وتعني بالعِبرية: الدفاع). حين انفصلت عنها سُميت: هاغاناه الثانية. [المُترجم].

الفعاليات. كان التزامها بالحزب، على أيِّ حال، يفتقر إلى الحماسة. وكان هذا له علاقةٌ بالارتباطات الشخصية أكثر من الأيديولوجية السياسية. أعارت دعمها إلى الدكتور إلياهو طوعيًا، وهو يهودي عراقي غني كان يطمح أن يُصبح عضوًا في الكنيست. وهي حتى لا تستطيع أن تتذكَّر ما إذا كانت تحاول أن تؤثر في أعضاء هيئة تشريعية لاعتمادها كمُرَّشحة برلمانية من قبل «الصهاينة العموميون» أو من قبل لائحة سيفاردية منفصلة. كلُّ ما تتذكره هو أنه عُقِدَت اجتماعات عديدة في التمهيد للحملة الانتخابية بُغية دعم ترشُّحه. أمي وابنة خالها إسبرانس، ابنة الخال يعقوب، نظَّمتا تقديم المرطَّبات. لم يحالف الدكتور إلياهو الحظ، إذ خسر معركة الترشيح. تتذكر أمي أنه كان يقول، «لا يوجد سلَّم كي يصعده المرء في السياسة. الأشكينازيون يدفع واحدهم الآخر إلى أعلى السلَّم. أما نحن، السفارديم، فيدفع واحدنا الآخر إلى الأسفل».

لم يكن ميلي الأولي إلى اليسار، بل إلى هيروت. كنتُ شابًا أناضل كي أفهم المَشهد السياسي المعقد الذي من حولي. بقدر ما أستطيع أن أتذكَّر، الحافز الأول لانجرافي إلى اليمين جاء من جارنا، عزرا منصور، وهو يهودي عراقي من البصرة دفعته اتهامات بالصهيونية إلى أن يهاجر إلى فلسطين قبل تأسيس دولة إسرائيل. أقام هو وأفراد أسرته في الطرف الآخر من منبسط السلَّم في الطابق الرابع من بنايتنا الكبيرة؛ لا يبعد بابانا الأماميان عن بعضهما سوى خمسة أمتار. أتت زوجته مارغوت من حلب، ثاني أكبر مدن سوريا بعد دمشق، وكانت تُعطيني دروسًا خصوصية باللغة الفرنسية عند طاولة مطبخها. لم تكن

معلِّمةً مُتمرِّسة، ولكنَّها ساعدتني كثيرًا بواجبي المنزلي وبفضلها كان أدائي باللغة الفرنسية أفضل بكثير من اللُّغة الإنجليزية. مارغوت وأُمِّي أظهرتا مفارقةً غير ملحوظة في المجتمع الإسرائيلي الصاعد، أي، النساء اليهوديات - العربيات عادةً أفضل تعليمًا ومُتفرَنجات أكثر من قريناتهن الأشكينازيات الأوروبيات الشرقيات.

على مستوى الطهي، كان الاختلاف بين الشرق والغرب لافتًا. عُدَّ الطعام السوري الأفضل في عموم الشرق الأوسط، ومارغوت كانت طاهيةً ممتازة. غالبًا ما كانت تنبعث نكهات مُدهِشة من مطبخها حينَ تطهو، وكنتُ أمتنُّ جدًّا لها حين تدعوني لتذوّق أطباقها. كانت مارغوت تتكلَّم العربية بلهجة سورية، وهي مختلفة تمام الاختلاف عن اللَّهجة اليهودية - العراقية التي تعوَّدتُ عليها. كانت امرأةً لطيفة - إلى درجة أنها كانت تساعد أمي في ترتيب بيتنا الذي تعمُّه الفوضى. بعد وفاة يُمّا، لمْ يتواصل الطقس كثيف العمل، المستغرِق للوقت، المتعلق بطهي «تبِّيت» كلَّ ليلة جمعة. اسم طبق السبت يأتي من الكلمة العربية «تبييت»، التي تعني البقاء طوال الليل. كان باستطاعتنا أن نفعل ذلك من دون طهي الدجاج البطيء مع الأرز كثير التوابل، لكننا جميعًا أردنا البيض البُني من أجل فطور السبت التقليدي. أتتْ مارغوت لإنقاذنا بالسماح لنا أن نضع بيضًا مُعلَّمًا بقلم الرصاص جنبًا إلى جنبٍ مع بيضها في قِدر الـ«تبِّيت».

على النقيض من زوجته، لم يكن عزرا يتمتع بدماثة الأخلاق. كان رجلًا متشنِّجًا وخشنًا ذا مسحة استبدادية في شخصيته. لعمارتنا السَّكنية

نحو ثلاثين شقة، وأربعة سلالم مختلفة وسطح كبير، مستوٍ. سكنَّا نحن وآل منصور في الطابق العلوي في المبنى ذي الطوابق الأربعة. كان يحلو لنا، أنا وأصدقائي أن نلعب على السَّطح، وأنا بالأخص كنتُ أستمتع بأن أقوم بأعمال بهلوانية بدراجتي الهوائية. كما كنا نلعب مباريات الكرة والاستغماية. تعوَّد عزرا أن يصرخ علينا ويُطاردنا، بخاصة عندما كنا نعكِّر قيلولته بعد الظهر. لم يكمل تعليمه، إذ ترك المدرسة وهو في سن الرابعة عشرة. كان يعمل كمؤطِّر صور. استأجر مخزنًا في «شارع بياليك»، على بُعد مئاتٍ قليلة من الأمتار عن عمارتنا السَّكنية. كان وطنيًّا متحمِّسًا ومؤيِّدًا مخلصًا لهيروت - وكان مناحيم بيغن إلهًا بالنسبة إليه. ثمَّة نشرةٌ تُعلَّق بالفرع المحلي لحزب هيروت. لم أستغرب رؤيتي اسم عزرا جنبًا إلى جنب مع نصف دزينة من ناشطي الحزب الآخرين.

احتفظَ عزرا في البيت بمجموعةٍ كبيرة من الكُتب، كتبها أعضاء ما كان يُسمى أحيانًا «المعسكر الوطني» في إسرائيل. لا أذكر أنه كان يمتلك بحوزته كتبًا أخرى. دوَّن الكتب، غالبًا، صحفيون يمينيون، قادة هيروت، كثيرٌ منهم أعضاءٌ سابقون في إرغون، أو شتيرن[1]، التنظيم الأكثر تطرفًا من الحركة الصهيونية التنقيحية، والتي كان اسمها الحقيقي هو «ليهي»، وهي اختصار الأحرف العِبرية الأولى لعبارة (المقاتلون من

(١) مجموعة شتيرن Stern group: الاسم البريطاني لعصابة عسكرية صهيونية شنَّت حملات على الفلسطينيين في أربعينيات القرن العشرين، من أجل خلق دولة يهودية. أسسها أبراهام شتيرن (١٩٠٧ - ١٩٤٢) بعد انشقاقه عن «إرغون». اغتالت الوزير البريطاني لـ«الشرق الأوسط» اللورد موين، والوسيط الأممي لفلسطين، الكونت بيرنادوت. [المُترجم].

أجل حرية إسرائيل). كانت عصابة شتيرن تصف نفسها بفخر في أدبياتها بكونها منظمة إرهابية. من بين ضحايا المشهورين اللورد موين، وزير الدولة البريطاني في الشرق الأوسط، الذي أُغتيل في القاهرة عام ١٩٤٤، والكونت برنادوت، وسيط الأمم المتحدة لفلسطين، الذي أُغتيل في القدس عام ١٩٤٨. اعتدت استعارة هذه الكتب من عزرا وكنتُ أجدها ساحرةً وممتعةً بكلِّ معنى الكلمة. الخيط الرابط لهذه الأدبيات هو النضال القومي من أجل الاستقلال. بعض الكُتب كانت عن النضال ضد الاستعمار البريطاني، وكُتب أخرى عن النزاع مع العرب المحليين. من خلال قراءة هذه الأدبيات، تشرَّبتُ شيئًا فشيئًا وجهة نظر صهيونية تنقيحية عن النزاع اليهودي - العربي وظهور دولة إسرائيل. ومن دون أن أعرف، كنتُ أتحرَّك ببطءٍ نحو اليمين السياسي.

لعب الاستياء من ماپاي، الحزب الحاكم القوي بكلِّ معنى الكلمة، وقادته الأشكينازيين، دورًا كبيرًا في يقظتي السياسية. لقد تفاخرَ ماپاي بنفسه كونه حزبًا اشتراكيًّا، تقدميًا ومناديًا بالمساواة، فضلًا عن كونه حزب العمال، لكنَّها ليست الطريقة التي عرفته فيها بالمصادفة. موقفه تجاه اليهود في البلدان العربية أذهلني كونه موقفًا زائفًا بشكل جليٍّ. لقد ذكرتُ أصلًا زلمان آران وسياسته التعليمية التمييزية. الأهم من ذلك، كان ديڤيد بِن - غوريون، قائد ماپاي وأول رئيس وزراء إسرائيلي، الذي يُعَّد على نطاق واسع «أب الأمة»، وضع الاتجاه العام في الأعوام الخمسة عشر الأولى من قيام الدولة. في حديثٍ للكنيست شهر تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٠، أعلن بِن - غوريون أنَّ اليهود في البلدان الإسلامية

«عاشوا في مجتمع متخلِّف، فاسد، غير متعلِّم ويفتقد إلى الاستقلال واحترام النفس». زعم أن المهاجرين الأكبر سنًا من هذه البلدان لن يتغيروا بشكل جوهري، ولكن يجب على المهاجرين الأصغر سنًا أن يتزوّدوا بـ«الصفات الأخلاقية والفكرية الرفيعة المستوى» التي أسسوا عليها دولة إسرائيل. ثُمّ حذَّر قائلًا «إذا، لا سَمِح الله، لم ننجح، ثمة خطر أنَّ الجيل القادم قد يحوِّل إسرائيل إلى دولة مَشرقية»[٢].

كنتُ في سن الخامسة عشرة يومئذٍ، ومن المُستبعَد أني كنتُ واعيًا بهذا الحديث. أعرض هذه الأفكار الآن لأنها تجسد جوهر العصر، الروح والمزاج السائد لتلك الفترة. إنها تصل إلى لب الفهم الصهيوني لإسرائيل كبؤرة استيطانية أوروبية في الشرق الأوسط. هكذا تخيَّلَ هِرتزل الدولة اليهودية في كتابه الشهير. كما أنه الأساس الذي استندت عليه بريطانيا في منحها وعد بلفور. إنه روح الدولة اليهودية. هذا هو ما نقف ضده، نحن الشُّبَّان المهاجرون من البلدان الإسلامية. لم يُحوِّر مرور الوقت إلَّا قليلًا هذا الفهم المتعلِّق بإسرائيل؛ كونه جوهريًّا في خصام مع بيئته. وصف إيهود باراك، قائد حزب العمل ورئيس الوزراء بين عاميْ ١٩٩٩ - ٢٠٠١، إسرائيل كـ«فيلا في الأدغال»، وكان هذا الوصف متغطرسًا إلى درجة لا تُطاق.

في الخامس عشر من آب/ أغسطس ١٩٦١، أُقيمت انتخابات عامة للكنيست الخامس. صوَّتت إسرائيل كلُّها تقريبًا - بنسبة ٨٦,١٪. تنافس أربعة عشر حزبًا في الانتخابات، أحد عشر منها ضمنت تمثيلها في الكنيست. لطالما اتصفت الانتخابات الإسرائيلية بالصخب وكسر القيود.

حملة عام ١٩٦١ كانت طويلة ومزعجة، وشهدت منافسة شرسة. أُجرِيتْ ثلاث عمليات انتخابٍ منذ وصولنا إلى إسرائيل، لكنَّ هذه الحملة هي الأولى التي أثارت اهتمامي. لم يكن اهتمامي وانخراطي بالسياسة أمرًا علنيًا. نادرًا ما ناقشتُ السياسة مع والديَّ، أو مع شقيقتيَّ، أو حتى مع أصدقائي. لم تكن لديَّ أفضليات حزبية واضحة. كنتُ أحضر الخطابات التي يُلقيها متحدِّثون من أحزاب مختلفة، أُصغي، وأمعن التفكير فيما سمعتُه، وأحتفظ بأفكاري غير المكتملة لنفسي. لم يثر حزب ماپاي اهتمامي قط. لقد شعرت أنه غريب وبعيد كلّ البعد عن نبض الشارع وهمومه، ورأيت أنه غير مبالٍ وغير متعاطفٍ أبدًا. قبل كلّ شيءٍ، كان معتدًا بنفسه لدرجة الغرور. اشتُهِرَ بتعصبه الأعمى تجاه اليهود الشرقيين وصلته الوثيقة بالوضع الراهن غير المُقنِع. بدا «الصهاينة العموميون» مرهفي الإحساس، ومدنيين وعقلانيين؛ لكنَّهم افتقروا إلى الشغف والآراء المُثيرة. كانوا يخدمون، في المقام الأول، الرجال والنساء الطبقة الوسطى في منتصف العمر، وفي منتصف الطريق؛ وبالنسبة للشخص الشاب في مقتبل العمر، فإنهم كانوا لا يقدِّمون له سوى القليل. كما ذهبتُ إلى اجتماعين لحزبٍ جديد حاول أن يكسب تأييدًا لليهود السيفارديين، لكنِّي وجدتُ مستوى الخطاب السياسي فيه متدنيًّا بمستوًى مُحرِج. كان المتحدثون عاديين، والجمهور في الغالب من اليهود العراقيين المُسنِّين، ذوي المظهر السَّئِم. كان الحزب معرَّفًا بالحرف «شِن» لأغراض إنتخابية. مغنٍ، يُصاحبه عازف عود، ظلاّ يرتلان شارة برنامج الحزب في مزيجٍ من العربية والعِبرية: هذا الشِن شيلانو، وهذا الشِن شيلانو – «هذا هو حرفنا

شِن، وهذا هو حرفنا شِن». من الواضح أن المنظمين حسبوا أنه حتى لو أن الحاضرين لم يحصلوا على شيء آخر من الاجتماع، فهُم على الأقل سيتذكرون الحرف الذي سيضعونه في صندوق الاقتراع. لم نندهش حينَ فشل هذا الحزب في الحصول على مقعد واحد في الكنيست.

السياسي الوحيد الذي أعجبني خلال الحملة الانتخابية هو مناحيم بيغن، قائد هيروت، ثاني أكبر حزب، والرئيس الرسمي للمعارَضة في الكنيست. كان بيغن سياسيًّا يمينيًّا، دافع عن الرأسمالية الحُرَّة في الداخل، والسَّياسة الخارجية المتشدِّدة في التعامل مع العرب. لم تغرني سياسته الداخلية ولا سياسته الخارجية. ما أثار اهتمامي حقًّا هو الاحترام الذي لم أجده ظاهريًّا تجاه شريحة واسعة من المجتمع الإسرائيلي التي تجاهلتها مؤسسة حزب العمل. فسياسيو حزب العمل، بدءًا من بن غوريون وما بعده، كانوا يعاملون الجماهير الشرقية باحتقار، حيث كانوا ينظرون إليهم على أنهم فظون وبدائيون، ويعتبرونهم «ليسوا أفضل حالا من العرب». أدرك بيغن أنَّ الشرقيين أناس حساسون ومغرورون وقد استثمر مشاعرهم الجريحة إلى أقصى حدٍّ. لم يبذل جهدًا كي يستميلَ اهتماماتهم المادية، كما يفعل السياسيون عادةً. بدلًا من ذلك، أثار جانب انتمائه إليهم من منظورٍ عاطفي باعتبارهم أبناء بلد واحد متساوين، وأُباةً، ومحبين لوطنهم. أظهر نجاحه إمكانية إقناع الناس بالتضحية بمصالحهم الذاتية لبلوغ رضًا رمزيٍّ.

سِرُّ جاذبية بيغن الشعبية تكمن في مهاراتِه الخطابية أكثر من جوهر سياساته. كان خطيبًا ساحرًا يعرف كيف يُثير الجماهير. عندما كنت

مراهقًا، شعرت بشكل مباشر بالتأثير العاطفي والنفسي الهائل لخطاباته. هذا حين كان يُخاطب جمهور الهواء الطلق في الساحة المركزية في رَمات گان، إبَّان انتخابات العام ١٩٦١. كانت الساحة تمور بآلاف البشر. وقف بيغن على شرفةٍ أمام مجموعةٍ من الميكروفونات وراح يُلقي خطابًا قويًا وناريًا، ومفعمًا بالعاطفة. ببراعته في الخطابة، خلق علاقة مباشرة مع الجمهور الذي قاطع خطابه بتصفيقٍ مدوٍ يصمُّ الآذان. ابتهجت الحشود، وتحمسَّت، وطارت فرحًا... وبلغت ذروتها بإنشاد «هَتِكْڤاه»، النشيد الوطني الإسرائيلي.

رغم انبهاري بالمتحدث، شعرت بعدم الانسجام مع هذا الحشد. عندما نظرت من حولي، رأيت كثيرًا من اليهود الشرقيين الشبان، والسُّمر. بعضهم كانوا يرتدون سلاسل ثقيلة من الذهب تطوِّق أعناقهم، وكانوا يبتهجون ويصفقون للقائد. هؤلاء الشبان الصغار هم الذين أطلق عليهم الخصوم: «چاخچاخيم»، وهو مصطلح تحقيري للشرقيين، وبخاصة اليهود الشمال إفريقيين، والذي يعني حثالة الطبقة الدنيا أو الرعاع. أنا خجلٌ من الاعتراف بأني أبعدتُ نفسي عن الـ«چاخچاخيم». كنتُ خجولًا، وحساسًا ومنطويًا على نفسي، لكنني لم أنضم إلى بقية الحشد وهم يهتفون «بيغن لا- شيلتون! بيغن لا- شيلتون!» - «بيغن إلى السلطة!» بدا كما لو أننا حسبنا أن التكرار الإيقاعيَّ للشعار سوف يساعد على جعله حقيقةً.

ثمة شعارٌ آخر تردَّد صداه مرات عديدة عبر الساحة، وهو «بيغن لا- شيلتون، بِن - غوريون لا- زيراترون!» - «بيغن إلى السلطة، بِن -

غوريون إلى السيرك!» (وفقًا لنصيحة طبيبه الخاص، تعوَّد بِن - غوريون أن يقف بالمقلوب ورأسه للأسفل وكانت له صورٌ كثيرةٌ في الصحافة وهو يفعل هذا). في استعادة الأحداث الماضية، موقفي المتناقض تجاه مؤيدي بيغن الشمال إفريقيين الشبان، يظهر بوصفه حالةً كلاسيكية من التنافر المعرفي. احتقرتُهم، ومع ذلك أنا يهودي - عربي مثلهم. بيغن أعطانا كلَّنا صوتًا، ووحَّدنا جميعًا ضد مؤسسة ماپاي - الأشكينازية، بصرف النظر عن بلدنا الأصلي في العالَم الإسلامي.

أصبح مناحيم بيغن رئيسًا للوزراء بعد أن فاز الليكود -الذي تكوَّن باندماج هيروت والصَّهاينة العموميون- في انتخابات العام ١٩٧٧، ووضع نهايةً لثلاثة عقود من الهيمنة السياسية المتواصلة لحزب العمل. في رأيي الراشد، كان رئيس وزراء كارثي ألحق ضررًا جسيمًا بالبلد الذي أحبَّه. إنه يستحق بعض الثناء بسبب معاهدة السلام مع مصر، التي جعلته ينال جائزة نوبل للسلام، لكنَّه مسؤول أيضًا عن اجتياح لبنان سيئ الطالع، والمنحوس في العام ١٩٨٢، وعن التوسُّع الهائل للمستوطنات اليهودية على الأراضي الفلسطينية المحتلة الذي قوَّض احتمال حلِّ الدولتين للنزاع الفلسطيني - الإسرائيلي. إذًا، لماذا كنتُ مُنجذبًا إلى السياسي اليميني في شبابي؟ الجواب الصادق الوحيد هو أني كنتُ، في ذلك الوقت، غاضبًا ومنسلخًا، بلا حُكمٍ نقديٍّ؛ ممَّا جعلني فريسةً سهلة للدَّهماء والغوغائيين. كان بيغن شعبيًّا ذكيًا، لقد استغلَّ ببراعة استيائي من المؤسسة الأشكينازية. في التجمع الذي حضرتُه هاجم بلا رحمة الحكومة التي يقودها ماپاي، سياساتها المحلية، وتحيُّزها،

ورضاها عن نفسها. لم يصدر عنه في هذه المناسبة أي خطاب تحريضي ضد العرب. ولو صدر منه ذلك، لا أعتقد أن كلامه كان ليؤثر فيّ.

تساعدني تجربتي كي أفهمَ نمطًا ومفارقةً في السياسة الإسرائيلية، أي تلك المتعلِّقة باليهود الشرقيين الذين صوَّتوا لمناحيم بيغن ومن جاء بعده. قيادة الليكود هي سياسةٌ أشكينازية بالدرجة الأولى وسياساته الليبرالية الجديدة لم تخدم مصالح القطاعات المحرومة من المجتمع. مع ذلك فالطَّوائف الشرقية، وبالأخص المغاربة، استمروا يصوِّتون بأعدادٍ كبيرة لليكود. من دون دعمهم ما كان بمستطاع الليكود أن يبقى في السُّلطة. إذًا، لماذا صوَّتوا لحزبٍ سياساتُه ضدُّ مصالحهم؟ التفسير المألوف هو أنَّ اليهود الشرقيين جلبوا معهم إلى إسرائيل كراهيةً عميقة وعدم ثقة بالعرب، ولهذا كان من الطَّبيعي أن ينجذبوا إلى أحزاب اليمين القومية المتشددة التي تزدري العرب. على أية حال، هذا ليس مُقنِعًا تمامًا. لا تدعمه تجربتي الخاصة ولا تجربة أقاربي. يبدو لي أن كراهيةَ العرب شيءٌ زرعه السياسيون عديمو المبادئ بشكلٍ متعمِّدٍ في إسرائيل؛ كي يحصلوا على السلطة ويُطيلوا تشبُّثَهم بها. كان مناحيم بيغن واحدًا من أوائل السياسيين الإسرائيليين الذين عمدوا إلى هذا الأسلوب البغيض، لكنَّه لم يكن السياسي الوحيد. كما لم يكن التلاعب بالمشاعر المناهضة للعرب حكرًا على اليمين الإسرائيلي.

لم يكن ليقظتي السياسية تأثيرٌ جليٌّ، سلبًا أو إيجابًا، على أدائي في المدرسة. خلال عامي الثاني في جمنازيا دڤير، بقيت متأخرًا عن باقي الفصل. لم يكن لديّ الدافع الكافي لمواصلة الدراسة، ولم أبذل سوى

أقل ما يمكن من المجهود كي أدبِّر أمري. المقارنة بين علاماتي في الفصلين الدراسيين الأول والثاني لا تُظهِر تقدُّمًا في أي موضوع، لا بل كشفتْ تراجعًا في التاريخ، والجغرافيا، الفيزياء وعلم الأحياء. درجتي تقريبًا في سائر المواضيع الأخرى هي ٦/ ١٠، أي بالكاد ناجح. درجاتي في الرياضيات واللغة الإنجليزية كانت ٤/ ١٠ - فشلٌ واضح. هاتان الدرجتان الأخيرتان كانتا بمنزلة إنذار جليٍّ بأنه، من دون تحسُّن نوعيٍّ، لن يُسمَح لي بالانتقال إلى المرحلة التالية - ينبغي لي أن أجتاز امتحانًا خاصًا خلال العطلة الصيفية كي أكون قادرًا على الاستمرار. كانت هنالك فرصةٌ طيبة لاجتياز الرياضيات، وأخرى ضئيلةٌ جدًّا لاجتياز امتحان اللغة الإنجليزية.

في هذه البيئة المُثبِّطة نبتتْ في ذهن أمي الفكرة التي مفادها أن تُرسلني للدراسة في إنجلترا. بينما كانت غير مكترثة بتعليم شقيقتيَّ، تعهَّدتْ بأنْ توفِّرَ لي كلَّ فرص النجاح. لم تكن مستعدةً، كما أخبرتني لاحقًا، للجلوس مكتوفةَ اليدين وهي تشاهد حالي وقد انتهى بي الأمر ساعيًا، ككثير من العراقيين في سنِّي. في ضوء ظروفنا المالية المتوترة، بدتْ فكرة إرسالي للدراسة في إنجلترا بعيدة المَنال. إلا إنها ليست جديدةً تمامًا. ثمة حجَّة أُستخدمت للتغلُّب على معارضة أمي الزواج من أبي هو أنها ستكون قادرةً على إرسال أولادها للمدرسة في إنجلترا. الآن أبي عاطل عن العمل وبما أنه لا يعارض الفكرة، أحسَّ أنهما ربما لا يستطيعان تحمُّل نفقات الدراسة. لكن لا يُمكن ردع أمي. مرَّةً أخرى، كما حصل كثيرًا منذ وصولنا إسرائيل، لجأتْ إلى أمها من أجل المساعدة المالية.

كانت نانا تمتلك فيلا ضخمة في حيِّ الكرَّادة الغني في بغداد ولأنها من الرعايا البريطانيين، لم تُصادِر الحكومة ملكيتَها بعد مغادرتِها العراق في العام ١٩٥٠. حصل ابنها الأكبر إسحاق على جنسيةً بريطانية عند انضمامه إلى الجيش البريطاني في الحرب العالمية الثانية، واستقر في إنجلترا نهاية الحرب. بعد بضعة أعوام من مغادرتنا إلى إسرائيل، تمكَّن إسحاق، وبمساعدة اثنين من المحامين، أحدهما في لندن والآخر في بغداد، من بيع المنزل بمبلغ عشرة آلاف دينار. تعيَّن على نانا أن تقوم برحلةٍ خاصة إلى لندن كي توقِّع الوثائق، وأن تسافر بجواز سفرها البريطاني. أرسل لها إسحاق تذكرة ذهاب وعودة إلى لندن والتي، كما أبلغ أمي في رسالة غير مؤرخة، كلفت ١٢٤ جنيهًا إسترلينيًا. لم نكن نعرف ما إذا فُتِح حسابٌ بنكي جديد كي يُودَع فيه المال. ولكن بما أنَّ نانا لا تعرف الإنجليزية وكانت عائدة إلى إسرائيل على أية حال، من المُرَّجح أنَّ المبلغ أُودِع باسم إسحاق. بقدر تعلُّق الأمر بنانا، لا تزال تملك هذا المال وكانت راغبةً في أن تستخدمه كي تسدِّد تكاليف دراستي. رشحَ تاليًا أنَّ إسحاق قد صرف المال - شقيقه صالح، المقيم في نيويورك، تشاجر معه حينَ رفض إسحاق أن يُعطيه نصيبه من بيع منزل الأسرة. لم تنخرط أمِّي في هذا الجدال. وقد كتبت، على أية حال، فعلًا إلى إسحاق قائلةً له إنها ترغب بأن ترسلني للدراسة في لندن، وإن نانا راغبة بأن تدفع التكاليف. آنئذ كان إسحاق يقيم في نيوكاسل - أبون - تين[1]. بعد زواجه من

(١) نيوكاسل - أبون - تين Newcastle – Upon – Tyne: مدينة - ميناء في شمال شرق إنكلترا على نهر تين، وهي مركز لتصدير الفحم. [المُترجم].

دوريس فريدمان، امرأة يهودية إنجليزية، قرر ترك عمله الفاشل في لندن والانتقال إلى مسقط رأسها في الشمال.

في أول الأمر وافق إسحاق على الخطة. في ٢٨ حزيران/ يونيو ١٩٦١، كتب إلى أمي قائلًا إنه تلقَّى رسالةً من الخال يعقوب يحثُّه على إعطائي فرصة مواصلة دراستي في إنجلترا. وافق إسحاق وأخبر أمي بأن تباشر بالترتيبات كي تُرسلَني إلى لندن. قال إنه سوف يُقابلني في لندن كي يصطحبَني إلى نيوكاسل. وأضاف بعدها قائلًا، «في حالة أن يكون بوسعكِ أن ترسلي آبي على سفينة «أورنج كارغو» إلى نيوكاسل - أبون - تين، سيكون ذلك أفضل بكثير، بما أنَّها تُبحر من إسرائيل أيضًا». بعد مرور شهر، على أية حال، وبضغطٍ من دوريس، غيَّر إسحاق رأيه.

أسرت فكرة الدراسة في إنجلترا خيالي على الفور وأصبحت شغفًا يراودني. بدت كأنما هي الحلُّ المثالي لمشكلاتي كلِّها، كأنما شخصٌ يتدخَّل في الوقت المناسب لحلِّ مشكلة ما. لا أملك أيَّ ميزات في إسرائيل، وقد أدركتُ ذلك. الوضع مُملٌّ في المدرسة، وحياتي في البيت باهتةٌ وليس لديَّ أي إحساس بالارتباط لهذا البلد. يُهددني الخوف من الفشل في الامتحانات، وأن أُطرَد من المدرسة وأن يتعيَّن عليَّ الدخول إلى سوق العمل من دون أيِّ مؤهلات. إزاء هذه الخلفية، إمكانية الذهاب إلى خارج البلاد وبدء حياة جديدة لاحا مغرييْن بشدَّة. لذا وبمجرد بروز هذه الإمكانية، بدأتُ أعمل بجد فعلًا كي أحسِّنَ لغتي الإنجليزية. لكنَّ الطريقة التي شرعتُ فيها لم تكن ذكيةً. في كلِّ مرة أصادف فيها كلمةً إنجليزية لا أعرفها، أدوِّنها في دفتر مَدرسيٍّ صغير مع الترجمة العِبرية

بجانبها. وسَّع ذلك معجمي اللغوي، لكنَّه لم يُعزز معرفتي بالقواعد ولم يساعدني على إنشاء الجُمل. كما أنه توجد بعض الخطوات العملية التي ينبغي عليَّ اتخاذها من أجل التخطيط للرحلة، مثل الحصول على جواز سفر وتقديم طلب للحصول على تأشيرة دخول بريطانية. كنتُ مستعدًّا للرحلة، عقليًّا وعمليًّا، حتَّى وصلَنا من نيوكاسل خبرٌ مزعج.

ذات يوم، دقَّ ساعي البريد بابَنا كي يُسلِّمَ برقيةً. لم تكن أمي في البيت، فقط شقيقتي داليا، وأبي وأنا. لم يُجِد أبي الإنجليزية. قرأتُ البرقية بصوتٍ مرتفع: «إلغاء رحلة آبي». لم تعرف داليا معنى «cancel». أبي، على أية حال، لم يكن يعرف هذه الكلمة. قال بمظهرٍ ينمُّ عن السلطة، «cancel تعني باطل»، الكلمة العربية المقابلة لـ«cancel». إذًا، تمكنا فيما بيننا من فك شفرة البرقية. ربما حملت الأخبار بشارةً لأبي، مع أنه لم يُظهرها، لكنّها بالنسبة لي كانت ضربةً قاضية فانهارت دموعي. حين أتت أمي إلى البيت، أريناها البرقية. طلبت مني ألَّا أقلق وطمأنتني بشأن عزمها على الاستمرار في الخطة. حتى أنها شرعت تتكلَّم عن بيع شقتنا كي نموِّلَ دراستي في الخارج. أؤمن أن ذلك كان شيئًا غير عادل بكلِّ معنى الكلمة بحقِّ أبي وشقيقتيَّ، لكنَّها كانت عازمة على أن ترسلني إلى إنجلترا، مهما كلَّفها الأمر. في كتاب صديقي سامي ميخائيل المعنون (التجربة الإسرائيلية)، يوجد فصل عني كمثالٍ حيّ على الشاب الشرقي الناجح، على الرغم من التحيُّز المتراكم ضده في إسرائيل. عنوان الفصل هو «أمي كانت عازمةً على أن تجعلني شخصًا ناجحًا»[٣].

مريام ياكيم، ابنة أڤراهام كرينيتزي مدير بلدية رَمات گان، لعبت

دورًا متواضعًا في تمكين أمي من تنفيذ خطتها. في سيرتها الذاتية، بقلمها التي طبعتها بشكل شخصي الموسومة بـ«قصة حياتي»، ثمة مقطع قصير عني مع صورة فوتوغرافية لكلينا. كانت السيدة ياكيم رئيسة قسم رعاية الأطفال في دار البلدية، حيث عملت أمِّي موظفةَ هاتف. غالبًا ما كانت أمي تصعد إلى مكتبها كي تدردش معها خلال استراحة القهوة. أخبرتها أمي أن لها شقيقًا في إنجلترا وأنه وعد بمساعدتها، لكنَّ زوجته اعترضت على الخطة. التفتتْ إلى صديقتِها بيأسٍ شديد من أجل العون. وقتذاك، كانت السيدة ياكيم تستضيف مجموعة من طلاب المدارس اليهود في لندن يقودهم حاخام. طلبت منه نصيحة، وأعطاها اسم وعنوان مدير «بيت هليل»، وهو قسم داخلي للطلبة اليهود في لندن. في عيد ميلادها التسعين أعطيتُ للسيدة ياكيم كتابي مع إهداء، شاكرًا إياها على تشجيعها ودعمها. بمبالغة شديدة، تصف في سيرتها الذاتية قصة صعودي «المُذهِلة»، من الصفر إلى درجة مُحاضِر في جامعة بريطانية مرموقة. تقول أن هذه القصة عزَّزتْ قناعتها بأنه كلَّ طفلٍ يمتلك قدرةً كي ينجح إذا ما مُنِح الفرصة.

اتضح لاحقًا أن بيت هليل كان بالفعل نزلًا للطلاب اليهود في لندن، لكنه لم يكن مخصصًا لأطفال في سني. كل ما يستطيع أن يقدِّمه بيت هليل هو إقامة مؤقتة لأسبوع أو أسبوعين، الأمر الذي كان كافيًا لتستأنفَ أمِّي تحضيرات رحلتي إلى الخارج. كتبتْ إلى المدير تُخبره أني في طريقي، كي تضمن أن أكون قادرًا على السكن هناك حال وصولي لندن. وبالمثل، كتبت إلى خالي في نيوكاسل - لتقدَّم له الأمر الواقع كما هو. بدلًا

من أن يعترض، أثنى على أمي لأنها تمسكت بالمبادرة ووضعت المسؤولية على عاتقه. مستخدمًا تعبيرًا عربيًا، قال إنه فهم ما قالته: «الأمر الآن عليك. أنت الذي تتعامل معه!» الخطوة التالية هو أن تشتري تذكرة من شركة (ZIM) للنقل البحري من أجل ركوب سفينة من حيفا إلى مرسيليا. حزمتُ حقيبة سفر واحدة وأُعطيتُ مئة دولار أميركي نقدًا - أقصى مبلغٍ بالعملة الأجنبية يُسمح به للإسرائيليين المسافرين إلى الخارج. في السابع من أيلول/ سبتمبر ١٩٦١، رافقني جميع أفراد أسرتي إلى حيفا من أجل أن يودعوني. تركتُ أرض الميعاد من دون حتى نظرةٍ للوراء.

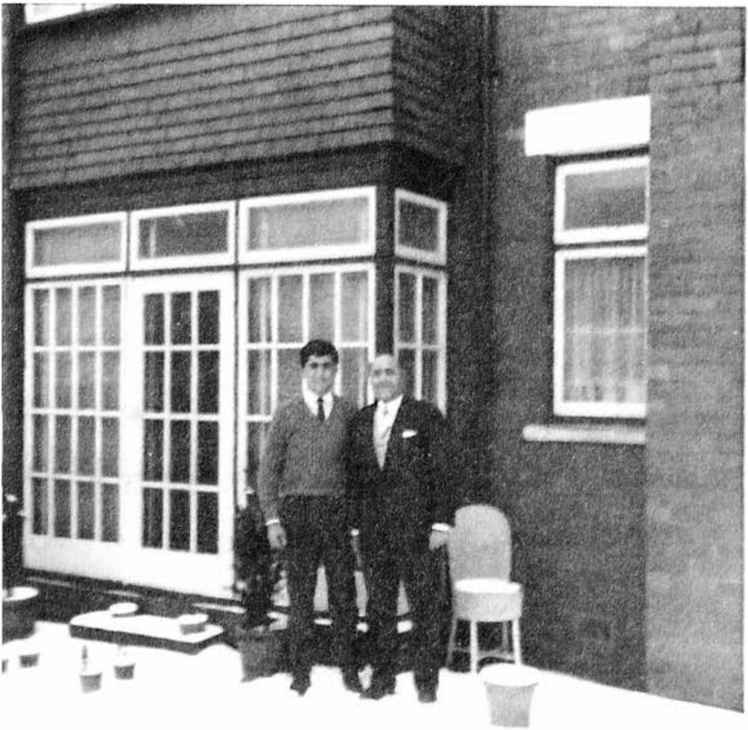

آڤي مع خالِهِ، إسحق عُبادية، في نيوكاسل.

الفصل الحادي عشر

لندن

مكتبة
t.me/soramnqraa

حين أبحرت السفينة السياحية (ZIM) بعيدًا عن ميناء حيفا، شعرت لأول مرة في حياتي بشعورٍ عميقٍ بالتحرُّر. أنا وحدي الآن، متحرِّرٌ من قيود المدرسة وضغوط المجتمع الذي يُهيمن عليه الأشكينازيون. كما أحسستُ أني متحرِّر من التعقيدات السيكولوجية للأسرة - وهذا شعور طبيعي لمراهق. كنتُ في غاية الحماس. من غير الواضح إلامَ ستؤول الرحلة، وكيف ستتطور، ولكن في الوقت الراهن سَعدتُ بحريتي التي حصلت عليها للتوِّ.

استغرقتِ الرحلة من حيفا إلى مرسيليا ستة أيام، مع توقف نصف يوم في كلّ من نابولي وجنوا. كانت الحياة على السفينة في منتهى الرفاهية -بالنسبة لي- بثلاث وجبات طعام في اليوم، واستراحة قهوة صباحًا واستراحة شاي بعد الظهر، وطعام ممتاز بكميات لا محدودة، وأشكال متنوعة من التسلية: أفلام سينمائية، ومغنون ومغنيات، وكوميديون، ومقاهٍ، وحانات، ومقاعد ذات مساند على سطح السفينة من أجل الحمَّام الشمسي. في اليوم الأول، تعرفت على طالب إكوادوري رائع يُدعى

بيبي، وأصبحنا رفيقين لبقية الرحلة. خلال توقفات السفينة في نابولي وجنوا، سلَّينا أنفسِنا بألعاب صبيانية قبل أن نُجرِّب على الأشخاص الذين في الشارع الجملة الإيطالية الوحيدة التي نعرفها، «Dove la Posta?» - «أين مكتب البريد؟» - لنتظاهر بعدها بأننا فهمنا الإجابة.

الجزء الأكثر جدارة بالتذكُّر من الرحلة هو سفرة القطار الطويلة من مرسيليا إلى باريس. جلست بجواري في مقصورة الثمانية أشخاص، امرأةٌ جذَّابة للغاية، كانت ترتدي ثيابًا أنيقة وتضع مكياجًا مثاليًّا. ربما كانت في منتصف أربعينياتها؛ وكانت تمتلك شعرًا أشقر قصيرًا، وعينين زرقاوين، ووجهًا مبتسمًا، وأخلاقًا رفيعة. بدا لي وفق تصوري البسيط، أن سلوكها يوحي بأنها سيدة ثرية من طبقة راقية. تحدَّثنا بالفرنسية ويا لدهشتي ورضاي، استيعابي للغة كان فقط كافيًا بشكل جيد تقريبًا كي نُجري حوارًا. لقد أغرقتني المرأة الغريبة بوابلٍ من الأسئلة عن نفسي، وعن أسرتي، وخلفيتي وخُططي. لعلها وجدت قصتي مُثيرةً للاهتمام إزاء خلفية تحركات السكان فيما بعد الحرب: غلام يهودي من بلد عربي هاجر مع عائلته إلى إسرائيل وهو الآن ذاهبٌ إلى إنجلترا بمفرده. أو لعلَّها كانت مجرد امرأة فرنسية لطيفة تحاول أن تصادق مراهقًا أجنبيًا يعبر بلدها. في كلتا الحالتين، بدت كأنها ارتاحت لي من الوهلة الأولى. كما بدا سلوكها غريبَ الأطوار إلى حدٍّ ما: ناوبتْ بين مخاطبتي رسميًّا بـ«مسيو»، وبمودَّة أكثر بـ«صغيري». كان موقفي تجاهها مُرتبكًا قليلًا: كنتُ متهيبًا منها لأنها أوروبية ملفتة للنظر، وفاتنة، غير أني كنتُ أيضًا جذابًا جدًّا بحيث أنها بدت مهتمةً بي حقًّا. سألتني أين أخطط للسكن

حين نصل إلى باريس. قلتُ لها سأسكن مع أحد أقاربي الإسرائيليين البعيدين وهو طالب دكتوراه في جامعة السوربون. قالت سيكون مُرحَّبًا بي إذا ما سكنتُ معها في بيتها الضخم. في تلك الأيام لم يكن شيئًا غريبًا أن تعرض على المسافرين مكانًا كي يُقيموا فيه. وأنا أعود بذاكرتي إلى الوراء، أتمنى لو أني قبلتُ دعوتَها. في ذلك الوقت، على أية حال، كنتُ خجولًا جدًّا. لم أكن قد بلغتُ السادسة عشرة بعدُ، كنت بريئًا تمامًا خارجَ بلاده.

في باريسَ، ذهبتُ بواسطة المترو إلى مقرِّ إقامة الطلبة في الـCité Universitaire، حيث نلتُ ترحيبًا حارًا من إسحاق عزوري ما أن تغلَّب على دهشته لدى ظهوري عند عتبة بابه من دون إشعار مُسبَق. كان إسحاق بلا أبٍ؛ أمَّا عمُّه فكان محاسب أبي في بغداد. أعطانا في رَمات گان، أنا وداليا، دروسًا خصوصية في الرياضيات قبل أن يذهب لإكمال دراسته العليا بالاقتصاد في باريس. كان موضوع أطروحته لنيل شهادة الدكتوراه، إذا ما أسعفتني الذاكرة، هو «الاستثمارات الأجنبية في إسرائيل». نمتُ على أرضية سكن إسحاق طوال الأسبوع التالي، وأكلتُ في كافيتريا الطلبة وأمضيتُ وقتًا رائعًا. كما وأنني كنت أقوم بزيارات كثيفة للمعالِم السياحية في وضح النهار، وكان يرافقني إسحاق أحيانًا، ولكنني في معظم الأحيان أكون بمفردي. من بين الأمكنة التي زرتُها هي المعالم السياحية المألوفة: برج إيفل، وقوس النصر، والشانزليزيه، ومدفن العظماء، واللُّوفر، وقصر فرساي. في المساء كان يتسنى لي برفقة إسحاق وخطيبته بيرلا، وهي إسرائيلية من عائلة مغربية راقية، اكتشاف الحياة

الليلية في باريس. كان التنزه في حي الرسامين التاريخي مونمارتر وحضور العرض الترفيهي المدهش في كازينو باريس من بين الأنشطة الرئيسية التي قمت بها. كانت الرسائل التي كتبتها إلى الوطن تنقل انبهاري بقدرتي على التجوال بحرية في المدينة الكبيرة. بينما كنتُ أريد أن أشارك كلَّ شيء مع أمي، عرفتُ أيضًا كم هو موجِع بالنسبة إليها أن تكون عالقةً في رَمات گان الكئيبة. رسالةٌ أخرى بعثها إسحاق إلى أبويَّ، وهي أساسًا تقريرٌ عن سلوكي الحسن وطمأنتهما بأنه لا يوجد ما يستدعي القلق. كان المقطع المكتوب إلى أمي بالإنجليزية والمقطع المكتوب إلى أبي بالعِبرية؛ ولا أذكر إن كان إسحاق يجيد العربية أم لا. مع أُمِّ بيرلا، المقيمة في باريس، كان بوسعي أن أتواصل بالفرنسية فقط. لحسن الحظ، أصبحت لغتي الفرنسيَّة أكثر طلاقة الآن نتيجة للمحادثة الشيقة التي استمرت سبع ساعات في رحلة القطار من مرسيليا إلى باريس.

أخذني القطار من باريس إلى محطة ڤيكتوريا في لندن، ومن هناك ذهبتُ إلى «بيت هليل»، القسم الداخلي المخصص للطلبة اليهود الواقع في شارع إيندزلي، بالقرب من ساحة يوستن. كان هنالك شخصٌ واحد فقط في بيت هليل، وهي سكرتيرة كبيرة السن لم تكن يهودية. أخبرتني إنه يوم كيپور[١]، أقدس الأيام في التقويم اليهودي، وسائر الرجال ذهبوا إلى الكنيس. تعوَّدتُ في إسرائيل أن أصوم يوم الغفران وأذهبَ إلى الكنيس مع أبي، لكن في خارج البلاد لم أعد أتعقَّبُ مواقيت الـ«هاگيم»... العُطل

(١) يوم كيپور Yom Kippur بالعِبرية: يوم الغفران. هو يوم عطلة وصيام للاستغفار من الخطايا. يصادف في أيلول/ سبتمبر أو مطلع تشرين الأول/ أكتوبر من كل عام. [المُترجم].

والأيام المقدَّسة. لمضاعفة خطيئتي في السفر في هذا اليوم المقدس، كنت قد أحضرت معي من فرنسا شطيرة لحم خنزير، وهو طعام محظور تمامًا في أي وقت بموجب الشريعة اليهودية، لا سيما في يوم الصيام. لم أفصح لأحد بشأن الشطيرة. أرشدتني السكرتيرة إلى مهجع صغير بعشرة أسرَّة، شعرت بالطمأنينة لوجود اسمي على إحداها. بعد أن غادرت السكرتيرة، أكلتُ الشطيرة خلسةً - واخترتُ أن أرتكب إثمًا آخر بدلًا من أن أكفِّر عن آثام العام الفائت. مهما يكن الأمر، يُفترض أن تؤدي الديانة اليهودية دورًا بارزًا في حياتي طوال الأعوام الثلاثة القادمة، دورًا أكبر بكثير مما فعلت إما في بغداد أو رَمات گان.

كتب السيد هنري شو، مدير بيت هليل، رسالةً إلى أمي يخبرها أن بيت هليل ليس بيتًا للطلبة يمكث فيه الشاب طويلًا. لديهم مهجعان صغيران بمستطاع طلبة الجامعة أن يقضوا فيهما لياليَ قليلةً بينما هم يقومون برحلة في أنحاء لندن، باستطاعتي أن أسكن هناك أيامًا قلائل فقط إلى أن أجد سكنًا أفضل. أما بخصوص المدارس، قال السيد شو إنه سيتواصل مع «مدرسة هاسمونين» ويبلغنا بالنتائج. كانت المشكلة هي إن المدارس كلُّها مغلقة في العطلة الصيفية، وهذا الأمر يجعله من الصَّعب التَّواصل معهم. في رسالةٍ ثانية، كتبها قبل وصولي بأسبوع، كان السيد شو قد انتقد أمي بصراحة. «ينبغي عليَّ القول إنَّكِ تضعينني في موقف صعب»، كتب لها. «لا أعرف ما إذا ستقبل المدرسة ابنكِ بما أنه ليس لديَّ فكرة عن مراحله التعليمية. ما فعلتِه هو إنكِ أرسلتِ ابنكِ إلى هذا البلد من دون أن تتأكَّدي إمكانية قبوله في أيِّ مدرسة مهما

كانت». حين أستعيد الأحداث اليومَ، فكِلا الطرفين امتلك حجَّةً. لدى السيد شو سببٌ وجيه في أن يشكو، لكنَّ أمي لم يكن بمستطاعها أن تجدَ مدرسةً مناسبةً لي في لندن؛ اعتمدت على شقيقها إسحاق كي يعتني بي بعد وصولي. وفي تلك المرحلة لم يكن بالمستطاع رؤيته في أيِّ مكان.

في اليوم الذي أعقب يوم الغفران، رجع السيد شو إلى مكتبه وحدث لقاؤنا الأول. لم يذكر مسألة أني أصغر سنًا بالنسبة لمؤسسته ولا مسألة أني ألقيتُ حملي عليه. على العكس، كان ودودًا ومُرَّحبًا. من الجليِّ، لم يحمِّلني مسؤولية المخالفات المُفترَضة التي ارتكبتها أمي. كما أخبرني أنه رتب لي مقابلةً مع صديقه، الدكتور كونوَي، المدرسة اليهودية الحُرَّة (JFS)، بعد ظهر ذلك اليوم، وأن سكرتيرته سوف تأخذني إلى هناك. كتبَ إلى أمِّي قائلًا: «وصل ابنكِ آبي إلى هنا، مساء [يوم الغفران]، ومع إني كنتُ منزعجًا من أنكِ أرسلتِه إلى لندن قبل اتخاذ الترتيبات اللازمة، يتعين عليَّ إخباركِ أنه يبدو شابًا مُبهِجًا للغاية، وفي وقت لاحق من هذا اليوم سوف تكون له مقابلة مع مدير المدرسة اليهودية الحُرَّة (JFS). لا ريب أنه سوف يُخبركِ بكلِّ ما يتعلق بها في رسالته التالية». كانت «هَسمونين غرامر سكول»[1] مدرسة ذات معايير تعليمية عالية للطلبة اليهود الأذكياء الذين اجتازوا امتحان (١١+)[2]. أمَّا المدرسة اليهودية الحُرَّة (JFS) فشاملة مختلطة للطلبة اليهود، ثُلثاهم ممَّن فشلوا في امتحان أحد عشر زائد (١١+). ولكن كانت هرمية نظام التعليم البريطاني

---

(١) غرامر سكول Grammar School: هاتان الكلمتان تعنيان مدرسة إعدادية. [المُترجم].

(٢) أحد عشر زائد Eleven Plus (١١+): هذه التسمية جاءت استنادًا إلى الفئة العُمرية للمدارس الثانوية ١١ – ١٢ سنة. [المُترجم].

وتعقيده غامضين بالنسبة لي وقتذاك. كنتُ ممتنًا لأني تعرَّفتُ على مدير مدرسة حالَ وصولي إلى لندن وكما توقَّع السيد شو، كتبتُ عن هذا اللقاء في رسالتي الثانية إلى البيت.

مدير المدرسة هو الدكتور إدوارد كونوَي. كنتُ متوتر الأعصاب نوعًا ما بحضوره، لكنَّه بذل قصارى جهده كي يُريحني. طرح عليَّ أسئلة عديدة عن خلفيتي، واهتماماتي، وتحصيلي الدراسي في إسرائيل وهدف رحلتي إلى المملكة المتحدة. لم تكن بحوزتي أوراق ولا شهادات مدرسية من إسرائيل، غير أنه بدا راغبًا في أن يُسهِّلَ قبولي ويتبناني من دون تحقيق. في البداية، قال إنه يحتاج إلى الحصول على موافقة السلطات المعنية لكن، بعد إعادة النظر، قال لي إن باستطاعتي المباشرة في اليوم التالي. توجَّبَ عليَّ الدخول إلى صف (الشهادة العامة للتعليم) من الصف المدرسي الخامس الذي كان مطلوبًا من أجل أخذ امتحانات المستوى الاعتيادي (O-Level) في نهاية السنة الدراسية. إذا اجتزت هذه الامتحانات، سأنتقل إلى الصف السادس الثانوي بهدف إجراء امتحانات المستوى المتقدم (A-Level) بعد عامين إضافيين من الدراسة. سألني الدكتور كونوَي أين أقترح أن أسكن، وكيف يُمكنني تمويل إقامتي في لندن. قلتُ له، في الوقت الحاضر أنا سعيد بالمكوث في «بيت هليل» إلا إني أضفتُ قائلًا، بتفاؤلٍ نوعًا ما، إنَّ لي خالًا في نيوكاسل - أبون - تين سوف يأتي إلى لندن كي يساعدَني في القيام بترتيبات أكثر ديمومةً. أكثر ما جعلني قَلِقًا هو أنني لم أتلق أي اتصال من خالي. لكن بقوة إرساله لي الدراجة الهوائية من ماركة «رالي»، كان لديَّ إيمانٌ بأنه سوف يظهر في النهاية.

بعد مُضي أسبوع ظهر خالي فعلًا، عمره الآن واحد وخمسون عامًا. في إنجلترا أسماه بعض الأشخاص إيڤور، لكنه بالنسبة إليَّ هو الخال إسحاق، دائمًا. كان أنيق الملبس: وكان يرتدي بزة زرقاء داكنة من ثلاث قطع، قميص أبيض بياقة مُنشَّاة صلبة، وربطة عنق، وحذاء أسود ملمَّع جيدًا، وقبعة مستديرة سوداء ومظلة سوداء. بما أنه لم يسبق لي أن قابلتُ شخصًا يرتدي مثل هذه الملابس، كان صعبًا عليَّ بعض الشيء أن أفكر فيه كأحد أقاربي. فتح الحوار بالقول إنه مسرور للغاية بوصولي، إني قريبه الوحيد في إنجلترا، وإنه سوف يعتني بي كابنه، وإنه ينبغي لي ألَّا أقلقَ بشأن المال. حين خرجنا كي نشتري الزي الرسمي للمدرسة، الملابس، البيجاما، والثياب الداخلية، وقطعة لم يسبق لي الإطلاع عليها، لكنه أصرَّ بأنها ضرورية في إنجلترا - روب دو شامبر. كما ذهبنا إلى بورتون، حيث أوَّل خيَّاط البلاد، وطلب خياطة بدلة زرقاء داكنة على مقاسي من ثلاث قطع - كانت تلك أول وآخر بدلة يخُيِّطها لي خيَّاط.

مع إنَّ الخال إسحاق أخبرني بألَّا أقلقَ بشأن المال، فلم يكن بمقدوري أن أمنعَ نفسي من القلق. من المئة دولار التي بدأتُ بها رحلتي في إسرائيل، لم يبقَ بحوزتي سوى عشرة دولارات، وكنتُ أخجل من طلب المال كي أُلبِّي احتياجاتي الراهنة. طوال الأعوام الثلاثة التالية داهمني قلقٌ بشأن النقود وهذا الأمر لم يكن بوسعي أن أناقشه بصراحة مع خالي. ثمة مقولة عربية مفادها أن الشيء الذي يبدأ أعوج، يبقى أعوج. لم يكن واضحًا مَن المسؤول عن تمويل إقامتي في لندن. افتقر أبويَّ إلى الموارد اللازمة لتمويلي خارج البلاد. لا ريب في ظل بعض الضغط من أمي، وافقت

أمها على دفع تكاليف تعليمي. تلقَّت نانا عشرة آلاف دينار عن بيتها في بغداد وتركت إسحاق مسؤولًا عن المال في لندن. هي الآن توعِز إليه كي يُلبِّي سائر احتياجاتي من حسابها البنكي. إلا أنه تدريجيًا تبين أن إسحاق كان قد سحب المال كلَّه من هذا الحساب المصرفي. تشاجرت نانا وأكبر أبنائها وتبادلا رسائل غاضبة مكتوبة بالعربية - اليهودية، أي العربية المكتوبة بحروف عِبرية - وهو الخطُّ الوحيد الذي تستطيع نانا كتابته.

لم يذكر الخال إسحاق مال نانا البتة. الانطباع الذي خلقه هو أنَّ كل قرش أعطاني إياه خرج من جيبه الخاص. مع إني أعرف الحقيقة، خشيت من أن تؤدي مواجهته إلى تفاقم المشكلة بدلاً من حلها. وما زاد الطين بلَّة أنه تبيَّن أن الخال إسحاق شحيح جدًّا؛ إذ استكثر المال الذي كان يجب أن يصرفه عليَّ. في مساء يومه الأول في لندن اصطحبني إلى مطعم في «فنچلي رود» كي نتناولَ العشاء. جلسنا على طاولة متقابلين، وقبل أن يتُاح للنادل أن يأتينا بقائمة الطعام، اقترح خالي أن ننتقل إلى طاولة أخرى. كان يوجد أمامه على الطاولة كوب قهوة فارغ، وبجانبه قطعة نقدية صغيرة من فئة ست بنسات، وكان ذلك بقشيش تركه الشخص الأخير الذي شغلها للنادل. بينما نحن نهمُّ بالانتقال، لاحظتُ أن خالي كان قد التقط خِلسةً القطعة النقدية ووضعها في جيبه. هذه الحادثة لوَّثت بما لا يمكن محوه فكرتي عن شخصية خالي. في ذلك الحين كان شيئًا أكثر من صادم بالنسبة لي أن يتصرَّف رجلٌ يرتدي ثيابًا أشبه برجل إنجليزي محترم بمثل هذا السلوك الخسيس والرثِّ. لقد استوعبتُ جيِّدًا بعض الآراء عن الشخصية الوطنية البريطانية قبل وصولي إلى بريطانيا.

في اليوم التالي جاء الخال إسحاق إلى المدرسة كي يُقابلَ مدير المدرسة. الدكتور كونوَي وصف المدرسة بمصطلحات عامة ومن ثم لخَّص خططه المتعلقة بالتعليم. وقبل نهاية الحوار جاء السؤال عن إقامتي الدائمة. سأل خالي ما إذا يعرف مدير المدرسة أسرةً يهودية لطيفةً قد يسكن معها ابن شقيقته كضيف ويدفع نفقات إقامته. أجاب الدكتور كونوَي أنَّ زوجته لديها «رهمانوس» (كلمة ييدشية بمعنى لديها رحمة وشفقة) وربما يُمكنني أن أسكن معهم. تحمَّس خالي حالًا لهذه الفكرة وفي المساء ذهبنا معًا لزيارة الدكتور والسيدة كونوَي ببيتهما الواقع في «غولدرز غرين». الغرض غير المذكور للزيارة هو أن يعتني آل كونوَي بي ويُقيِّما ملاءمتي كضيف في البيت. بدا اللِّقاء وكأنه يمضي بسلاسة، وفي اليوم التالي أبلغني الدكتور كونوَي أنه هو وزوجته سعيدان بأن أُقيمَ معهما؛ بينما أواصل دراستي في مدرسته.

في اليوم المُحدَّد، في منتصف تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦١، انتقلتُ من بيت هليل إلى بيت آل كونوَي في ١٩٣ «غولدرز غرين رود»، وهو طريق حين أجتازه بسيارتي الآن، لا يزال يُذكِّرني بيفاعتي وحيدًا في بلد أجنبي كئيبٍ. يسكنُ آل كونوَي في منزل ينتمي لطراز العِمارة الإدواردية، وهو بيت شبه مستقل، بأربع غرف نوم، وغرفة معيشة، ومطبخ وغرفة طعام. رحَّبا بي بحرارةٍ، وابناهما كذلك، تشارلز وديڤيد. عاملوني، منذ لحظة وصولي، باعتباري فردًا من أفراد الأسرة، مع أنَّ إشاراتٍ مُهذَّبةً كثيرةً ألمحتْ إلى وضعي المختلف. لا أعرف ما هي فكرتهم عني، لكنهم ظاهريًا كانوا لطفاء جميعًا، وودودين ومُرَّحبين.

كان الدكتور كونوَي ابن مُهاجريْن من أوروبا الشرقية. وُلِد في العام ١٩١١ ببلدة لينالي الويلزية، التي فيها طائفة يهودية صغيرة من أربعين أسرة تقريبًا، وتلقَّى تعليمه في «سوانسي»، المدرسة الإعدادية المحلية والكلية الجامعية. غيَّر بعد الجامعة اسمه من إفراييم زَلمان ها - كوهين إلى إدوارد سيدني كونوَي وبدأ مسيرته التعليمية في ليفربول، وفي النهاية أصبح مدير مدرسة ليفربول اليهودية. خدم من العام ١٩٥١ إلى العام ١٩٥٨ بصفته مديرًا لملجأ الأيتام اليهودي في نوروود. استفاد من تجربته هناك كأساسٍ لأطروحة دكتوراه كتبها عن العناية المؤسساتية بالأطفال في كلية لندن للاقتصاد تحت إشراف عالِم الاجتماع البارز، البروفيسور ريتشارد تيتموس. في عام ١٩٥٨، عُيِّن الدكتور كونوَي مديرًا للمدرسة اليهودية الحُرَّة (JFS). كان هدفاه الرئيسان هما توفير تعليم عام ذي جودة عالية وجعل الـ(JFS) معقلًا للمُثل اليهودية العليا[١].

كان الدكتور كونوَي رجلًا ذا تجربة إنسانية عميقة وغنية. حظيَ بتقديرٍ عالٍ من قبل الطَّائفة اليهودية في بريطانيا، باعتباره مُربِّيًا ومُروِّجًا للقيم اليهودية. أعتقد أنَّ خلفيته بوصفه ابن مُهاجريْن واهتمامه بالعناية المؤسَّساتية جعلاه يرغب بمساعدتي. على مدى الأعوام الثلاثة التالية؛ رعاني بدماثة حتى إذا ما كان بعيدًا. راقبَ تقدُّمي في المدرسة عن قرب، وبشكل ملموس، متفاديًا اعطاء الانطباع بنيلي مُعامَلة تفضيلية. قلَّما رأيته في البيت، لكن، حين أراه، يكون عطوفًا ومتفهِّمًا دائمًا، ولطالما ساعدني في تحسين إنكليزيتي. أحد الواجبات التي أنجزَها بضميرٍ حيٍّ هو أن يكتب إلى أمي بشكلٍ منتظم، كي يُطمئنها أني أنال عنايةً جيدة

من السيدة كونوَي، وأنَّ ابنيهما كانا يعاملانني مثل أخٍ لهما، وأنَّ أدائي في المدرسة جيِّدٌ وكلَّ المعلمين يشاركونه حُسن الظنِّ بي. الغريب أنه في ضوء تقريري السابق، كانت الملاحظة الوحيدة المهمة في رسائله هي إني أعمل بجدٍّ ومثابرة.

إحدى صفاتي التي أعجبت على ما يبدو الدكتور كونوَي هي مثابرتي. لدى قراءة «الوقائع اليهودية» المتعلقة بتعييني بوظيفة أستاذ مُشارِك (مُعِيد) في العلاقات الدولية بكلية سانت أنتوني، بجامعة أكسفورد، كتب كي يهنِّئني. في رسالته المؤرخة في ٢٢ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٨٧، كتب قائلًا: «لا أعتقد أن باستطاعتي تذكُّر أي واحد من آلاف الطلبة الذين كنتُ مسؤولًا عنهم منذ أن بدأتُ مسيرتي قبل خمسين عامًا؛ قد امتلكَ قدرتك على المواظبة وتصميمك على النجاح». في ردِّي أشرتُ إلى أنه لم يسبق لي أن عملتُ بدأب ومثابرة كما فعلتُ في الأعوام الثلاثة التي قضيتُها في مدرسته، وأنَّ كل شيء بعدها بدا سهلًا عند المقارنة.

كان اسم السيدة كونوَي الأول هو ليلي، لكني أناديها دومًا سيدة كونوَي. لم تكن خلفيتها التعليمية جيدة، إلا إنها كانت واسعة المعرفة بالعادات، والشَّعائر، والقوانين الغذائية في الديانة اليهودية. أدارتْ أسرةً ملتزمة بالشريعة اليهودية. لم تكن لديها وظيفة ولم تكن تخرج للعمل، إذ أنها كرّست نفسها تمامًا للعناية بأولادها ودعم زوجها ذا الشخصية البارزة. كانت عطوفةً تجاهي جدًّا ومتفهِّمة ومساعِدة في مهمات عادية مثل كيِّ الملابس. بعد أن شهدت تحيزا واضحا لصالحي

في المنزل، كانت تجربة مفاجئة ومريحة أن أجد نفسي أُعامَل بالتساوي مع الولدين الآخرين في منزلي الجديد.

كبرني تشارلز بعام واحد، وصغرني ديڤيد بعام. كانا شديديْ الذكاء، ذوَيْ تحصيلٍ دراسي مُثير للإعجاب. يتوقَّع المرء أن يذهب الطلاب اليهود الأذكياء الذين اجتازوا الـ(١١ +) إلى هَسمونين غرامر سكول؛ بدلًا من ذلك ذهب تشارلز وديڤيد إلى سانت أوليڤ غرامر سكول، التابعة لإنغلاند سكول ذات السمعة الأكاديمية البارزة. تقع المدرسة جنوب النهر، وتبعد مسافة طويلة عن غولدرز غرين، لذا كان للصبيين رحلةٌ طويلة يوميًّا. كما تعيَّنَ عليهما أن يأخذا الشطائر معهما لأن وجبات غداء مدرستهما لم تكن مع طعام الشريعة اليهودية. هذه، على أية حال، عَقَبةٌ ثانوية مقارنةً بميزة أن يكونا في واحدةٍ من المدارس الحكومية ذات الأداء الممتاز على مستوى البلاد. كان تشارلز في الصف السادس، يدرس لتحصيل مستويات - A؛ وديڤيد مع إنه في سن الرابعة عشرة لا لتتوافق غير، كان في الصف الخامس يدرس لتحصيل مستويات - O. نجاحهما الأكاديمي المُدهِش جعلني أقلق بشأن تقصيري عن بلوغ الهدف - لذا حثَّني ذلك على تكثيف الجهد من أجل تحقيق النجاح.

في الطابق الأول من البيت كانت ثمَّة أربع غرف نوم: واحدة للوالدين، وواحدة لكل ابن، وواحدة هي التي انتقلت للسكن فيها. كانت تلك هي أول مرة في حياتي تكون لي فيها حجرة بمفردي، وقد مثَّل هذا تغيُّرًا مُثيرًا، وتجربةً حقيقية من الخصوصية مقارنةً بمشاركة حجرة مع شقيقتيَّ ويُمَّا. كانت حجرتي صغيرة وليست مُريحةً، على وجه الدقة،

لكنَّها زُودتْ بكل الأساسيات: مغسلة لغسل الوجه واليدين، وسرير مفرد، وخزانة ثياب، وخزانة ذات أدراج، وخزانة كتب، وطاولة صغيرة وكرسي مريح. لم يكن سقف توقعاتي عاليًا. كانت الطاولة الصغيرة كرتونية ومربعة، وكانت تصلح كمكتبٍ لي إذ أنها كانت في ركن الغرفة عند نافذة في مواجهة الحديقة الخلفية. ذكرياتي عن الحديقة الخلفية كانت ضبابية بعض الشيء بما أنه قلَّما وطأت قدماي المكان هناك. ولم يكن لديَّ وقت فراغ كي أنظر إلى الحديقة الخلفية من نافذتي. خلافًا تمامًا لفترة دراستي في إسرائيل، لم أعد ذلك الشارد الذي يضيع وقته في الأحلام. لقد أصبحتُ أكثر تركيزًا. أقضي معظم ساعات وقتي في البيت جالسًا على هذا المكتب ومنكبًّا على أداء واجبي المنزلي. مع أن غرفتي كانت باردةً، وقاسيةً، وكئيبةً، إلا أنها منحتني خصوصية مُساعِدة على القراءة، واستقلاليةً وراحة بال. وقتي مُلكٌ لي. ما من أحد يُضايقني البتة، ولا كان يُطلَب مني أن أساعد في الأعمال المنزلية الروتينية. العيش في بيت إنجليزي جعلني أتقدَّم بسرعةٍ فائقة في لغتي الإنجليزية - اللغة التي لم أكن جيِّدًا فيها من قبلُ.

لم يُتِح المناخ العام في البيت أسباب الدراسة فقط، بل شجَّعَ بشكل إيجابي وأجبرنا، كلَّنا، على أن نركِّزَ في دراستنا. مع إننا كنا نذهب إلى مدرستين مختلفتين، فإنَّ الروتين اليومي في البيت متشابه لنا نحن الثلاثة. نتناول فطورنا في الصباح الباكر، ونذهب إلى المدرسة، ثم نعود إلى البيت في نحو الخامسة والنصف عصرًا؛ ثم نتناول عشاءً مُشبعًا تقدِّمه لنا السيدة كونوَي، نمضي إلى غُرفِنا كي ننكبَّ على دراستنا. في

مرحلةٍ ما من المساء، كان كلٌّ واحد منا ينزل إلى المطبخ كي يُعدَّ لنفسهِ مشروبًا ساخنًا ووجبةً خفيفة، ومن ثم نرجع إلى غرفنا كي نستأنف العمل. لا يتناول الدكتور كونوَي العشاء معنا. تعوَّد أن يرجعَ من العمل في وقتٍ متأخِّر جدًّا وكانت السيدة كونوَي تُقدِّم له العشاء بشكل منفصل. في أمسيات الجُمَع، كنا نتناول عشاءً احتفاليًّا في البيت. تُشعِل السيدة كونوَي الشموع ويؤدي الدكتور كونوَي صلاة الـ«كدوش» مع خبز الـ«هالا»(١) والنبيذ الحلو. كان يُسمَح لنا بعد العشاء بالانضمام إلى البالغين في غرفة المعيشة المُريحة كي نشاهدَ التلفاز. كانت متعة مميزة حقًّا. في أي يوم آخر من أيام الأسبوع لن يُسمح للصبيين أو لي بمشاهدة التلفاز، أو حتى دخول هذه المكان المقدَّس.

في صباح كل يوم سبت كنا نرتدي أفضلَ بزاتنا (في حالتي كانت بدلتي الوحيدة)، وكنا نذهب برفقة الدكتور كونوَي إلى الكنيس المألوف في غولدرز غرين، من أجل أداء طقس السبت الديني. كانت المشاركة في هذه الشَّعيرة مُضجِرةً وشاقَّة - إذ أنني لم أشعر بروحانية عالية في أي وقت. بعد عامين نفد صبري وسألتُ الدكتور كونوَي ما إذا كان يُمكنني أن أُعفى، فوافقَ في الحال. قال إنه فهم أني كنتُ أذهب إلى «شول» تعبيرًا عن احترامي له ولوَلديه. لذا بدأتُ أقضي صباحاتِ أيام السبت في المكتبة العامة في غولدرز غرين رود، بدلًا من الذهاب إلى الكنيس.

(١) خبز هالا hala bread: خبزٌ خاص من أصل يهودي أشكينازي، يكون عادةً مجدولاً ويؤكلُ غالبًا في المناسبات الاحتفالية. [المُترجم].

ليلة السبت هي الليلة الوحيدة التي يُسمَح لنا فيها بالخروج. كلمة «يُسمح» تتضمن قواعدَ وقيودًا. في حالتي على الأقل كانت ضمنيةً بدلًا من أن تكون واضحةً؛ ما من أحدٍ على وجه الدقة أعطى الأوامر ولا كانت هنالك أيُّ قواعد مذكورة. كنتُ ألتقط إشارات ضمنية كثيرة حول السلوك المتوقع مني، فكنتُ أستجيب لها تلقائيًا. شعرتُ في معظم الأوقات بالوحدة والحزن. من بلدٍ حار، تكتسحه الشمس انتقلتُ إلى سماوات بريطانيا الرصاصية الكئيبة بأمطارها ورياحها الباردة المشهورتين. في إسرائيل، كنتُ أقضي معظم أوقات ما بعد الظهر والأمسيات ألعب في العراء مع أصدقائي. في غولدرز غرين، لم تكن هنالك حياةٌ في العراء من أيِّ نوع. بيتُنا في إسرائيل كان فوضويًا، لكنه هادئ؛ أما بيت عائلة كونواي فمرتبٌ للغاية وصارمٌ في قواعده، إنه معمل دراسةٍ أساسًا. كانت والدتي تفيض بالدفء والحنان، أما السيدة كونواي فلم تكن ربَّة منزل رحيمة. لم أشهد في منزل عائلة كونواي أيًّا من مظاهر التعبير عن العاطفة التلقائية التي اعتدت عليها في بيتنا، حتى بين أفراد العائلة أنفسهم.

تلقَّيتُ من أمي سيلًا من النصائح الغير مُجدية في كيفية أن أتصرَّف في بيتي الجديد. كانت مبتهجةً بهذا الانعطاف السعيد للأحداث وممتنةً بعمق لآل كونوَي لإيوائي. كتبتْ لي أنه كان شرفًا وامتيازًا أن أُقيم مع عائلةٍ مُحتَرَمة وحسنة التعليم كهذه. نصحتني بأن أقتدي بالدكتور كونواي في كل ما يتعلق بالعادات والأعراف اليهودية، مثل لبس التمائم الجلدية. في أوقات وجبات الطعام، كان يُفترَض بي أن أمارس أفضل ما

لدي من آداب المائدة؛ وآكل فقط ما تقدِّمه لي السيدة كونوَي. كُنتُ أُحَث في معظم الأوقات كي أكون مهذَّبًا، وحسن المظهَر ومرتَّبًا، وأن أُبديَ استعدادي لتقديم العون بأية طريقة من المحتمَل أن تكون نافعةً لمُضيفيَّ. أكملتْ أمي حديثها بالقول إنه طالما تصرفتُ كالأمير، فلا حاجة لي بنصائحها تلك. في الحقيقة، كان لا لزوم لنصائحها. لقد كانَ العيشُ مع مدير المدرسة مُرهِقًا بما يكفي؛ دون الجرعة الإضافية من الأوامر الأبوية.

في المدرسة الجديدة استقبلوني استقبالًا حارًّا. كانت الـ(JFS) مدرسة ثانوية يهودية تقليدية ومُختلَطة، تقع في بلدة كامدِن. كان طابع أعراف المدرسة يهوديًا بشكل أوضح وأوعى مقارنة بالمدارس التي درست فيها بإسرائيل. جميع الطلبة، وأكثر من نصف المعلمين والمعلمات كانوا يهودًا، وكانت القيم اليهودية تسود المدرسة. هدفها، بحسب كلمات بيان رسالتها، هو «تخريج يهودٍ معتدِّين بأنفسهم، وحسنيْ التعليم، ومخلصين. يكونون مسؤولين وأعضاءً مُساهمين في المجتمع». روَّجت المدرسة بفاعلية للأيديولوجية الصهيونية وحافظتْ على روابط قوية مع إسرائيل. في كلِّ صيف تُؤخَذ مجموعةٌ كبيرة لزيارة إسرائيل. لم تُدرَّسْ العِبرية فقط لأنها لغةٌ أجنبية حديثة، بل لكونها أداة تربط التاريخ والإرث اليهوديين بدولة إسرائيل. صباح كلِّ يوم تتجمَّع المدرسةُ كلُّها في القاعة من أجل الاستماع إلى حديث المدير الموجَز الذي تعقبهُ صلاةٌ بالعِبرية.

وجدت الانتقال من النظام التعليمي الإسرائيلي إلى النظام التعليمي البريطاني تحديًا كبيرًا، لكن طريقي أصبح ميسرًا بفضل التعاطف والدعم

الذي تلقيته في المراحل الأولى. وبصفتي طالبًا جديدًا قادمًا من إسرائيل، فقد أثرتُ اهتمامًا وفضولًا كبيرين. عددٌ كبير من الطلبة ذهبوا إلى إسرائيل في زيارةٍ مدرسية وأولئك الذين لم يذهبوا أمطروني بوابلٍ من الأسئلة عنها. بدا لي أن الهوية الإسرائيلية مُرتبطةٌ بهالةٍ ساحرةٍ من الاعتزاز والفخر. لكنني أخفقتُ في اغتنام هذه الفرصة لأني قلَّما شعرتُ بهويتي كمواطنٍ إسرائيليٍّ. في حقيقة الأمر، أحسستُ كما لو أنني إسرائيلي مُخفَّف بدلًا من أن أكون إسرائيليًّا كاملًا. ما من أحدٍ في المدرسة أظهر أدنى اهتمام بالعِراق، بلدي الأصلي. كانت هذه لحظةً حرجة تتضارب فيها هُوياتي المتنوِّعة. هويتي كيهودي - عربي اصطدمت بهويتي كإسرائيلي وتركتني فيما يشبه المأزق. هناك في الديار لم أشعر قطُّ بأني إسرائيلي حقيقي، لأني كنتُ إسرائيليًّا من النوع الخاطئ، نوع أدنى منزلةً. الآن، في عيون الأولاد اليهود البريطانيين، كنتُ مُمثلًا أصيلًا للنوع الجديد من اليهود الذين تربَّوا في إسرائيل. تخيّلتُ أنَّ السردية التي يُريدون أن يسمعوها مني هي أني كبرتُ وترعرعت في مزرعةٍ تعاونية يهودية، وأننا جعلنا الصحراء تُزهر، وأنَ العرب السيئين يُضايقوننا باستمرار، إلا إننا كنا نعرفُ كيف ندافع عن أنفسنا وأننا جميعًا كنا مستعدين للصمود والقتال. كان بإمكاني أن ألعب على هذه الصورة النمطية، لكنني لم أستطع حمل نفسي على هذا الفعل - لا لأني اكتسبتُ أيَّ نوع من الانتقاد لإسرائيل، بل لأني غريزيًا لم أكن قادرًا على الانخراط في هذه السردية. للمفارقة، كنتُ في آنٍ معًا مركزَ الانتباه في المدرسة ومعزولًا بكلِّ معنى الكلمة. اشتقتُ إلى التحدُّث مع شخصٍ ما باستطاعته أن يفهم إرثي، بدلًا من أن يفرضوا عليَّ خيالاتهم الجامحة حولَ إسرائيل.

عمومًا، كانت تركيزي الرئيسي على الدراسة، وليس على إسرائيل. هنا تلقَّيتُ دعمًا سخيًا من عددٍ من زملائي. منحني المعلِّمون أيضًا أكثرَ من حصّتي من الاهتمام، والنصيحة، والمساعدة، والتشجيع. كان الجميع تقريبًا يعلم بحقيقة سكني مع المدير - وكان زملائي في الصف غالبًا ما يوحون لي أنَّ المعلمين الذين يبذلون جهدهم كي يساعدونني قد فعلوا ذلك كي يتودَّدوا إلى مدير المدرسة. لكن هذا التفسير بدا لي متشائمًا للغاية وجانبًا واحدًا فقط من القصة. ما لم يُقدِّره زملائي هو أنَّ ثمَّة مساوئ لخطوة السكن مع مدير المدرسة، بالإضافة إلى محاسِنها. لم أتمتع في البيت بحرية إساءة التصرُّف، أو حتى التصرُّف مثل مراهِق طبيعي؛ إذ كنتُ على الدوام متلهِّفًا جدًّا للقيام بالشيء الصحيح وإرضاء مُضيفيَّ. في المدرسة كنتُ أشعر بأني مُقيَّدٌ على نحوٍ مشابه. عندما كان يرتكب الآخرون أفعالًا سيئة، كنت أتجنب الانضمام إليهم خوفًا من العقاب أو المشاكل التي قد تنجم عن ذلك. لو أسأتُ التصرُّف، سوف يُبلِّغون مدير المدرسة عني وسيكون هذا الأمرُ مُحرِجًا لكلينا. في تلكم الأيام، كانت هنالك عقوبة جسدية في المدرسة؛ يُديرها المديرُ من خلال ضرب المشاغبين بالخيزرانة. لو وَجبَ عليه أن يضربني بالخيزرانة، سيكون هذا مُحرِجًا للغاية. لذلك، تعين عليّ ضمان عدم حدوث الموقف بالسير على الطريق الصحيح والامتثال للقواعد السلوكية. كان عبئًا نفسيًا ثقيلًا وهو عبءٌ انفردتُ بحمله وحدي دون المدرسة كلِّها. ثمَّة أحاسيسٌ لم أستطعْ الإفصاحَ عنها آنئذٍ؛ ولم تتضح لي إلا أثناء تدوين هذا الكتاب.

ما أن أُتُّخِذ القرار بوضعي في الصف الخامس، وجب عليَّ أن أختار بسرعة الموادَّ التي سأدرسها. إنجليزيتي في تلك المرحلة كانت لا تزال

ضعيفةً. في حزيران/ يونيو من السنة التالية، أي بعد تسعة أشهر من وصولي إلى بريطانيا، لزمني تحصيل مستويات - O، كباقي طلبة الصف. كان الضَّغط هكذا من اليوم الأول. المواد الخمس التي وقع اختياري عليها أخيرًا هي الإنجليزية، والفرنسية، والتاريخ، والرياضيات والتعاليم الدِّينية. بقية طلبة الصف كانوا قد درسوا الفرنسية خمسة أعوام سابقًا في حين أنا درستُ عامين فقط، لذا وجب عليَّ أن أبذل جهدًا خاصًا كي ألحق بهم. التاريخ الاجتماعي والاقتصادي البريطاني في القرن التاسع عشر مثّلا منهج التاريخ، الذي ببساطة لا أملك فكرةً عنه. لم يكن السيد كار، معلم التاريخ، متعاونًا بشكل كبير. كان يرتدي بدلة سوداء ومئزرًا، وله مظهر دفّان جنائزي. في بداية العام الدراسي، أعطى كلَّ واحد منا كتابًا منهجيًّا، «تاريخ إنجلترا الاقتصادي» من تأليف ميلتون بريغز وبيرسي جوردان. في بداية درس التاريخ، يُعلِن السيد كار عن الصفحات التي ينبغي لنا أن نقرأها في الكتاب المقرَّر ويُخبرنا بمتابعتها. بعدها يذرع الممرات جيئةً وذهابًا، كي يطمئنَّ بأننا نركِّز جميعًا على الكتاب المقرَّر الذي أمامنا. إذا تجرَّأ شخصٌ ما أن يُعكِّر الهدوء بأن يسأل السيد كار سؤالًا، فإنَّ ردَّه المعتاد هو: «كلُّ شيءٍ مدوَّن في كتاب بريغز وجوردان». مواضيع كثيرة مذكورة في الكتاب، مثل ماكينة الغزل الغامضة، كانت غير مفهومة بكل معنى الكلمة بالنسبة لي. هل كانت نوعًا من راقصة أو مُهرِّجة؟ وماذا يجب عليها أن تفعل في الثورة الصناعية؟ السادة بريغز، جوردان وكار كانوا غير مفيدين على حدٍّ سواء.

على كلِّ حال، التحدِّي الأكبر الذي يواجهني هو اللغة الإنجليزية وقواعدها. هنا تكمن الفجوة الأكبر بيني وبين بقية طلبة الصف. بفضل مثابرتي واجتهادي الدؤوب، تمكّنتُ من تقليص الفجوة بشكلٍ ملحوظٍ بحلول نهاية العام. ما كان باستطاعتي أن أفعل هذا من دون التشجيع المستمر الذي تلقَّيتُه من السيد دينس فيلسينستاين، الذي يُعلِّم الإنجليزية في مستوى - O، والتاريخ في مستوى - A وكان أيضًا وكيلَ المدير. كان السيد فيلسينشتاين شابًّا، ربَّما في منتصف أو نهاية ثلاثينياته. كان طويلًا، ونحيلًا ووسيمًا، له حضورٌ جسدي مؤثر وهالة طبيعية من السلطة. قبل أن يتبوأ منصبه في الـ(JFS)، كان أستاذ تاريخ في مدرسة سانت بول، وهي واحدة من أفضل المدارس الخصوصية في البلاد. كان مُعلِّمًا بارزًا بكلِّ المقاييس وكنت أُؤمن أنه أفضل معلِّم قابلتُه في حياتي.

قدَّم لي السيد فيلسينشتاين نصيحةً ودعمًا لا حدودَ لهما خلال مدَّتي في الـ(JFS). بالإضافة إلى تدريسي الإنجليزية والتاريخ، أبدى اهتمامًا شديدًا بصحَّتي وتطوُّري الدراسي. كما قدَّم لي تشجيعًا كنتُ بأمسِّ الحاجة إليه، وساعدني على إدراك إمكانياتي. كان أكثر من مُعلِّم: كان ناصحًا وقدوةً، واحدًا من أولئك الأشخاص الذين بمقدورهم أن يغيِّروا حياةَ الفتى. في بعض الأحيان أتساءل لماذا ذهب السيد فيلسينشتاين أبعد بكثير من نداء الواجب كي يساعدَني على تحقيق النجاح في دراستي. ثمة جواب مُحتمَل واحدٌ ألا وهو أني فتًى إسرائيلي جاء إلى لندن دون أسرته، بحاجة إلى إرشاد روحانيّ إضافيٍّ. ثمَّة جواب مُحتمَل آخرُ، ألا وهو أنه

كان يعرف أنَّ الدكتور كونوَي منحني فرصة النَّجاح وقرر أن يستثمرَ بي كمشروع مشترك. لعله رأى كم كنتُ أعمل بنشاط، وكم كنتُ عازمًا على تحقيق التقدُّم، فقادته غريزتُه الطبيعية بصفته مُربِّيًا إلى تقديم العون لي. أُكنّ له عظيم الشكر والتقدير، مهما كانت أسبابه.

فضلًا عن المواد الخمس التي أخذتُها لمستوى - O، بدأتُ أدرس العِبرية الكلاسيكية في مستوى - A. قد يبدو هذا شبيهًا بخيارٍ غريب بالنسبة لفتًى إسرائيلي جاء للدراسة في إنجلترا؛ وفي الحقيقة كان كذلك. أتتِ الفكرةُ من الكاهن جوزيف هالپيرن، معلمنا في موضوع التعاليم الدينية. كان الكاهن هالپيرن، كما ينبغي أن نسمِّيه دومًا، رجلًا قصير القامة بلحية رمادية، وقلنسوة سوداء كبيرة، ورِجل مشوَّهة وتلَعثُم غاضب. تعوَّد الفتيان، وراء ظهره، أن يقوموا بتقليدٍ قاسٍ لعَرَجه وتلعثمه. ولكن لم يشكّ أحدٌ في استقامته وإخلاصه للتعليم وسعة اطلاعه. تخرج من جامعة كلية لندن بدرجة الشرف الأولى في اللغة العبرية والدراسات السامية، وحصل على درجة الماجستير بامتياز في الدراسات الحاخامية، وكان مؤلفًا لعدة كتب عن التاريخ اليهودي القديم. كانت رسالته، طوال حياته، هي تعليم وتشجيع الناس على قراءة الكتاب المقدَّس. بناء على اقتراحٍ من الكاهن هالپيرن، بدأتُ أدرس بإشرافه لتحصيل مستوى - A في العِبرية الكلاسيكية بمعهدٍ صغير في وليسدين غرين؛ حيث كان هو المدير. كانت دروس الساعتين تُعطى في صباح كلِّ أحد وكان هنالك غلام يهودي آخر، من مدرسة هاسمونين، في الدرس. تضمَّن المَنهج التاريخ اليهودي، النحو

والإعراب العِبريين والترجمات من العِبرية التوراتيَّة إلى الإنجليزية. يُعدّ إتقاني للغة العبرية ميزةً عظيمةً، لكنّها وحدها لا تكفي. لا بدّ من بذل المزيد من الجهد والعمل الدؤوب للوصول إلى المستوى المطلوب. بين رحاب الكنيس يوم السبت وندوات العبرية الكلاسيكية يوم الأحد، تقلصت ساعات فراغي في نهاية الأسبوع. فحياتي لم يكن لها يومًا مُتَّسع للهو أو التسلية.

بينما كنتُ أتأقلم مع بيتي الجديد، ومَدرستي الجديدة وأسلوب حياتي الجديد، كانت عائلتي في إسرائيل تمرُّ بمرحلة صعبة، ارتدَّتْ عليَّ أيضًا. أحدُ أسباب إصرار أمي على إرسالي إلى مدرسةٍ في لندن، كما اكتشفتُ لاحقًا، هو أن أكون طليعة الأسرة إذْ ستتبعني إحدى شقيقتيَّ أو كلتاهما. هذا الشيء قلَّما ذُكِر في الظرف الذي مهَّد السبيل لمغادرتي، إلَّا إنَّ الفكرة كانت على ما يبدو واردة في ذهن أمي. كانت شقيقتي الكبرى داليا في سن السابعة عشرة، ومن الواجب أن تلتحق بالخدمة الوطنية في الجيش الإسرائيلي (IDF) حين تبلغ سن الثامنة عشرة. رفضتْ أمي بشدة دخول داليا الجيش، لأنه يتضارب مع خططِها. لهذا ضغطتْ على داليا كي تُعلن أنها يهودية ملتزمة كي تُعفى من الخدمة العسكرية. وعلى مضضٍ، فعلت داليا ذلك إلا إنَّ مقابلتها مع حاخام الجيش لم تجرِ على ما يُرام. طرح عليها بضعة أسئلة عن العادات والشعائر اليهودية لم تكن، بشكلٍ غير مفاجئ، قادرةً على الإجابة عنها. ومن ثم سألها ما إذا سافرت في يوم سبت. بينما كانت لا تزال في حيرة، ردَّت السؤال عليه، وسألته، «هل حصل أن سافرتَ في يوم سبت؟» أجاب الحاخام،

«نعم، إلى أوشفيتز». انتهت المقابلة بهذه الملاحظة الباردة. كانت النتيجة حرمان داليا من الإعفاء، وتجنيدها في الجيش.

كانت هذه صدمة لأمنا. ألقت اللوم على داليا، بنحوٍ غير عادل، لأنها لم تُعطِ الأجوبة الصحيحة، وهدَّدتها بأن تتركها وتذهب للإقامة في لندن مع شقيقتي الصغرى فيلما، التي كانت في سن الثالثة عشرة يومذاك. سوف يفرِّق الانتقال الأسرة أكثر، حيث سيبقى أبي وداليا وحدهما في إسرائيل. فكرة احتمال مجيء نصف عائلتي المضطربة للسكن معي في لندن ملأتني بالرعب أيضًا. بناءً على ذلك، كتبتُ رسالةً من خمس صفحات إلى أمي، محاولًا إقناعها بالعدول عن ذلك. كانت الرسالة تَرشَحُ بالنِّفاق. بدأت رسالتي بأن أخبرتها بمبلغ حبي لها، وكم أشتاق إليها، مُدَّعيًا أن ذهني مشغولٌ بها. وكي أسيطر قبلها على الحجة القائلة إنَّها آتية لمساعدتي، شددتُ على مسألة أنه حالفني التوفيق أصلًا في البيت وفي المدرسة. وبعدها أدرجتُ في قائمةٍ سائر الحجج التي بوسعي أن أفكر فيها، والمُخالِفة لخطتها: تكاليف السكن، وتكاليف العيش، والمناخ الفظيع، والعقبات أمام الحصول على وظيفة أو عمل وصعوبة إقامة علاقات صداقة. أشرت أيضا إلى أن الانتقال المقترح سيؤدي إلى تقسيم العائلة إلى قسمين. على الرغم من كون هذه هموما أصيلة، إلا أنني كنت عازما أيضا على حماية حياتي الجديدة، مهما كانت قسوة هذه الحياة.

وكتبتُ رسالةً مستقلة إلى داليا، وقلتُ لها ألَّا يضيق صدرها بسبب فشلِها في الحصول على إعفاء من الخدمة الوطنية. كتبتُ لها أن قرار الجيش

هو نعمة بزي نقمة. أخبرتها بأنني أعلم جيدًا رغبتها القوية في المجيء إلى إنجلترا إلا إني اقترحتُ أن هذا استندَ إلى جهلٍ بالظروف الحقيقية هنا. سيكون من الممتع أن تسافر، لكن هل تُريد فعلًا أن تقضي بقية حياتها في بلدٍ أجنبي، مع عائق اللغة، وأناس أجانب ومناخ مختلف جدًّا؟ كتبت لها أننا نعيش مرةً واحدة فقط، ومن المهم أن نعيش حياةً سعيدة ولا يمكنها أن تجد سعادتها إلَّا في إسرائيل. من خلال الخدمة في الـ(IDF)، سوف تُكمل واجبها إزاء الوطن الأم، شأنها شأن معظم الفتيات الإسرائيليات الأخريات اللائي في سنها. ستقابل في الجيش أفرادًا جُددًا، وتكسب خبرةً وربما تحصل على مهنة جديدة. عبَّرتُ عن رأيي أنني أرى الجيش هو أفضل مدرسة في العالَم لتعلُّم الحياة. وأنا أُعيد قراءة هذه الرسالة بعد ستين عامًا، دُهشتُ لرؤيتي كم كنتُ أبدو مُروِّجًا متحمِّسًا.

بالصدفة، لا أُمِّنا ولا داليا كانت لهما فرصةٌ حقيقية في المجيء للعيش في لندن حتى لو لم يتدخَّل الجيش. كان باستطاعتي بالتالي أن أوفِّر على نفسي كتابة تلك الرسائل التي خدمت مصلحتي الشخصية. أظهرتني (أي الرسائل) كما أنا عليه: فتًى في السادسة عشرة اشتاق حتمًا للديار، لكن في الوقت نفسه، أفزعته إمكانية أن يأتي نصف أفراد عائلته مع حقيبة سفر مليئة بالمشاكل السيكولوجية ويُفسدون حلمه في أن يبدأ بدايةً جديدة في أرض الميعاد الجديدة. ومرةً أخرى، وأنا أعود بنظري إلى الوراء، كنت مندهش إزاء قوة وعنف ردَّة فعلي.

مع إني لم أكن أرغب بأن يأتي أيُّ فرد من أفراد الأسرة إلى إنجلترا، كنتُ أعي بشدة دَيني الأخلاقي لهم. أحد أسباب أني عملتُ بنشاط

كبير، وفي الحقيقة أجهدتُ نفسي بالعمل، هو أن أبرهن بأن التضحية التي قدَّموها بإرسالي إلى إنجلترا لم تذهب سُدًى. كان لزاما عليّ أن أنجح مهما كلف الثمن، ليس من أجل نفسي فقط، بل أيضًا لأبرهن على ثقتهم التامة بي، وخاصة أمي. إدراكي بأنني قد أغلقت طريقهم بلا شك عمق شعوري بالذنب تجاه عائلتي. مع اقتراب الامتحانات الوطنية في فصل الصيف الدراسي، ضاعفتُ جهودي، وعملت لوقت متأخر. بعد انتهاء العشاء، أتوجه إلى غرفتي وأجلس على مكتبي لأعمل دون توقف حتى أُصبح غير قادر على البقاء مستيقظًا. على الرغم من كلِّ جهودي المواظبة والصارمة، على أية حال، لم يكن أدائي جيدًا في هذه الامتحانات؛ ثمَّة حدٌّ لما يُمكن لي إنجازه في تسعة شهور لا غير. أخذتُ خمسة مواد في مستوى - O -الإنجليزية، والفرنسية، والتاريخ، والرياضيات والتعاليم الدينية- والعِبرية الكلاسيكية في مستوى - A. اجتزتُ التاريخ، والتعاليم الدينية والعِبرية الكلاسيكية ورسبتُ في الإنجليزية، والفرنسية والرياضيات.

على الرغم من أنَّ الامتحان الشفوي للغة الفرنسية قد بدا سلسًا ومُتقنًا، إلا أنَّ النتيجة المُحبطة جاءت كصدمةٍ طفيفةٍ. قرأتُ فقرةً بالفرنسية للمرأة التي تمتحننا ومن خلال لهجتي خمَّنت أني إسرائيلي. كان سؤالها الأول ما إذا سبق لي أن كنتُ في مزرعة تعاونية إسرائيلية، أجبتُها أني زرتُ مزارعَ تعاونية إسرائيلية عديدة في فرق العمل من المدرسة كي أساعدَهم خلال موسم جني الثمار وكانت تلك تجربةً رائعة. وبعدها سألتني عن أشخاص معينين، وقلتُ لها إني أعرف معظمهم بالسُّمعة.

هذا الأمر منحني الفرصة لأن أسألها كيف عرفتهم، فردت عليَّ أنهم كانوا طلبة معها في أكسفورد. أعجبني كثيرًا هذا الجواب. قلَّما كنتُ أجرؤ على أن أحلم بالدراسة هناك. حتى لو نجحتُ في الامتحان الشفوي، وهو ما لم يكن لي علمٌ به، فقد رسبتُ بلا شكّ في الامتحان التحريري. هذا يعني إعادة المواد الثلاثة التي أخفقتُ فيها في تشرين الثاني/ نوفمبر القادم. ولحسن الحظ، اجتزتُ الاختبارات الثلاثة جميعها في المحاولة الثانية.

خلال المرحلة المُجهِدة والمُرهِقة المؤدية للامتحانات، استرخيتُ من خلال التخطيط للعودة إلى الديار لقضاء عطلة الصيف. مع إني تظاهرتُ بالشَّجاعة في رسائلي، كنتُ أشعر بحنين كبير. اشتقتُ إلى أسرتي، واشتقتُ إلى أصحابي، واشتقتُ إلى أشعة الشمس وأسلوب الحياة الخالي من الهموم الذي يرافقها خلال العطلة الصيفية الطويلة في إسرائيل. ما كان بوسعي أن أتخيَّل تكرار هذا في غولدرز غرين أو في نيوكاسل. عشت عامًا صعبًا وكنتُ بأمسِّ الحاجة إلى الهروب من الروتين المُضجِر. لكنني صُدمتُ، على نحو غير متوقع، بمعارضةٍ قوية من أمي. لم يكن السبب عدم اشتياقهم لي. لقد اشتاقوا لي، وظلوا يقولون هذا في رسائلهم. لكنَّ أمي كانت مقتنعةً، في حال رجعتُ إلى إسرائيل، بأن الجيشَ لن يسمح لي بالعودةِ إلى إنجلترا لمواصلة دراستي قبل أن أُنهي خدمتي العسكرية. تلقيتُ الرسالة الأولى من جيش الدفاع لبدء العملية في اليوم التالي لمغادرتي من حيفا بالبحر. أشارت استفسارات غير رسمية لاحقة إلى تعزيز قناعة والدتي بأنّ السلطات العسكرية لن

تمنحني إذن المغادرة. لذا شرعت تمطرني بوابل من الرسائل كي تُجبرني على تغيير خططي الصيفية.

وأنا أعيدُ قراءتها، أندهش من التشابهات بين رسائلها إليَّ ورسائلي لها ولداليا؛ تعلَّمتُ المناورة من خبير حقيقي. ازدادت نبرة أمي حدةً كلما زادت من الضغوط عليّ، ولم تتردد في اللجوء إلى الضغط المعنوي لتحقيق ما تريده. من بين الحجج المتنوِّعة التي استخدمتْها هي ما يلي: إنها أُعجوبة أنَّ أسرتنا، بحالتها المالية الفقيرة، نجحتْ في إرسالي للدراسة في إنجلترا؛ وأني محظوظ جدًّا أن أُمنَح هذه الفرصة؛ إنها فرصةٌ كي أُصبح رجلًا ذا منزلة رفيعة كأنْ أصبح مُحاميًا، أو طبيبًا أو مُهندسًا؛ والآن اعتزم أن أنسفها من أجل العطلة! وافقتْني على شعوري الطبيعي بالحنين لكنها خشيت من كوني بدأت أتخيَّل إسرائيل بوصفها جنةً بدلًا من كونها «زريبة خنازير» وهي فعلًا كذلك. وصفُ إسرائيل بزريبة الخنازير مبالغةٌ كبيرة، حتى بالنسبة لشخصٍ يهودي غير متدين مثلي اعتاد على المبالغة، وقد أدركتُ ذلك في حينها، لكنّني لم أقدّر إصرارها التام على إقناعي بالتراجع عن قراري بالحضور. وتاليًا توصَّلت إلى معرفة ما صنعته بها الحياةُ البائسة في إسرائيل.

على نحوٍ غير متوقَّع، جاء الدكتور كونوَي لإنقاذي. كتب إلى أمي كي يقول لها إنه تحقق من السفارة الإسرائيلية في لندن وقد طمأنوه أنْ لا توجد صعوبة بخصوص عودتي إلى لندن في نهاية الصيف. عندئذ فقط خفَّ الضغط ومُنحتُ موافقةً كي أباشرَ بالتخطيط بشكل مفصَّل لعطلتي الصيفية. شرعت في الأمر بحماسةٍ وكفاءة مذهلة بالنسبة لشاب

في السادسة عشرة من عمره يفتقر إلى الخبرة في الحياة. كانت خطتي أن أذهب بالقطار إلى باريس حيث أقضي بضعة أيام هناك، ومن باريس آخذ قطارًا إلى جنيف لأقضي أسبوعًا في سويسرا، ومن ثمَّ سأحصل على توصيلة بالمجان إلى إيطاليًا عبر ميلانو إلى البُندقية وآخذ سفينةً إلى حيفا. سأسافر بمفردي وأسكن في بيوت الشباب. في وقتٍ قصير، ويا للدهشة، تمكَّنت من الحصول على تأشيرات دخول إلى فرنسا، سويسرا وإيطاليا، ومن حجز تذاكر القطار والسفينة. على الرغم من بُخل خالي عمومًا، فإنَّ له فوراتِ كرمٍ عَرَضية. لقد أعطاني مالًا للعطلة - ربما لأن زوجته لم تتقبّل فكرة استضافتي خلال العطلة. حزمتُ حقيبةَ سفرٍ صغيرة مع أشياء أساسية قليلة وبدأت رحلةً محفوفةً بالمخاطر.

كل شيء جرى وفقًا للخطة حتى الجزء السويسري من الرحلة. في باريس، حصلتُ على حجرة في مهجع الطلبة كان صديقي إسحاق عزوري قد أمَّنها لي. كنتُ في معنويات عالية، ومتحرِّرًا من كل الضغوط المدرسية والسيكولوجية التي كانت تُثقل كاهلي. استمتعتُ بحرية التجوال في المدينة، وبزيارة الأماكن التي ترددتُ عليها سابقًا واستكشاف أماكن جديدة، مثل المتاحف، وحديقة النحت العائدة لأوغست رودان، ومتحف الفن الحديث في مدينة باريس. سويسرا كانت مُبهِجة أيضًا لكن لأسبابٍ مختلفة. في باريس جاءت الإثارة من زياراتي للمواقع التاريخية والمتاحف الفنية؛ في سويسرا سحرتني المناظر الطبيعية الجميلة، والبحيرات، والجبال والقرى الفاتنة. كان بيت الشباب في جنيف مقرَّ إقامتي السويسري. بدأت بالتنقل عن طريق التوصيل

المجاني حول البحيرة الجميلة، وهي بحيرة لم أشهد بجمالها من قبل. من بين الأمكنة التي استكشفتُها كانت لوزان، ڤيڤي ومونترو. سفرةٌ أخرى أخذتني إلى فريبورغ وبيرن ومن هناك رجعتُ إلى جنيف. في بطاقةٍ بريدية بعثتُها إلى الديار كتبتُ أنَّ ذلك هو أسعد أسبوع في حياتي.

لكن في الطريق من جنيف إلى إيطاليا، وقعت الكارثة. على خلاف ما يجري اليوم، الحصول على ركوب بالسيارة هو شيء سهل عمومًا ولم أكن أعتقد أبدًا أن التنقل عن طريق التوصيل المجاني ينطوي على أي نوع من المخاطر[1]. معظم السائقين الذين أقلوني كانوا رجالاً، وكنت عادة أجلس في مقعد الراكب بجانب السائق. أحد السائقين توقف كي يجعلني أترجَّل بعد قيادة طويلة ودردشة ودِّية. شكرتُه، وخرجتُ من السيارة وأغلقتُ الباب ورائي لكن قبل أن يتسنى لي الوقت أن أفتح الباب الخلفي كي آخذ حقيبة سَفري، قاد السيارة مبتعدًا. ذُهِلتُ ولم تخطر ببالي أيُّ فكرة على الإطلاق عمَّا يجب عليَّ فعله. كيف يُمكنني -بحقِّ السماء- أن أُكمل رحلتي الطويلة إلى إسرائيل؟ لحسن الحظ، محفظة النقود وجواز السفر كانا في جيوب بنطالي الجينز. كانت نصف نقودي تقريبًا في حقيبة السفر والباقي في محفظتي. قررت الذهابَ إلى أقرب مطعم لتناول وجبة غداء دسمة والتفكير بهدوء في مصيبتي. تبديد المال على وجبة طعام غالية ربما لم يكن، في استعادة أحداث الماضي، شيئًا معقولًا للغاية لكنَّه بدا كما لو أنه يخفِّفُ رُعبي؛ وجبة غداء جيدة لم تفشل أبدًا في تحقيق التأثير المطلوب.

---

(١) وهو ما يُعرف بالاستركاب hitch-hiking أو إيقاف السيارات طريقة سفر قليلة التكلفة [المُترجم]

بعد أن استعدتُ رباطة جأشي، وقفتُ عند الطريق ثانيةً وحصلت على توصيلة مجانية إلى ميلانو. في ميلانو ذهبتُ إلى القنصلية الإسرائيلية. رآني موظفٌ، شرحتُ له مشكلتي وطلبتُ منه قَرضًا. قال الموظف إنهم ساعدوا عددًا من الطلبة الإسرائيليين في ظروف مشابهة لكنَّ الطَّلبة لم يُسددوا القرض حين عادوا إلى الوطن. النتيجة هي إنهم أما لم يكونوا قادرين أو غير راغبين في مساعدتي. يذهب الإسرائيليون إلى الجامعة بعد أداء الخدمة العسكرية عادةً. لم أكن طالبًا جامعيًّا، أنا فتًى في السادسة عشرة، محتاج فعلًا، من دون مال ومن دون وسيلة للوصول إلى الوطن. إلا أن القنصلية لم تتحمل أي مسؤولية تجاهي.

غادرتُ القنصلية مُحبَطًا، تجولت ذاهلًا ودخلتُ إلى حديقة وجلستُ على مقعد. جاء رجلٌ وجلس بجنبي وبدأ حوارًا بالإنجليزية. بدا في مطلع أربعينياته، كان حسن الهندام وسلوكه لطيفًا. قدَّم نفسه بوصفه طبيبًا بلجيكيًّا في عطلة. بينما كنا نتحدَّث، نشرَ خريطةً للمدينة فوقنا ووضع يده على ركبتي. كنتُ ساذجًا للغاية كي ألتقط الإشارة بأنه من المحتمل أن يكون متحرشًا جنسيًا. في مقارنةٍ واضحة مع الموظف الإسرائيلي، كان الطبيب البلجيكي متعاطفًا وراغبًا بتقديم العون. اصطحبني خارجًا كي نتناولَ العشاء في مطعم. في نهاية العشاء، قال إن لديه غرفة كبيرة في فندق مع سرير احتياطي وسيكون من دواعي سروره أن أقضي ليلتي هناك. بينما كنتُ لا أزال غير مرتابٍ بشيءٍ، قبلتُ دعوتَهُ وسرتُ معه إلى غرفته بالفندق حيث كان هناك فعلًا سريران مفردان. لكنَّ شيئًا ما في سلوكه أثار شكّي. قلتُ له إني مُتعَب وأرغب

بالخلود إلى النوم. بعدها جاء وجلس على السرير وطوَّقني بذراعه. تكوَّرتُ في هلع. وضع سبابته على شفتيه، ومن ثم شرح أنه لا يريد الجنس، بل يريد التقبيل فقط. هذا قلَّما يكون مُطمئنًا. نهضتُ، شكرتُه على العشاء، وبهدوء سرتُ إلى الخارج، من دون أن يُوقفني، وفركتُ قطعتي النقديتينِ الباقيتين من أجل سرير في بيت الشباب.

صباحَ اليوم التالي، خرجتُ إلى الطريق مجددًا، متَّجهًا إلى البندقية. هذه المرة كنتُ محظوظًا، ومن جديد وجدتُ مُنقِذًا - هذه المرة مُنقذًا من دون دافع خفيٍّ. رجلٌ على دراجة نارية ضخمة ماركة هارلِي - دافيدسون توقف وسألني أين وجهتي. أخبرته بالقصة كلِّها، تاركًا فقط الجزء المتعلِّق بالطبيب البلجيكي. راكب الدراجة النارية اسمُه «إد»، وكان أمريكي الجنسية، بحوزته معدات تخييم ومن دون خط رحلة ثابت أو جداول زمنية ثابتة. تولَّاني برعايته. باقتراحٍ منه، ذهبنا إلى أقرب مكتب بريد كي أرسل برقية إلى خالي في نيوكاسل كي أُبلغه بالحالة الطارئة وأطلب منه أن يرسل إليَّ المال برقيًّا (أعتقد كان المبلغ ١٥ جنيهًا إنكليزيًّا) إلى البريد المُستلم «پوست ريستانتي» في البندقية. أمضينا يومًا أو يومين مخيِّمَيْنِ عند بحيرةٍ ما وحين وصلنا إلى البندقية كانت النقود بانتظاري. بعثتُ برقيةً أخرى كي أشكرَ خالي على تقديمه العون المالي وإنقاذي من هذا المأزق. كان هنالك عائق آخر ينبغي التغلُّب عليه: تذكرة السفينة من البندقية إلى حيفا كانت أيضًا في حقيبة السفر العائدة لي ولم يكن بمقدوري أن أتذكر اسم الشركة. هذا الأمر يستلزم الذهاب من مكتب شحن بالسفن إلى آخر إلى أن وجد أحدها اسمي في قائمة

المسافرين وأصدر لي تذكرةً أخرى كما ينبغي. شكرتُ «إد» شكرًا جزيلًا على كلِّ ما فعله من أجلي واعتليتُ متنَ السفينة التي ستوصلني إلى حيفا.

حظيتُ باستقبالٍ حارٍ لدى وصوليٌّ. هنالك قدرٌ كبير من الأشياء كان يحتاج كل واحد منا أن يُخبر بها الآخر منذ آخر لقاء بيننا، لكن هنالك أيضًا متسعٌ من الوقت كي نفعل ذلك. أمضيتُ الأسابيع القليلة التالية في زيارة الأقرباء القريبين والبعيدين، ولقاء الأصدقاء القدامى، والذهاب إلى شاطئ البحر في تل أبيب أو إلى حمام السباحة الفخم في فندق أكاديا بمدينة هرتسيليا، أو مجرد القراءة والاسترخاء في المنزل. كانت رَمات گان على الدوام مكانًا كئيبًا وباهتًا، إلا إنها بدت ريفيةً أكثر من قبل مقارنةً بلندن وباريس، بالرغم من أنَّ هذه يقينًا مقارنة ظالمة. على جبهة البيت تغير شيءٌ قليل: أبي لا يزال عاطلًا عن العمل. أمي واصلت عملها موظفة هاتف في دار البلدية. ودااليا كانت تؤدي خدمتها الوطنية. بينما ڤيلما كانت لا تزال في المدرسة ولم يكن ثمَّة شعور كبير بالهدف أو التقدُّم. بالنسبة إليَّ بدوا جميعًا كأنهم منجرفون مع التيار، ربَّما يرجع السَّبب إلى أنني الآن مُصمِّمٌ جدًّا على ألَّا أنجرفَ. بالأحرى، بدت الأسرة مختلَّةً وظيفيًّا أكثر مما كانت عليه قبل مغادرتي.

يشقُّ عليَّ القولُ ما إذا تغيَّرت الأسرة نحو الأسوأ أم أن منظوري هو الذي تبدَّل. أغلب الظن الاثنان معًا. قضاء الوقت مع أصدقائي من جمنازيا دڤير، من الناحية الأخرى، حرَّرني من شتَّى أنواع قلقي. ببساطة واصلْنا من حيث توقفنا. رغبَ أصدقائي بمعرفة كلِّ شيءٍ عن رحلاتي وحياتي خارج البلاد. ثمة شيء واحد كان بوسعي أن أدركه ألا وهو

أني ارتقيتُ في تقديرهم لأني كنتُ أدرس في لندن، وهو شيء نادرٌ في إسرائيل تلك الأيام من التقشف. نتيجةً لمنزلتي التي ازدادت قيمتُها، كنتُ واعيًا بصورةٍ أقل كبتًا وإيلامًا بمسألة كوني عراقيًّا، كما كنتُ أقل صمتًا وانطواءً.

أقام تشارلز كونوَي معنا بعض الوقت الذي كنتُ فيه هناك. كانت تلك فرصة لي كي أُريه أرجاء البلاد ولأمي كي ترد له حسن الضيافة الذي تلقيتُه من أسرته. عطلتنا في الشمس كانت مُثيرةً ومفعمة بالنشاط، مقارنةً بالصرامة المدرسية التي سيطرت على حياتنا في إنجلترا. لم أستطع إلا ملاحظة الجهود التي بذلتها أمي كي تُرحِّبَ بتشارلز وكم يُمكن مقارنة دفئها ومرحها مع رسميات آل كونوَي. هل لاحظ تشارلز هذا أيضًا؟ لا يسعني أن أجزم. لكن قبل أن أعرف أين كنتُ، آنَ الأوان كي أصلَ إلى السفينة المتجهة لمارسيليا ومن ثم سأسافر بالقطار وأعود ثانيةً بالعبَّارةِ إلى لندن.

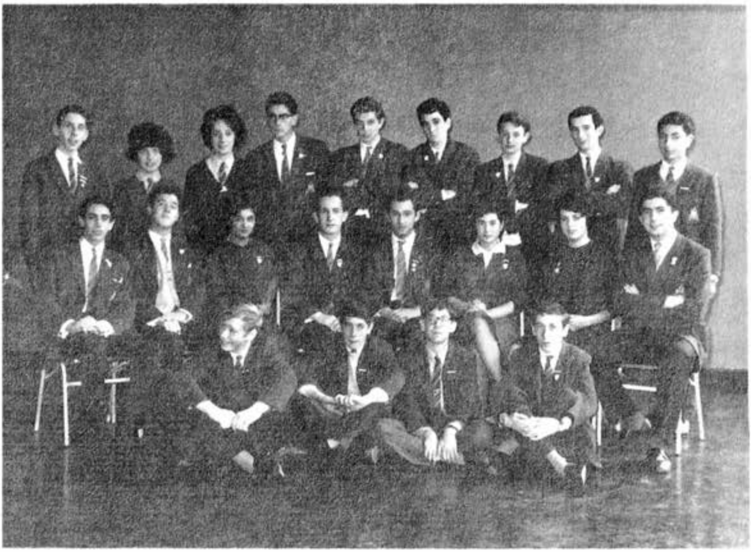

آڤي في الصَّف السادس بالمدرسة اليهودية الحُرَّة (JFS) بمنطقة كامدِن في لندن.

الفصل الثاني عشر
الصحوات

عند عودتي إلى لندن، بدأت الدراسة في أول صف سادس في تاريخ المدرسة اليهودية الحُرَّة؛ ففي السابق معظم الطلبة كانوا يتركون المدرسة في سن السادسة عشرة للحصول على عمل. بلغ عدد طلاب الصف الذين استمروا على مستوى A - حوالي عشرة طلاب، وكانوا جميعًا من الذكور. خُصصت لنا غرفة للدراسة الخاصة في مؤخرة المسرح بإحدى القاعات، على بعد مسافة معينة من غرف الدراسة الأخرى. نظرًا لعدم وجود معلم للإشراف علينا «من وراء الكواليس»، قضينا الكثير من الوقت في الثرثرة والتصرفات الطائشة. كان بعض الطلاب أكثر تفانيًا من الآخرين، لكن الجو العام كان متساهلًا ومرحًا إلى حد كبير. إحدى الوقائع الجديرة بالذكر تتعلَّق بمدير المدرسة، وهو يوبخ بقسوة فتًى وفتاة تجاهلا أحد الدروس كي يختليا ببعضهما. كان باستطاعتنا سماعهما، لكنَّهما عجزا عن رؤيتنا أو سماعنا. سألهما مدير المدرسة لماذا لم يكونا في الصَّف. لا جواب. ومن ثم سألهما ما إذا كانا هناك من أجل قُبلة أو عِناق. كانت هذه أول مرة أصادف فيها هذا التعبير وأضفته إلى مجموعة العبارات الإنجليزية لما أتمنى أن أستعمله في المستقبل.

للمستوى - A، اخترتُ التاريخ، الفرنسية والدستور البريطاني. عبَّرتُ عن اهتمامي في العمل، بالإضافة إلى ذلك، مستوى - A في الأدب الإنكليزي لكنَّ السيد ريتشاردز، معلم الإنجليزية قضى لا شك، بنحو صائب في حينها، أن لغتي الإنجليزية لا تؤهلني لذلك. تضمَّنتْ الفرنسية الحوار، والترجمة ودراسة مُعمَّقة لستة نصوصٍ فرنسيةٍ مُحدَّدة: رواية، ومسرحية، وعمل فلسفي، ومجموعة من القصص القصيرة ومُجلَّد من الشِّعر. كلُّ واحدٍ من هذه الكتب هو إلهامٌ مُدهِش بطريقته الخاصة ومصدرٌ للسعادة العميقة. لم يكن هناك سوى طالب آخر مشترك في صف اللغة الفرنسية، وكان من المفترض أن يكون من السهل جدًا تعليم صفًا مكونًا من طالبين. لسوء الحظ، تبيَّنَ أنَّ معلمتنا، معلمة الفرنسية، كانت خيبة أمل حقيقية. كانت السيدة داويد تعلِّمنا الفرنسية في الصف الخامس، لذا عرفنا أنها لم تكن أشد المعلمين نشاطًا. تصوَّرنا أنها سوف تُصبح أكثر حيوية حين يُصبح العمل مثيرًا للانتباه أكثر، لكنَّها ظلَّت غير مستعدة كما هو شأنها دائمًا. كانت تتكلَّم الفرنسية بسلاسةٍ كبيرة وبلهجةٍ سليمة وعملت كثيرًا كي تُحسِّن مهاراتنا الحوارية، إلا إنها كانت تميل إلى إهمال الجوانب المطلوبة أكثر، مثل القواعد والنصوص المحدَّدة. بحلول منتصف العام الدراسي، أصبحتُ مُحبطًا بنحو خطير بسبب خطوات التقدم البطيئة. لم أذكر هذا للدكتور كونوَي، لكنني استجمعتُ، في يومٍ من الأيام، شجاعتي ومضيتُ لرؤية السيد فيلسيستاين، وكيلِ المدير. سألتُه ما إذا يُمكنني أن أحصل فترات حرة كي أدرس بمفردي بدلًا من حضور دروس السيدة داويد. كما هو متوقَّع، استفسر عن سبب هذا الطلب. أجبتُه أننا لا نحقِّق تقدُّمًا كبيرًا مع السيدة داويد وأخشى أن هذا

الإيقاع البطيء لن يُمكّننا من إنهاء عناصر المنهج في الوقت المناسب. استمع إليَّ بانتباهٍ، ووجَّه إليَّ بضعة أسئلة، ومن ثم أمرني بأن أستمر في حضور دروس السيدة داويد حتى إشعارٍ آخر. في وقتٍ لاحق من ذلك اليوم، شوهدت السيدة داويد تخرجُ بعينين دامعتين من مكتب السيد فيلسينستاين.

عزَّزتْ شكواي بشأن السَّيدة داويد ثقةً متزايدةً بالنفس. في العام الدراسي الأول كنتُ مُمتثِلًا، حذِرًا من محاولة إثارة المشاكل، متلهِّفًا لإرضاء الآخرين بأيِّ ثمن. في السنة الثانية، بدأ طموح التميز الأكاديمي يقلل رغبتي في الاندماج والانسجام مع المجموعة، بمعنى أنه بات شغف التفوق الدراسي يحظى بأهمية أكبر في حياتي. ولأني كنت أبدو جديًا ومسؤولا للغاية، أخذوا بشكواي على محمل الجد. كان معلم الفرنسية الجديد شابًّا يهوديًا اسمه رون أديلمان. تخرَّج حديثًا من جامعة ليدز، وأعتقد أن هذه هي وظيفته الأولى. خاض السيد أديلمان غمار التدريس بطاقة وبراعة كبيرتين وكرّس نفسه لهذا العمل. كان حاذقًا، ونشطًا ومُسليًا، وحماستُه مُعدية. جعل دراسة اللغة الفرنسية ممتعة وخلق من تجربة قراءة الأدب الفرنسي متعة حقيقيةً. لا يمكن للتناقض بينه وبين السيدة داويد أن يكون أكبر مما كان عليه. على يد السيدة داويد درسنا رواية «موثِّق عقود الهافر» لجورج دوهاميل و«الحكايات الثلاث» لغوستاف فلوبير. أمَّا لدى السيد أديلمان فدرسنا بعمقٍ أكبر بكثير «طرطوف» وهي كوميديا مسرحية لموليير، و«كانديد أو التفاؤل» وهي رواية عن المتشردين لفولتير، ومختارات من الشعر الفرنسي في القرن السابع عشر.

كان موضوعي الثاني لمستوى - A هو الدستور البريطاني. على الرغم من اسمه الجاف والتقني نوعًا ما، تضمَّن هذا الكورس تقريبًا كلَّ الجوانب الرئيسة من السياسة البريطانية، مع التركيز على المؤسسات. من بين المواضيع التي غطيناها: الحُكم المَلَكي، والحكومة الوزارية، والبرلمان، والسلطة القضائية، وحُكم القانون، والأحزاب السياسية، والنظام الانتخابي والحكومة المحلية. حين وصلتُ إلى إنجلترا، لم أكن أعرف عمليًّا أيَّ شيء عن السياسة البريطانية. بعد وصولي إلى منزل عائلة كونوَي بفترة وجيزة، أطلعني تشارلز على المشهد برمته. بما أنني اكتسبتُ خبرتي في إسرائيل التي شجّع نظامها التمثيلي النسبي تكاثر الأحزاب الصغيرة، ضايقتُه بالإشارة المتكررة إلى الحكومة بوصفها «إئتلافًا» أو «تحالفًا».

من خلال دراسة الدستور البريطاني على مدى عامين، اكتسبتُ معرفةً أساسية عن النظام السياسي البريطاني، بالإضافة إلى بعض المعلومات عديمة الفائدة من المعلومات مثل أين يُحفَظ الصولجان في مجلس العموم. كان مدرسنا في هذه المادة، وكذلك مربي الصف، ورئيس بيت زَنغويل هو ڤيكتور إيليس، أحد أعضاء الكادر التدريسي من غير اليهود. كان معلِّمًا إيجابيًّا ووديًّا إلى حدٍّ كبير. بينما كان لطيفًا ومُساعِدًا لسائر الطلبة، ميَّزني باهتمامٍ خاص، وكذلك بتشجيع ومديح بالغيْنِ. في تقاريره، أشاد بتفانيّ الممتاز في العمل، وأثنى على شخصيتي وأخلاقي الرفيعة. كما أشار إلى مثابرتي، وتوسعي الملحوظ في مفردات اللغة الإنجليزية، ووصفني بأنني موهبة جامعية بلا شك، امتلك عقلًا تحليليًا ثاقبًا. وذكر أني كنت

من خيرة طلابه، ولم يشك مطلقًا في نجاحي مستقبلًا. لم يكن بمقدوري أن أكتفي بالسيد إيليس! أعي كيف أبدو مادحًا نفسي حين أستشهد به اليوم، ومع ذلك في وقتها كانت هذه التقارير ضروريةً لتعزيز ثقتي بنفسي.

كان التاريخ موضوعي المفضل في المدرسة. عند وصولي إلى إنجلترا، كانت معرفتي بالتاريخ بشكل عام ضئيلة وغير مكتملة، ولم يكن لديَّ اهتمامٌ خاص بالموضوع. معظم ما تعلمته في دروس التاريخ كان عن تاريخ الشعب اليهودي وتأسيس دولة إسرائيل. كان التوكيد في التاريخ اليهودي منصبًّا على الاضطهاد والاستشهاد، بينما في التاريخ الإسرائيلي كان التوكيد على البطولة والافتداء؛ التاريخ الذي علَّمونا إياه في المدرسة قلَّما يُمكن تمييزه عن الدعاية الصهيونية. خلال عامي الدراسي الأول في (JFS) عرَّفوني على الاقتصاد والتاريخ الاجتماعي البريطانيين في القرن التاسع عشر. ليس الموضوع وحده مُملّ، بل حتى الأسلوب الذي دُرِّس به، وهو التعلُّم بطريقة الحفظ بلا فهمٍ، مُمِلٌّ جدًا. كان ذلك فقط في الصف السادس عندما شعرت لأول مرة بمتعة وتشويق دراسة التاريخ. كانت عناصر منهج مستوى - A تنقسم إلى ورقتين: التاريخ البريطاني في القرن التاسع عشر والتاريخ الأوروبي في القرن التاسع عشر. كان هنالك خمسة فتيان في الصف والمعلم هو دينيس فيلستنشتاين.

كان السيد فيلستنشتاين مثالًا للمعلم المثالي بكل معنى الكلمة، إذ يمتازُ بدرجة عالية من المعرفة، وكان دائمًا على أهبة الاستعداد، ويغطي المنهج الدراسي بأكمله في الوقت المناسب، كما أنه جعل المادة الدراسية

شيقة وحيَّة، وقدّم لنا ملاحظات تفصيلية وبناءة حول أعمالنا المكتوبة. باختصار، عمل كلَّ ما بوسعه كي يُخرِج أفضل ما في داخلنا. نحن، من ناحيتنا، كنا نكنُّ له احترامًا كبيرًا، وبذلنا أقصى جهودنا، بدرجاتٍ متفاوتة، كي نرقى إلى مستوى توقعاته. لم تشهد دروسه سوء تصرُّف، ملاحظات سخيفة، كثير ضحك أو حتى مزاحًا خفيفًا. استثناءٌ واحد حصل حين وجَّه إلينا السيد فيلسينشتاين سؤالًا. أجاب أحد الفتيان، «أليس هو كذا وكذا؟» فردَّ عليه السيد فيلسينشتاين بغضب وتهكُّم، «لماذا يُجيب اليهود دومًا على السؤال بسؤال؟!» مصطنعًا لهجةً ييدشية مُغالى فيها، أجاب قائلًا «ڤاي نوت؟»[1].

أقضي عطلتيْ عيد الميلاد الكريسماس والفصح عادةً مع خالي إسحاق في نيوكاسل. أقاما، هو وزوجته دوريس، في منزل واسعٍ مستقلٍّ ينتمي لطراز العِمارة الإدواردية، مليء بالأثاث العتيق والأنيق. ليس لديهما أطفال بما أن دوريس كانت في منتصف العمر أصلًا حين تزوجا. إسحاق الآن في مطلع خمسينياته وبالنسبة لي بدت دوريس أكبر سنًا منه بكثير. في حقيقة الأمر، كانت تكبره بأربعة أعوام: وُلِدت في العام ١٩٠٦ أما هو فقد وُلِد في العام ١٩١٠. كان والد دوريس مهاجرًا يهوديًا من روسيا القيصرية استقرَّ في نيوكاسل وأنشأ محلَّ خياطة. جمعت شخصيتها بين الجهل والعجرفة بالتساوي تقريبًا، واعتبرت هارولد ولسون، زعيم حزب العمال البريطاني، سيئًا بقَدْر هتلر. بالإضافة إلى

---

(١) ڤاي نوت: وردت هكذا في النص الإنكليزي الأصل «Vy not?». والمعنى واضح: «لِمَ لا؟». [المُترجم].

ذلك، فقد كانت دوريس بخيلةً إلى أقصى الحدود. في عيني كمراهق، لم يشفع لها شيء.

دوريس وإسحاق كانا ثنائيًا غريب الأطوار. كانا متضاربين من الناحية المزاجية، وكانا يقضيان كثيرًا من الوقت متخاصمين. امتلكا ثلاث بنايات كبيرة قُسِّمت إلى شقق سكنية، وإيجار الشقق زوَّدهما بعائدات مالية ضخمة. الشيء الوحيد الذي تشاركاه كان البخل الشديد. استاءت دوريس بمرارة من مبلغ المال الذي أنفقه خالي على تعليمي، الذي يبلغ نحو خمسين جنيهًا إنجليزيًا في الشهر: ثلاثون جنيه إنجليزي شهريًّا لآل كونوَي عن رعايتي، وثمان جنيهات كمصرف جيب والبقية للنفقات الإضافية الملابس، السفر والعطلات. كنتُ أعرف أنَّ نانا عرضت أن تدفع تكاليف تعليمي في لندن من عائدات بيع منزلها في بغداد. لكن بما أنَّ إسحاق ربما صرف مالَها، تعيَّن عليه الآن أن يدفع الثمن من جيبه الخاص. كان هذا مصدرًا للتوتر الدائم بين الزوج وزوجته.

على الرغم من ذلك، فخلال إقاماتي في نيوكاسل، كنتُ دومًا أنال رعاية جيدة جدًا وحتى كنتُ مُدلَّلًا - وهو أمر مرحب به للغاية بعد صرامة أسرة كونوَي. لم يكن بوسع دوريس أن تطهو على الإطلاق لذا وَجَبَ على خالي أن يقوم هو بالطهي كلِّه. كان طاهيًا ممتازًا. طعامه أشبه بالطعام المطبوخ الذي تعوَّدتُ عليه في بغداد - حار ومُشبَّع بالتوابل مع مقدار كبير من الكاري والهيل. لم يقتصر الطعام على الغذاء المعتاد كالدجاج والأرز، فقد كانت موهبته تمتد إلى ما هو أبعد من ذلك بكثير. حيث كان بإمكانه تحضير أطباق شهية مثل لحم الضأن والباذنجان،

كرات اللحم المفروم والباmياء بعصير الطماطم، و«المسگوف»، السمك المشوي على الطريقة العراقية - اليهودية التقليدية. على عكس وجبات المدرسة الروتينية وطعام السيدة كونوَي الصحّي والممل، كان طعام خالي بمثابة متعة حقيقية لي، حيث إنّي كنت أستمتع بطعمه اللذيذ الذي يذكرني بالوطن. على الرغم من أنّ كليهما كان عطوفًا معي، كانا دائمًا ما يتبادلان الانتقادات اللاذعة في غيابي. حاول كل منهما كسب تعاطفي من خلال سرد روايته الخاصة للقصة، فوجدت نفسي متورطًا بهذه الخلافات رغمًا عني. في مرة عندما كنا وحدنا، اعترف عمي بأنه وقع في فخ ويشعر بالتعاسة في زواجه. سألتُه ما إذا فكَّر بالطلاق. ردَّ عليَّ أنه فعل ذلك مرارًا، وقد استشار محاميًا في إحدى المرات. كما أراني رسالةً كان قد كتب مسوَّدتها باقتراح من المحامي، عارضًا دوافعه المختلفة للطلاق. لكنَّه تخلَّى عن الدعوى قبل أن تصل إلى المحاكم. سألتُه عن السبب. أجابني بأن القانون الإنجليزي مجحف في حق الأزواج الذين يطلبون الطلاق. في دعواه، يقضي القانون بأن يتخلَّى عن البيت الزوجي، وأن يقسِّم الأصول ويدفع المهر إلى زوجته التي تخلَّى عنها. صدمتني حججه القانونية في حينِها واعتبرتُها غطاءً لجُبنِه، لكنني أحجمتُ عن قول ذلك.

أتذكر حادثةً بوضوح. كانت دوريس مشاكسة وكريهة الطبع للغاية (لستُ مستشار زواج حياديًّا بالضَّرورة) بحيث أصبح الجو في البيت لا يُطاق. اقترح خالي أن نذهبَ أنا وهو في جولةٍ بالسيارة وفعلنا ذلك. كان يومًا شتويًّا باردًا ذا غيوم داكنة ومطر. تجولنا بالسيارة دون هدف لمدة نصف ساعة تقريبًا، وانتهى بنا المطاف في مركز حديقة. توجد نافورة مياه

صغيرة تقع وسط الحديقة. اعتاد بعض الزوار على اعتبارها بئرًا للأمنيات. قذف خالي قطعة نقدية في البئر وتمنَّى شيئًا ما بصمتٍ. ومن ثم أعطاني قطعة نقدية واقترح أن أحذو حذوه. فعلتُ ذلك. كانت أمنيتي السرية التي كنتُ خجلًا من الاعتراف بها هو أن تموت زوجة خالي فجأةً. سألني خالي، بطريقةٍ مرتبكة ومتردِّدة نوعًا ما، ماذا تمنيت. رفضتُ الإجابة. قال إنه يعتقد أنه تمنى الأمنية ذاتها ولعله خمَّن بصورة صحيحة.

في ربيع العام ١٩٦٣، اصطحبَ خالي إسحاق زوجته دوريس في إجازة لمدة أسبوعين لزيارة أسرتنا في إسرائيل. بعد تقاعده من الجيش البريطاني واستقراره في المملكة المتحدة عقب الحرب العالمية الثانية، انقطع التواصل بينه وبين أقاربه لثمانية عشر عامًا. صُدِمَ تمامًا عند وصوله إلى إسرائيل بتدهور أحوال الأسرة كلِّها. أُمُّه، التي كانت تمتلك فيلا باذخة على نهر دجلة في بغداد، تسكن الآن في بيت صغير جدًّا من غرفة واحدة في رَمات گان. تذكَّر أعمامه يعقوب وشاؤول ويوسف الذين كانوا تجَّارًا أثرياء ذوي مكانةٍ اجتماعية مُعتَبرة في بغداد. الآن رأى بنفسه كم انحدروا بشدة في العالَم. كان يعقوب يملك محل بقالة، أما شاؤول فلديه دكان لبيع الفاكهة والخضار، أما يوسف فكان يعمل سائق تكسي.

كما عبَّرت أمي في رسالتها إليَّ، أن إسحاق، الذي ترك وراءه رجال أعمال أذكياء، جريئين، ناجحين، شعر بالحزن الشديد حين رأى أنهم أصبحوا الآن مجرد أشباح لما كانوا عليه سابقًا. أبي هو المَنظر الأكثر حزنًا لدى رؤيته، لأنه كان أغناهم جميعًا أما الآن فهو عاطلٌ عن العمل. كما خابَ ظنُّ إسحاق بشقيقه الأصغر ألفريد، الذي كان ينجرف مع

التيار بلا هدف. قرب نهاية إجازته، كان لإسحاق جدالٌ مُتأجج مع أمهِ، موزلي حول المال أو، بنحو أدق، حول تسديد نفقات تعليمي. لا أعرف التفاصيل؛ ما أعرفه فعلًا هو أنَّ الجدال انتهى مع موزلي وهي تقول لإسحاق في وجهه إنَّها لا تثق به.

بعد وفاة أمي، نقَّبتُ في جميع أوراقها وعثرتُ بالمصادفة على رسالةٍ كتبها لها إسحاق من نيوكاسل في ٣٠ آذار/ مارس ١٩٦٣، أي بعد عودته من الرحلة إلى إسرائيل. لطالما كانت أمي مُصلِحة ذات البين على الدوام. كتبت أن موزلي نادمة على الرسالة (بالعربية - اليهودية) التي بعثتها له، وينبغي له ألَّا يقلق بشأنها. رفض أن يلين أو يقتنع، وتجاهل النصيحة، وأكد أن الرسالة ليست مزحة، وأضاف:

كتبتُ لها [موزلي] رسالةً بغيضةً جدًّا وقطعتُ كلَّ علاقاتي معها ولن أرى وجهها القذر والقبيح للغاية ثانيةً. كنتُ سَئمًا منها طوال حياتي. توصَّلتُ إلى استنتاجٍ مفاده أنها مجنونةٌ حقًّا، وعليكِ أن تكوني حذرة منها لأنها تحسد أولادها وتُريد أن تخلق قلاقل بيننا... بصدقٍ، عايدة لو كنتُ في إسرائيل لكنتُ رميتُ تلك القطة القذرة من الشرفة إلى قارعة الطريق. تصرَّفت تصرُّفًا سيئًا للغاية معي. مالُها في لندن وصُرِف على تعليم آبي. ليس لي صلةٌ بالنُّقود. لن ترى قرشًا واحدًا منه قبل أن يُنهي آبي تعليمه ويحصل على شهادته. مع إنها نقودها، عليكِ أن تطمئني عايدة أني أحتاج إلى أن أضيف بقدر الضعف عن تكاليفه. لقد صممتُ على أن أُعطي آبي الفرصة ... أنا ألومكِ وألوم ألفريد لأنكما جعلتماها تكتب لي بهذه الطريقة لأني أرى أن ألفريد كتبَ المظروف لها. على أية حال عايدة أُريد

أن أوضح لكِ ولألفريد أنه كي تُحافظا على محبتي وحناني تجاهكِ وتجاه الأطفال وألفريد. أنا لن، أكرر، لن، ولن، أكرر لن، أرسل أيَّ شيء من لندن إلى أيٍّ واحدٍ منكم. أُريد أن يكون هذا واضحًا كي لا يكون هنالك مزيدٌ من حالات سوء الفهم.

أحسَّتْ أمي، أكثر من الخال إسحاق، بتدهور أحوال أفراد أسرتنا: كان مجرَّد زائر، ينبغي لها أن تتعايش مع العواقب. احتوتْ رسائلُها لي على إشاراتٍ متكررةٍ عن رتابة وبؤس حياتها في إسرائيل، وعن رغبتها المستميتة في الخروج منها. كانت تُشير عادةً إلى إسرائيل بوصفها سجنًا: كانت تشعر بأنها مختنقة ومُضطهَدة. كانت شكواها الرئيسة هي أن العبء الأثقل المتعلِّق بدعم الأسرة وقع على كاهلها. كانت تنتقد داليا لأنها لا تساعدها ولأنها ترغب بالدراسة بدلًا من الخروج للعمل بعد تسريحها من الجيش. كان ذلك تناقضًا صارخًا مع التزامها العاطفي وتضحياتها التي كانت مستعدةً لتقديمها لي كي أحصلَ على تعليم جيِّد.

أمَّا بخصوص أبي، ذكرت أمي شيئًا قليلًا جدًّا؛ لكنَّ خيبة أملها فيه طفت على السطح أحيانًا. في ٢٢ حزيران/ يونيو ١٩٦٣، كتبت قائلةً: «طوال الأعوام العشرة المنصرمة، كان أبوك أشبه بسائح في هذه البلاد. أما أنا فقد كافحتُ كي أهتم بمدرستكَ، وطعامكَ، وملابسكَ وكان هذا يفوق طاقتي أصلًا. أما مسألة أن أفكر في الأثاث فكان من مظاهر الترف غير الواردة إطلاقًا. أمي ليست مستعدةً للمساعدة. إنها تُنفق مبلغًا كبيرًا جدًّا عليك، إنها تعتقد أنها تفعل أكثر مما هو كافٍ وهذا صحيح، ولا يسعني أن أطلب منها المزيد. على كلِّ حال، أنا ضَجِرةٌ

بشدة من البيت ومن أولئك الساكنين فيه. هم وكلُّ شيء يُثير أعصابي». سمعتُ وجع أمي لكنني لم أكن قادرًا على تقديم العون.

احتوتْ هذه الرسالة على أول تلميح بأنَّ أمي تفكر في الطلاق. وفي رسالةٍ أخرى كتبت قائلةً، إنه حين كنا، أنا وشقيقتاي صغار السن، التزمت الصمت وعانت من دون تذمُّر. أما الآن فهي تعتقد أني كبرتُ بما يكفي كي أفهم بأن المرأة ليس باستطاعتها حمل كلِّ هذا العبء المتعلق بالاهتمام بالأسرة وحدها، لا يُمكن لها أن تكون كالعَبدة، فهي تحتاج إلى شريك يساعدها في تحمُّل المسؤولية. كان التضمين واضحًا: أبي لم يعد شريكًا. مُنِح أبواي طلاقًا من قبل محكمة حاخامية في تل أبيب في ١٨ آذار/ مارس ١٩٦٤. لم أكن هناك كي أكون شاهدًا على سلسلة الأحداث التي أدَّت إلى الانفصال النِّهائي. كلُّ ما أعرفه هو ما سمعتُه من أمي، في البداية بإيجاز عبر الرسائل وبمزيد من التفصيل لاحقًا، حين رجعتُ إلى إسرائيل. وفقًا لها، لم يكن زواجهما في إسرائيل كما كان عليه من قبلُ. بينما كان أبي يجلس متكاسلًا في البيت، تعيَّنَ على أمِّي الخروج للعمل كموظفة هاتف في دار البلدية؛ كانت هي المُعِيلة الوحيدة، وأصبحت مُحبَطة. كانت امرأة شابَّة في ذروة طاقتها، وكان هو رجلًا في منتصف العمر، مريضًا وفي حالة انحدار. حدثت لحظة مؤثرة لا سيما حينَ أخبرتها زميلة لها في مبنى البلدية أنّ والدها جاءَ يبحث عنها. لم يكن الرجل الذي نتكلَّم عنه أباها؛ بل زوجها.

لم يكن طلاق أبويَّ قاسيًا. تؤكد أمي أنَّ أول إيحاء بالطلاق جاء من زوجها، وليس منها. في روايتها للأحداث، ذات يوم قال لها: «أنظري.

أنا أشبه برجل غريق. لا أُريد أن أجرَّكِ أنتِ والأولاد معي. لذا دعيني أمضي بعيدًا واهتمي أنتِ بالأولاد». لدى ڤيلما، شقيقتي الصُّغرى، التي كانت في تلك الأيام في الرابعة عشرة من عمرها، رواية أخرى للأحداث. بعد مُضي أعوام طويلة أخبرتني أنها تعتقد أنَّ أُمنا هي التي أخذت زمام المبادرة، وأن فكرة الانفصال جاءت منها وأن أبانا كان حزينًا بشأنها. تتذكر ڤيلما بغموض أنها استرقت السمع إلى حوارٍ بالعربية بين والدنا وداليا. تعتقد ڤيلما أنه قال لداليا إنَّ أمنا تُريد الطلاق وإنَّها طلبت منه أن يترك بيت الأسرة وهو لم يكن يعرف ماذا يفعل. هل بمستطاع داليا أن تساعده؟ بدت داليا مضطربة ومُحرَجة لأنه ليس بوسعها أن تفعلَ شيئًا. تعتقد ڤيلما أنها تمتمتْ قائلةً، «ماذا يُمكنني أن أفعل؟» وعلى كلِّ حال، لغة جسد داليا نقلت تلك الرسالة. ليس بمقدور داليا تذكُّر هذا الحوار.

يصعب التوفيق بين رواية ڤيلما ورواية والدتنا، ولكن من المحتمل أنّه ثمّة جزءٌ من الحقيقة في كلتا الروايتين. اقتراح الطلاق أغلب الظن جاء من أمنا، غير أن أبانا كان رجلًا معتدًّا بنفسه، مُبجَّلًا وكريمًا، فضلًا عن كونه متفاديًا للخلاف - لعلَّه كان خجولًا أيضًا من كونه أصبح عبئًا... وبناءً على ذلك، لم يُبدِ أي رفضًا لاقتراح أمي. ما أن أدرك أنَّ زوجته قد اتَّخذت قرارها، اختار أن يذهب بهدوء. كان اهتمامه برفاهية أولاده، كما أخبرتنا أمنا، يقينًا يبدو حقيقيًّا. لا بد أنَّ الطلاق كان مُوجِعًا بشدة بالنسبة له، لكنَّه مضى من دون شجارات أو اعتراضات.

بمجرد التوصُّل إلى الاتفاق الرئيس، أُنجزت الرسميات بسرعة. الجانب المالي من الاتفاق هو أن أمي تُعطي لأبي ثلث قيمة الشقة وأن

يُغادر هو. زوَّدت نانا أمي بالمال. هذا لم يكن كافيًا لأبي كي يشتري بيتًا له وحده؛ بالإضافة إلى ذلك، هو بحاجة إلى رأس المال كي يعيشَ بما أنه ليس لديه أيُّ مصدر آخر للدخل. كلَّما واجهتْ أمي حالةً صعبة، ذهبتْ إلى مدير البلدية كرينيتزي من أجل المساعدة. لم يخيِّبْ مدير البلدية أملَها: خصَّصَ إسكانًا اجتماعيًا لأبي ببدلِ إيجار زهيد لا يستحق الذكر، إذْ وضعه على رأس طابور من الأُسَر الفقيرة. يقع البيت الصغير في طرف رَمات گان، على مبعدة عشرين دقيقة من بيتنا مشيًا على الأقدام. تألف من حجرة واحدة، وحمَّام ومطبخ صغير. ساعدتْ أمي أبي في تأثيثِه. اتسم المكان بالبساطة المطلقة والاقتصار على الضروريات، فلم يشتمل سوى على سرير بسيط، وأريكة صغيرة، ومقعدين بمسندين منفصلين، وخزانة ملابس صغيرة، وطاولة قهوة صغيرة. وُجدت بضعة كتب غير روائية باللغة العربية مبعثرة في أرجاء الغرفة. البيئة بسيطة لكنَّها نظيفة ومرتبة. كانت هناك صفوفٌ قليلةٌ من البيوت الصغيرة لها أرصفة تؤدي إليها، وتكسو جانبي الممرات نباتات وأشجار. حافظ المجلس البلدي على عقار الإسكان بأكمله وأدامه. بجانب بيت أبي سكنَ مسنَّان أشكينازيان، زوج وزوجة، عطوفان ومُساعِدان. في أيام السبت، بين الفينة والأخرى، تطبخ أمي طعامًا عراقيًّا - يهوديًّا وتأخذه لأبي هي أو ڤيلما. أقام في هذا البيت الصغير بمفرده حتى وفاته بنوبة قلبية في الثالث من كانون الأول/ ديسمبر ١٩٧٠، عن تسعةٍ وستين عامًا.

أثناء خدمتي العسكرية، كنتُ أذهب غالبًا لزيارة أبي يوم السبت، حين أكون خارج أوقات العمل. تطبخ أمِّي وجبة طعام كبيرة للأسرة

كلِّها وتخصص حصةً لأبي. تُعطيني قدرين، أحدهما فيه الأرز، والآخر فيه الطبق الرئيسي، في أغلب الأحيان حساء الدجاج مع البطاطس والبازلاء. كان الطعام دومًا مُتبَّلًا بطريقة لذيذة وبكميات سخية. كان يُسخِّن أبي الطعام على موقد غازي، ثم كنا نأكله معًا على طاولة القهوة الصغيرة، أحدنا بمواجهة الآخر. لم تكن هناك مائدة طعام. تعوَّدنا أن ندردش بالعربية، وأبي هو الذي يتكلَّم في أكثر الأحيان ويطرح كثيرًا من الأسئلة كي يجعلَ الحوار مستمرًا. كانت لغتي العربية محدودة في الأصل، ولكن بعد ثلاث سنوات في لندن، أصبحت رديئة للغاية. لم أتحدث كثيرًا، وكنت أُدلي بتعليقٍ عابرٍ بين الحين والآخر بترددٍ شديد، وأجبتُ قدر استطاعتي بمفرداتي المحدودة على جميع الأسئلة التي وجهها لي والدي. لقد شعرتُ بغرابة وأنا أتحدث مع والدي بلغة لم تعد لُغتي.

كان أبي، وهو يعيش وحده، يفرح بالصُحبة ويشرقُ وجهُه كلَّما رآني. كنتُ أحس بإشفاقٍ عميق عليه. مع ذلك هذه المرة، بسبب غيابي طويل الأمد في الخارج، لدينا شيءٌ قليل مُشترك، بغض النظّر عن صعوبة التواصل. لم نكن نتجادل، ناهيك عن الشجار. أكثر ما صدمني بشأن أبي غياب أيِّ شعورٍ يُرى، بالمرارة نتيجةَ الضربة القاسية التي سددها له القدر. لم يظهر أي علامات على عدم الرضا أو الامتعاض تجاه أمي، مهما كان يشعر بهم في داخله. ولا كان هناك رثاءٌ للذات على غِرار «كيف سقط شديد البأس!». كان صبورًا لا يشكو ولا يتذمّر. كما كانت الحال في مطلع مراهقتي، لم يكن يتكلَّم عن نفسه، أو أسرته، أو

مسيرته، أو حياتنا في بغداد والظروف التي أرغمتنا على الرحيل. وأنا، يا لشدة أسفي، لم أسأله.

ثمَّة صديقة تعرَّفتُ عليها أثناء كتابتي هذه المذكرات، زميلة أبحاث في كامبردج اسمها ميراف روزينفيلد - حداد، ساعدتني في أن أفكر بإمعانٍ في صمت أبي خلال السنوات العشرين الأخيرة من حياته. وُلدت ميراف في إسرائيل لأبوين هاجرا من العراق، أحسَّا بالنفي في إسرائيل وربياها هي وأشقاءَها كي يكونوا فخورين بإرثهم العراقي - اليهودي. جاءت ميراف إلى أكسفورد كي تحاورني بشأن كتاب كانت تدوّنه عن «الذكريات، والألحان، والعلاقات اليهودية - الإسلامية» وقد ظهر بسرعة أن أباها، موريس حداد، كان يعرف أبي في بغداد وأبدى إعجابًا شديدًا به. حين كان شابًا، رافق موريس أباه، وهو مقاول بناء، كي يقابل أبي في بيتنا ببغداد. لدى سماعه أنَّ ميراف آتية لرؤيتي، كتب لها موريس رسالةً يصف فيها اللقاء ببعض التفصيل. بدأ بوصف البيت، الذي قال عنه إنه أشبه بالقصر. أبي، متأنقًا بنحو مثالي مرتديًا بزته المؤلفة من ثلاث قطع، جاء إلى الباب الأمامي كي يرحِّب بضيوفه.

نال أبي إعجاب موريس بوصفه رجلًا ذا حكمة عميقة، ودمث الأخلاق ومُبجَّلًا، وفي الوقت نفسه كان بسيطًا ومتواضعًا. من مصادر أخرى عرف موريس وأبوه تاليًا عن سخاء أبي تجاه موظفيه، والكنيس والناس الفقراء في الطَّائفة اليهودية. الأسلوب العربي في ممارسة المهنة هو البدء بحوارٍ طويل وواسع النطاق في القضايا الشخصية والعائلية التي لا صلةَ لها بالعمل الراهن. الهدف من الحوار هو التمكُّن من معرفة

الشخص الآخر وإقامة علاقة شخصية. تعتمد المهنة على احترام وثقة مُتبادَلين. بمجرد نشوء الثقة، سيكون الجانب المهني من اللقاء سهلًا. الأسلوب الذي تصرَّف به هو نفسه في هذه المناسبة قيل إنه تُحفةٌ بالطريقة الشرق-أوسطية في ممارسة المهنة. لكنَّها ليست الطريقة الإسرائيلية.

تفسيري لصمت أبي في إسرائيل هي إنه كان رجلًا مُنكسِرًا. بدلًا من ذلك أشارت ميراف إلى أن صمته هو اختيارٌ واعٍ، بحيث يتعيَّن عليَّ أن أفكر فيه باعتباره شخصًا نبيلًا وأرستقراطيًّا يهوديًّا - عربيًّا حقيقيًّا - «أنبل النبلاء»، كما عبّرت عن ذلك. أشارت أيضًا إلى أن الثروة تتلاشى وتغيبْ، لكنّ نُبل الشخصية راسخٌ لا يتزعزع، وصامدٌ في وجه أيِّ تحدٍّ أو ظرفٍ خارجيّ. كان انتقال والدي إلى إسرائيل بمثابة سقوط مدوٍ. بعد أن هاجر من بلدٍ عريقٍ بثقافةٍ حضاريةٍ غنيةٍ إلى أرضٍ غريبةٍ يقطنها شعبٌ من أصلٍ أوروبيٍّ لا يدركون عظمة حضارته ولا مكانته الرفيعة في بلاده. بالأحرى، مالوا لاعتباره وأمثاله باعتبارهم متخلِّفين وغير متحضرين. ما الهدف من التحدُّث مع أولئك الأشخاص؟ حتى لو كان يُريد التحدُّث معهم، لا يمتلك اللُّغة التي يستطيع أن يتواصل بها معهم. ما الغاية من التذمُّر؟ ما الفائدة التي قد يجلبها؟ بدلًا من التشكِّي أو «إعادة الكلام بشكل مملٍّ» عن الماضي، اختار أبي وضع الصمت المهيب. إنه صمتٌ مُدوٍّ استقاهُ من القوة بدلًا من الضعف. فرضية ميراف حول صمت أبي جعلتني أدقِّقُ في أسباب صمتي أنا. من الواضح كانت هنالك بعض التشابهات. أُقتلعُ كلانا من موطِنه الطبيعي وزُرِع في بيئةٍ غير مألوفة ومشؤومة. كلانا أحسَّ بأنه ليس في مكانه الصحيح. الاختلاف

هو أنَّ صمتَه مُستقى من قوته الداخلية في حين أنَّ صمتي كان نتاجُ سرعة التأثر، والارتباك وعدم الثقة بالذات.

ملاحظات ميراف أيضًا حرفت أفكاري إلى قضية الاعتداد بالنفس. كان أبي رجلًا شديد الاعتداد بنفسهِ. كان مشهورًا بكَرَمه في بغداد وكونه مستعدًّا دائمًا لتقديم الخدمات للآخرين. لكن حتى حين ساء حظُّه في إسرائيل، لم يطأطئْ رأسه كي يستجدي الخدمات من الآخرين. كشفت ميراف عن قيمٍ إنسانيةٍ نبيلة وصامدة تجسدّتْ في سلوك والدي بالرغم من التحديات: الكَرَم، ونُبل الشخصية، والإخلاص للأسرة، الذي تبنَّاه إلى درجة التضحية بالذات. ضحَّى بنفسهِ في سبيل العائلة ليس مرةً واحدة، بل مرتين: أول مرة من خلال الموافقة، على الرغم من قراره المناقض، بمغادرة العراق نحو إسرائيل، وثانيةً من خلال تحرير أُمِّنا من التزاماتها الزوجية تجاهه.

أمَّا بخصوص التزامي تجاه عائلتي، كنتُ واعيًا به طوال الوقت. حاولتُ أن أُفرِغه من خلال العمل الجاد وتحقيق التقدُّم في دراستي. هذا الشيء بات أسهل، بينما أصبح العملُ نفسُه مصدرًا للسعادة القصوى. حياتي الاجتماعية، من الناحية الأخرى، كانت هادئة، وغير مُثيرة، وغير مُجزية. في ليلة السبت كنت أخرج مع أصحابي من المدرسة إما إلى حفلة أو إلى نادٍ. كان لدينا نادٍ مفضَّل، في شارع واردور في سوهو، حيث ثمن التذكرة شلنان وستة بنسات. في النادي، نستجمع شجاعتنا، نقترب من فتاةٍ ما ونطلب مراقصتها. لو رفضت طلبنا، لدينا جوابٌ جاهز: «ماذا تتوقعين من نادٍ ثمنُ تذكرتِه شلنان وستة بنسات - مارلون براندو؟!»

لم أكن راقصًا جيدًا، إن صح التعبير، وبقيت خجولًا إلى حدٍ ما. هذه المعوقات ضمنت أني غير ناجح في «اجتذاب الطيور»، إذا ما جاز لنا استعمال مصطلح اليوم.

اتخذتْ حياتي الاجتماعية انعطافةً كبيرة نحو الأحسن حين قابلتُ شاي هاريس خلال عامي الثاني في لندن. كانت شاي صديقتي الأولى. كلانا في سن السابعة عشرة، تقابلنا في إحدى الحفلات وتصادقنا بمجرَّد أن التقينا. كان لها شعرٌ أحمر، عينان زرقاوان وعلى وجهها ابتسامة دائمة تعكس روح الشقاوة التي كانت لديها. كانت ذكيةٌ جدًا، ومثقفة وواثقة من نفسها، وكان بمستطاعها أن تحتفظ بمركزها في أيِّ رفقة. ويُرجَّحُ أنّ أصولها تركت أثرًا ما على ثقتها بنفسها التي تَكادُ تَصلُ أحيانًا إلى حدِّ الغطرسة. والدها، لويس هاريس، هو يهوديٌّ إنجليزي ذو علاقات صهيونية ارتقى إلى رُتبة كابتن في الجيش البريطاني إبَّان الحرب العالمية الثانية. بعد الحرب، عمل لصالح القسم الإنجليزي التابع للصندوق القومي اليهودي ولاحقًا دخل إلى ميدان العمل المَصرفي. حين قابلتُ شاي، كان هو مدير مصرف التجارة الإسرائيلي - السويسري، الذي كان مقرُّه الرئيس في مدينة لندن. والدة شي، أفيفا، إسرائيلية المنشأ، عالمية الثقافة والذوق، ومتفتحة الفكر على العالم، لكنَّها كانت ذات جذورٍ عميقة في إسرائيل واشتياق للعودة مع أفراد أسرتها للإقامة هناك. شقيق أڤيڤا الأصغر، أمنون، كان طيَّارًا في القوة الجوية الإسرائيلية، وأُسقِطت طائرته في حرب الاستقلال العام ١٩٤٨. عزَّزَ موتُ شقيقها قناعةَ أڤيڤا بعدالة القضية الصهيونية وألهمَها رغبةً مدى الحياة في خدمتها. كانت نشيطةً في الترويج للفن والثقافة الإسرائيليينِ في المملكة المتحدة وكوَّنت

علاقةً وطيدةً مع الأصدقاء والصديقات البريطانيين في الأوركسترا الفيلهارمونية الإسرائيلية. على المستوى الشخصي، كانت أقيڤا ودودة وحيويَّة، ولكنَّها مُتقلِّبة المزاج، وعُرضةٌ للانفعال الشديد والغضب في أيِّ لحظة. شاي لها شقيقتان أصغر منها سنًا. كانتا ذكيتان وقويتا الإرادة: أمينة، ثلاثة عشر عامًا، وإيلا، تسعة أعوام. كانوا يُقيمون في هامستيد في منزل مُريح، مُحاط بمروجٍ من الأعشاب وأحواض زهور. وسويةً كوّنوا أسرةً نابضة بالحيوية، ديناميكية، لا يُمكن التنبؤ بها ومتجوّلة.

صداقتي مع شاي حوّلت معًا حياتي الاجتماعية والعاطفية. كان لها كثيرٌ من الأصدقاء والصديقات، معظمهم أصدقاء وصديقات يهود عصريون من الطبقة الوسطى العليا، وهي بيئةٌ جديدةٌ تمامًا بالنسبة لي. كنا نُدعى إلى حفلات يوجهها لنا أصدقاؤها، إلا إننا كنا نخرج بمفردنا أيضًا إلى صالات السينما، والمسرح، والحفلات الموسيقية. ازدهرت علاقتنا إلا إنها لم تكن تخلو من تقلّبات الدهر. من الناحية المزاجية، كنا مختلفين تمام الاختلاف. كانت حازمةً، مليئةً بالحيوية، ومتفاخرةً نوعًا ما. أما أنا فكنتُ محترسًا، خجولًا ومنطويًا على نفسي. كما كانت هنالك فجوةٌ في المنزلة الاجتماعية. أساس هذا كلّه هو حقيقة أنها أشكينازية وأنا سيفاردي. في بعض الأحيان، انتابني شعورٌ بأن شاي تنظر إليّ باستعلاءٍ بسبب أصولي المشرقية. معظم الوقت، على كلّ حال، كنا نستخف بهذه الانتماءات القبلية ونضحك عليها حتى. مستخدمين مصطلحات خاطئة سياسيًّا، تسميني شاي «فرِينك» وأسميها «ڤو – ڤو». (لأن اللغة الييدشية تحتوي على كثير من أصوات ڤو وڤاس. الأشكينازيون يُسَمّوْن

غالبًا: ڤو - ڤو). «فرِينك» مصطلحٌ تحقيري يطلقه الأشكينازيون على اليهود الشرقيين.

ثمة شيء واحد اشتركنا فيه أنا وشاي هو فرنسية المستوى - A. كانت قد التحقت بمدرسة ثانوية فرنسية نهارية مختلطة مستقلة في «ليسي» حيث مستوى التعليم أعلى بنحو لا يُضاهى مقارنةً بمدرستي. أحد الكتب المقرَّرة لكلينا: «طرطوف أو المحتال»، وهو شخصية مسرحية من القرن السابع عشر لموليير. وبما أن شاي كانت على استعداد دائمًا لوهبِ معرفتها المتقدمة باللغة الفرنسية وآدابها، فقد أعارتني دفاترها ومقالاتها حول هذه المسرحية. لم يكن هنالك أدنى شك، على أية حال، أنها الشخصية المهيمنة فيما تطوّر تدريجيًا إلى صداقة جميلة.

ارتباطي بأسرة هاريس أثرى حياتي إلى أقصى حدّ. كلّهم احتضنوني بوصفي أحد أفراد الأسرة وقد أحببتُ كلّ واحد منهم. كانوا يدعونني عادةً إلى عشاء السبت أو غداء الأحد في بيتهم وقد استمتعتُ بوجبات الطعام هذه إلى حدّ كبير. تخللت أحاديثهم وقائع مُسلية. ثمة جنرال إسرائيلي أقام معهم سُئل كيف يُحب البيض لطعام الفطور. «صعب»، كان هذا هو جوابه - بالعِبرية لا فرق بين الصلب والصعب، ومن هنا جاء ردّه الغريب. ومن بين أصدقاء آل موريس أحصوا بعض الموسيقيين المشهورين عالميًا، مثل عازف الكمان الروسي مستيسلاڤ روستروپوڤيتش الذي قابلتُه مرةً في بيتهم في هامستيد، وبعد مضي عامين، لمّا أخذونا كي نرى بأعيينا النوافذ الاثني عشر ذات الزجاج المزخرف لمارك شاغال في كنيس مركز هاداسا الطبي في القدس. ارتباط

أقيقا بالأوكسترا الفيلهارمونية الإسرائيلية كان من أجل جلب موسيقيين إسرائيليين بارزين إلى دائرة أصدقائهم. اصطحبني آل هاريس معهم إلى حفلات موسيقية في لندن وقدَّموني إلى أصدقائهم. بما أن معرفتي بالموسيقى الكلاسيكية منعدمة، فلم أضفْ شيئًا إلى تلك النقاشات.

في المدرسة، واصلتُ تحقيق التقدُّم المستمر. الانطباع الإيجابي للمعلمين عزَّز ثقتي بنفسي وشجَّعني كي أخطط لتحقيق هدف أعلى فأعلى. كان هدفي هو أن أدرس من أجل الحصول على شهادة في جامعة بريطانية، وهو شيء لم يفعله طالب (JFS) آخر من قبلُ. على أية حال، بما أني كسبتُ الإيمان بقدراتي، بدأتُ أحلم بأكسفورد أو كامبردج. شجّعني السيد فيلسينشتاين على المضيّ قدمًا في هذا الطموح، وأشار إلى أنّ المدرسة رشحتني لامتحانات القبول في جامعة أكسفورد في كانون الثاني/ يناير ١٩٦٤، أي قبل ستة شهور من الموعد المحدد لخوض امتحانات المستوى - A. لقد رأى أن كتابتي تتطور باستمرار، وأنَّ لديَّ فرصة ضئيلة، لكن حتى إذا فشلتُ، لن أخسرَ شيئًا: امتحانات دخول جامعة أكسفورد ستكون استعدادًا جيدًا لامتحانات مستوى - A في الصيف التالي.

على هذا الأساس، اتفقنا أنا وهو على أن المدرسة سوف ترتب لي خوض امتحانات دخول أكسفورد في التاريخ واللغة الفرنسية. كما كانت هنالك ورقة ثالثة لاختبار المعرفة العامة يتعين على جميع المُتقدِّمين خوضه. عملتُ بجد وعزم وطيدين على تهيئة نفسي لهذه الامتحانات التي، في حالة حدوثها، سأكون غير قادر على خوضها. بينما كان من

المرتقب أن تبدأ الامتحانات، صعقت حينما أخبرني الدكتور كونوَي، قبيل موعد الامتحانات مباشرة، أنه بسبب إهمال إداري لم يتم تسجيلي للتقدم لها. حاول أن يواسيني بالاعتقاد أني لم أنل فرصةً حقيقية في اجتياز هذه الامتحانات بأية حال. كان محقًّا بصورة مؤكدة تقريبًا لكن، كوني استثمرتُ قدرًا كبيرًا في التحضير لهذه الامتحانات، فكريًّا، وعاطفيًّا وسيكولوجيًّا، أحسستُ أنَّ المدرسة خذلتني.

في السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية[١]، تقدمتُ بعددٍ من طلبات الالتحاق بالجامعات المحلية أو «جامعات القرميد الأحمر»[٢]، ويبدو أن تقارير مدرستي كانت إيجابية للغاية إذ قُبلتْ جميع طلباتي. بعد المقابلة، حصلت على قبول في جامعتين مختلفتين. إحداهما هي جامعة سوسيكس، حيث قدَّمتُ طلبًا بأن أدرس التاريخ. وفي الأخرى أن أدرس للحصول على شهادة العلاقات الدولية في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية. كانت أمي طوال الوقت تنصحني بخصوص المواد التي يجب عليَّ أن أدرسها. حين أخبرتُها أني خططتُ للحصول على شهادة في التاريخ، أشارت إلى أنه «هنالك فعلًا كثيرٌ مما يُمكن تعلُّمه في ما يتعلَّق بالأسماء والتمور... إلخ». وبالتالي نصحتني بالبحث عن تخصُّصٍ أفضل!

---

(١) Upper Sixth هو الصف الثالث عشر (السنة الأخيرة من المرحلة الثانوية) حسب نظام التعليم البريطاني [المترجم]

(٢) جامعات القرميد الأحمر - هو مصطلح يستخدم للإشارة غير الرسمية إلى ست جامعات خاصة تأسست في المدن الصناعية الكبرى من إنجلترا، كل منها حازت على مركز الجامعة قبل الحرب العالمية الأولى: جامعة برمنجهام، وجامعة ليفربول، وجامعة ليدز، وجامعة شيفيلد، وجامعة بريستول، وجامعة مانشستر [المترجم]

حين أخبرتُ أمي عن القبول الذي حصلتُ عليه في كلية لندن للاقتصاد والعلوم السياسية (LSE)، حثتني كي أُعيد النظر في مسألة ماذا أدرس. في الخامس من أيار/ مايو ١٩٦٤، كتبت لي قائلةً: «من خلال دراسة العلوم السياسية، سوف تكون مُعتمدًا طوال حياتك على حكومتنا وبالتأكيد، سوف يرسلونك طوال أفضل سنوات حياتِكَ، إلى إفريقيا أو أيِّ جُحر همجي. لا تنسَ أنكَ سيفاردي ولستَ أشكينازيًّا، الذي يُعتبر شيئًا كبيرًا، لذا لن يدعوك تحلق بعيدًا جدًا مهما كنتَ ذكيًّا ومتعلِّمًا». قالت أيضًا إن السياسيين والدبلوماسيين مُقيَّدون جدًّا فيما يستطيعون قوله أو إلى أيِّ مكانٍ يمكنهم الذهاب. من الناحية الأخرى، «هم أناس محظوظون تقريبًا يكسبون أموالًا جيدةً بهدوء، وأحرار باستطاعتهم أن يفعلوا ما يحلو لهم». كانت النصيحة واضحة: أن أدرس تخصصًا جامعيًا يساعد على الانخراط في عالم التجارة وجني الأموال. لم أكلِّف نفسي بالرّد وتجاهلتُ النصيحة. شكُّها بأني قد أتعرض للتمييز في السلك الدبلوماسي في إسرائيل لم يكن بلا أساس تمامًا. ظل اليهود السفارديم، بمن فيهم المتعلمون، على هوامش المجتمع الإسرائيلي. لم يكن تمثيلهم كافيًا في ميادين الصحافة، والعمل الأكاديمي، والفنون، والمراتب العليا في الخدمة المدنية[١]. ومع ذلك، ما زلت أتذكر مدى صدمتي في ذلك الوقت بسبب العنصرية الصريحة التي أبدتها والدتي. للمفارقة، كانت والدتي هي من أشعلت حماسي للعمل الدبلوماسي في طفولتي. استند هذا بلا ريب إلى الشهر الذي أمضته حين كانت فتاة في ربيعها السادس

(١) بمعنى أن وجودهم كان ضئيلاً للغاية في هذه المجالات. [المترجم]

عشر في السفارة الأميركية ببغداد إبان «الفرهود» وتغزُّلها بدبلوماسي أميركي شاب ووسيم هناك. تغيُّر رأيها ربما جاءَ نتيجة التغيير الذي طرأ على مصائر أسرتنا. أنا الآن أملُها الوحيد في إعادة بناء ثروتنا وفي بالها أنَّ الطَّريق إلى ذلك لا يمرُّ إلَّا عبر المهنة، وليس السِّلك الدبلوماسي.

حُسِم أخيرًا الجدال حول «أين أذهب وماذا أدرس» بعرضٍ غير متوقع من مكانٍ ما كي أدرس التاريخ في كلية يسوع (Jesus College)، بجامعة كامبردج. لم أفعل شيئًا كي أحصل على هذا العرض - إنه عمل دينيس فيلسينشتاين، معلمي، معلم التاريخ. كان السيد فيلسينشتاين يعرف ڤيڤيان فيشر، مديرة دراسات في التاريخ في الكلية، وقد ذكرت له بعض أذكى فتيانه من مدرسة سانت بول. منحتني الكلية قبولًا بتزكيةٍ من السيد فيلسينستاين، من دون أيِّ امتحانات دخول ومن دون مقابلة. كان القبول مشروطًا بالحصول على درجتيْ - E من مستويات - A. الدرجة - E هي أدنى درجة للاجتياز، مساوية لـ٤٠/ ١٠٠. لن يكون الحدُّ بالنسبة إليَّ أدنى من ذلك. كان هنالك شرط أساسيٌّ آخر: لغة كلاسيكية في مستوى - O. لم أكن أعرف كلمةً واحدة من اللَّاتينية أو اليونانية، إلا إني أخذتُها واجتزتُ أصلًا المستوى - A في العِبرية الكلاسيكية وكان هذا مقبولًا بالنسبة للكلية. كنتُ مُحرَجًا من أن أتلقَّى قبولًا عبر المحسوبية، من دون تحقيق المستويات الأعلى المُحدَّدة للمرشحين الآخرين - ذكَّرني ذلك بدخولي إلى جمنازيا دڤير الذي لم أكن لأحصل عليه لولا علاقات أمي. هذه حالةٌ أخرى من «الواسطة» - التأثير أو التحيُّز. لكنَّ إثارة الذهاب إلى كامبردج ساعدت على تحجيم الإحساس بالذنب.

وافقت الكلية على حفظ مقعدي الدراسي لمدة سنتين دراسيتين حتى أتمكن من أداء واجبي في الخدمة الوطنية في إسرائيل. شرطَ استيفائي للشروطِ المنصوصِ عليها، ضمنتُ قبولي للالتحاق بالكلية في بداية العام الدراسي ١٩٦٦. كانت الخدمة الوطنية في تلكم الأيام عامين وشهرين. بمجرد أن خضتُ امتحانات المستوى - A، شكرتُ خالي وشكرتُ آل كونوَي، حزمتُ كتبي وأمتعتي، وعدتُ إلى الديار حيث جندوني في الجيش فورًا. في أيلول/ سبتمبر ١٩٦٦، أيامًا قلائل بعد إكمالي الخدمة الوطنية، استأنفت دراستي في كلية يسوع، كامبرج، كطالبِ تاريخ في سنته الأولى. فصلٌ جديدٌ من حياتي يوشك أن يبدأ.

آفي ببزة الجيش «الإسرائيلي» مع جدَّته موزلي عُبادية.

الفصل الثالث عشر

الخاتمة

مكتبة
t.me/soramnqraa

كان اسمي الحركي، غير الرجولي على الإطلاق، خلال خدمتي في الجيش الإسرائيلي هو «الآنسة فيفي»؛ في إشارةٍ لقصة دِي موباسان. هنالك قصة قد تكشف حقائق مثيرة. أدَّيتُ، بين عاميْ ١٩٦٤ - ١٩٦٦، الخدمة الوطنية في الجيش الإسرائيلي، والتي كانت إجباريةً على كلِّ فِتية وفتيات إسرائيل، حال بلوغهم سن الثامنة عشرة. في مرحلةٍ مبكرة من خدمتي العسكرية العادية غالبًا، أُختيرَت فصيلتي لمهمَّة حراسة مسافة من الحدود مع الأردن. كانت ثمَّة دوريتان ليليَّتان، واحدة من السادسة بعد الظهر حتى منتصف الليل والأخرى من منتصف الليل وحتى السادسة صباحًا. أدّت دوريتنا واجب الحراسة من السادسة بعد الظهر على مدى أسبوعين. كانوا قد أعطونا بنادق موسر تشيكية ثقيلة جدًّا من مخلَّفات حرب ١٩٤٨ وفي كلٍّ منها ستُّ رصاصات. لم يتوقعْ الأعلى منا رتبةً أن ننخرطَ في أيِّ معركة بالأسلحة النارية، وكانوا على صواب. كان الوضع هادئًا تمامًا على الجبهة الشرقية - ومُضجِرًا بشكلٍ لا يُوصَف. وكي أخفِّف الضجر، قررتُ، بعد اليوم الأول، أن أصطحب بحوزتي

كتابًا دومًا. كان لديَّ كدسٌ من الروايات الفرنسية من سلسلة (كتاب الجيب)، وبدتْ «الآنسة فيفي» كأنَّما هي تروح عن نفسي.

تعوَّدتُ أن أقرأ في العراء حتى حلول الظلام، ليُداهمني النعاس بعد ذلك أحيانًا. كانت هذه مخالفة خطيرة في ظل قانون الجيش كما أنها تنتهك تحذير المزمور ١٢١، القائل: «**إِنَّهُ لاَ يَنْعَسُ وَلاَ يَنَامُ حَافِظُ إِسْرَائِيلَ**». احتطتُ وأخبرتُ رفاقي بأن يوقظوني إذا ما كان لدينا زوَّار عبروا الحدود. في منتصف ليلةٍ ما ركلني رفاقي قائلين إنه آن أوان العودة إلى القاعدة. التقطتُ بندقيتي، على الرغم من حالتي نصف النائمة، ونسيت أن آخذ الرواية. اكتشفتْ الدورية التي أعقبتنا الكتاب الرثَّ في الميدان العسكري. كان هنالك جندي واحد في القيادة الشرقية يقرأ الروايات الفرنسية أثناء واجب الحراسة، لذا عرفوا أين يجدونني؛ أعادوا إليّ نسختي المتهالكة، وأطلقوا عليّ لقب «الآنسة فيفي» وسط صخبٍ عارم. شرحتُ بعد ذلك المفارقة لأي شخص رأى اللقب غير مناسب، لكنَّه لاحقني حتى تسريحي من الجيش. بحسب معتقداتي، على أية حال، كنتُ المدافع البطولي عن الجبهة الشرقية، والدليل هو أنه ما من جندي أردني واحد عبر الحدَّ الفاصل خلال حراستي.

طوال الأشهر الثلاثة الأولى من خدمتي في الجيش، خضعتُ إلى تدريب أساسي في قاعدة جيش ضخمة في قرية «صرفند العمَّار» الواقعة على السَّهل السَّاحلي، نحو خمسة كيلومترات شمال غرب الرملة. خلال عهد الانتداب، كانت هذه أكبر قاعدة تابعة للجيش البريطاني في الشرق الأوسط. كانت الغاية من تدريبات الجيش تحويل الأولاد إلى رجال،

وإضفاء طابع الخشونة عليهم، ومنحهم المهارات الأساسية الواجب على كلِّ مجنَّدٍ إلزاميٍّ أن يكتسبها قبل تنسيبه إلى وحدةٍ قتالية أو فرعٍ أكثر تخصُّصًا في الجيش. سيبقى احتفال التجنيد راسخًا في ذاكرتي إلى الأبد. جرى الاحتفال وقت الشفق بأرضٍ مقطوعة الشجر في تلال يهودا على الجبهة الشرقية. رفرفت الأعلامُ الإسرائيلية عاليًا، وعزفت فرقة موسيقية عسكرية النشيد الوطني، «هَتِكْڤاه»، بمعنى: الأمل. تعهدنا بولائنا للوطن الأم، وهتفنا بصوت واحد، «بالدم والنار سقطت يهودا؛ بالدم والنار سوف تنهض يهودا ثانيةً!». أعقبَ ذلك إطلاق نار من الأسلحة النارية المحمولة التي أضاءتْ السماء. بالنسبة لشاب يبلغ من العمر ثمانية عشر عامًا، كان هذا أمرًا مثيرًا للغاية. في السنوات التي تلت ذلك، تعيَّن عليَّ أن أقرأ العديدَ من الأطروحات الأكاديمية حول القومية، وأبرزها كتاب «المجتمعات المتخيلة» لـ بنديكت أندرسون. لكن في هذه المناسبة، شعرتُ بالقومية في أعماقي.

كان التدريب مرهقًا بدنيًا، لا سيما المسيرات الطويلة تحت لهيب الشمس الحارقة وبحوزتنا البندقية، والخوذة، وحقيبة الظهر الثقيلة، وحافظة ماء واحدة لا غير. كان الانضباط صارمًا، والطعام قلما كان صالحًا للأكل، لكن كانت هناك روح معنوية عالية، وإحساس بالهدف، وإيمان راسخ بعدالة قضيتنا. رأينا أنفسنا بوصفنا بلدًا صغيرًا ديمقراطيًّا مُحاطًا بملايين من العرب المتعصبين الذين يعملون بهمَّة ونشاطٍ من أجل تدميرنا، وآمنَّا حقًّا بأنه لا بديلَ لنا سوى أن نتصدَّى لهم ونقاتلهم. في تلكم الأيام، اُستُشهِدَ مرارًا وتكرارًا بفكرة الـ«Ein briera – لا بديل»

إذْ عزَّزتْ الإجماع الوطني العريض مع موقفنا ضدَّ جيراننا العرب. رُوِّجَ الكثير في نطاق عُرْف الجيش، «توهار ها - نيشيك» أو نقاء الأسلحة، حيث لا يُمكن استعمال الأسلحة إلَّا في الدفاع عن النفس؛ وألا تُستعمَل ضدَّ المدنيين. تتحالف مع هذا العُرف الفكرةُ القائلة إنَّ الحروب الإسرائيلية كلَّها حروبٌ دفاعية، فُرِضتْ عليها.

أحسسنا أننا نخدم في جيش مهذب، وأخلاقي ومؤمن بالمساواة بين البشر، باختصار، جيش الشعب. إحدى الوقائع، تحديدًا، أكَّدت قناعتي بأنَّ للجيش معيارًا واحدًا يتعامل به مع الجميع، بغضِّ النظر عن الرتبة العسكرية، الأصل العِرقي أو الطبقة الاجتماعية. جرت الواقعة في تمرين بالميدان حيث تلقينا تعليمات بأن نزحف على الأرض الصخرية، حاملينَ بنادقنا باليدين ومجرجرين الأقدام إلى الأمام لنتحاشى نار العدو. تذمَّر فتًى، مكتنز البدن ومُدلَّل بنظارات سميكة، قائلًا إنه توجد أشواك في الأرض ونهض. أخبره آمر الفصيلة، وهو عريف شاب، بأن يستلقي على الأرض، وبعدها وقف على ظهره وأمره بأن يواصل الزحف. هذا سوء استخدام السلطة، والجندي قدَّم شكوى رسمية إلى آمر المعسكر الذي كان برتبة مقدَّم، قصير القامة بيد صناعية يضعها في قفاز جلديٍّ أسود. كانت هناك روايات مختلفة حول كيفية فقدانه ليده اليمنى، لكن كلها عزَّزت احترامنا له. خضع العريف لمحكمة عسكرية، جُرِّد من رُتبته وعوقبَ بالسجن لمدة شهر. في اليوم الذي أعقب المحكمة العسكرية، أُجبر المذنب على الوقوف بمواجهة كتيبة كاملة من المجنَّدين الجدد في أرض الاستعراض بينما آمر المعسكر يُعلن حُكمه. كان هذا الفعل هو

المرادف العسكري، لما يعرف بإلحاق الخزي بالمشاغبين في المدرسة؛ بأن يقفوا في ركن الصف. الرسالة واضحة: قوانين الجيش تُطبَّق على الجميع بصرف النظر عن الرتبة العسكرية؛ لا يُمكن التسامح مع سوء استخدام السلطة؛ وسيُعاقبُ المذنبون جميعًا.

تعلَّمتُ في الجيش شيئًا ما، وأعتقد أنه كان ذا أهمية أكبر في أعوام لاحقة من حياتي، يتعلَّق بجارنا من جهة الشرق، الأردن. كان الجزء الأقسى من التدريب هو تمرين على مدى ليلتين وثلاثة أيام في تلال يهودا، تحت الشمس الحارة، مع مؤن المعركة وبلا وجبات طعام ساخنة، وبلا تسهيلات اغتسال، وقسط قليل من النوم. كانت السَّرِية منقسمةً إلى فرق من اثنين، يحصل كلُّ جندي على نصف خيمة صغيرة. عند حلول الظلام، يحفر كلُّ فريق حفرةً بسيطة العمق وينصب خيمته. لم يكن بمقدورنا تغيير ملابسنا المُشبَّعة بالعَرَق أو أن ننزع أحذيتنا العسكرية، ولم يكن مسموحًا لنا أن ننام أكثر من ساعتين بشكل متواصل. تشير صَلية البندقية إلى امتلاكنا خمس دقائق فقط كي نحزمَ خيمتنا، ونجمعَ أمتعتنا ونجهزَ للانتقال إلى الموقع المجاور لتكرار الروتين نفسه. كان من المتوقع أن نحرس بنادقنا بحياتنا، ولكن خلال الليل يبدو قول هذا الأمر أسهل من فعله. في الليلة الثانية، عندما كنا جميعًا مُرهَقين، تمكَّن الضابط الآمر، وهو ملازم شاب، من سرقة نصف دزينة من البنادق، بما فيها بندقيتي، من مجموع ثلاثين بندقية تقريبًا. استيقظت السَّرِية بأكملها على صوت إطلاق نار من رشاشة، وأُمِرنا نحن الذين سُرِقت بنادقنا بالوقوف في رتلٍ والتعرض إلى سيلٍ من التشهير والتحقير، معظم مفرداته غير قابلة

للتدوين. أخبرونا أن لا فائدة منا، نحن مسؤولية قانونية بالنسبة للجيش وعارٌ على الوطن الأم. كانت عقوبتنا هي أن نجتاز مشيًا ما قيل لنا إنها الحدود مع الأردن بكامل تجهيزات المعركة لكن من دون بندقية ومن دون بنطلون أيضًا. كما قيل لنا إذا ما أطلق علينا الجنود الأردنيون النار، فستكون تلك عقوبة عادلة ونهاية مناسبة. مشينا كما ينبغي نحو نصف كيلومتر شرقًا ومن ثم رجعنا، أذلّاء دون أن نُصاب بأذى.

في العام ١٩٨٨ نشرتُ كتابًا بعنوان «تواطؤ عبر الأردن: الملك عبدالله، الحركة الصهيونية، وتقسيم فلسطين». قدّمتُ في الكتاب أطروحة مفادها أنه في العام ١٩٤٧ توصَّل الحاكم الهاشمي، والد جد الملك الحالي عبدالله الثاني، إلى اتفاق ضمني مع الوكالة اليهودية لتقسيم فلسطين بينهما، وأنَّ هذا الاتفاق مهَّد السبيل لتضييق متبادَل في الحرب الإسرائيلية - العربية العام ١٩٤٨ ومواصلة التعاون في قمع النزعة الوطنية الفلسطينية بعد الحرب. في استعادة أحداث الماضي، أعطتني تجربتي كجنديٍّ في صيف العام ١٩٦٤ ربما أول إشارة بأن الصراع الإسرائيلي - العربي ليس قضيةً ثنائية القطب واضحة المَعالم. كلُّ ما استنتجته بوعي حينذاك هو أنَّ الأردنيين عرب طيِّبون لأنهم لم يزعجوننا. السوريون، من الجانب الآخر، عربٌ سيئون لأنهم كانوا يُطلقون النار باستمرار على مدنيينا ويُثيرون اشتباكات مع قواتنا على الجبهة الشمالية.

كنتُ جاهلًا بما يكفي في وقتها كي أصدِّقَ القول الشائع الذي يفترض بأنَّ القوة هي اللغة الوحيدة التي يفهمها العرب. وبمقتضى ذلك، اعتقدت أنّ علينا أن نضرب السوريين بقوة كي نُلقِّنهم درسًا

لن ينسوه أبدًا. كان رئيس الوزراء آنئذٍ هو ليڤي إيشكول، وهو عضو معتدل في حزب العمل حاول أن يكبحَ الجيش. بالنسبة إليَّ، بدا وكأنه مهادن يجبرنا على القتال بيد واحدة ويدنا الثانية مقيدة خلف ظهرنا. بمجرد أن أخفق السياسيون، صار بديهيًّا وجوب ترك الجيش ليتعامل مع المشكلة بطريقته الخاصة.

لم يكن ثمَّة متسعٌ من الوقت للتفرُّغ للقراءة خلال شهور التدريب الأساسي الثلاثة، وليس هنالك اختياراتٌ كثيرة من الكتب بُغية قراءتها. كانت هناك طبعة عِبرية بغلافٍ ورقي رخيص من رواية د. هـ. لورانس «عشيق الليدي تشاترلي». الأجزاء الصغيرة الممتعة مُعلَّمةٌ ليتسنَّى تمرير الرواية بسرعة من يدٍ إلى أخرى؛ ولم يُتَحْ الوقتُ لأحدٍ كي يقرأها كلَّها. كانوا يسخرون مني مرارًا بسبب ارتباطي ببريطانيا التي عادة ما تُذكر باعتبارها قوة استعمارية عدوانية وقفَتْ إلى جانب العرب ضد اليهود خلال سنوات الانتداب البريطاني لفلسطين. في السردية الصهيونية للصراع، في العام ١٩٤٨، وفي لحظة الحقيقة، سلَّحت بريطانيا العرب وحرَّضت عملاءها منهم على اجتياح فلسطين، وسحق الدولة اليهودية الوليدة. إنَّها نسخةٌ بالغة التشويه من الأحداث، لكنني لم أكن أعرف الحقيقة في ذاك الوقت، ولم أحاول الدفاع عن بريطانيا.

كما تعرَّضتُ إلى مضايقة بسبب لثغةٍ طفيفة كنت أعاني منها. كانوا يقلِّدون كلامي مرارًا من خلال التوكيد على الطريقة التي ألفظ فيها حرف السِّين. فضلًا عن ذلك، كانوا يهزؤون بي لأني أتكلَّم على مهل. وكي أُعطي مثالًا، كانوا يُعلِّموننا تدابير الطوارئ في حال تعرضنا إلى

قصفٍ مدفعي. إذا رأى المرء قذيفة، يجب عليه أن يصيح «باغاز!» - قذيفة!، وهي إشارة للجميع بأن ينبطحوا أرضًا. في الحقيقة لم أقل ذلك، لكنني قُلِّدتُ مرارًا وأنا أقول ببطءٍ شديدٍ، «رفاق، انتبهوا. ثمة قذيفةٌ آتية إلينا». كانتْ دُعابةً قبلتُها منهم بلا تردد. ثمَّة عادة سيئة اكتسبتُها في الجيش، ألا وهي أن أروي النكات القديمة ذاتها مِرارًا وتكرارًا - وإزاء خيبة أمل كبيرة لدى أصدقائي وأفراد أسرتي لم أتمكن من أن أخلِّص نفسي من تلك العادة.

سارت بقية خدمتي العسكرية بهدوء. كلَّفوني بالعمل في صنف اللَّاسلكي. وبعد أن اجتزتُ الاختبار، خضعتُ لضغطٍ صغير للذهاب إلى مدرسة الضباط، لكنني رفضتُ بما أن هذا يعني إضاعة ثلاثة أعوام بدلًا من عامين دراسيين؛ إذْ كنتُ متلهِّفًا لاستئناف دراستي في المملكة المتحدة. في نهاية دورة من ثلاثة شهور، مُنحتُ رتبة عريف وأصبحتُ مُدرِّبَ اتِّصالات في صنف اللاسلكي. هذا ما فعلتُه طوال وقتي المتبقي في الجيش. درَّبتُ الجنود على كيفية استعمال أجهزة الإرسال اللَّاسلكية، وفن التشفير، وحلِّ الشفرات، وشفرة «مورس» واستعمال المُبرقات الكاتبة بُغية نقل الرسائل. جعلوني مسؤولًا عن فصيلة مؤلفة من خمسة عشر جنديًّا تقريبًا، لكل عددٍ مُتتابع من المُلتحقين، وبذلك كوَّنت أول حلقة في سلسلة القيادة التي كانت تنتهي برئيس الأركان.

استكملتُ واجباتي كمدرِّب بأفضل ما استطعتُ من قدرتي المحدودة، ونادرًا ما كنتُ سببًا للشَّكوى. كان هنالك تسلسل هرمي واضح، وانضباطٌ ومعيار لإجراءات التشغيل. كلُّ شيء مُنظَّم، بدءًا من

الصباح حتى (برنامج العمل اليومي) الذي كان يُعلَن على لوحة إعلانات الوحدة العسكرية. على النقيض التَّام للحياة الجامعية التي كنت على وشك خوضها، لم يكن هناك مجال للنقاش أو الجدال. لم يحظَ الإبداع بالتشجيع، في حين لم يكن التحفيز الفكري كافياً. ثمَّة كُتيب لكلِّ شيء، ولكلِّ مشكلة حلٌّ واحد سمح به الجيش - كلُّ شيء يجب أن يُنجزَ وفقًا للتعليمات. بما أنه ما من جهدٍ كبير مطلوب وكان لديَّ وقت فراغ طويل، تعوَّدتُ قراءة كتب التاريخ والسياسة وعلم النفس، بالإضافة إلى الروايات الفرنسية. بمزيدٍ من الملل، بدأتُ تدخين الغليون وتجريب أنواع شتَّى من التبغ. كان الدافع الرئيسي لتدخيني الغليون هو محاولة إثارة إعجاب المجندات في قاعدتنا. وكما هو متوقع، لم تؤت هذه الاستراتيجية ثمارها.

استمرَّت التدريبات الميدانيةُ التي كانت تتويجًا للدورة لثلاثة أيام. استطاعت أن تزيل الضجر. تألَّفت السَّرِية من ثلاث فصائل من مُشغِّلي اللاسلكي المتدرِّبين. توجه كل فصيل وقائد فصيل إلى موقع مختلف في مركبة اتصالات، بينما بقي قائد السرية، وهو برتبة نقيب، في المقر الرئيسي. نصبنا الخيام، وتقوَّتنا على مؤن المعركة، وجمعنا هوائيات مُتقَنة بجوار المركبة. تعيَّنَ علينا أن نُحافظ على المَشهد اليومي في الشارع، على مدى أربع وعشرين ساعة وهذا يعني العمل في دوريات. كانت مهمتنا هي تشفير الرسائل، وإرسالها إلى المجموعتين الأخريين بواسطة شفرة «مورس» أو مُبرِقة كاتبة وأن نحلَّ الشفرات التي نستقبلها منهما. وبما أنَّ هذه مجرَّد ممارسة تدريبية، كنا أحرارًا في اختيار المحتوى. قد تكون فقرة من جريدة يومية أو كتاب أو أيَّ نص آخر. إخلاصي لدراسة

اللغة الفرنسية دفعني إلى الاستعانة بـ«القواعد السلوكية العامة» للاروشفوكو[1]، وهو عملٌ يُقتبس منه الآن على نطاق واسع في «الميمات – Memes»[2] الملهمة على الانترنت. استمتعتُ كثيرا بترجمة بعض حِكَمِه إلى العبرية، كنت أشفِّرها، وأرسلها إلى الفصيلتين الأخريين وأنتظر كي أرى ماذا يفعل بها المُستلمون.

خلال العامين اللذين أمضيتُهما في الجيش شاركتُ في عملية عسكرية حقيقية واحدة. كان هذا وقت السِّلم، وكنتُ في القيادة المركزية، المسؤولة عن حراسة حدودنا الطويلة مع الأردن. كانت تلك الفترة التي سبقتْ حرب حزيران/ يونيو ١٩٦٧، والتي احتلت إسرائيل خلالها الضفة الغربية ووسَّعت سيطرتها العسكرية حتى نهر الأردن. تعبير «وقت السِّلم» هو مبالغةٌ غير واقعية: مع إنه لا توجد حرب كاملة، كانت هناك مناوشات حدودية داخل أراضينا من البلدان العربية المجاورة من قبل جيش التحرير الفلسطيني، الجناح العسكري لمنظمة التحرير الفلسطينية، والأعمال الانتقامية العسكرية من قبل الجيش؛ والتي نُفِّذتْ غالبًا ضد القرى التي يُشتبَه بأنها تؤوي المقاتلين الفلسطينيين. كانوا يُسمَوْن دائمًا «ميخابليم» -مُخرِّبين أو إرهابيين- لكن، في استعادة لأحداث الماضي، أعتقد بأنهم يستحقون اسم «فدائيين».

---

(١) فرانسوا السادس دو لاروشفوكو أو أمير مارسيلاك (١٦١٣- ١٦٨٠): مؤلِّف أقوال وكاتب مذكَّرات فرنسي مشهور. قيل بأنه نظر للعالم بشكل واضح ومتحضِّر، وأنه لم يُدِن السلوك البشري، ولم يحتفِ به بشكل عاطفيٍّ. [المُترجم].

(٢) الميم meme: واحدةُ «الميمات». عنصر ثقافي مُسلٍّ أو مثير للانتباه على شكل صورة، فيديو، فقرة... إلخ. ينتشر عبر الانترنت (بخاصة في وسائل التواصل الاجتماعي) من شخصٍ إلى آخر. [المُترجم].

في أحد الأيام، فجأةً، أيدت قاعدتي، قاعدة التدريب الهادئ، اقتراحي بأن أساعد قوةً مقاتلةً كانت تهمُّ بعملية انتقامية ضد قرية أردنية في الضفة الغربية مُتهَمَة بمساعدة «الإرهابيين» الفلسطينيين. تمثَّلتْ مهمتي بالمحافظة على استمرار اتصال لاسلكي مع وحدتين تابعتين للجيش أُرسلتا في عملية عبر الحدود كي تُهدِّما بعض المنازل ومحطة بترول في قرية أردنية. لبثتُ على جانبنا من الحدود، وقيل لي إنه إذا كانت قواتنا بحاجة إلى تعزيزات، سيبعثون رسالة من خلالي. كانت هنالك كتيبتان مسلَّحتان تمامًا حُفظتا كقوةٍ احتياطية على جانبنا من الحدود، تقفان على أهبة الاستعداد للعمل. حافظت الوحدتان على الصمت اللاسلكي خلال العملية، لذا لم يتصلوا بي للقيام بأي نشاط. هذا هو جوهر انخراطي في العمليات القتالية ضد العدو. يجب أن اعترف أنني اشتقت لأن أشارك في جزء من العمل. لقد كان الانتظار كمتفرج خلف خطوط المواجهة أمرًا محبطًا إلى حد ما.

مثَّلتْ خدمتي الوطنية في الجيش الإسرائيلي (IDF) أعلى نقاط انتمائي لدولة إسرائيل. إنَّها غريزةٌ إنسانية طبيعية أن ترغب بالانتماء إلى مجموعة ما. إبان أعوام دراستي، من سن الخامسة حتى الخامسة عشرة، كنتُ منسلخًا لأني أحسستُ أنَّ المجتمع الإسرائيلي ينظر باستهزاء إلى الشرقيين من أمثالي. سواء أكان هذا صحيحًا أم خاطئًا، كنتُ أعي باستمرار بأنهم يعتبرونني وضيعًا بسبب أصلي الشرقي. في المقابل، لم أكن أملك الإحساس نفسه بأني في غير محلِّي عندما خدمت في الجيش. الخط الفاصل الإشكينازي – السفاردي موجودٌ إلى حدٍّ ما، لكنَّه ليس واضحًا

كما كان عليه في المدرسة. لقد كان مغمورًا جزئيًا بفطرةٍ سليمة تتعلَّق بالانتماء إلى وطن واحدٍ وبأننا مطوَّقون بالأعداء من جميع الجوانب. كانت تلك هي (إسرائيل المنيعة). كانت نحن وهم، نحن والعدو. آمنتُ بالقضية، أحسستُ أنني أنتمي و، نتيجةً لذلك، تمكَّنتُ من التخلُّص من الإحساس المُوهِن بالدُّونية الذي لازمني طوال أعوام طفولتي.

ربما أعطتني أعوامي الثلاثة في إنجلترا بُعدًا أوروبيًّا، وجعلتني أشعر بأني مُساوٍ لأيِّ عضو أشكينازي في القوات المُسلَّحة. كانت الدراسة في الخارج نادرةً في تلكم الأيام، وجلبت بعض الامتيازات للوطن. على أية حال، شعرت بالتحيُّز العِرقي في الجيش أقل بكثير مما شعرت به في المدرسة. كاد الجيش أن يقترب من النجاح حيث فشل المجتمع الإسرائيلي. في تجربتي، على أية حال، كان الجيش هو البوتقة التي تطلَّعت إليها الأيديولوجية الصهيونية دومًا، لكنَّها نادرًا ما حققت ذلك.

كنتُ، في نهاية خدمتي العسكرية، وطنيًّا إسرائيليًّا، و«طبيعيًّا» تقريبًا، وربما قوميًّا حتى. أشار جون لِي كاريه بأن القومية مختلفة تمامًا عن النزعة الوطنية: لا تقوم النزعة الوطنية إلا على الأعداء. وكان لإسرائيل أعداء بالطبع، ولكن مَن المسؤول عن إشعال العَداوة في المقام الأول؟ في ذلك الوقت، كنتُ أميل إلى أن أرى الأشياء بالأسود والأبيض، ناظرًا إلى إسرائيل باعتبارها ضحيةً بريئة للعدوان العربي. لذا كنتُ ميَّالًا إلى اتِّخاذ موقف مُتشدِّد في الصِّراع مع العرب، مؤمنًا بالقوة العسكرية أكثر من إيماني بالدبلوماسية. على الرغم من أنني لم أناصرْ أيَّ حزب

سياسي مُحدَّد، كنتُ أميل إلى يمين الطيف السياسي، وشاركتُ في النزعة الوطنية والقومية المتشددة التي كانت سمة مميزة له. بعد سنوات طويلة فقط بدأتُ أشكُ في السرديَّة الرئيسية الصهيونية المتعلِّقة بالصراع، تلك التي علَّموني إياها في المدرسة، والتي عزَّزتها الخدمة العسكرية. على أية حال، إيماني بتلك السردية يومًا؛ ساعدتني على إدراك تأثيرها العميق على النفسية الإسرائيلية.

بعد أربعة أيام من انتهاء الخدمة العسكرية، حضرت إلى كلية يسوع لألتحق بدراستي كطالب تاريخ في السنة الأولى. كانت النقلة مباغتةً وحادة، لكنَّها أفضتْ بي إلى أسعد ثلاثة أعوام في حياتي. في مايو/ أيار ١٩٦٧، على أية حال، في الفصل الدراسي الصيفي من عامي الأول، نشبت أزمةٌ في الشرق الأوسط بدت لي كأنها تُهدِّد بقاء دولة إسرائيل تحديدًا. على الجانب العربي، كانت هناك خطابات مُروِّعة تحرض على القتال وتتحدث عن «معركة المصير» ورمي اليهود في البحر. على الجانب الإسرائيلي، في ظل القيادة المتردِّدة لليفي إشكول، كان هنالك مزاج غير معهود من القلق، وتوقعات حزينة بهولوكوست ثانية. إزاء خلفية هذا السيناريو المُرعِب، انطلق الفرد المُحِب لوطنه بداخلي إلى المقدِّمة. ألغيتُ درسًا خصوصيًا وأخذتُ القطار المتوجِّه إلى لندن كي أذهب إلى السفارة الإسرائيلية في بالاس غرين، كينسينغتون. هذه أول مرة أهمل درسًا خصوصيًّا في أعوامي الثلاثة بجامعة كامبردج. كان مدرسي الخصوصي متعاطفًا للغاية. في السفارة قلتُ أريد العودة كي أخدم في الحرب التي نحن جميعًا متأكدون بأنها توشك أن تندلع.

سجَّلوا بيانات الاتصال بي وقالوا إنهم سيتصلون بي هاتفيًا إذا دعتِ الحاجة. اندلعتِ الحرب فعلًا: أطلَقت إسرائيل أول رصاصة، واستمرَّ القتال ستة أيام، وانتهى بنصر عسكري إسرائيلي مُجلجِل على جيرانها العرب ومضاعفة الأرض الخاضعة لسيطرتها ثلاث مرات. لم يأتِ الاتصال الهاتفي من السفارة. كما هو الحال مع سائر جوانب السرديَّة الصهيونية التقليدية، منذ تلك الآونة باتَ لدي سببٌ كي أعدِّل تقييمي الأصلي لأحداث العام ١٩٦٧.

لقد شكَّلتْ حرب ال ١٩٦٧، في آنٍ معًا، ذروة وطنيتي الإسرائيلية وتقهقرِ حماستي لدولة إسرائيل. لم تأتِ خيبة الأمل في الحال؛ لقد نشأت ببطء وبصورةٍ مُوجِعة: تعوَّدتُ أن أُعقلِن تغييري لأحاسيسي وتصرفاتي من خلال النقاش بأنه لستُ أنا الذي تغيَّرتُ، بل بلدي هو الذي تغيَّر. بعد حرب عام ١٩٦٧، قلتُ إنّ إسرائيل أصبحت قوةً استعماريةً، تضطهد الفلسطينيين في الأراضي المحتلة. وأحببتُ أن أضيف أنه خلال خدمتي العسكرية، أخلصَ الجيش لاسمه -كانَ جيش الدفاع الإسرائيلي- في حين تحوَّل بعد الحرب إلى قوة بوليسية قمعية لسلطة استعمارية متوحشة. وتحليلٌ أعمق، على أية حال، قادني إلى الاستنتاج بأنَّ إسرائيل خَلَقتها حركةٌ استعمارية - استيطانية. العامان ١٩٤٨ و١٩٦٧ كانا حصرًا علامتين بارزتين في الاستيلاء عديم الشفقة، المُنظَّم على فلسطين كلِّها. المستوطنات اليهودية المبنية في الأرض الفلسطينية المحتلة بعد حرب الأيام الستة هي امتداد للمشروع الاستعماري الصَّهيوني ما وراء «الخط الأخضر»، الحدود الدولية قبل ١٩٦٧.

من خلال التبحُّر في تاريخ أسرتي في العراق، اكتسبتُ فهمًا أفضل للطبيعة والتأثير الشامل للصهيونية. في السابق، درستُ الحركة الصهيونية بعمقٍ معين إنما بشكل رئيسي ما يتعلَّق بتأثيرها على الفلسطينيين. كانت الصورة الكبيرة تتعلَّق بحركة استعمارية - استيطانية تقدَّمت بلا رحمة نحو هدفها في بناء دولة يهودية في فلسطين حتى إذا تضمَّنَ ذلك، كما التزمَت، مصادرة الأراضي من السكان المحليين. وأنا أنظر للوراء، يبدو لي شيئًا غير قابل للنقاش أن يستلزم خلق دولة إسرائيل ظلمًا جسيمًا للفلسطينيين. خلال حرب ١٩٤٨، نفَّذت إسرائيل التطهير العِرقي في فلسطين. ثلاثة أرباع مليون فلسطيني، أكثر من نصف السكان، أصبحوا لاجئين. وكما بيَّنَ «المؤرخون الجُدد»، بشكل خاص بِني موريس، أنَّ الفلسطينيين لم يُغادروا بإرادتهم الحرَّة - لقد طُرِدوا. في حزيران/ يونيو ١٩٦٧، استحوذتْ إسرائيل على ما تبقى من فلسطين التاريخية بالقوة العسكرية. ربع مليون فلسطيني من الضفة الغربية أصبحوا لاجئين، بعضهم للمرة الثانية. ومرةً أخرى، كما حصل عقب حرب ١٩٤٨، رفضت إسرائيل السماح للمدنيين الفلسطينيين بالعودة إلى بيوتهم.

الاحتلال، الذي قيل بأنه احتلالٌ مؤقت، والذي علَّق حلًا سياسيًا للصراع، بات احتلالًا مستمرًا. الضمُّ الرسمي للأراضي الفلسطينية تم تحاشيه إلا إنه كان يزحف. في حقيقة الأمر، ضمُّ الأراضي لم يتوقفْ. إطالة أمد الاحتلال، ببطءٍ إنما بشكل مؤكد، حوَّل إسرائيل إلى دولة تمييز عنصري. بعض المدافعين الإسرائيليين يدَّعون أن الحركة الصهيونية انحرفت عن نهجها الأصلي خلال النصر العسكري العام

١٩٦٧، وأنَّ صهيونية القِيم حلَّت محلها صهيونية الأرض. لكن بما أنَّ الصهيونية هي حركةٌ استعمارية - استيطانية على نحوٍ علنيٍّ من البداية، فبناء مستوطنات مدنية في الأرض المحتلة مجرد مرحلةٍ جديدة في المسيرة الطويلة. مهما يكن من أمر، ليس ثمَّة شك بأنَّ الفلسطينيين كانوا ولا يزالون ضحايا المشروع الصهيوني المستمر.

ما أَوضَحَته قصة أسرتي لي، على أية حال، هو وجود فئةٍ أخرى من ضحايا المشروع الصهيوني: يهود البلدان العربية.

علاوةً على ذلك، ثمَّة صلة بين الطريقة التي تُعامِل فيها الحركة الصهيونية العرب الفلسطينيين واليهود العرب. كلتا المجموعتين وسيلتان لغايةٍ واحدة وهي تأسيس دولة قومية يهودية مُغلَقة في قلب الشرق الأوسط. خلق التطهير العِرقي لفلسطين مساحاتٍ فارغة، يجب ملؤها باليهود من أيِّ مكان يمكن العثور عليهم فيه، بمَن فيهم يهود الشرق الأوسط، حتى أولئك الذين ليس لديهم رغبة على الإطلاق كي يُرحَّلوا إلى إسرائيل. كُلِّفت المؤسسات الاستعمارية ذاتها التي شرَّدت الفلسطينيين بمهمة استيعاب المهاجرين اليهود من البلدان العربية. رحَّبتْ نفس العقلية الاستشراقية المتعجرفة، ذات التوجُّه الأوروبي بالقادمين الجُدد من يهود الشرق.

لم تكن نقطة التحوُّل الأكثر حسمًا هي حرب ١٩٦٧، بل إنشاء دولة إسرائيل عام ١٩٤٨. حتى ذلك الحين، كان يهود العراق، ومن بينهم أسرتي، أقلية واحدة من بين أقليات عديدة كوَّنت البلاد. لم نكن غرباء؛ كنا أبناء البلد؛ وكان يُنظَر إلينا باعتبارنا أبناء البلد. على خلاف

أوروبا، لم تكن لدى العراق «مشكلة مع اليهود». لم نكن نُنتقى من أجل معاملة خاصة. كنا أقلية، وليس الأقلية. بوصفنا عراقيين يهودًا، لم يختلفْ وضعُنا جوهريًّا عن وضع باقي الأقليات العراقية الأخرى. حتى صعود النزعة الوطنية في الفترة الزمنية بين الحربين العالميتين، كان المِحك الرئيس للتمييز بين اليهود والعرب في العراق هو الدين، وهو فقط خاصيَّة محدِّدة، وليس خاصيَّةً خلافية.

غيَّرت الصهيونية كلَّ ذلك. فمن خلال منح الديانة اليهودية بُعدًا إقليميًّا لم تملكه من قبلُ، شدَّدت على الاختلاف بين اليهود والمسلمين في المجال العربي. سواء أرادوا ذلك أم لا، من الآن فصاعدًا، سيسود في أوساط كثيرة أنَّ اليهودَ هم الدولة اليهودية. عمَّقَ تشريد إسرائيل لثلاثة أرباع مليون فلسطيني عداء المسلمين ليس فقط تُجاه الحركة الصهيونية، بل أيضًا تجاه اليهود في بلادهم. شيئًا فشيئًا، لم يعد يُنظر إلى اليهود على أنهم أبناء العراق، بل كجزء من كيانٍ دخيلٍ ومغتصب. لم تحوِّلْ الصهيونية الفلسطينيين إلى لاجئين وحسب؛ بل حوَّلت يهود الشرق إلى أجانب في بلادهم. في الأعوام ١٩٤٧ - ١٩٤٩ لم تُقَسَّمْ أرضُ فلسطين فقط، بل الماضي أيضًا. حلّ الواقعُ الجديد للنزاع الإسرائيلي - العربي محل الماضي المشترَك لليهود والمسلمين في العراق.

تناولتُ في الفصل السَّابع، بإسهابٍ، (هجرة اليهود الكبرى) من العراق بين عاميْ ١٩٥٠ - ١٩٥١، وذهبتُ إلى ما وراء قصة أسرتي إلى قصة أكبر بكثير تتعلَّق باقتلاع جذور ونقل هذا المكوِّن العراقي العريق إلى دولة إسرائيل الوليدة. أشرتُ إلى الدور الرئيسي الذي أدته السياسة

الرسمية المتعلِّقة بالاضطهاد والمضايقة لإجبار اليهود على الهجرة. لكنني عَرضتُ الدليل الذي اكتشفتُه، والمتعلِّق بتورُّط إسرائيل في تفجيرات بغداد التي عجَّلتْ بمغادرة اليهود. أعطيتُ هذا كمثال على «الصهيونية الوحشية»، والتكتيكات الإرهابية التي استخدمتها إسرائيل لضمان الـ Aliyah (هجرة اليهود الكبرى) إليها، وما يتعلَّق بالضَّرر الذي وقع على يهود العراق.

بمفهومي، لم تكن عملية عزرا ونيحميا عملية إنقاذ نبيلة قامت بها الدولة اليهودية الفتيَّة، بل كانت أداة لتحقيق مصلحة ذاتية وهي نقل اليهود من أوطانهم الأصلية. على أية حال، حتى إذا لم تلعبْ إسرائيل دورًا في النزوح، ما يهمُّ في التحليل النِّهائي هو أنَّ الغالبية العظمى من اليهود العراقيين اعتقدوا بأنها فعلت ذلك. اشتبه يهود العراق بأن إسرائيل كانت وراء القنابل المتفجرة، وأنها متواطئة في مصادرة ممتلكاتهم، وكان لذلك تأثير عميق على موقفهم تجاه إسرائيل، مما أدى إلى ظهور شعور مرير وطويل الأمد بالخيانة. كان ذلك أشبه بجُرح مفتوح.

إحدى كوارث الهجرة الجماعية لليهود، من الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، إلى إسرائيل كان فقدان هويتهم العربية التي تمتد لقرون؛ ومن المثير للاهتمام أن قصةً حديثة لأسرة يهودية مصرية حملتْ عنوان «حين كنا عربًا»[١]. لكلِّ إنسان هويات متعددة. إنه أمرٌ جديرٌ بالملاحظة، وفي هذه الحالة تُنفى الهويةُ العربية إلى الماضي. كان صعبًا على اليهود الشرقيين في إسرائيل أن يحتفظوا بهُويات متعددة. وكما أشارت إيلا شوحيط:

إعادة تصور اليهودية كهوية نزعة قومية كان لها آثار عميقة على اليهود العرب. ازداد الانقسام الناتج عن التصنيف الاستشراقي للساميين تعقيدًا بسبب ظهور القومية، فلم يعد مصطلح «اليهود - العرب» يُؤخذ كمسلَّمة تشير إلى الانتماء الديني (اليهودي) والثقافي (العربي)، بل تحوّل إلى علامة استفهام ساخطة في ظل القوميتين المتنافستين. ... وبتباينٍ في الطرح، أصبحت كلا القوميتين تنظران بعين الريبة إلى جانب واحد من هذه الهوية المشتركة. ففي العالم العربي، أصبح «اليهود» غير مقبولين، بينما أصبح «العرب» - وبالتالي «اليهود - العرب» أو «العرب - اليهود» - في الدولة اليهودية، يُنظر إليهم على أنهم استحالة وجوديةً[٢].

في عصر القومية - العِرقية، من المهم أن نتذكر أن فئتي «اليهود» و«العرب» لم تكونا دائمًا متناقضتين. إنَّ وضعهما متجاورتين بوصفهما ضدَّين هو سبب النزاع الإسرائيلي - العربي وأعراضه كذلك. حقيقة الأمر هي أنَّ إسرائيل لم ترَ نفسها جزءًا من الشرق الأوسط، ولا تُريد أن تندمج في هذا المحيط الإقليمي. اليهود الشرقيون، بمعرفتهم باللغة العربية وتجربتهم المباشرة في الإقامة بالبلدان العربية، بوسعهم أن يكونوا جسرًا بين إسرائيل وجيرانها. المؤسسة الأشكينازية، على أية حال، لا مصلحةَ لها في بناء جسرٍ كهذا. في ظل قيادة ديڤيد بِن - غوريون، بَنَتْ (أي المؤسسة الأشكينازية) إسرائيل باعتبارها دولةً منيعةً بعقلية حصار بحيث عَزَت نوايا الإبادة الجماعية إلى جيرانها. لقد رأتْ إسرائيل نفسها

جزءًا من الغرب، واستثمرت «العلاقة الخاصة» مع الولايات المتحدة الأميركية لا لحلِّ نزاعها مع الفلسطينيين؛ بل لإطالة أمد سيطرتها وإحكام قبضتها على الأراضي المحتلة.

اليومَ، الوضع كئيبٌ للغاية؛ لقد تدهور بشكلٍ خطير في أثناء تأليف هذا الكتاب. لقد أدَّى الاحتلال إلى تآكل قواعد الديمقراطية الإسرائيلية. حتَّى في داخل حدودها الأصلية، فإنَّ إسرائيل دولة ديمقراطية مَعيبة في أفضل أحوالها بسبب التمييز على مستويات متعددة ضد المواطنين الفلسطينيين.

في سائر المنطقة الخاضعة لحُكمها، بما فيها الأراضي الفلسطينية المحتلة، فإنَّ إسرائيل دولة عِرقية، ونظام تُهيمن فيه مجموعة عِرقية واحدة على الجميع. ثمَّة اسم آخر، أكثر شيوعًا لنظامٍ من هذا النوع – التمييز العنصري «الأبارتايد» الذي يُعدُّ جريمةً ضد الإنسانية في ظلِّ القانون الدولي. يُعرَّفُ في ظل تشريع روما ١٩٩٨، بكونه «نظامًا مؤسساتيًّا تهيمنُ فيه مجموعة عِرقية واحدة وتضطهد سواها من المجاميع» بقصد «ديمومة ذلك النظام».

إن الوضع المتفوق لليهود مقارنة بغيرهم، منصوص عليه في «القانون الأساسي» تموز/ يوليو لعام ٢٠١٨، كما لو أنه شيءٌ مقدَّس: إسرائيل هي الدولة القومية للشعب اليهودي. هذا القانون الأساسي هو التوكيد الرسمي بأنَّ إسرائيل دولة تمييز عنصري. ينصُّ القانون على انفراد الشعب اليهودي في إسرائيل باستخدام حقِّ تقرير المصير القومي. كما يُثبِّت العِبرية باعتبارها لغة إسرائيل الرسمية، مخفِّضًا منزلة العربية –

وهي اللغة التي يتحدَّث بها المواطنون الفلسطينيون في إسرائيل، وهم خُمس السكان - إلى «منزلة خاصة». في الحقيقة، إسرائيل من الدول القليلة جدًّا في الأمم المتحدة التي احتفظتْ بعُنصريتها في قانونٍ على اعتبارها أمرًا مقدَّسًا.

يعدّ الاحتلال الإسرائيلي للأراضي الفلسطينية من أطول وأكثر الاحتلالات العسكرية همجيةً في التاريخ المعاصر. بعد ٥٦ عامًا، لم يعد بالإمكان الادّعاء بأنَّ الاحتلال مؤقت. «B'Tselem»، المنظمة الإسرائيلية المحترمة جدًّا والمعنية بحقوق الإنسان، وصلت إلى هذا الاستنتاج على مضض. في ورقة موقف نوقشت بعناية، ونُشرت في العام ٢٠٢١. أعلنت مايلي:

> «يسعى النظام الإسرائيلي، الذي يسيطر على جميع الأراضي الواقعة بين نهر الأردن والبحر المتوسط، إلى تنمية وتوطيد التفوُّق اليهودي على المنطقة بأسْرها. من أجل تلك الغاية، قسَّمَ (أي النظام) المنطقة إلى سبع وحدات، كلٌّ واحدة منها ذات مجموعة مختلفة من الحقوق للفلسطينيين - هي على الدوام أدنى من حقوق اليهود. حُرِم الفلسطينيون من حقوقٍ كثيرة، بما فيها حقُّ تقرير المصير؛ بوصفه جزءًا من هذه الممارسة»[٣].

قلَّما عُنيَ الفلسطينيون بما إذا كانت الحكومة الإسرائيلية يسارية أو يمينية أو حكومة وسط. مهما كان لون حكومة اليوم، فإنَّ النظام الإسرائيلي بُنيَ جوهريًّا على اضطهاد الفلسطينيين. إنه نظام تمييز عنصري متحصِّن في خندق عميق. غالبية الإسرائيليين، بمَن فيهم أفراد أسرتي،

غضبوا غضبًا شديدًا حيال تسمية بلادهم بوصفها دولة تمييز عنصري. لكنْ، مهما كانت الطريقة التي تشرِّحها بها، فإنَّ إسرائيل دولة تمييز عنصري. أنا أرفض هذا النظام كليًّا، وبشدَّةٍ. في السَّابق ساندتُ حلَّ الدولتين بالنسبة للنزاع الفلسطيني - الإسرائيلي. بالمصطلحات العملية، هذا يعني فلسطين مستقلة في قطاع غزة والضفة الغربية بعاصمة في القدس الشرقية. لقد حظيَ حلُّ الدولتين، ولا يزال، بدعم دولي واسع. بتوقيع اتفاقية أوسلو في العام ١٩٩٣، وافقت منظمة التحرير الفلسطينية بصراحةٍ على هذا الحلِّ. تمنَّى قادتها الحصول على دولة صغيرة مستقلة، تعيش جنبًا إلى جنب مع إسرائيل؛ مقابل تخلِّيهم عن ٧٨٪ من فلسطين التاريخية، غير أنَّ ذلك لم يتحقَّقْ. استغلَّتْ إسرائيل اتفاق أوسلو ليس لإنهاء الاحتلال، بل لتغليفه وإعادة صياغته، كما لم تتوقف في أيِّ وقتٍ منذ الاتِّفاقية عن توسيع مستوطناتها في الضِّفة الغربية. انسحبتْ عام ٢٠٠٥ أحاديًّا، من قطاع غزة؛ فقط لتُحكِمَ قبضتها على الضفة الغربية. هذا هو المشروع الاستعماري الصهيوني عبر الخط الأخضر. هدفه النهائي هو إسرائيل الكبرى التي لن تقبلَ أيَّ حلٍّ عادل للصراع مع الفلسطينيين.

حين دعمتُ حلَّ الدولتين، كنتُ أعي جيِّدًا أنَّ دولةً صغيرةً على خُمس مساحة فلسطين المنتدبة غير كافية على الإطلاق؛ بُغية تحقيق عدالة ناجزة للفلسطينيين. لكنَّني أُؤمن أيضًا بأن ليس ثمَّة عدالة ناجزة، أو مطلقة، في عالم سياسة القوة القاسي. إنَّ تقسيم فلسطين إلى دولتين مستقلتين هو طريقة لتوفير عدالة نسبيةٍ لكلا الطرفين. إسرائيل، على أية حال، لن ترضى بأربعة أخماس فلسطين. إنَّها مستمرة في توسيع المستوطنات،

أي بمعنى أنَّها تنهب مزيدًا ومزيدًا من أراضي الفلسطينيين. من خلال توسُّعِها الاستيطاني قتلت إسرائيل بالفعل حلَّ الدَّولتين. ما بقي للضفة الغربية هو مجموعةٌ من المقاطعات الفلسطينية، المُحاطة بمستوطنات إسرائيلية وقواعد عسكرية، بحيث أنها لا تستطيع أن تكوِّن دولةً قابلة للحياة. باختصار، لقد مات حلُّ الدولتين أو، كي نكون أكثر دقةً، لم يُولَدْ قطُّ.

النتيجة التي توصَّلتُ إلى دعمها هي دولة ديمقراطية واحدة بين نهر الأردن والبحر المتوسط بحقوق متساوية لجميع مواطنيها بصرف النظر عن العِرق أو الدين. هذا هو حلُّ الدولة الواحدة الديمقراطي. في البدء، فكرة الدولة الواحدة راقت فقط لمجموعةٍ صغيرة من المفكرين؛ وشيئًا فشيئًا كسبت عددًا متناميًا من داعمي الفلسطينيين. بما أنَّ آمال الاستقلال تلاشت، تحوَّل التوكيد إلى السعي وراء الحقوق المتساوية في ظل حُكم فلسطيني – إسرائيلي. في الجانب الإسرائيلي، دعمُ فكرة الدولة الواحدة لا يزال مقتصرًا على حاشية صغيرة جدًّا من اليسار. لو أنهم أُرغموا على الاختيار بين إبقاء إسرائيل دولةً يهودية أو دولة ديمقراطية، فإنَّ معظم الإسرائيليين سوف يختارون الخيار الأول. إنَّ نتيجةً كهذه ستكون فاجعةً لكلِّ المعنيين. الشيء الذي أفضِّله هو أن نستبدلَ سياسة التضامن والمساواة للجميع؛ بسياسة الفصل والتفوُّق.

ينبغي عدم التقليل من شأن العقبات في طريق حلِّ الدولة الواحدة، ولا من شأن حسناته. بالنسبة للملايين الخمسة من الفلسطينيين الساكنين في الضفة الغربية وقطاع غزة، سوف يسفر ذلك عن تحسُّن

مفاجئ في وضعهم الحالي. بالنسبة للمليون وثمانمئة ألف مواطن فلسطيني المقيمين في إسرائيل، فإنَّ تقسيم الأرض ليس حلًّا كافيًا لأنه سوف يُبعدهم أكثر عن أصدقائهم وعائلاتهم في الدولة الفلسطينية. بالنسبة لليهود الإسرائيليين، أيضًا، ستكون للدولة الواحدة حسنةٌ كبيرة في الحفاظ على ديمقراطيتهم ومنعهم من الانحدار أكثر في طريق أبارتايد جنوب إفريقيا سابقًا. كما يقول الأسقف توتو، لقد تحرَّر الجميعُ، بمَن فيهم البِيض، حين انتهى التمييز العنصري في جنوب إفريقيا. على غرار البيض في جنوب إفريقيا، بمستطاع الإسرائيليين أيضًا أن يُحرروا أنفسهم من عبء التمييز العنصري عبر إنهائهم الحُكم القسري على خمسة ملايين فلسطيني، وضمان مساواة أصيلة للمليون وثمانمئة ألف فلسطيني الذين يُقيمون بينهم. إن الدولة الديمقراطية الواحدة هي رؤية نبيلة للعدالة، والمساواة والحرية للجميع.

في رأيي، حلُّ الدولة الديمقراطية الواحدة يحمل الجاذبية الإضافية المتعلِّقة بتجديد صِلة اليهود - العرب بالموضوع. نَجَمَ صراع فلسطين - إسرائيل الحالي، جزئيًّا على الأقل، عن الادعاء المركزي للخطاب الصهيوني، أي، أنَّ اليهود والعرب فئات عِرقية منغلقة ومتصارعة. لقد شوَّهت الصهيونية، في الواقع، سمعة الشخصية الهجينة لليهودي - العربي. كانت الحركة الصهيونية، في الأصل والجوهر، حركة أوروبية قادها يهود أوروبيون أرادوا أن يخلقوا دولة يهودية لليهود الأوروبيين. كانت تطمَح أن تكون في الشرق الأوسط، ولكن ليس من الشرق الأوسط. لم تسعَ إلى مزج الثقافات، بل استبدال الثقافة الأوروبية

بالثقافة المحلية. عمَّقت الحركة الصهيونية بحُكم طبيعتها، الانقسامات بين الإسرائيليين والفلسطينيين، وبين إسرائيل والشرق الأوسط، وبين اليهودية والإسلام، وبين اللغة العِبرية واللغة العربية. الحركة الصهيونية ودولة إسرائيل عملتا بنشاط على محو ماضينا المشترك، وتاريخينا معًا، وإرثنا الذي استمرَّ لقرون؛ وإرث التعددية، والتسامح الديني، والتحرر من الأحقاد القومية أو المحلية... وإرث التعايش. ثبَّطت الصهيونية، قبل كلِّ شيءٍ، عزيمتَنا في أن يرى أحدنا الآخر بشرًا ورفيقًا.

في هذه المذكرات، حاولتُ أن أنسج وأربط بين الأمور الخاصَّة والعامة. في الخاتمة، أودُّ أن أؤكد مرةً أخرى على الحاجة الملحة لتذكر الماضي. تشير تجربتي حين كنتُ صبيًا يافعًا وتلك المتعلِّقة بالطَّائفة اليهودية كلِّها في العراق، إلى أنه العداء اليهودي – العربي ليس محتومًا أو مُقدَّرًا. لا يُمكن بناء عالم العراق القديم مجدَّدًا، ذاك الذي تعوَّدت جدتاي أن تقارناه بالجنة. إن تذكُّر الماضي، على أية حال، يُمكن أن يساعدنا على أن نتخيَّل مستقبلًا أفضل. كادت القومية اليهودية أن تقضي تماما على هوية اليهودي العربي، ولكن ربما تبقى منها ذكرى كافية تبرّر القليل من التفاؤل بالمستقبل. ثمة شيء واحد مؤكد: من دون إحياء أو إعادة تخيُّل نوع التسامح الديني والحوار الحضاري بين اليهود والعرب، كالذي ساد في العراق قبل قيام دولة إسرائيل، لن نكون قادرين على تجاوز مأزق اليوم.

تعايش العرب واليهود لم يكن شيئا تخيلناه أنا وأفراد أسرتي في أذهاننا، بل عشناهُ ولمسناه. بسبب هذه التجربة المتعلِّقة بإمكانات تداخل

الهُويات والمحافظة عليها، باستطاعتي أن أصف حالتي اليوم بكونها شبيهةً بحالة الشخصية الرئيسية في رواية إميل حبيبي المعنونة «الحياة السِّريَّة لسعيد»(١): أنا متشائل![٤]. أنا متشائم بحذر بما يخص التقدُّم على المدى القصير لكنَّني متفائل أكثر بفرص الحلِّ السِّلمي للنزاع الفلسطيني - الإسرائيلي على المدى الطويل. التمييز العنصري في القرن الحادي والعشرين لن يستمر ببساطة. على غرار أبا إيبان، أؤمن أنَّ الأوطان مثل الأفراد، قادرة على أن تعمل بصورةٍ عقلانية - بعد أن تكون قد استنفدت كلَّ البدائل الأخرى.

(١) عنوان الرواية بالعربية: «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل». وقد نحتَ «حبيبي» الكلمة الأخيرة في عنوان الرواية من كلمتيْ: متشائم ومتفائل. [المُترجم].

الهوامش

الفصل الأول: اليهود - العرب

١. يعتبرُ بِني موريس، على سبيل المثال، هجومَ العرب على إسرائيل في عام ١٩٤٨ جِهادًا، وحربًا مقدسة. في خاتمة كتابه عن الحرب العربية - الإسرائيلية، يكتب موريس أنه ليس فقط نزاعًا بين حركتين وطنيتين على قطعة من الأرض، بل «جزءًا من صراعٍ كونيٍّ أشمل بين الشرق الإسلامي والغرب». بِني موريس، «١٩٤٨: الحرب العربية - الإسرائيلية الأولى» (نيو هيڤن، مطبعة جامعة يال، ٢٠٠٨)، ص. ٣٩٤. وثمَّة مثال آخر هو مارتن غلبرت، المؤرخ اليهودي - البريطاني والصهيوني المتحمس، الذي كرَّس آخر كتبه الكثيرة لتاريخ اليهود في البلدان الإسلامية. الكتاب طَموح في مجاله، إذْ يغطي ١٤٠٠ عامًا من تاريخ اليهودي - العربي، منذ ظهور الإسلام في القرن السابع الميلادي حتَّى يومنا الحاضر. لكنَّه ليس أكثر من مسردٍ للكراهية، العداوة، والعنف الإسلامي ضد اليهود. معاداة السامية يُقال بأنها القوة الأساسيَّة، الضمنية التي شكَّلتْ العلاقات اليهودية - الإسلامية. على أية حال، من خلال تكديس قصة رعب فوق أخرى، خلُص غلبرت إلى رسم صورة مُضلِّلة. كان متشدِّدًا نفسيًّا يرى معاداة السامية في كلِّ مكان. النتيجةُ هي تشويه تاريخ العلاقات الإسلامية - اليهودية لخدمة برنامجٍ سياسيٍّ صهيونيٍّ. مارتن غِلبرت، «في بيت إشماعيل: تاريخ اليهود في البلدان الإسلامية» (نيو هيڤن، مطبعة جامعة يال، ٢٠١٠). لم يذكر المؤلف رقم الصفحة. [المُترجم].

٢. موشي بِحار وزڤي بِن - دور بينيت، «ألا يمتلك اليهود العربُ تاريخًا؟»، هاوكيتس، ١٠ كانون الثاني/ يناير ٢٠٢٢ (بالعِبرية). **هاوكيتس Haokets: موقع إلكتروني إسرائيلي يوفِّر منصَّةً مستقلة للنقاش النقدي في المواضيع الاجتماعية - الاقتصادية، والثقافية والفلسفية. [المُترجم].**

الفصل الثاني: اختراع العراق

١. إليزابيث ف. ثومبسون، «كيف سرق الغرب الديمقراطية من العرب: الكونجرس العربي لعام ١٩٢٠ وتدمير تحالف إسلامي - ليبرالي فريد» (لندن، أتلانتك بوكس،٢٠٢٠).

٢. غيرترود بِل، «رسائل غيرترود بِل (المجلد الثاني) ١٩٢١ - ١٩٢٦» (ميدلسيكس: ذه إيكو ليبرري، ١٩٢٧)، ص. ١٤٣.

٣. المصدر السابق، ص. ١٣٦. **لاحقًا سنختصر المصدر السابق إلى م. س. [المُترجم].**

٤. مُقتبَس في يير سالنجر مع إريك لورينت، «الإضبارة السريَّة: الأجندة الخفية وراء حرب الخليج» (لندن، بينغوين بوكس، ١٩٩١)، ص. ١٤.

٥. إميلي كوهين، «التعليم اليهودي في العراق»، ورقة غير منشورة، ٢٠١٩.

٦. إيستر مائير، «الصهيونية ويهود العراق، ١٩٤١- ١٩٥٠» (تل أبيب: أم أوڤيد، ١٩٩٣)، (بالعِبرية)، ص. ١ - ٢.

٧. أبراهام بِن - يعقوب، «تاريخ اليهود في العراق من نهاية الفترة الغاؤونية (١٠٣٨ ميلادية) حتى وقتنا الحاضر» (أورشليم: معهد بِن - زڤي، ١٩٦٥) (بالعِبرية)، ص. ٢٣٤.

٨. نسيم قزاز، «اليهود في العراق في القرن العشرين» (أورشليم: معهد بِن - زڤي، ١٩٩١) (بالعِبرية).

٩. م. س، ص. ٢ - ٥.

١٠. موردخاي بيبي، «الحركة السرية الصهيونية - الرائدة في العراق: دراسة وثائقية، المجلَّد الأول: ١٩٤١ - ١٩٤٤» (أورشليم: معهد بِن - زفي ١٩٨٨)، ص ١٦ - ١٧.

١١. عباس شبلاق، «يهود العراق: تاريخ النزوح الجماعي» (لندن، الساقي، ٢٠٠٥)، ص ٦١.

١٢. مُقتبَس في م. س، ص. ٦١ - ٦٢.

الفصل الرابع: قصة سعيدة

١. جوزيف ساسون: «التجار العالميون: المشروع وترف سلالة ساسون الحاكمة» (لندن، ألين لين، ٢٠٢٢).

٢. مسعود خيون، «حين كنا عربًا»: تاريخ منسي لأسرة يهودية» (نيويورك: ذه نيو بريس، ٢٠١٩)، ص. ١٦٣ - ١٦٦.

الفصل الخامس: الارتباط البريطاني

١. توني روكا، «القصة الفعلية: وراء الفرهود»، في ڤيوليت شمَش، «ذكريات عن عدن: رحلة عبر بغداد اليهودية»، تحرير ميرا وتوني روكا (سورَيْ: فورَم، ٢٠٠٨)، ص. ٢٤٧. يزوِّدنا توني روكا بوصف ساحر لـ(الفرهود) من وجهة النظر البريطانية، وفيها يؤكد السير كيناهان كورنواليس بوصفه الحاكم الإداري البارد كالثلج الذي تخلَّى متعمِّدًا عن يهود بغداد، وتركهم تحت رحمة الغوغاء كي يحرف الانتباه عن دور بريطانيا في انتهاك سيادة العراق. بحسب وصف روكا، حين احتدم (الفرهود) وكان اليهود يُذبحون، عاد كورنواليس إلى مقرِّ إقامته كي يتناول عشاءه على ضوء الشموع ويلعب الورق (البريدج).

٢. م. س، ص. ٢٧١.

٣. إيلي قدوري، «نهب البصرة والفرهود في بغداد»، الفصل التاسع عشر، في «مذكرات سياسية عربية ودراسات أخرى» (لندن، فرانك كاس، ١٩٧٤)، ص ٣٠٧ – ٣٠٨.

٤. أري ألكسندر، «يهود بغداد والصهيونية: ١٩٢٠ – ١٩٤٨»، غير منشور، أطروحة ماجستير في الفلسفة، جامعة أكسفورد، ٢٠٠٢، ص. ٨٧ – ٩٦.

٥. قزاز، «اليهود في العراق في القرن العشرين»، ص. ٢٣٨ – ٢٥٨.

٦. مارك ر. كوهين، «الذكرى التاريخية والتاريخ في مذكرات اليهود العراقيين»، (ميكان، مجلة مخصصة للأدب العِبري والإسرائيلي)، المجلد السادس، حزيران / يونيو ٢٠١٢.

٧. أوريت باشكين، «البابليون الجُدد: تاريخ اليهود في العراق الحديث» (ستانفورد، مطبعة جامعة ستانفورد، ٢٠١٢)، ص. ١١٢ – ١٢٥.

الفصل السادس: مدينتي بغداد

١. ميراف روزينفيلد حداد، «اليهودية والإسلام، إله واحد موسيقى واحدة: تاريخ الأغنية اليهودية المشابهة للأغنية الشعائرية في سياق الثقافة العربية – الإسلامية كما أُظهِرت في مصادرها البابلية اليهودية (لِيدين: بريل، ٢٠٢٠).

٢. موشي غات، «الهجرة اليهودية من العراق، ١٩٤٨ – ١٩٥١»، (لندن، فرانك كاس، ١٩٧٧)، ص. ٣٨.

الفصل السابع: قنبلة بغداد

١ ١٩٤٥ – ١٩٥٠» (القدس: لجنة الطَّائفة السفاردية، ١٩٧٧، ترجمه من العربية إلى العِبرية نير شوحيط)، ص. ٣٦٤.

٢. ناثان وينستوك، «Une si longue présence: Comment le monde arabe a perdu ses juifs 1947 -1967» (باريس: بلون، ٢٠٠٨) (بالفرنسية).

٣. ديفيد هيرست، «البندقية وغصن الزيتون: جذور العنف في الشرق الأوسط» (لندن، فيبر آند فيبر، ١٩٧٧)، وشبلاق، «اليهود العراقيون».

٤. ماريون وولفسون، «أنبياء في بابل: اليهود في العالَم العربي» (لندن، فيبر آند فيبر، ١٩٨٠)، ص١٢٩.

٥. نعيم جيلادي، «فضائح بِن - غوريون: كيف تخلّصت الهاغاناه والموساد من اليهود» (تيمبي، أريزونا، داندليون بوكس، ١٩٩٢).

٦. توفيق السويدي، «مذكراتي: نصف قرن من تاريخ العراق والقضية العربية»، (بولدر: ليني راينر، ٢٠١٣)، ص. ١٥.

٧. موردخاي بِن - بورات، «ذهابًا وإيابًا إلى بغداد: قصة عملية عزرا ونيحميا» (أور يهودا: معاريف بوك غيلد، ١٩٩٦) (بالعِبرية)، ص. ٦٥.

٨. توفيق السويدي، «مذكراتي»، ص. ١٢.

٩. حوار مع يعقوف كركوكلي، «رَمات گان»، ٣٠ تموز/ يوليو ٢٠١٧.

١٠. هيرست، «البندقية وغصن الزيتون»؛ جيلادي، «فضائح بِن - غوريون»، وشبلاق، «اليهود العراقيون».

١١. إيلا شوحيط، «[سنة التسقيط]: سبعون عامًا على مغادرة اليهود العراقيين»، (أورينت، XXI، تشرين الأول/ أكتوبر ٢٠٢٠).

١٢. حنان هيڤر ويهودا شينهاڤ، «العنف في بغداد (١٩٥٠ - ١٩٥١)، عنف السجلات»، «Teoriya ve'Bikoret 49 Winter 2017» (بالعِبرية).

١٣. بار- موشي، «الهجرة من العراق»، ص. ٣٣٣ - ٣٣٤.

١٤. سيلڤيا جِي. حاييم، «جوانب من الحياة اليهودية في بغداد في ظل الحُكم المَلَكي»، (الدراسات الشرق أوسطية)، العدد ٢:١٢، ١٩٧٦.

١٥. شلومو هِليل، «عملية بابل: النشاط اليهودي السريُّ في الشرق الأوسط، ١٩٤٦- ١٩٥١» (لندن: كولينز، ١٩٨٨)، ص. ٢٨٣ - ٢٨٤.

١٦. نعيم جيلادي، «يهود العراق»، *The link*، المجلد ٣١، العدد الثاني، نيسان/ أبريل - أيار/ مايو ١٩٩٨.

١٧. بِن - بورات، «ذهابًا وإيابًا إلى بغداد»، ص.١٤٧.

١٨. م. س، ص. ٢٤٥ - ٢٤٦.

١٩. م. س، ص. ٢١٩ - ٢٢٠.

٢٠. جاكي خوجي، «سُلَّم يعقوف»، معاريف، ٣١ آذار/ مارس ٢٠١٧. في حوار شخصي أخبرني يعقوف كركوكلي أنَّ رشوةً كبيرة دفعتها زوجته إلى قاضٍ عسكري أطلقَ سراحه من السجن.

٢١. رسالة بالعِبرية من يعقوف كركوكلي إلى المؤلف، أيار/ مايو ٢٠١٨، ورسالة ثانية من دون تاريخ لكنَّها ربما في صيف ٢٠٢٠.

٢٢. تأسَّسَ جهاز (الموساد) في ١٣ كانون الأول/ ديسمبر ١٩٤٩. موساد بالعِبرية تعني «معهد». الاسم الكامل للوكالة بالعِبرية «معهد المخابرات والعمليات الخاصة». والجهاز مسؤول عن جمْع الاستخبارات، العمليات السريَّة والإرهاب المُضاد.

٢٣. هِليل، «عملية بابل»، ص. ٢٧٦.

٢٤. شامل عبدالقادر، «تاريخ الحركة الصهيونية في العراق ودورها في تهجير اليهود، ١٩٥٠ - ١٩٥١»، (بغداد، مكتبة الأزل، ٢٠١٣) (بالعربية)، ص. ٢١٤.

٢٥. أڤراهام شمَّه، «إيجاد وطن: رحلة مُهاجِر: مذكرات»، (بريطانيا العظمى: أمزون، ٢٠١٦)، ص. ٧٩.

٢٦. بِن - بورات، «ذهابًا وإيابًا إلى بغداد»، ص. ٧٧.

٢٦. غات، «الهجرة اليهودية من العراق»، ص. ١٥٣ - ١٥٤.

٢٨. حوار هاتفي مع شلومو هِليل، إسرائيل، ٣٠ تموز/ يوليو ٢٠١٨.

٢٩. رسائل إلكترونية من شامل عبد القادر إلى المؤلف، ٢٦ و٢٧ نيسان/ أبريل و٢١ أيار/ مايو ٢٠٢٢.

٣٠. يهودا شينهاڤ، «يهود العراق، الأيديولوجية الصهيونية، مِلكية اللَّاجئين الفلسطينين العام ١٩٤٨: تشوُّه الحسابات الوطنية»، «المجلة العالَمية لدراسات الشرق الأوسط»، المجلد ٣١، العدد الرابع، تشرين الثاني/ نوفمبر ١٩٩٩.

٣١. جويل بينين، «تشتيت اليهود المصريين: الثقافة، السياسة وتكوين شتات حديث» (بيركلي: مطبعة جامعة كاليفورنيا، ١٩٨٨)، ص ٣١.

٣٢. حنان هيڤر ويهودا شينهاف، «العنف في بغداد (١٩٥٠ - ١٩٥١)، عنف السجِّلات».

الفصل الثامن: وداعًا بغداد

١. بار موشي، «الهجرة من العراق»، ص. ٣٠٦ - ٣٠٧.

الفصل التاسع: أرض الميعاد

١. إيستر مائير، «الصهيونية ويهود العراق، ١٩٤١ - ١٩٥٠»، (تل أبيب: أم أوڤيد، ١٩٩٣) (بالعِبرية)، ص. ٢١٥.

٢. أوريت باشكين، (الهجرة المستحيلة: اليهود العراقيون في إسرائيل) (ستانفورد: مطبعة جامعة ستانفورد، ٢٠١٧)، ص. ٤.

الفصل العاشر: في مهب الريح

١. زڤي تساميريت، «زلمان آران وإنتاجية أطفال [الطَّوائف الشرقية]»، إيونيم بيتكومات إسرائيل، العدد ١٥، ٢٠٠٥ (بالعِبرية)، ص. ٢٩٥ - ٣٢٦.

٢. نيويورك تايمز، ٢٥ تشرين الأول/ أكتوبر ١٩٦٠، مُقتبس في إيلي قدوري، (تشاثام هاوس ڤيرشن ودراسات شرق أوسطية أخرى) (لندن: ويدينفيلد ونيكلسون، ١٩٧٠)، ص. ٤٤٨.

٣. سامي ميخائيل، (التجربة «الإسرائيلية») (أور يهودا: معاريف بوك غيلد، ٢٠٠١) (بالعِبرية)، ص. ٢١٦ - ٢٢١.

الفصل الحادي عشر: لندن

١. جيري بلاك. «J.F.S.: تاريخ المدرسة اليهودية الحُرَّة في لندن منذ ١٧٣٢» (لندن: تيمسدير ببلشنغ، ١٩٩٨)، ص. ٢٠٥ – ٢٠٦.

الفصل الثالث عشر: الخاتمة

١. مسعود خيون: «حين كنَّا عربًا»: تاريخ منسيٌّ لأسرة يهودية)، (نيويورك، ذه نيو بريس، ٢٠١٩).

٢. إيلا شوحيط، «في اليهود – العرب، فلسطين، وحالات التهجير الأخرى: كتابات مختارة» (لندن: مطبعة بلوتو، ٢٠١٧)، ص. ٦.

٣. B'Tselem (مركز المعلومات الإسرائيلي لحقوق الإنسان في الأراضي المحتلة)، ١٢ كانون الثاني/ يناير ٢٠٢١،

http://www.btselem.org/publications/fulltext/202101_this_is_aparthied

٤. إميل حبيبي، «الحياة السِّريَّة لسعيد» (بيروت، دار ابن خلدون، ١٩٧٤) (بالعربية).

Bibliography

Alexander, Ari. 'The Jews of Baghdad and Zionism: 1920–1948'. Unpublished MPhil thesis, University of Oxford, 2002.

Amir, Eli. *The Dove Flyer*. London: Halban, 2010. (Translated from Hebrew to English by Hillel Halkin).

———. *Bicycle Boy*. Tel Aviv: Am Oved, 2018. (Hebrew).

Ballas, Shimon. *Arab Literature under the Shadow of War*. Tel Aviv: Am Oved, 1978. (Hebrew).

Bar-Moshe, Itzhak. *Exodus from Iraq: Memories from the Years 1945–1950*. Jerusalem: The Sephardic Community Council, 1977. (Translated from Arabic to Hebrew by Nir Shohet).

———. *A House in Baghdad*. Jerusalem: The Sephardic Community Council, 1982. (Translated from Arabic to Hebrew by Hanita Brand).

Bashkin, Orit. *New Babylonians: A History of the Jews in Modern Iraq*. Stanford: Stanford University Press, 2012.

———. *Impossible Exodus: Iraqi Jews in Israel*. Stanford: Stanford University Press, 2017.

Batatu, Hanna. *The Old Social Classes and the Revolutionary Movements in Iraq*. Princeton: Princeton University Press, 1978.

Behar, Moshe, and Zvi Ben-Dor Benite. 'Don't Arab Jews Have a History?', *Ha'okets*, 10 January 2022. (Hebrew).

Beinin, Joel. *The Dispersion of Egyptian Jewry: Culture, Politics and the Formation of Modern Diaspora*. Berkeley: University of California Press, 1998.

Bell, Gertrude. *The Letters of Gertrude Bell (Volume 2) 1921–1926*. Middlesex: The Echo Library, 1927.

Ben-Porat, Mordechai. *To Baghdad and Back: The Story of Operation Ezra and Nehemiah.* Or Yehuda: Ma'ariv Book Guild, 1996. (Hebrew).

Ben-Yaacob, Abraham. *A History of the Jews in Iraq from the End of the Gaonic Period (1038 CE) to the Present Time.* Jerusalem: The Ben-Zvi Institute, 1965. (Hebrew).

———. *The Jews of Iraq in Modern Times.* Jerusalem: Kiryat-Sepher, 1979. (Hebrew).

Benjamin, Marina. *Last Days in Babylon: The History of a Family, the Story of a Nation.* New York: Simon and Schuster, 2006.

Berg, Nancy E. *Exile from Exile–Israeli Writers from Iraq.* Albany: State University of New York Press, 1996.

———. *More and More Equal: The Literary Works of Sami Michael.* Lanham, MD: Lexington Books, 2004.

Bibi, Mordechai. *The Underground Pioneer-Zionist Movement in Iraq: A Documentary Study, Volume 1: 1941–1944.* Jerusalem: The Ben-Zvi Institute, 1988. (Hebrew).

Black, Gerry. J. F. S.: *A History of the Jews' Free School, London since 1732.* London: Tymsder Publishing, 1998.

Cohen, Haim Y. *Zionist Activity in Iraq.* Jerusalem: the Zionist Library, 1969. (Hebrew).

Cohen, Mark R. 'Historical Memory and History in the Memoirs of Iraqi Jews'. *Mikan, Journal for Hebrew and Israeli Literature*, Vol. 6, June 2012.

Cohen, Ran. *Said.* Bnei Brak: Sifriyat Poalim, 2016. (Hebrew).

De Gaury, Gerald. *Three Kings in Baghdad*, 1921–1958. London: Hutchinson, 1961.

Gat, Moshe. 'The Connection between the Bombings in Baghdad and the Emigration of the Jews from Iraq: 1950–51'. *Middle Eastern Studies*, Vol. 24: No. 3, July 1988.

———. *The Jewish Exodus from Iraq, 1948–1951.* London: Frank Cass, 1997.

Giladi, Naeim. *Ben-Gurion's Scandals: How the Haganah and the Mossad Eliminated Jews.* Tempe, Arizona: Dandelion Books, 1992.

———. 'The Jews of Iraq', *The Link*, Vol. 31, Issue 2, April–May 1998.

Gilbert, Martin. *In Ishmael's House: A History of Jews in Muslim Lands.* New Haven: Yale University Press, 2010.

Goitein, S. D. *Jews and Arabs: Their Contacts through the Ages*. New York: Schocken Books, 1955.

Gottreich, Emily. *Jewish Morocco: A History from Pre-Islamic to Postcolonial Times*. London: I.B. Tauris, 2020.

Habiby, Emile. *The Secret Life of Saeed, the Ill-Fated Pessoptimist*. Beirut: Dar Ibn Khaldun, 1974. (Arabic).

Haim, Sylvia G. 'Aspects of Jewish life in Baghdad under the monarchy', *Middle Eastern Studies*, Vol. 12: No. 2, 1976.

Hayoun, Massoud. *When We Were Arabs: A Jewish Family's Forgotten History*. New York: The New Press, 2019.

Hever, Hanan and Yehuda Shenhav, 'Violence in Baghdad (1950–51), the Violence of the Archives', *Teoriya ve'Bikoret*, 49, Winter 2017. (Hebrew).

Hillel, Shlomo. *Operation Babylon: Jewish Clandestine Activity in the Middle East*, 1946–51. London: Collins, 1988.

Hirst, David. *The Gun and the Olive Branch: The Roots of Violence in the Middle East*. London: Faber and Faber, 1977.

Horesh, Joshua. *An Iraqi Jew in the Mossad: Memoir of an Israeli Intelligence Officer*. Jefferson, North Carolina: McFarland, 1997.

Isaacs, Carol. *The Wolf of Baghdad: Memoir of a Lost Homeland*. Oxford: Myriad Editions, 2020.

Julius, Lyn. *Uprooted: How 3000 Years of Jewish Civilisation in the Arab World Vanished Overnight*. London: Vallentine Mitchell, 2018.

Kattan, Naim. *Farewell Babylon: Coming of Age in Jewish Baghdad*. London: Souvenir Press, 2009.

Kazzaz, Nissim. *The Jews in Iraq in the Twentieth Century*. Jerusalem: Ben-Zvi Institute, 1991. (Hebrew).

Kedourie, Elie. *The Chatham House Version and Other Middle-Eastern Studies*. London: Weidenfeld and Nicolson, 1970.

———. *Arabic Political Memoirs and Other Studies*. London: Frank Cass, 1974.

———. 'The Break between Muslims and Jews in Iraq'. In *Jews Among Arabs: Contacts and Boundaries*, edited by Mark R. Cohen and Abraham L. Udovitch. Princeton, NJ: Darwin Press, 1989.

Klein, Menachem. Lives *in Common: Arabs and Jews in Jerusalem, Jaffa and Hebron*. London: Hurst, 2014.

Levi, Lital. 'Historicizing the Concept of Arab Jews in the Mashriq'. *Jewish Quarterly Review*, Vol. 98: No. 4, 2008.

Lewis, Bernard. *The Jews of Islam*. Princeton: Princeton University Press, 1984.

———. *Semites and Anti-Semites: An Inquiry into Conflict and Prejudice*. New York: W. W. Norton, 1986.

Marr, Phebe. *The Modern History of Iraq*. Boulder: Westview, 1985.

Massad, Joseph. *The Persistence of the Palestinian Question: Essays on Zionism and the Palestinians*. Abingdon: Routledge, 2006.

Meir, Esther. *Zionism and the Jews of Iraq, 1941–1950*. Tel Aviv: Am Oved, 1993. (Hebrew).

Michael, Sami. *Victoria*. Tel Aviv: Am Oved: 1993. (Hebrew).

———. *The Israeli Experience*. Or Yehuda: Ma'ariv Book Guild, 2001. (Hebrew).

Moreh, Shmuel. *Baghdad My Love: Memoirs and Sorrows*. Tel Aviv: Association of Jewish Academics from Iraq, 2020. (Translated from Arabic to Hebrew by Yona Sheffer).

Morris, Benny. *1948: The First Arab-Israeli War*. New Haven: Yale University Press, 2008.

Nathan, Aharon. *From Babylon to Jerusalem: Memories and Reflections of a Wandering Jew*. London: Kew, 2020.

Neslen, Arthur. *Occupied Minds*. London: Pluto Press, 2006.

Abdul Qadir, Shamil. *History of the Zionist Movement in Iraq and its Role in the Emigration of the Jews*, 1950–1951. Baghdad: Maktabat al-Azal, 2013. (Arabic).

Rejwan, Nissim. *The Jews of Iraq, 3000 Years of History and Culture*. London: Weidenfeld and Nicholson, 1985.

———. *The Last Jews in Baghdad: Remembering a Lost Homeland*. Austin: University of Texas Press, 2004.

———. *Outsider in the Promised Land: An Iraqi Jew in Israel*. Austin: University of Texas Press, 2006.

Rose, John. *The Myths of Zion*. London: Pluto Press, 2004.

Rosenfeld-Hadad, Merav. *Judaism and Islam, One God One Music: The History of Jewish Paraliturgical Song in the Context of Arabo-Islamic Culture as Revealed in Its Jewish Babylonian Sources*. Leiden: Brill, 2020.

Said, Edward W. *The Question of Palestine*. New York: Vintage Books, 1979.

Salinger, *Pierre with Eric Laurent. Secret Dossier: The Hidden Agenda Behind the Gulf War*. London: Penguin Books, 1991.

Sassoon, Joseph. *The Global Merchants: The Enterprise and the Extravagance of the Sassoon Dynasty*. London: Allen Lane, 2022.

Satloff, Robert. *Among the Righteous: Lost Stories from the Holocaust's Long Reach into Arab Lands*. New York: Public Affairs, 2006.

Sawdayee, Maurice M. *The Baghdad Connection*. Library of Congress Catalog Card No. 78-3136.

Shaked, Gershon. *Hebrew Narrative Fiction, 1880–1980*. Vol. 4. Tel Aviv: Hakkibutz Hameuchad and Keter, 1993. (Hebrew).

Shama, Avraham. *Finding Home: An Immigrant's Journey: A Memoir*. Printed in Great Britain by Amazon, 2016.

Shamash, Violette. *Memories of Eden: A Journey through Jewish Baghdad*, edited by Mira and Tony Rocca. Surrey: Forum, 2008.

Shenhav, Yehuda. 'The Jews of Iraq, Zionist Ideology, and the Property of the Palestinian Refugees of 1948: An Anomaly of National Accounting', *International Journal of Middle East Studies*, Vol. 31: No. 4, November 1999.

———. *The Arab Jews: A Postcolonial Reading of Nationalism*, Religion, and Ethnicity. Stanford: Stanford University Press, 2006.

Shiblak, Abbas. *Iraqi Jews: A History of Mass Exodus*. London: Saqi, 2005.

Shlaim, Avi. *Collusion Across the Jordan: King Abdullah, the Zionist Movement, and the Partition of Palestine*. Oxford: Clarendon Press, 1988.

———. *The Iron Wall: Israel and the Arab World*. London: Penguin Books, 2014.

Shohat, Ella. *Taboo Memories, Diasporic Voices*. Durham: Duke University Press, 2006.

———. *On the Arab-Jew, Palestine, and Other Displacements: Selected Writings*. London: Pluto Press, 2017.

———. '"*Sant al-tasqit*": Seventy Years since the Departure of Iraqi Jews', Orient XXI, October 2020.

Simon, Reeva S. 'The Imposition of Nationalism on a Non-nation State: The Case of Iraq During the Interwar Period, 1921–1941'. In *Rethinking Nationalism in the Arab Middle East*, James Jankowski and Israel Gershoni, eds. New York: Columbia University Press, 1997.

Smooha, Sammy. *Israel: Pluralism and Conflict.* London: Routledge and Kegan Paul, 1978.

Snir, Reuven. 'Arabic Literature by Iraqi-Jews in the Twentieth Century: The Case of Ishaq Bar-Moshe, 1927–2003'. *Middle Eastern Studies,* Vol. 41: No. 1, 2005.

———. *Arabness, Jewishness, Zionism: A Clash of Identities in the Literature of Iraqi Jews.* Jerusalem: Ben-Zvi Institute and the Hebrew University of Jerusalem, 2005. (Hebrew).

———. *Who Needs Arab-Jewish Identity?: Interpellation, Exclusion, and Inessential Solidarities* (Brill's Series in Jewish Studies). Leiden, 2015.

Somekh, Sasson. *Baghdad Yesterday: The Making of the Jews in Modern Iraq.* Stanford: Stanford University Press, 2012.

Stillman, Norman A. *The Jews of the Arab Lands in Modern Times.* Philadelphia: The Jewish Publications Society, 1991.

al-Suwaydi, Tawfiq. *My Memoirs: Half a Century of the History of Iraq and the Arab Cause.* Boulder: Lynne Rienner, 2013.

Thompson, Elizabeth F. *How the West Stole Democracy from the Arabs: The Arab Congress of 1920 and the Destruction of a Unique Liberal-Islamic Alliance.* London: Atlantic Books, 2020.

Tripp, Charles. *A History of Iraq.* 3rd ed. Cambridge: Cambridge University Press, 2007.

Tsameret, Zvi. 'Zalman Aran and the productivisation of the children of the "Oriental Communities"'. *Iyunim Bitkumat Israel,* No. 15, 2005. (Hebrew).

Weinstock, Nathan. *Une si longue présence: Comment le monde arabe a perdu ses juifs,* 1947–1967. Paris: Plon, 2008.

Woolfson, Marion. *Prophets in Babylon: Jews in the Arab World.* London: Faber and Faber, 1980.

Ye'or, Bat. *The Dhimmi: Jews and Christians Under Islam.* Rutherford, N. J.: Fairleigh Dickinson University Press, 1985.

Zubaida, Sami. 'The Fragments Imagine the Nation: The Case of Iraq'. *International Journal of Middle East Studies,* Vol. 34, 2002.

شكر وعرفان

في مراحل مختلفة من الرحلة الطويلة التي أَسفَرت عن نشر هذه المذكرات، تلقَّيتُ دعمًا من زملاء، وأقارب وأصدقاء كثر، وإنه من دواعي سروري أن أتقدم لهم بجزيل الشكر والعرفان. صديقتان تستحقان أن أذكرهما على وجه الخصوص.

إيلا شوحيط، الناقدة الثقافية المميَّزة، التي واكبت هذه المذكرات منذ البداية. كان أعمالها مصدرًا رئيسًا للإلهام. غطَّت نطاقاً واسعاً من الموضوعات مثل الطبيعة الاستعمارية للصهيونية، والتحيُّز ذي التوجُّه الأوروبي في كتابة التاريخ الصهيوني، ومكانة اليهود الشرقيين في المجتمع الإسرائيلي، والشخصية المحورية لليهود - العرب، وتشريد الفلسطينيين من فلسطين وتشريد اليهود - العراقيين من العراق. ساعدني عملُها في أن أفهم، بشكلٍ أفضل، القوى السياسية التي شكَّلت حياتي وأعطتني حافزًا قويًّا كي أنهمكَ في المواضيع الوجودية المعقدة التي تذهب أبعد من رحلتي الفردية. فضلًا عن ذلك، وضعت إيلا مسوَّدة كتابي تحت عدسة نقدية متبصِّرة وأضافت عددًا كبيرًا من الملاحظات والاقتراحات البنَّاءة.

أوريت باشكين، وهي مؤرخةٌ شهيرة في الشرق الأوسط، ومصدرٌ آخر ورئيسي للتثقيف، والتنوير والنصيحة. بصفتي مؤرِّخًا دبلوماسيًّا، تعوَّدتُ أن أكتب عن أشخاص مشهورين، وكذلك نشرتُ سيرةً ذاتية عن حسين، ملك الأردن. لكن، كانت لديَّ شكوكٌ وموانع كبيرة حين وصل الأمر إلى تأليف كتاب عن أسرتي وعن نفسي. كتاب أوريت المعنون (البابليون الجُدد: تاريخ اليهود في العراق الحديث)، كان حدثًا مثيرًا. إنه يسلِّطُ الضوء على الحياة الفكرية، والاجتماعية والثقافية ليهود العراق في النصف الأول من القرن العشرين. لم يُثقفْني كتاب أوريت بتاريخ طائفتي وحسب، بل مكَّنني من التغلُّب على العائق الذي أحسستُ به وأنا أكتب قصة حياة، وأجعل من نفسي محورً للاهتمام. الأهم من ذلك، لقد زوَّدني بسياقٍ وهيكل يلائمان قصتي الشخصية. على غرار إيلا شوحيط، قرأت أوريت المسوَّدة كلَّها وأضافت ملاحظات ذكية كثيرة وثانيةً مثل إيلا، شجَّعتني على توسيع منظورات أمي وشقيقتيَّ من أجل توازن جندري أكبر.

صديقتان أخريان قرأتا المسوَّدة كلَّها، صحَّحتا الأخطاء وأضافتا ملاحظات مُساعِدة من أجل تحسينها. إنهما لاڤينيا ديڤينپورت وإيما سكاي وأنا أشكر لهما مساهمتيهما.

عددٌ من الأصدقاء الآخرين، إما قرؤوا أجزاءً من المسوَّدة أو عرضًا لتفاصيل الكتاب، وقدموا اقتراحاتٍ ثمينة. وهذه المجموعة تضم إيريكا بينر، وفوَّاز جرجيس، ويوجين روغان، وميراڤ روزينفيلد - حدَّاد، وبرنارد ويسرستاين. راز آڤي وتوم سيجيف قرآ واقترحا تنقيحاتٍ شاملة للفصل السابع. أنا مدينٌ لهم جميعًا بالامتنان.

كما أودُّ أن أشكرَ لسيليستين فنفغيلد، طالبة سابقة في الدراسات العليا ومساعدة بحثٍ متفانية، فقد ساعدتني بتجميع المادة، ومعالجة المشاكل البرمجية، والحصول على الصور المطلوبة، وتنقيح النص.

الدكتورة ماريالويزا لانجيلا، أمينة مكتبة مركز الشرق الأوسط في كلية سانت أنتوني، أكسفورد ومعاونتاها الأخريان، هيفاء جِجَّاوي وكارولين ديفيس، تعاملتا مع سائر طلباتي المتشعِّبة على جناح السرعة، بكفاءة وبطيب خاطر.

نيل كيتشلي، البروفيسور في السياسة في مركز الشرق الأوسط، أنجز رسمَ الخارطتين.

أتوجَّه بتقديري العميق إلى جميع الموظفين في دار النشر (وَن وورلد) وبخاصة سام كارتر على مشورته الحكيمة، وتحريره الفائق ودعمه ثابت العزم لهذا المشروع. مساعدته، رِدا ڤاكواس، ساهمت في عملية التحرير بذكاء وخيالٍ واسعٍ وخلَّاق. توم فيلثام راجع مخطوطة النصِّ بعينٍ ثاقبة وبمهارةٍ كبيرة وباهتمامٍ شديد العناية بالتفاصيل.

أنا مُمتن كثيرًا لابنتي تمَار، التي تعمل ناشرةً، على اقتراحاتها عميقة التفكير، مساعدتها العملية، وعلى الحوارات الطويلة التي واكبت تأليف هذا الكتاب. كانت فكرتُها أن نعمل بثًّا صوتيًّا رقميًّا (بودكاست) ساعدنا معًا في فهم هُوياتنا العربية – اليهودية – الإسرائيلية. كان والدي صامتًا؛ أما والد تمَار فلم يتوقف عن الكلام...

ختامًا، أود أن أشكر زوجتي، جوين دانيال، وهي معالجة نفسية وناشطة مؤثرة ومؤيدة للقضية الفلسطينية، على مواصلتها الاهتمام

بعملي بعد خمسين عامًا من الزواج، وعلى نقدها اللَّاذع للنصِّ، وعلى اقتراحاتها التحريرية التي لا تُعَد ولا تُحصى، وعلى تشجيعها ودعمها خلال مواسم كثيرة.

آفي شلايم

أكسفورد

أكتوبر/ تشرين الأول ٢٠٢٢

مكتبة
t.me/soramnqraa

إن الصهيونية أيديولوجية أوربية المنشأ والأفق ومركزها وبؤرتها الجمعية اليهودية الأوربية حصرًا. ولم يكن اليهود العرب، وغير الأوربيين عمومًا، على خارطتها، أو على سلم أولوياتها أصلًا، حتى إن استقدامهم فيما بعد إلى فلسطين كان أداتيًا بحتًا وللحاجة إلى رأسمال بشري. وكان هناك امتعاضٌ وتردّدٌ في الجدالات التي تنضح عنصرية بين النخب الصهيونية الأشكنازية من عواقب استقدام يهود شرقيين يرون على أنهم سيجلبون معهم التخلّف والأمراض. يظل الجرح الأعمق في ذاكرة اليهود العراقيين الجمعية، بعد تهجيرهم، هو قيام السلطات في إسرائيل برشهم بالمبيدات بعد هبوط الطائرات التي كانت تقلهم من العراق.

كان آڤي شلايم، مؤلف هذا الكتاب المهمّ، طفلًا في الخامسة من عمره، حين هاجرت عائلته إلى فلسطين. ولم يكن اسمه «آڤي»، آنذاك، بل «أبراهام». لقد دفع اليهود العراقيون والعرب والشرقيون عمومًا، أثمانًا باهظة بعد نزوحهم إلى إسرائيل. فإضافة إلى خسارة وطنهم وبيوتهم وممتلكاتهم، كان عليهم أن يتأقلموا مع مجتمع عنصري تحكمه تراتبية تتربع على قمتها الثقافة الأوربية التي تزدري ثقافتهم وعاداتهم وطقوسهم. كانت ضريبة الاندماج والانتماء هي الانسلاخ الثقافي المؤلم، الذي يبدأ بتغيير الأسماء، ويتطلّب فقدان الذاكرة أو طمسها وإسكات أصواتها، وتمثّل قيم المجتمع الجديد. التمثّل الذي قد يصل أحيانًا إلى كره الذات والشعور بالعار والتنصل من ماضٍ يتعارض مع السردية الصهيونية الأوربية التي تُهيكل الأسطورة القومية وإنكاره. فلم تكن هذه البلاد المسروقة «فردوسًا موعودًا» لليهود العرب والشرقيين، كما هي للأوربيين الهاربين من محرقة، ومن غرب ظلَّ يكرههم ويلاحقهم بشراسة وصدّر عنصريته إلى بلادنا وثقافتنا التي يُسقِط عليها اليوم عنصريته المتجذّرة.

د. سنان أنطون، شاعر وروائي عراقي

آڤي شلايم

العَوالم الثّلاثة

مذكّرات يهودي - عربي

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
888179
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com

مكتبة
t.me/soramnqraa